



تطوُّر النَّثر

في شبه الجزيرة العربية

تأليف
د. محمد زروق

1446هـ/2025م

إصدار مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

د. محمد زروق

تطور النثر في شبه الجزيرة العربية

1446هـ/2025م

إصدار مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

اسم الكتاب: تطوُّر النَّثر في شبه الجزيرة العربيَّة
تأليف: د. محمد زروق
الرقم الدولي: 2025/8666
رقم الإيداع: 4-243-1-99992-978
الطبعة الأولى: 1446 هـ - 2025 م
نُشر في مسقط، سلطنة عُمان

الناشر:

مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية

ص. ب (539) - مسقط - سلطنة عُمان
هاتف: 24968870 (+968) فاكس: 24607550 (+968)
البريد الإلكتروني: ctapa@gccsg.org
الموقع الإلكتروني:

<https://gcc-sg.org/ar/JointGulf/Cooperation/GCCTAB/Pages/default.aspx>

© جميع الحقوق محفوظة لمركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية التابع للأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، ويمنع استخدام أي من المواد التي يتضمنها الكتاب أو استنساخها أو نقلها كلياً أو جزئياً في أي شكل وبأية وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل أو أي نظام من نظم تخزين المعلومات أو استرجاعها إلا بإذن خطي من الناشر.



الإشراف العام:

أ.د. عبد الله بن سيف التوي
مدير مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

تأليف الكتاب:

د. محمد عبدالله زروق
كاتب ومؤلف - الجمهورية التونسية

المتابعة والتنسيق الإداري:

أ. سالم بن محمد الحجري
رئيس قسم التعاون والعلاقات بالمركز

التحرير والمتابعة الفنية:

أ. سميرة بنت سليمان السلیمانية
خبيرة اللغة العربية بالمركز



مقدمة عامة.

لقد سادَ حُكْمُ نمطِيٍّ كثيرًا ما كان يدعوني وأنا طالبٌ أو باحثٌ أو مدرّسٌ إلى التفكير والتدبُّر، ومحتوى هذا الحُكْمِ ألاّ نثر للعرب في الجاهليّة، وفي مراحل الإسلام الأولى، وأنّ النثر انحصر في بعض مقاطع حُطَبِيّة، وفي جُمْلٍ من سجع الكُهان، وحُصِرَ الأدب العربيّ في شبه الجزيرة العربيّة في الشُّعر، فهو «ديوانهم»، ولسانُ حالهم، وهذا الحكم لم أكن أستسيغه، ولا أقبله، إلى أن فرغتُ إلى دراسة قديم النثر العربيّ، ووقفت على خواصّه، وعملتُ على إجهاض الحكم القائم على أنّ النثر وُجِدَ وشبَّ وبنعَ في فترة متأخّرة من تاريخ العرب. ذلك أنّ النثر أيسر إلى الأذهان، وأقرب إلى النُفوس، وهو باقٍ في روايات النّاس.

أدركتُ في مرحلةٍ لاحقة -أيضًا- أنّ النثر وقوامه أربعة أركان، خطب وأخبار وقصص ورسائل، متأصّلٌ في العرب، منغرّسٌ في ثقافتهم وسلوكهم وعاداتهم، فأما الخطب فلا إشكال فيها، فهي من الجاهليّة قادمةٌ ومتطوّرةٌ وبالغةٌ ذروتها في مواكبة النّزاع المذهبيّ والفكريّ والفرقيّ والقبليّ والسياسيّ في عصر بني أميّة، وأما الرسائلُ فموصولة بالمدائن، وقيام السُّلطان، وشيوع الكتابة،

ولذلك، فلا غرابة أن يشتدَّ عودها وتبدو مظاهرها مع إقامة المُلك زمن بني أميَّة، وأمَّا الأخبارُ فلا شكَّ أنَّها ضاربةٌ في عمق التاريخ، موصولةٌ بنزعة الإنسان إلى تداول «المعلومات»، وحمل الأخبار وروايتها، وتدُلُّ الأخبار المدوَّنة، بدايةً من العمل على تقييد الأخبار الشفويَّة بخطٍّ وتدوينها في العصر الأمويِّ، على تأصُّل هذا الشكل القوليِّ في عمق السلوك العربيِّ حملاً وروايةً لوقائع أبطالهم وشعرائهم وحوادثهم وأنبيائهم وأنسابهم. وأمَّا القصص فإنَّه قدرٌ بشريٌّ لا يُمكن أن يتخلَّص منه الإنسان، وهو مهجورٌ في ثقافة العرب لأسبابٍ عديدة، أهمُّها شفويَّته، وعدم تقبُّله في الثقافة العالمية وتقييده في الثقافة الشعبيَّة، ثمَّ وقوف الفقهاء في مرحلة من تاريخ العرب ضدَّ القصَّاص والقصص.

من أجل ذلك، كان عليَّ أن أُنشِ في تاريخ العرب عن المظاهر النثريَّة الأدبيَّة الأولى، وعن مختلف الصيغ والأشكال التي تخفَّت فيها، وتلبَّستها، في ثقافة تُغلَّبُ الأدب العالم، وتلَفُظُ الأشكال الشعبيَّة، التي أخذت زمنًا حتَّى تدخل حرم الثقافة النخبويَّة، فالخبر الأدبيُّ والحديث الأدبيُّ، والقصص، والأمثال، كلُّها أشكالٌ تعبيريةٌ شعبيَّةٌ، تقبَّلتها الذائقة العالمية في مرحلةٍ لاحقةٍ من تاريخ العرب.

لقد غلَّبت الدراسات التي اعتنت بالشعر ظاهرةً مؤسَّسةً لأوليَّة الأدب في تاريخ العرب، ولم يُهتَمَّ بالنثر العربيِّ إلَّا في فترات تطوُّره واستقرار مظاهره وصيغته، والحالُ الداعي إلى الدرسِ

والتقصي، أنَّ موروث العرب النثريَّ الموزَّع في مظانَّ مختلفة من الموروث العربيَّ له منزلةٌ ومكانةٌ في أوليَّة الأدب. هذه الأوليَّة التي ترتبطُ بمكانٍ مُحدَّدٍ جغرافياً وحضارياً هو شبه الجزيرة العربيَّة، المكان الذي وقَّع المهادُ الأساسَ لعددٍ هامٍّ من الظواهر الأدبيَّة والأنواع التعبيريَّة اللُّغويَّة، ولذلك، فإنَّنا ووجدون في هذه البيئة الأصول الأولى واللِّبَنَات المؤسَّسة لأغلب الأشكال النثريَّة التي سادت ودرجت في لاحق الرُّمَن، ووجدون توجَّهاً إلى التَّأليف النثريِّ لا يقلُّ أهميَّةً ولا دوراً ولا أثراً عن التَّأليف الشعريِّ.

هُنالِكَ أَمْرَان أردنا أن نُثبتهما من خلال تأليف مدخلٍ للنثر في شبه الجزيرة العربيَّة، أمرٌ أوَّل موصولٌ بالدور التأسيسيِّ التَّأصيلي لمنطقة شبه الجزيرة العربيَّة في بَعَثِ النَّوى الأولى لمختلف مظاهر النثر العربيِّ، وهو دورٌ منطقيٌّ تاريخيًّا وصلاً لأنماطِ النثر بالبيئة الجغرافيَّة الحاضرة، وهي بيئةٌ تشتركُ عموماً في استعمالِ لغةٍ واحدةٍ، هي لغة العرب، وعلى ذلك، فإنَّ منطقة شبه الجزيرة العربيَّة هي أساسٌ لتولُّدِ نثرٍ عربيٍّ توزَّع من بَعْدِ ذلك وتفرَّق في مناطق مختلفة تعرَّبت وتأسَّلمت، وقامت بدورٍ رياديٍّ في تغذية هذه الأصول النثريَّة التي كانت نسَّأتها الأولى في مهادِ أرض العرب، وبفعلِ أشخاصٍ أسَّهموا بقسْطٍ وفيرٍ في إتمام تأصيلِ أصول النثر العربيِّ.

الأمرُ الثاني خاصٌّ بمنزلةِ النثر في التَّصوُّر النقديِّ العربيِّ، وهو تصوُّر حَصَرَ دورَ شبه الجزيرة العربيَّة في أوليَّة الشعر أداءً

جاهلياً وأداءً لاحقاً في تعاقب الدول الإسلامية، والحال أنه في تصوُّري الذي دافعتُ عنه في أكثر من مبحث، تتميز الحضارة العربية بأولِيَّةٍ تاريخيَّةٍ في القول القصصيِّ أساساً، وفي القول النثريِّ عامَّةً، فأما القول النثريُّ على وجه التعميم، فإنَّ أشكالاً قولِيَّةً خطابيَّةً سادت وراجت ودرجت وتشكَّلت مبادئها وأصولها في منطقة شبه الجزيرة العربية، فلا شكَّ أنَّ الخطابة العربية مثَّلت واسطةً تواصلٍ وإعلامٍ وإخبارٍ، وشكلاً من أشكالِ التفاخُر والتَّنازُع والتَّهاني والتَّاسي، منذ الجاهليَّة، وحقَّق ذلك حُطباءُ لهم منزلةٌ في القول، ولهم منزلةٌ في المجتمع، فالخطيبُ ليس قائلاً لِسناً، بليغاً، طليقاً فحسب، بل هو ذو مكانةٍ ومنزلةٍ في قومه ثُمَّنَّه من إنفاذِ قوله وتحقيقه. وتتولَّد عن الخطابة -شكلاً تواصلياً جامعاً- جملةٌ من الأجناس الخطابية الفرعيَّة التي اختلفت مظاهرها ومقاصدها وأدوارها، منها خطابة الوفود، وخطابة الزواج، وغيرها من الأنماط الخطابية التي كانت أداةً في المجتمع وفي السياسة وفي الدِّين، ولا شكَّ أيضاً أنَّ الخبر قد تكوَّن شكلاً جامعاً مُبْتِئاً لعددٍ من فنون القول الناتجة عنه، المتفرعة عن أصله، وكان أداةً جامعةً سَخَّرت لعددٍ من المقاصد التي تتعدَّى الأدب لتُلامسَ الفقه والعلوم، وتحقِّق شكلاً عربيّاً في نواته الأولى، مُعَمِّلاً السَّنَد واسطةً إخبارٍ تحوَّلت تدريجياً إلى دُرْجَةٍ تُجْرَى على أجناسٍ من الأدبِ مختلفةٍ احتواها الخبر وامتصَّها في شكله المهيمن.

على ذلك، فقد نحونا إلى عمَلِ كتابٍ نُثِيرُ فيه بعضاً من مظاهرِ النشر السائدة في شبه الجزيرة العربية، ونلفت الانتباه

إلى عمق هذه المظاهر النثرية وإلى ثرائها ووفرة أسئلتها، وبكارة مسالك بحثها، حتى نوفر للدارس العربي أرضية معرفية يمكن أن يصدر عنها في معالجة قضايا النثر في شبه الجزيرة العربية التي ما زالت غفلاً تحتاج جهوداً عميقة، وبحوثاً جادة وجديّة لإنارة ما احتواه تراثنا النثري من قدرة تخيلية، عمل البعض على تسطيحها وقصرها على المقدرة اللغوية لأدباء شبه الجزيرة العربية.

فكان أن قسمنا هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب، هي مداخل كبرى للتفاد إلى بيان منزلة النثر في شبه الجزيرة العربية والوقوف على ما به تميز، فخصصنا الباب الأول للوقوف على أسئلة الخطابة في شبه الجزيرة العربية، ونظرنا في ثلاثة أركان رئيسة منها، هي الخطابة الاجتماعية، والخطابة الدينية، والخطابة السياسية، وهي المقامات الكبرى التي أسهمت بشكل وفير في إنتاج مدونة خطابية واسعة ومتنوعة. وأفردنا للخبر شكلاً مولداً ناشئاً في بيئة شبه الجزيرة العربية باباً خاصاً، منه عملنا على تأصيل النشأة الأولى لهيئة الخبر شكلاً باعناً لأجناس انضوت تحته، ودارت في مداره، وكان مدخلنا إلى البحث في هذا الباب اعتماد فصلين، فتّح المجال للنظر في مدونتين تُردّان إلى الخبر شكلاً وإن اختلفت المواضيع، وهما الخبر بين التاريخي والتخييلي، وركّزنا على مدونتين، هما كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه، وكتاب ملحق به، سابق في التاريخ، هو أخبار عبيد بن شريّة الجهمي في أخبار اليمن وأشعارها، وقد تأصل عن هذين المصدرين الخبر أصلاً مرجعياً عامّاً، والخبر التاريخي أصلاً مرجعياً خاصاً.

وختمنا هذا البحث ببابٍ ثالثٍ وأخير، فتحنا به كَوَّةً للنظر في طرق توظيف القصص في التراث العربي، من خلال دراسة السرد المُسَخَّر، وهي أنماطٌ من السَّرد تُسَخَّر في غير المقام الأدبي الخالص، فكان نظرنا في أحاديث ابن دُرَيْد بعد أن جَمَعْنَا قِسْمًا منها ووضعناه في ملحقٍ خاصٍّ به، وأفردنا للحديث الأدبي -شكلاً مستقلاً- فصلاً منه عملنا على تأصيل أصول نمطٍ من السرد أُجْرِيَ في مقامٍ غير سرديٍّ، ووقفنا على منزلة أديبٍ أريبٍ، أَجْمَعَ دارسوه في قديم الأدب وحديثه على عميق دوره، وقوَّة روايته، وإِسْهامه في تأصيل أصول النثر، وهو ابن دريد. وخصَّصنا الفصل الثاني لقصص العلماء، ومختلف الأدوار التي يُمكن أن يؤدِّيها السردُ إذ يُسَخَّر في فضاءاتٍ علميَّة، كان نموذجها فاكهة ابن السبيل، أو موسوعيَّة، وكان مثالها كتاب شفاء القلوب من داء الكروب، أو دينيَّة وكان مصدرنا فيها لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث، وهي مظانُّ صدرنا عنها لغاية العمل على إظهار قوَّة القصص ومختلف تصاريফها في التراث العربي في شبه الجزيرة العربيَّة التي عُرِفَتْ بالشعر فحسب.

الأسس الأولى للقصص تنوَّعت مصادرها، واختلفت مظانُّها، فالخبرُ يحتوي القصص، والأحاديث تحتوي القصص، وكُتِبَ الفقهاء والعلماء تحتوي قصصًا، فكان لنا أن نضرب على ذلك مثلاً ممَّا دخل فيه العلماء من قصصٍ يروونها لتيسير علمٍ أو لبيانهِ، أو لتخفيف وطأته. ومنه بان لنا العُمق التاريخيُّ والدور المركزيُّ الذي كانت القصَّة تؤدِّيهِ في المقام العارف، العالم، وفي المقام الشعبي.

وقد نهجنا نهجاً فيه كان ارتكازنا على العودة إلى النصوص في مصادرها والعمل عليها تحليلاً وبياناً واستنتاجاً دون الخضوع أو الإيمان المطلق بالآراء السائدة، فاستخلصنا النصوص، واستخرجناها من مصادر كانت أحياناً صعبة المنال، وأحياناً أخرى صعبة التحقيق والضبط، وعليها كان تحليلنا بتوظيف قراءة لتاريخ الأدب لا تُعوّل على الحكم بل تستند إلى التحليل والتعليل. ونرجو أن نكون قد أسهمنا وإن بقسطٍ يسيرٍ في إثارة راكٍ في درس تاريخ الأدب العربي، وأن نكون قد لفتنا اهتمام الدارسين إلى تراكمٍ ثريٍّ في تراثنا العربي في شبه جزيرة العرب، بقي إلى الآن مغموراً، يحتاج عيناً باحثة تتعمّل أبعاده، وتُدرك مقاماته.





الباب الأوّل

الخطابة في شبه الجزيرة العربية



مقدمة

تُمثِّل الخطابة ركناً رئيساً في الموروث العربي، ولقد كانت، فسحةً من الزمن وسيطاً إبلاغياً إعلامياً وعماداً من أعمدة التواصل، وهي تتجاوز في عددٍ من مظاهرها حدود الأدب الضيقة لتكون الأداة الناجعة التي تُستعمل في التواصل الاجتماعي والسياسي والديني إعلاماً وإعلاناً ومشاركةً وأثراً وتذكيراً وتثبيتاً للإيمان. فمدونة الخطابة التي بلغتنا في مظانٍ مختلفة وعبر وسائط متنوعة ممثلة لأصول الأدب العربي، هي نوعان، نوعٌ أوَّل يضمُّ مختلف الأقوال التي عدّها اللغويون وعلماء الشعر ممثلة للعربية الفصيحة الأصلية في صورتها النقية، لسان أهل العرب قبل أن تُداخله العجمة، الظاهر في أقوال العرب ومجاوباتهم ومنافراتهم ومختلف المقامات التي اقتضت إنتاج القول البليغ الفصيح، وهذا النوع لا يُمثَّل بالضرورة أشكالاً أدبية. ونوعٌ ثانٍ، يضمُّ هو أيضاً أقوالاً عُدَّت معياراً للفصاحة والبلاغة، غير أنها ارتقت لتُكوِّن جملة من فنون القول نجدها في خطابة المفاخرات والوفادات وفي الخطب الاجتماعية وفي خطب مختلف الفرقاء السياسيين. وهذا النوع الثاني خرج عن دائرة النشاط القولِي اليومي ليحتلَّ من فنون الأدب منزلةً، وليصبح نموذجاً للبلاغة العربية وباباً من أبواب أدبها.

لقد مثَّلت الخطابة الفنَّ القوليَّ الدَّارج والسَّائد في الأدب العربيِّ، وشهدت عبر التاريخ تطوُّراً ملحوظاً بدءاً من الجاهليَّة إلى العهود الحديثة، ولقد شكَّلت بيئةُ شبه الجزيرة العربيَّة مهاداً فيه نشأت الخطابةُ العربيَّة وشهدت أُنهى عصور ألقها وتميُّزها، وأدَّى ذلك حُطباء انتسبوا إلى هذا المهاد، ودانت لهم اللُّغة العربيَّة فأجروها فنوناً من القول، القَصْدُ منها التأثير في المخاطب وحَمْلُهُ على الاقتناع. فالخطابة عند العرب لم تكن نافلاً قولٍ ولا فُسْحَةً مجازٍ وإنَّما هي أداةٌ فاعلةٌ داخلَةٌ في قضاء حوائج حياتهم، وليست أيضاً محضَ تعبيرٍ عن المعنى بل هي أواصر وصِلات ومعانٍ تُصنَّع بها، ولقد تَنَبَّه ابن عبد ربِّه في كتاب العقد الفريد إلى هذه الوظيفة الحياتيَّة للخطبة دينا وسياسةً ومجتمعاً، فقال مصدِّراً القسم الذي خصَّ به الخطابة العربيَّة: «قال أبو عمر أحمد بنُ مُحَمَّد بن عبد ربِّه: قد مضى قولنا في الأجوبة وتباين الناس فيها بقدر عقولهم، ومبلغ فطنهم، وحضور أذهانهم، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الخطب التي يُتخير لها الكلام، وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم، ونطقت بها الأئمة على منابرهم، وشهرت بها في مواسمهم، وقامت بها على رؤوس خلفائهم، وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم، ووصلتها بصلواتهم، وخوطب بها العوام، واستجزلت لها الألفاظ، وتخيرت لها المعاني»⁽¹⁾.

(1) ابن عبد ربِّه (أحمد بن مُحَمَّد الأندلسي): العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، (دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، ط1، 1983)، 145/4.

ولما كان القول الخطابي هو توسُّل متكلِّم ما بمختلف تصارييف القول بُغية إقناع المُخاطَبين والتأثير فيهم، وحملهم على التَّصديق بأقواله، فإنَّ حضور طريفي التَّخاطب داخل القول إثباتاً للذات ونقلًا للمواضع أو تحويلاً لها مسألة يشفُّ عنها الخطاب ويظهرها بطرائق مختلفة. ولذلك فإنَّ العلاقة بين المتخاطِبين هي عمقُ تَكُونِ الخطبة وبابُ إنشائها، فالعلاقة بين طريفي التَّخاطب هي التي تدفع بالقول قُدماً نحو الإنشاء والكُون، ويكون الخطاب مركزَ هذا الكُون ومبتدأ الفعل اللُّغوي⁽¹⁾. وتُعتمد الخطبة بمختلف تصارييف القول فيها سبيلٌ وصلٌ وواسطة إقناع وتأثير، يسعى من خلالها الخطيبُ إلى بلوغ مَراميهِ المرجوة من إنجازها، فالخطابة هي «القدرة على المُخاطبة بالأقوال التي بها تكونُ جودة الإقناع في شيء من الأمور المُمكنة التي من شأنها أن تؤثر أو تجتنب، غير أنَّ الفاضل من أصحاب هذه القوة يستعملها في الخيرات ويستعملها الدُّهاة في الشرور»⁽²⁾.

والخطابة هي «قياسُ مُركَّب من مُقدِّمات مقبولة أو مَظنونة من شخصٍ مُعتقد فيه، والغرض منها ترغيبُ الناس فيما ينفعهم

(1) انظر صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، (سلسلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، عدد 164/آب 1992)، ص، 98، يقول: «يُعني التَّداوليُّون بالافتِّراب من الخطاب كمَوْضوع خارجيٍّ أو شيءٍ يَفترضُ وجودَ فاعلٍ مُنتجٍ له، وعلاقة حوارية مع مُخاطبٍ أو مَرسلٍ إليه. ومن الناحية الألسنية، فإنَّ فكرةَ الفاعلِ ضروريةٌ لمُتابعةِ اللغة في الخطاب».

(2) الفارابي (أبو نصر): فصول منتزعة، تحقيق: فوزي متري نجار، (دار المشرق، بيروت، لبنان)، (د. ت)، ص، 62.

مِنْ أُمُورِ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْخُطْبَاءُ وَالْوُعَاظُ»⁽¹⁾. لقد تعرّفت الخطبةُ عُمومًا على أنّها «مَلَكَةٌ جَعَلَ الْآخَرِينَ يُشَارِكُونَنَا آرَاءَنَا وَطَرِيقَةَ تَفْكِيرِنَا فِي شَيْءٍ مَا، وَكَذَلِكَ إِيصَالُ عَوَاطِفِنَا الْخَاصَّةِ إِلَيْهِمْ، وَجَمَاعُ الْقَوْلِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ يَتَعَاطَفُونَ مَعَنَا. وَيَجِبُ أَنْ نَصِلَ إِلَى هَذِهِ النَتِيجَةِ بِغَرَسِ أَفْكَارِنَا فِي أَذْهَانِهِمْ بِوَاسِطَةِ الْكَلِمَاتِ، وَذَلِكَ بِقُوَّةٍ تَجْعَلُ أَفْكَارَهُمْ الْخَاصَّةَ تَنْصَرِفُ عَنْ اتِّجَاهِهَا الْأَوَّلِيِّ لِتَتَّبَعَ أَفْكَارِنَا الَّتِي سَتَقُودُهَا فِي مَسَارِهَا»⁽²⁾، ويعمل ابن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان على النظر في حدّ الخطابة وبيان وظائفها وأقسامها، يقول: «إِنَّ الْخُطَابَةَ مَا أُخُوذَةُ مِنْ خَطْبَتْ أُخْطَبُ خُطَابَةً، وَاشْتَقَّ ذَلِكَ مِنَ الْخُطْبِ، وَهُوَ الْأَمْرُ الْجَلِيلُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُقَامُ بِالْخُطْبِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَجَلُّ، وَالْأَسْمُ مِنْهَا خَاطِبٌ، مِثْلُ رَاحِمٍ، فَإِذَا جُعِلَ وَضْفًا لَازِمًا قِيلَ خُطِيبٌ»⁽³⁾، وهو تعريفٌ شاملٌ للخطابة يصلُّها بِمُنَاسِبَةٍ إِنْجَازِهَا، إِذْ هِيَ نَاتِجَةٌ فِي الْأَصْلِ عَنْ حَادِثٍ جَلَلٍ أَوْ عَنْ أَمْرٍ طَارِئٍ وَجَبَ فِيهِ الْقَوْلُ، وَيتوسّع ابن وهب في التعرُّض إلى الوظائف التي تضطلع بها الخطابة، فيقول: «تُسْتَعْمَلُ (الخطابة)

(1) الجرجاني (علي بن محمّد بن عليّ الزين الشّريف): كتاب التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء، (دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1983)، ص 99.

(2) شوبنهاور Schopenhauer أورده العمري محمّد: في بلاغة الخطاب الإقناعي. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربيّة. الخطابة في القرن الأوّل أنموذجاً. (دار أفريقيا للنشر. المغرب. لبنان. ط1. 2002). ص 13، (نقلًا عن مجلة Poétique n: 5.p. 105).

(3) ابن وهب الكاتب (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان): البرهان في وجوه البيان. تحقيق: حفي محمد شرف. (مطبعة الرسالة. القاهرة، الطبعة الأولى، 1969)، ص 151.

فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِظْفَاءِ نَارِ الْحَرْبِ وَحَمَالَةِ الدِّمَاءِ، وَالتَّشْيِيدِ
لِلْمُلْكِ وَالتَّأْكِيدِ لِلْعَهْدِ وَفِي عَقْدِ الْإِمْلَاقِ وَفِي الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ وَفِي
الْإِشَادَةِ بِالْمَنَاقِبِ وَلِكُلِّ مَا أُريدَ ذِكْرُهُ وَنَشْرُهُ وَشَهْرَتُهُ فِي النَّاسِ»⁽¹⁾.

فالخطابة في تاريخ الحضارة العربيّة لم تقتصر على ما
صارت تُعهد عليه من مرجعيّة دينيّة وعظيمة سياسيّة بل كانت
تؤدي هذه الوظائف صُحبة دَوْر اجتماعيٍّ لَعَلَّه الأوكد والأشدُّ
حُضوراً، نظراً إلى أنّها كانت وسيلة الإعلام والتّواصل المعهودة
في اجتماع الحشود وفي مختلف المناسبات التي كانت تحدّث. وقد
حفظ لنا تاريخ الأدب عدداً هاماً من حُطَب العرب التي برع فيها
حُطباءٌ مثّلوا أرضيّة هامةً لنَهْج البلاغة وأُخذت عباراتهم أمثلةً
عن حُسن العبارة ودقّة الحُجّة وسلاسة التخلّص وبهاء إدارة القول
وتصريف مناحيه وتوجيه مقاصده، ولعلّ رُكناً هاماً من بلاغة
العرب وحُسن إجرائهم للغة العربيّة يعودُ إلى اعتماد الخطابة أداةً
ونشاطاً يَجَاوِز حدَّ الإخبار والإعلام أو الوقوف على رؤوس النّاس
لتوجيههم تحميساً أو لِحَمَلِهِمْ على الاقتناع برأيٍ لصاحبه وجَاهَتُهُ
وَصَوَابُهُ، إلى أن تكون الخطابة حاضرةً في ربط الأنساب وعقد
المؤالفة بين الأزواج وتقريب الأضداد ووصال مُتَفَرِّقٍ العباد.

وإذا كان للخطابة هذه المنزلة في حياة العرب، فإنّ اعتمادها
وجهاً من وجوه تحقّق النّثر العربيّ من حيث هو شكل قوليّ مُنَازَعٍ
لِلشُّعْرِ، مضادٌّ له في تكوُّنه وتقصُّده، في بنائه وتكوُّن معانيه، يحتاج

(1) م. ن. ص 150.

إلى الخروج عن سائد الدَّرس التَّاريخيِّ، إثباتاً لمظاهر الخطابة وتتبُّعاً لخصالها البيانيَّة والبلاغيَّة خُلُوّاً عن أثرها في الدَّوات المُخاطبة التي تُعدُّ أصلاً ومرجعاً في إنشائيَّة الخطبة.

وعلى ذلك فإنَّ وقوفنا على الخطابة شكلاً قولياً ونشاطاً كلامياً في مُحدَّد جغرافيٍّ هو شِبْهُ الجزيرة العربيَّة يتوجَّه إلى اعتمادِ القراءة التفاعليَّة التي بمقتضاها تَنَتُّجُ الخُطبة عن صِلَةٍ مخصوصة بين ذاتين لهما مقام جامع وموضوع مُوحَّد، الذات المتكلِّمة من حيث هي ذاتٌ تاريخيَّة لها وُجودٌ في واقع التَّاريخ، ولا تتطرق عن فراغ، ولا عن ذهنٍ خُلُوٍّ من شحْنٍ معرفيٍّ وسياقيٍّ ومقاميٍّ، وذات مُخاطبة يُراعيها المتكلِّم، ويعدُّ وجودها وغيابها، ولا يُمكن أن تُنجز الخُطبة في غفلة عن حُضورها فعلاً وذهناً، ولذلك فإنَّنا في تحقُّق الخُطبة -أيَّا كان نوعها- إزاء مُتكلِّم يُعْمَلُ اللُّغة ويُسَخَّرُها لغاية التأثير في مُخاطب عينيٍّ، ماثِلٍ أمامه، فما يُميِّز الخطابة أنَّها فنُّ المواجهة القوليَّة المباشرة. فالخطابة إذن هي فنُّ سياسة القول وإعماله لغاية التأثير في المُخاطب.

ولذلك فإنَّ جهتين لهما الدور الأوفر في تصويغ الخُطبة، وعليهما مدار الدرس ومحطُّ النَّظَر في بيان خواصَّ الخُطبة، وهما المتكلِّم والمُخاطب، ولذلك فإنَّ دراستنا للخطابة صورةً من صُور تشكُّل النَّثر وتفرُّده في شبه الجزيرة العربيَّة ستركِّز على هذه الخُطَّة المنهجية القائمة على مراعاة المقام الخطابيِّ الذي لا تكون فيه الخُطبة إلاَّ بتواصُلٍ سياقيٍّ بين المُتخاطِبَيْنِ.

تعود أقدم النُصوص الخطابيَّة العربيَّة إلى مرحلة ما قبل الإسلام، وقد وفَّر لنا التَّاريخ قسماً يسيراً من الخُطب التي مثَّلت اللَّبنة الأولى للخطابة العربيَّة، ثمَّ حلَّ الإسلام فرسَخ الخطابة واتَّخذها شكلاً لتأدية الرسالة الإسلاميَّة، إذ جعلها نشاطاً دينياً أسبوعياً، ورُكناً مكيَّناً في المناسبات الدينيَّة وأداة إبلاغٍ وتبليغٍ في ما يُمكن أن يطرأ من حوادث. وتواصلَ هذا الدور الذي تؤدِّيه الخطابة مع تفرُّق الأُمَّة الإسلاميَّة إلى مللٍ ونحلٍ، كلُّ يذود عن مذهبه وينتصر إليه ويوجدُ العِلل والأسباب للإقناع بصحَّة نحلته وسلامة مذهبه، فشهدت الخطابة بذلك تلوُّناً وتطوُّراً، كان لِشِبهِ الجزيرة دورُ الباعث الأصل، ودورُ مُنتج الخطباء، إذ رُدَّ أغلب بلغاء الخطابة على مرِّ العُصور إلى أصولٍ راجعةٍ إلى أرضِ العرب وقبائلها الأصيلة.

تقوم خُطبتنا في هذا المبحث على دراسة الخطابة العربيَّة في بيان سِماتها ومظاهرها تفرُّدها، وهي خصيصةُ العرب الذين قادوا ناصية اللُّغة العربيَّة وسخَّروها في مجرى حياتهم اليوميَّة، ولا مناص في هذا المقام من التذكير أنَّ الخطابة هي شكلٌ تعبيرِيٌّ، ونشاطٌ قولِيٌّ لا يُمثَّل بالضرورة وجهاً من وجوه الأدب، وإنَّما خاصيَّة خطابة العرب هي التي جعلت الخُطب، على تلوُّن منابِها وتنوُّع مقاصدها، تدخل حَرَم الأدبِ وفيَّة الشُّروط تامَّة التشكُّل.

وقد رَشَّحْنَا فِي دِرَاسَتِنَا لِلخُطَابَةِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ خُطْبًا وَخُطَبَاءَ وَمَوَاضِيْعَ مِنْهَا نُدْرِكُ مَنَازِلَ الْخُطَبَاءِ، وَمَحَلَّ الْخُطَابَةِ مِنَ الْمُنْتَجِ الْقَوْلِي الْعَرَبِيِّ، وَتَيْسِيرًا مِنْهَجِيًّا لِهَذَا الْمَدْخَلِ رَأَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ فِي ثَلَاثَةِ مَجَالَاتٍ تَمَيَّزَتْ فِيهَا الْخُطَابَةُ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَفَرَّدَتْ، وَهِيَ الْخُطَابَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالْخُطَابَةُ الدِّينِيَّةُ وَالْخُطَابَةُ السِّيَاسِيَّةُ، وَهِيَ مَدَاحِلُ أُسَاسِيَّةٍ مِنْهَا يُمَكِّنُ أَنْ نَنْفِذَ إِلَى دِرَاسَةِ الْخُطَابَةِ فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَرَأَيْنَا مِنْهَجِيًّا أَيْضًا أَلَّا نَتَوَسَّعَ فِي الْمَدَوَّنَةِ الْخُطَابِيَّةِ، وَأَنْ نَقْصِرَهَا عَلَى حُدُودِ الدَّوْلَةِ الْأُمُويَّةِ، وَهِيَ الْفَتْرَةُ الَّتِي بَلَّغَتْ فِيهَا الْخُطَابَةُ أَوْجَ تَشَكُّلِهَا، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مَدَوَّنَةَ الدِّرَاسَةِ تَشْمَلُ الْخُطَابَةَ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَفِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَفِي الْعَصْرِ الْأُمُويِّ فَقَطْ.





الخطابة الاجتماعية.

وَهِيَ نَمَطٌ مِنَ الْخُطَابَةِ سَائِدٌ فِي بِيئَةِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَوَامُهُ تَسْخِيرُ الْقَوْلِ لِتَأْدِيَةِ شُؤْنٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ، مِثْلُ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالتَّدْخُلِ بِالصُّلْحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ⁽¹⁾، أَوْ الدُّخُولِ فِي طَلَبِ الزَّوْجِ أَوْ تَرْكِ الْوَصَايَا، وَهِيَ أَقْوَالٌ تُحَقِّقُ نَمَطًا مِنَ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ يَحْتَاجُ قَائِلًا لَهُ مَنْزِلَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ تُمَكِّنُهُ مِنَ التَّدْخُلِ بِالصُّلْحِ أَوْ تَنْزُلِهِ مَنْزِلَةً سَيِّدِ الْقَوْمِ الَّذِي يُرَشِّحُ لِلِقَاءِ خُطْبَةِ الزَّوْجِ أَوْ التَّوَسُّطِ بِالصُّلْحِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ أَوْ تَرْكِ الْوَصَايَا الْعَامَّةِ أَوْ الْخَاصَّةِ.

وَقَدْ مَثَلَتِ الْخُطَابَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ بَابًا مِنَ الْأَبْوَابِ الَّتِي بَرَعَتْ فِيهِ الْخُطَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَاسْتُعْمِلَتْ أَدَاءً فَاعِلَةً، تُوَدِّي مِنَ الْوُضُوفَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَجْهًا وَمِنَ الْأَدَاءِ الْبَلِيغِ لِتَحْقِيقِ الْمَقَاصِدِ أَوْجْهًا. خُطَابَةُ الصُّلْحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ، هِيَ فَرْعٌ مِنَ الْخُطْبِ يَقْتَضِي جِهَةً قَائِلَةً نَافِذَةً وَفَاعِلَةً وَلَهَا مَنْزِلَةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ قَادِرَةٌ عَلَى تَحْوِيلِ الْخُصُومَةِ إِلَى صُلْحٍ، وَمُسْتَطِيعَةٌ أَنْ تَحْمِلَ الْمُخَاطَبِينَ الْمُقْصُودِينَ بِالْقَوْلِ مِنْ مَنْزِلَةِ التَّنَازُعِ إِلَى مَنْزِلَةِ الْوِفَاقِ، وَالْأَمْثَلُ فِي الْخُطَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ مُتَعَدِّدَةٌ

(1) وَهُوَ بَابٌ يَخْتَلِفُ عَنْ خُطْبِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ وَالْقَبَائِلِ وَالْفِرَقِ وَالْمَذَاهِبِ، فَهَذَا يَدْخُلُ مِنْ ضَمَنِ الْخُطَابَةِ السِّيَاسِيَّةِ.

ومتنوّعة، ومن وراء هذا التعدُّد ذواتٌ خطَّابيّةٌ أسهمت في إنشاء موسوعة خطَّابيّة هائلة منذ عصر ما قبل الإسلام إلى عصور متأخرة يُمكن أن تصل إلى بدايات القرن العشرين، ومن ذلك أسماءٌ عُرفت بقدرتها على القول وبمكانتها في المجتمع العربيّ.

ومنّ هذه الأسماء في الجاهليّة، مرثدُ الخَيْر، وهو الذي سعى قولاً إلى الإصلاح بين سُبَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ وَمِثْمِ بْنِ مَثُوبٍ، وقد تنازعا الشَّرَفَ وتشاحنا واختصما وخيفَ من توسُّع نزاعهما ووقوع الشرِّ بين حيَّيهما، فناداهما مرثدُ الخير ليصلح بينهما ويمنع الشرَّ قبل وقوعه، فكانت خطبته مثلاً للقول الدافع للأذى، الجامع الحُجَج، المؤدِّي الغرض، وقد أوردتها أغلب المصادر الخطَّابيّة مثلاً صارخاً لخطب الإصلاح بين المتخاصمين، وقد ورد فيها قولُ مرثدِ الخَيْر:

«إِنَّ التَّخَبُّطَ⁽¹⁾ وَامْتِطَاءَ الْهَجَاجِ⁽²⁾، وَاسْتِحْقَابَ⁽³⁾ اللَّجَاجِ، سَيَقِفُكُمَا عَلَى شَفَا هُوَةٍ، فِي تَوَرُّدِهَا⁽⁴⁾ بَوَارِ الْأَصِيلَةِ⁽⁵⁾، وَانْقِطَاعِ الْوَسِيلَةِ؛ فَتَلَاقِيَا أَمْرَكُمَا قَبْلَ انْتِكَاثِ⁽⁶⁾ الْعَهْدِ، وَانْحِلَالِ الْعَقْدِ،

(1) التَّخَبُّطُ: ركوب الرجل رأسه في الشرِّ خاصّة، أو السير على غير هدى.

(2) ركب فلان هجاج «غير مصروف»، ووهاج مبنياً على الكسر: أي ركب رأسه.

(3) الاستحقاق: استفعال من الحقيبة أو من الحقاب؛ فأما الحقيبة، فما يجعل الرجل فيه متاعه من خَرَجٍ أو غيره، والحقاب: بريم تشدُّ به المرأة وسطها «والبريم خيط فيه لونان»، وهذا مَثَلٌ: إمّا أن يكون أراد أنه احتزم باللجّاج أو جعله في وعائه.

(4) التورّد: الإشراف على الماء وغيره، دخله أو لم يدخل.

(5) الأصل.

(6) انتقاض: والأنكاث جمع نكث، وهو ما نقض من الحبال ليعاد ثانية.



وَتَشَتَّتِ الْأُلْفَةُ، وَتَبَايُنَ السُّهُمَةِ⁽¹⁾، وَأَنْثَمَا فِي فُسْحَةٍ رَافِهِةٍ⁽²⁾، وَقَدَمِ
وَاطِدَةٍ⁽³⁾، وَالْمَوْدَةُ مُثْرِيَةٌ⁽⁴⁾، وَالْبُقْيَا مُعْرِضَةٌ⁽⁵⁾؛ فَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنْبَاءَ مَنْ
كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْعَرَبِ، مِمَّنْ عَصَى النَّصِيحَ، وَخَالَفَ الرَّشِيدَ، وَأَصْغَى
إِلَى التَّقَاطُعِ، وَرَأَيْتُمْ مَا آلَتْ إِلَيْهِ عَوَاقِبُ سُوءِ سَعْيِهِمْ، وَكَيْفَ كَانَ
صَيُورُ⁽⁶⁾ أُمُورِهِمْ؛ فَتَلَاَفُوا الْقُرْحَةَ⁽⁷⁾ قَبْلَ تَفَاقُمِ الثَّأْيِ⁽⁸⁾ وَاسْتَفْحَالَ⁽⁹⁾
الدَّاءِ، وَإِعْوَازِ الدَّوَاءِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا سَفِكَتِ الدِّمَاءُ، اسْتَحْكَمَتِ الشَّحْنَاءُ،
وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الشَّحْنَاءُ، تَقْضَبَتْ⁽¹⁰⁾ عُرَى الْإِبْقَاءِ، وَشَمِلَ⁽¹¹⁾
الْبَلَاءُ⁽¹²⁾.

لعلنا نلاحظ من هذا القول ثلاثة أمور على غاية من الأهمية
في وسم الخطبة (بغض النظر عن صحة انتسابها إلى صاحبها)،
وهي:

-
- (1) القرابة.
 - (2) ناعمة من الرفاهية.
 - (3) ثابتة.
 - (4) متصلة.
 - (5) ممكنة أمكنت من عرضها، أي من جنبها وناحيتها.
 - (6) عاقبة.
 - (7) الجرح.
 - (8) السعي والمثاى: الإفساد والجراح والقتل ونحوه.
 - (9) اشتداده، وهو أن يصير مثل الفحل.
 - (10) تقطعت.
 - (11) من بابي فرح ونصر.
 - (12) صفوت (أحمد زكي): جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، (المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1933)، 10/1.

■ أولاً أَنَّ المتكلم الظاهرة صورته في القول هو شخصية يمتلك ثلاث خصال جوّزت قوله: الخصلة الأولى هي امتلاك ناصية القول والقدرة على التعبير على جليل المعاني في وجيزٍ من اللفظ. الخصلة الثانية أَنَّهُ ذو منزلة من قومه حكمةً وحصافةً رأيٍ ورؤية. والخصلة الثالثة أَنَّ له تقديرًا واحترامًا من الطرفين المتنازعين، وهذا التقدير هو علّة دخول المتكلم في مقام المصالحة والتقريب بين المختلفين.

■ ثانياً أَنَّ المُخاطَب الظاهرة صورته في الخطبة، ليس متشككًا ولا مُنكِرًا لممكن قول المتكلم، وإنما هو مُنصِتٌ لنُصحه قابلٌ لرُسده مؤمنٌ برويِّته، وذلك بَيْنٌ في تركيب عبارات الخطبة التي خَلَّتْ أو كَادَتْ تَخْلُو من معاني التوكيد الدالة على وجود مخاطبٍ مُشككٍ أو مُنكِرٍ.

■ ثالثاً أَنَّ العلاقة التخاطبية في هذا المقام الخطابِي الصِّلحي هي علاقة لا يَشُوبُها التَوَثُّر، وإنما اقْتَضَى المقام أن يجمع القائلُ بين حالِ قِوَامِهِ الاقْتِصَارُ على الفُرْقَةِ والخلاف وحالِ مُمَكِّنِ قَادِمٍ في مُمَكِّنِ الزَّمَانِ إنَّ تَوَاصَلَ هذا التَّنَافُر، وكانت الحُجَّةُ النَّثَرِيَّةُ أَجْرَاهَا المتكلم وتلقاها المُخاطَبُ التَّلَقِّي الإيجابي هي النظر في أحوال الأَقْوَامِ السَّابِقَةِ مِمَّنْ تَنَازَعُوا وتَوَسَّعَتْ دَوَائِرُ الإِحْنِ بَيْنَهُمْ ولم يُنصِتُوا إلى صوت الحكمة الذي يُمثله في هذه الخطبة المتكلمُ بكلِّ مرجعيَّاته القوليَّة والاجتماعيَّة.

لقد مثّلت خُطب الإصلاح بين الأفراد المتنازعين باباً من أبواب الخطابة الاجتماعية، فيه يتدخّل صوتُ الحكمة والعقل لمنع الأذى وللحدّ من امتلاء نفوس المتخاصمين غضباً وإحناً، وهو دورٌ لا يُؤدّى إلاّ بوجود ذاتٍ متكلمة قادرة على تحويل القول إلى فعلٍ، ضامنةً لنجاح المقصد من الخطبة، وبوجود ذاتٍ مخاطبة مؤمنةً بالمتكلم وبقدرته الفعلية، وتؤكد الدراسات التخاطبية هذه الصّلة الوجودية بين طريفي التخاطب، فتحدّد للمتكلّم دورَ المنبع والأصل الإنتاجي للخطبة وللمخاطب دورَ غاية التخاطب وهدفه⁽¹⁾.

وعلى ذلك فإنّ للمتكلّم حضوراً تاريخياً وجسدياً وذهنياً ومرجعياً ولغوياً، وله الدور الرئيس في تصريف موضوع الخطبة والعمل على التأثير في المخاطبين بغاية بلوغ المقصد من الخطبة، وهو الإصلاح بين المتنازعين وإن غابت الصّمائر الرّاجعة إليه بشكل مباشر، فذات المتكلّم غير ظاهرة بشكل مُعلن في الخطبة، وهي سمة من سمات الخطابة الاجتماعية، إذ تُكوّن الأمارات والإشارات الدالة على ذات المتكلّم غير واضحة الوجود لغوياً، وإن كانت شديدة الحضور مقاماً وتخاطباً. ولقد توفّر في تاريخ شبّه الجزيرة عددٌ هامٌّ من الخطباء الذين سمحت لهم مكانتهم الأخلاقية أو الاجتماعية أو السيادية أن يتدخّلوا بالصّلح صوت حكمة ورجحان عقلٍ.

الوجه الثّاني من وجوه الخطابة الاجتماعية التي شاعت في الواقع العربيّ، هو خُطب الزّواج، وهي أقوالٌ تنتج عن جهات لها

(1) Benveniste (E), **problèmes de linguistique générale**, Gallimard, Paris, 1974. P 85. « Comme forme discours, l'énonciation pose deux « figures » également nécessaires, l'une source, l'autre but de l'énonciation ».

موقع اجتماعي رفيع ومكانة أثيرة تُعلي من شأن طالب الزَّواج ومن شأن المرأة المرغوبة المطلوبة، وقد شاع هذا النمط من الخطب لأنَّه شكَّل واسطة تواصل اجتماعية، انتقلت منه الذَّاكرة الجمعيَّة نَحْبًا عُرِفَتْ وتُتَوَقَّلت وتحقَّقت نماذج عُليًا لخطب النِّكاح، ومنها ما أقرَّد له صاحب العقد الفريد بابًا خاصًّا سمَّاه بـ «خُطب النِّكاح»⁽¹⁾، جعله فرعًا من فروع الخطابة وبابًا من مواضيعها التي أجراها العرب، لدورها في تسيير حياتهم الاجتماعية، وهي من خُطب الحاجات التي تختلف عن خُطب الصَّلَاة وخطب السَّاسة، ولها مقام معلوم وأساليب يتقفاها المتكلِّم في الابتداء وفي الجواب.

وقد ورد عن «هشام بن عمار قال: حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَوَامِعُ الْخَيْرِ، وَخَوَاتِمُهُ، أَوْ قَالَ: فَوَاتِحُ الْخَيْرِ، فَعَلَّمَنَا خُطْبَةَ الصَّلَاةِ، وَخُطْبَةَ الْحَاجَةِ، خُطْبَةَ الصَّلَاةِ: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، وَخُطْبَةُ الْحَاجَةِ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ تَصِلُ خُطْبَتُكَ بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

(1) ابن عبد ربّه: العقد الفريد، 4/ 233.

حَقُّ ثِقَاتِهِ»⁽¹⁾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ»⁽²⁾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، «اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»⁽³⁾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»⁽⁴⁾.

لَقَدْ صَنَّفَ الْعَرَبُ خُطَبَ الزَّوْجِ عَلَى أَنَّهَا مِنْ خُطَبِ الْحَاجَةِ الَّتِي يُرِيدُ صَاحِبُهَا أَنْ يَقْضِيَهَا، وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى رَغْبَةٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ فِي بُلُوغِ قَصْدٍ مَعْلُومٍ، وَمَتَى أَنْهَى خُطْبَتَهُ فَهُوَ يَنْتَظِرُ جَوَابًا أَيْضًا، وَلَأَجْلَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْإِطَالََةَ فِي الطَّلَبِ مَرْغُوبَةٌ وَالتَّقْصِيرُ فِي الْجَوَابِ مَحْمُودٌ، وَقَدْ وَرَدَ عَنِ الْعُثْبِيِّ قَوْلُهُ:

«يُسْتَحَبُّ لِلْخَاطِبِ إِطَالَةُ الْكَلَامِ، وَلِلْمَخْطُوبِ إِلَيْهِ تَقْصِيرُهُ؛ فَخَطَبَ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَخْتَهُ، فَتَكَلَّمَ مُحَمَّدٌ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ، فَأَجَابَهُ عُمَرُ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْكِبَرِيَاءِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الرِّغْبَةَ مِنْكَ دَعَتْكَ إِلَيْنَا، وَالرِّغْبَةَ فِيكَ أَجَابَتْكَ مِنَّا، وَقَدْ أَحْسَنَ بِكَ ظَنًّا مَنْ أَوْدَعَكَ كَرِيمَتَهُ، وَاخْتَارَكَ وَلَمْ يَخْتَرْ عَلَيْكَ، وَقَدْ زَوَّجَتْهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ: إِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ»⁽⁵⁾.

وَلَنَا أَنْ نُلَاحِظَ أَنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْخُطَبِ مُخْتَلَفٌ بِسَبَبٍ مِنْ

(1) آل عمران، الآية 102.

(2) النساء، الآية 1.

(3) الأحزاب، الآية، 71.

(4) ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني): ستن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى 1952)، 1/ 509.

(5) العقد الفريد، 4/ 234.

قيامه على طلب حاجةٍ وعرضٍ عارضٍ للقيم الأخلاقية والاجتماعية والبطولية للطالب الراغب، وبسبب أيضاً من قيام هذا القول الخطابي على خطبة ابتداء يُنتظر جوابها. وقد اشتهرت في هذا الغرض خطب لأشخاص تركّزوا في الذّاكرة العربية الجمعيّة نماذج للسيادة وحسن سياسة القول، من ذلك ما عُرف من قول عامر بن الظرب العدواني وقد خطب صغصعة بن معاوية ابنته عمرة، فقال في هذه المناسبة، ردّاً على الخطبة الأصل، خطبة الطلب⁽¹⁾:

«يَا صَغْصَعَةُ إِنَّكَ جِئْتَ تَشْتَرِي مِنِّي كَبْدِي، وَأَرْحَمَ وَلَدِي عِنْدِي، مَنَعْتُكَ، أَوْ بَعْتُكَ، النِّكَاحَ خَيْرٌ مِنَ الْأَيْمَةِ»⁽²⁾، وَالْحَسِيبُ كُفَاءُ الْحَسِيبِ وَالزَّوْجُ الصَّالِحُ أَبٌ بَعْدَ أَبٍ، وَقَدْ أَنْكَحْتُكَ خَشِيَةً إِلَّا أَجِدَ مِثْلَكَ، أَفِرُّ مِنَ السِّرِّ إِلَى الْعَلَانِيَةِ، أَنْصَحُ ابْنًا، وَأُودِعُ ضَعِيفًا قَوِيًّا. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ عُدَوَانٍ: أَخْرَجْتُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِكُمْ كَرِيمَتَكُمْ، عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ عَنْكُمْ، وَلَكِنْ مَنْ خَطَّ لَهُ شَيْءٌ جَاءَهُ، رَبُّ زَارِعٍ لِنَفْسِهِ حَاصِدٌ سَوَاهٍ، وَلَوْ لَا قَسَمُ الْحُظُوظِ عَلَى قَدْرِ الْجُدُودِ، مَا أَذْرَكَ الْآخِرُ مِنَ الْأَوَّلِ شَيْئًا يَعْيشُ بِهِ؛ وَلَكِنْ الَّذِي أَرْسَلَ الْحَيَا»⁽³⁾، أَنْبَتَ الْمَرْعَى، ثُمَّ قَسَمَهُ أَكْلًا»⁽⁴⁾ لِكُلِّ فَمٍ بَقْلَةٌ، وَمِنَ الْمَاءِ جَرْعَةٌ، إِنَّكُمْ تَرَوْنَ وَلَا تَعْلَمُونَ، لَنْ يَرَى مَا أَصَفَ لَكُمْ إِلَّا كُلُّ ذِي قَلْبٍ وَاعٍ»⁽⁵⁾، وَلِكُلِّ شَيْءٍ رَاعٍ، وَلِكُلِّ رَزْقٍ سَاعٍ، إِمَّا أَكَيْسٌ وَإِمَّا أَحْمَقُ، وَمَا رَأَيْتُ شَيْئًا إِلَّا سَمِعْتُ حِسَّهُ، وَوَجَدْتُ مَسَّهُ،

(1) جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة، 1/ 286-287.

(2) الأيامي: الذي لا أزواج لهم من الرجال والنساء الواحد منهما أيم كجيد، سواء كان تزوج من قبل أم لم يتزوج، وامرأة أيم بكراً كانت أو ثيباً، وقد أمنت تقيم أيماً وأيمه وأيوماً، وفي الحديث: «أنه كان يتعوذ من الأيمه».

(3) الحيا: المطر.

(4) الأكل: ما يؤكل والرزق.

(5) حافظ.



وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعًا إِلَّا مَصْنُوعًا، وَمَا رَأَيْتُ جَائِيًا إِلَّا دَاعِيًا، وَلَا غَانِمًا إِلَّا خَائِبًا، وَلَا نِعْمَةً إِلَّا وَمَعَهَا بُؤْسٌ، وَلَوْ كَانَ يُمِيتُ النَّاسَ الدَّاءُ؛ لِأَحْيَاهُمْ الدَّوَاءُ؛ فَهَلْ لَكُمْ فِي الْعِلْمِ الْعَلِيمِ؟ قِيلَ مَا هُوَ؟ قَدْ قُلْتَ فَأَصَبْتَ، وَأَخْبَرْتَ فَصَدَقْتَ، فَقَالَ: أُمُورًا شَتَّى، وَشَيْئًا شَيْءًا، حَتَّى يَرْجَعَ الْمَيِّتُ حَيًّا، وَيَعُودَ لَا شَيْءَ شَيْءًا، وَلِذَلِكَ خُلِقَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتُ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ رَاجِعِينَ، فَقَالَ: وَيْلُمُّهَا⁽¹⁾ نَصِيحَةٌ لَوْ كَانَ مَنْ يَقْبَلُهَا⁽²⁾.

فَنلاحظ كيف كان الجواب مناسبةً للتوسُّع في القول، وللعمل على تحويل المُخاطَب وتغيير معتقداته ومجالِ ثَبَاتِهِ، وهي سياسة قوليةً دارجة وشائعة في الصُّدُور من موضوع أوَّل له مُخاطَبٌ مخصوص ثُمَّ التَّحَوُّل إلى موضوع آخر بتغيير المُخاطَب. وهو قولٌ مُجازٌ وتحويلٌ مقبولٌ من جهةٍ قائلَةٍ لها منزلة ووقع وأثر، فعامر بن الظَّرَبِ العَدَوَانِي ينتسب إلى قبيلة عَدَوَانَ العَدَنَانِيَّة، وهو من سادات مضر وقيس عيلان وحكيمُ العرب، وفاصلُ النِّزاع بين المتنازعين، وله أحكامٌ في الجاهلية أقرَّها الإسلامُ واعتمدها، وبسببٍ من ذلك فَقَدْ أُطْلِقَ عليه لقب «حكيم العرب» ولقب «قاضي العرب»، فكلامه لا يُطْلَقُ هَوَانًا ولا جَزَافًا، وإنَّما هو قولٌ له فعلٌ في الدَّوَاتِ المُخاطَبَةِ، ولذلك، فإنَّ قولَه نافذٌ، واجدٌ في مرحلةٍ أولى مَنْ يُنْصِتُ إليه ويتلقَّاه، ووَاجِدٌ في مرحلةٍ ثانية من هو قابلٌ للإيمان به والاعتقاد فيه. فَخُطِبَ الزَّوْاجُ يُسْتَمَدُّ تَحَقُّقُهَا وَفَاعِلِيَّتُهَا من هذه المنزلة التي يكون عليها المتكلم، ومن طبيعةِ صِلَتِهِ بِالْمُخاطَبِينَ، وهو بابٌ في البحث يحتاج إلى جهودٍ

(1) يقال للمستجاد ويلمه. أي ويل لأمه، لأب لك يريدون لا أب لك فركبوه وجعلوه كالشيء الواحد.

(2) جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة، 1/ -286 287.

جَمَّة، تُخَرِّجُ مَبْحَثَ الْخُطَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ التَّزْوِيقِ اللَّفْظِيِّ وَالْاِقْتِدَارِ التَّعْبِيرِيِّ إِلَى مَجَالٍ فِي الدِّرَاسَةِ يَهْتَمُّ بِالْوَاقِعِ التَّخَاطُبِيِّ وَدَوْرِهِ فِي تَصْوِيقِ الْقَوْلِ.

الوجهُ الأخيرُ الذي نَعْرِضُ لَهُ مِنَ الْخُطْبِ الاجتماعيَّةِ هُوَ خُطْبُ الوصايا، وهي نمطٌ مِنَ الْخُطْبِ مُخْتَلَفٌ، إِذْ هِيَ تَجْمِيعٌ لِخُلَاصَةِ تَجْرِبَةِ الْحَيَاةِ وَإِنْفَاذِهَا إِلَى الْوَرَثَةِ عِنْدَ اقْتِرَابِ الْمَمَاتِ، أَوْ عِنْدَ مَوْقِفٍ مِنَ الْحَيَاةِ يَقْتَضِي التَّوَصِيَّةَ، وَهِيَ خُطْبٌ شَائِعَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ، يَعْمَدُونَ إِلَيْهَا فِي قَوْلٍ بَلِيجٍ مُفِيدٍ يَكُونُ فِيهَا الْمُخَاطَبُ مَعْلُومًا مَقْصُودًا بِالْوَصِيَّةِ الَّتِي هِيَ فِي عَمُومٍ مَا اسْتَتَهَرَ مِنْهَا لَا تَعْنَى بِالْمَالِ وَلَا بِالرِّزْقِ، وَإِنَّمَا عَنَائَتُهَا تَتَوَجَّهُ نَحْوَ قِيَمٍ اعْتِبَارِيَّةٍ فِي الْحَيَاةِ وَعَرَضٍ تَجْرِبِ الصَّعَابِ وَاخْتِبَارٍ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْرِضَ لِلْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ. تَكُونُ الدَّاتُ الْمُتَكَلِّمَةُ هِيَ مَدَارُ الْخُطْبَةِ، إِذْ تُعَقَّدُ عَلَيْهَا، وَقَدْ عُرِّفَتِ الْوَصِيَّةُ بِأَنَّهَا «مَا تُوجَّهُ إِلَى إِنْسَانٍ أَثِيرَ لَدَيْكَ مِنْ ثَمَرَةِ تَجْرِبَةٍ وَحِكْمَةٍ وَارْشَادٍ»⁽¹⁾، وَهِيَ أَيْضًا «ضَرْبٌ مِنَ الْأَدَبِ النَّثْرِيِّ الَّذِي يَقْتَرِبُ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي مَنْحَاهِ، يَتَوَجَّهُ بِهِ الرَّئِيسُ أَوِ الْقَائِدُ لِقَوْمِهِ سَاعَةً يَرَى ضَرُورَةَ ذَلِكَ، أَوِ الْأَبَ لِأَوْلَادِهِ عِنْدَمَا يُحْسُنُ أَنَّهُ مُفَارِقُهُمْ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ هَذِهِ الْوَصَايَا أَنْ تُصْبِحَ لَدَيْهِمْ دَسْتُورًا يَهْتَدُونَ بِهِ»⁽²⁾ - وَتُصَنَّفُ الْوَصَايَا عَلَى أَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ الْخُطْبِ، هَكَذَا صَنَّفَهَا الْأَقْدَمُونَ وَالْمُحَدِّثُونَ⁽³⁾، إِذْ هِيَ

(1) القيسي (نوري) وآخرون: تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، (جامعة بغداد، العراق، ط2، 2000)، ص 439.

(2) النجار (محمد رجب): النثر العربي القديم من الشفاهية إلى الكتابة، (مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، بيروت، ط1، 1999)، ص 53.

(3) مناع (هاشم صالح): النثر في العصر الجاهلي، (دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993)، 107.

مُنَجَّرُ قَوْلِي شَفَوِيَّ يَتَوَجَّه به متكلِّمٌ مخصوصٌ إلى مخاطبٍ معلومٍ لغاية إفادته بخلاصة تجربته في الحياة، واستخلاص أهمِّ نتائج تجاربه وعرضها في شكلٍ حكَمِيٍّ بليغٍ.

وَمِنَ الوصايا التي دَوَّنَها الذَّاكرة العربيَّة، وصيَّة عامِر بن الظَّرَبِ العُدَوَانِيَّ (وقد سبق ذكره) إلى قومه، وقد تقدَّم به العُمَرُ وخشي قومه أن يفقدوا بِفَقْدِهِ عَصَاةَ اختباره للحياة، فطلبوا منه أن يُرشدَهم، وأنَّ يترك لهم من يحلَّ محلَّه من بعده، وقالوا له:

«إِنَّكَ سَيِّدُنَا وَقَائِلُنَا وَشَرِيفُنَا؛ فَاجْعَلْ لَنَا شَرِيفًا وَسَيِّدًا وَقَائِلًا بَعْدَكَ»، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ عُدَوَانٍ: كَلَّفْتُمُونِي بَغِيًّا، إِنْ كُنْتُمْ شَرَفْتُمُونِي فَإِنِّي أَرَيْتُكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي؛ فَأَنَّى لَكُمْ مِثْلِي؟ افْهَمُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ، إِنَّهُ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ لَمْ يَجْتَمِعَا لَهُ، وَكَانَ الْبَاطِلُ أَوْلَى بِهِ، وَإِنَّ الْحَقَّ لَمْ يَزَلْ يَنْفِرُ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَمْ يَزَلْ الْبَاطِلُ يَنْفِرُ مِنَ الْحَقِّ. يَا مَعْشَرَ عُدَوَانٍ: لَا تَشْمَتُوا بِالذُّلَّةِ، وَلَا تَفْرَحُوا بِالْعِزَّةِ، فَبِكُلِّ عَيْشٍ يَعْيشُ الْفَقِيرُ مَعَ الْغَنِيِّ، وَمَنْ يَرِ يَوْمًا يَرِبَهُ⁽¹⁾، وَأَعِدُّوا لِكُلِّ امْرِئٍ جَوَابَهُ، إِنَّ مَعَ السَّفَاهَةِ النَّدَامَةَ، وَالْعُقُوبَةَ نَكَالًا وَفِيهَا ذِمَامَةٌ⁽²⁾، وَلِلْيَدِ الْعُلْيَا⁽³⁾، الْعَاقِبَةُ، وَالْقَوْدُ⁽⁴⁾ رَاحَةٌ، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِذَا شِئْتَ وَجَدْتَ مِثْلَكَ، إِنَّ عَلَيْكَ كَمَا أَنَّ

(1) أي من رأى يومًا عدوه رأى مثله على نفسه.

(2) الذمامة بالفتح وكسر، والذمة: العهد، والكفالة: والحق، والحرمة.

(3) اليد العليا المعطية، والسفلى: السائلة، وفي الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، وهو حث على الصدقة.

(4) القود: القصاص.

لَكَ، وَلِلْكَثْرَةِ الرُّعْبُ، وَلِلصَّبْرِ الْغَلْبَةُ، وَمَنْ طَلَبَ شَيْئًا وَجَدَهُ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْهُ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ قَرِيبًا مِنْهُ»⁽¹⁾.

يُبدِي هذا القول صُورَةً لِمَتَكَلَّمْ قَدْ خَبِرَ الْحَيَاةَ وَأَدْرَكَ تَفَاصِيلَهَا وَعَمَلَ عَلَى اخْتِصَارِهَا وَإِيجَازِهَا فِي وَجِيزٍ مِنْ بَلِيغِ الْقَوْلِ، وَفِي الْمُقَابِلِ فَإِنَّ صِيَاعَةَ الْوَصِيَّةِ تُظْهِرُ أَيْضًا صُورَةً لِمُخَاطَبِ مُؤْمِنٍ بِقَوْلِ الْقَائِلِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَوْكِيدٍ وَإِقْنَاعٍ. فَكَانَتِ الْوَصِيَّةُ عَامَّةً شَاقَّةً عَنْ عِلَاقَةِ تَخَاطُبِيَّةِ قَوَامِهَا التَّصَالِحِ وَالتَّوَادُّ وَإِيمَانِ الْمُتَكَلِّمِ بِضُرُورَةِ تَوْعِيَةِ أَهْلِهِ وَإِرْشَادِهِمْ حُسْنَ السَّبِيلِ، وَاعْتِقَادُ الْمُخَاطَبِينَ فِي حِكْمَةِ الْمُتَكَلِّمِ وَرُؤْيِيَّتِهِ وَرَأْيِهِ.

وَلِلْمَرْأَةِ نَصِيبٌ مِنَ الْخُطَابَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، لَمْ تَكُنْ بَائِنَةً فِي خُطْبِ الزَّوْاجِ وَلَا فِي خُطْبِ الصُّلْحِ بَيْنِ الْأَفْرَادِ، وَإِنْ كَانَ لِلْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَدْوَارٌ فِي الْقَضَاءِ بَيْنِ الْمُتَنَازِعِينَ⁽²⁾، غَيْرَ أَنَّهَا نَجَدَ لَهَا صَوْتًا بَائِنًا جَلِيًّا فِي خُطْبِ الْوَصَايَا فِي مَنَاسِبَاتٍ تَقْتَضِي مِنَ الْمَرْأَةِ الْحَكِيمَةِ أَنْ تُوصِي،

(1) النيسابوري (أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني): مجمع الأمثال، تحقيق محي الدين عبد الحميد، (مطبعة السنة المحمدية، 1955)، 320/2.

(2) وقد أشار الجاحظ في أكثر من موضع في كتاب البيان والتبيين إلى هذا الدور الذي كانت تؤديه المرأة، فمن ذلك مثلاً أنه يقول في حكمة العرب ابنة عامر بن الظرب العدواني: «وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْإِنْتِفَاعِ بِالْعَصَا أَنَّ عَامِرَ بْنَ الظَّرْبِ الْعُدَوَانِيَّ حَكَّمَ الْعَرَبَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لَمَّا أَسَنَّ وَاعْتَرَاهُ النَّسِيَانُ، أَمَرَ ابْنَتَهُ أَنْ تَقْرَعَ الْعَصَا إِذَا هُوَ فَهَّ عَنِ الْحَكْمِ، وَجَارَ عَنِ الْقَصْدِ، وَكَانَتْ مِنْ حَكِيمَاتِ بَنَاتِ الْعَرَبِ، حَتَّى جَاوَزَتْ فِي ذَلِكَ بِمَقْدَارِ صُحْرٍ بِنْتِ لُقْمَانَ وَهَنْدِ بِنْتِ الْخُسِّ وَجُمُعَةِ بِنْتِ حَابِسِ بْنِ مُلَيْلِ الْإِيَادِيِّينَ». الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق، عبد السلام هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة 1998)، 38/2.

ولعلَّ أهمَّ هذه المناسبات هي مناسبة تزويج البنت، ومفارقة بيت أهلها لتؤسَّس بيتها وتبني عالمها الذي يخصُّها، ومن أمثلة هذه الوصايا وصيَّة أمانة بنت الحارث لابنتها أمَّ إياس، عندما حُملت إلى زوجها، إذ قالت لها موصيَّة:

«أَيُّ بُنْيَةٍ: إِنَّ الْوَصِيَّةَ لَوْ تُرِكَتْ لِفُضِّلَ أَدَبٌ، تُرِكَتْ لِدَلِيلِكَ مِنْكَ؛ وَلَكِنَّهَا تَذَكِّرُ لِلْغَافِلِ، وَمَعُونَةٌ لِلْعَاقِلِ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً اسْتَعْنَتْ عَنِ الزَّوْجِ لَغَنَى أَبَوَيْهَا، وَشِدَّةَ حَاجَتِهِمَا إِلَيْهَا، كُنْتُ أَغْنَى النَّاسَ عَنْهُ؛ وَلَكِنَّ النِّسَاءَ لِلرِّجَالِ خُلُقْنَ، وَلَهُنَّ خُلُقُ الرِّجَالِ. أَيُّ بُنْيَةٍ: إِنَّكَ فَارَقْتَ الْجَوْ الَّذِي مِنْهُ خَرَجْتَ، وَخَلَفْتَ الْعُشَّ الَّذِي فِيهِ دَرَجْتَ، إِلَى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِهِ، وَقَرِينَ لَمْ تَأْلَفِهِ، فَأَصْبَحَ بِمَلِكِهِ⁽¹⁾ عَلَيْكَ رَقِيبًا وَمَلِيكًا؛ فَكُونِي لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكَ عَبْدًا وَشِيكًا⁽²⁾. يَا بُنْيَةٍ: احْمَلِي عَنِّي عَشْرَ خِصَالٍ تَكُنْ لَكَ دُخْرًا وَذِكْرًا، الصُّحْبَةُ بِالْقَنَاعَةِ، وَالْمُعَاشَرَةُ بِحُسْنِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالتَّعَهُدُ لِمَوْقِعِ عَيْنِهِ، وَالتَّفَقُّدُ لِمَوْضِعِ أَنْفِهِ؛ فَلَا تَقْعُ عَيْنُهُ مِنْكَ عَلَى قَبِيحٍ، وَلَا يَشْمُ مِنْكَ إِلَّا أَطْيَبَ رِيحٍ، وَالْكُحْلُ أَحْسَنُ الْحُسْنِ، وَالْمَاءُ أَطْيَبُ الطَّيِّبِ الْمَفْقُودِ، وَالتَّعَهُدُ لَوَقْتِ طَعَامِهِ، وَالْهُدُوءُ عَنْهُ عِنْدَ مَنَامِهِ؛ فَإِنَّ حَرَارَةَ الْجُوعِ مَلْهَبَةٌ، وَتَنْغِيصُ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ، وَالِاخْتِفَازُ بِبَيْتِهِ وَمَالِهِ، وَالِإِرْعَاءُ عَلَى نَفْسِهِ وَحَشْمُهُ وَعِيَالِهِ؛ فَإِنَّ الْإِحْتِفَازَ بِالْمَالِ حَسَنُ التَّقْدِيرِ، وَالِإِرْعَاءُ عَلَى الْعِيَالِ وَالْحَشْمُ جَمِيلُ حُسْنِ التَّدْبِيرِ، وَلَا تُفْشِي لَهُ سِرًّا، وَلَا تَعْصِي لَهُ أَمْرًا؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَفْشَيْتَ سِرَّهُ، لَمْ تَأْمَنِ غَدْرَهُ، وَإِنْ عَصَيْتَ أَمْرَهُ، أَوْغَرْتَ صَدْرَهُ، ثُمَّ انْقَيَّ مِنْ ذَلِكَ الْفَرْحِ إِنْ كَانَ تَرَحًّا، وَالْاِكْتِتَابُ عِنْدَهُ إِنْ كَانَ فَرَحًا؛ فَإِنْ

(1) أملكه إياها: زوجه فملكها ملكًا، مثلث الميم.

(2) الوشيك، السَّرِيع: أي يكن عبدًا سريع الإجابة.

الْخَصْلَةَ الْأُولَى مِنَ التَّقْصِيرِ، وَالثَّانِيَةَ مِنَ التَّكْدِيرِ، وَكُونِي أَشَدَّ مَا تَكُونِينَ لَهُ إِعْظَامًا، يَكُنْ أَشَدَّ مَا يَكُونُ لَكَ إِكْرَامًا، وَأَشَدَّ مَا تَكُونِينَ لَهُ مُوَافَقَةً، يَكُنْ أَطْوَلَ مَا تَكُونِينَ لَهُ مُرَافَقَةً، وَاعْلَمِي أَنَّكَ لَا تَصِلِينَ إِلَى مَا تُحِبِّينَ، حَتَّى تُؤْثِرِي رِضَاهُ عَلَى رِضَاكَ، وَهَوَاهُ عَلَى هَوَاكَ فِيمَا أَحْبَبْتَ وَكَرِهْتَ، وَاللَّهُ يَخِيرُ لَكَ»⁽¹⁾.

تستمدُّ النصيحة ثباتها وبقاءها من صورة للمرأة الموصية تُنفذ كلامها وتجعل السامع يتقبل نصحتها ووصاياها، فالخطبة الوصية تجاوزت الصلة الثنائية النسبية، بين أم خيرة بالحياة وابنتها الداخلة عالم الزواج وإقامة حياة خاصة بها، لتصبح وصية مشهورة معلومة، يمكن أن يضرب بها المثل في غير المقام الذي تخلقت فيه، هذه المرأة صاحبة القول هي امرأة من نساء العرب الحكيمات الأصيلات، وقد عُرفت بممكن علاقتها النسبية بالرسول عليه الصلاة والسلام، فهي «أُمَامَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ حَزَنٍ الْهَلَالِيَّةِ، أُخْتُ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَذَا قَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ فَوَهِمَ، وَصَحَّفَ، قَالَهُ أَبُو عُمَرَ، وَقَالَ: لَا أَعْلَمُ لِمَيْمُونَةَ أُخْتًا اسْمُهَا أُمَامَةُ مِنْ أَبِي وَلَا أُمُّ، إِنَّمَا أَخَوَاتُهَا مِنْ أَبِيهَا: لُبَابَةُ الْكُبَرَى زَوْجِ الْعَبَّاسِ، وَلُبَابَةُ الصُّغْرَى أُمُّ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَثَلَاثُ أَخَوَاتٍ سِوَاهُمَا مَذْكُورَاتٍ، وَلَهُنَّ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ مِنْ أُمَّهِنَّ تَمَامَ تِسْعِ أَخَوَاتٍ»⁽²⁾.

(1) جمهرة خطب العرب: 1/ 145-146

(2) ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجذري): أسد الغابة في معرفة الصحابة، (دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2012)، ص 1477.

وبغض النظر عن صحّة صلة قرابتها بالرّسول، فإنّها قد اكتسبت منزلةً من مُعاصرتها للرّسول عليه الصّلاة والسّلام ولحاقها به، فأغلب موسوعات الحديث النبويّ الشريف تروي هذه الحادثة، ممّا يدلّ على منزلة رقتّها لأخذ وصاياها وإشاعتها، وحُسن تلقّيها.

إنّ هذا التّمط من الخطب الوصايا لا يُلقي في العادة على عموم المخاطبين، وإنّما هو خطابٌ متوجّه به إلى جهةٍ مخصوصة، تكون في مألوف الوصايا من أسرة الموصي، ويغلب عليه وضوح العبارة ومباشرة المعاني. وقد تناقلت مصنّفات النثر العربيّ عيونا من الخطب الوصايا لعقلاء العرب وحكمائهم في الجاهليّة والإسلام، فمنهم وصيّة أكنم بن صيفي لقبيلته طيء التي كان مطلعها:

«أوصيكم بتقوى الله وصلّة الرّحم، وإياكم ونكاح الحمقاء، فإنّ نكاحها غررٌ ووُلدها ضياع»⁽¹⁾، ومنها وصيّة ذي الإصبع العدواني لابنه أسيّد، التي قالها عند احتضاره، وكان مطلعها: «يا بُنيّ إنّ أباك قد فني وهو حيٌّ، وعاش حتّى سئم العيش وإنّي موصيك بما إنّ حفظته بلغت في قومك ما بلغته»⁽²⁾، ومنها وصيّة زهير بن جناب الكلبيّ المليئة بالمواعظ والحكم، وقد كانت فاتحتها، «يا بُنيّ قد كبرت سنّي وبلغت حرّسا»⁽³⁾ من دهرِي، فأحكمتني التجارب، والأُمور تجرّبة واختبار، فأحفظوا عني ما أقوله وعوّه، إياكم والخور عند المصائب،

(1) جمهرة خطب العرب، 1/ -305 306.

(2) م.ن. 1/ 46.

(3) الحرس من الدهر: الطويل، وحرس: كسمع عاش زمنا طويلا.

وَالْتَّوَاكُلُ عِنْدَ النَّوَائِبِ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ لِلْغَمِّ، وَشِمَاتَةٌ لِلْعَدُوِّ، وَسُوءُ ظَنْنٌ بِالرَّبِّ»⁽¹⁾.

إنَّ هذه الخُطْبَةَ الوصِيَّةَ وغيرها من الخُطَبِ المتَّصِلَةِ بالمَوْضُوعِ ذاتِهِ تَرْتَكِزُ عَلَى عُنْصَرَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ، الْأَوَّلُ هُوَ بَيَانُ عَمَقِ التَّجَرُّبَةِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الْمُتَكَلِّمُ وَنَجَاحُهَا، وَالثَّانِي هُوَ اخْتِصَارُ هَذِهِ التَّجَرُّبَةِ فِي عَرْضِ حَكْمِيٍّ وَعَظِيٍّ، فَمَا كَانَ مُحَدِّدٌ وَمَوْجَّهٌ لِمَا يَكُونُ، وَالذَّاتُ تَتَحَوَّلُ إِلَى نَمُودَجٍ وَمِثَالٍ يُقْتَدَى بِخَبْرَتِهِ وَيُهْتَدَى، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا النَّمَطَ الْخُطْبِيَّ عَلَى نَقِيضِ النَّمَطَيْنِ السَّابِقَيْنِ (خُطْبُ الصُّلْحِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ، وَخُطْبُ النِّكَاحِ)، تَحْضُرُ فِيهِ ذَاتُ الْمُتَكَلِّمِ، مِنْ حَيْثُ هِيَ مَرْجِعٌ وَمَقْتَدَى، وَتَحْضُرُ فِيهِ أَيْضًا ذَاتُ الْمُخَاطَبِ إِعْلَانًا نَصِيًّا مِنْ حَيْثُ هِيَ وَجْهَةُ الْخِطَابِ وَمِنْ حَيْثُ هِيَ الْجَهَةُ الْخَاصَّةُ الْمَعْنِيَّةُ بِالْوَعْظِ وَالتَّوْجِيهِ.



(1) جمهرة خطب العرب 1/ 289.



الخطابة الدينية.

الخطابة الدينية فرعٌ من الخطابة يتميز بالوفرة والتشوّع ومدارها حول الدين، ينعّتها البعض بالخطب المنبرية أو بالخطب المسجدية، وفيها من الخطب الجليّة ما به تظّهّر بلاغة المتكلّم وقدرته على الإنجاز القوليّ. والخطابة الدينية قد تناولت مجالات مختلفة حتّى صارت من قبيل الأسلوب الذي يتوحّاه المتكلّم وإن لم يكن في مقام ديني، فلا تخلو الخطب السياسيّة أو الخطب الاجتماعيّة من خطابة تتلبّس في قسم منها أو في أقسام منها بجبّة الخطبة الدينية، ولذلك فإنّا في هذا القسم من البحث نعرّض فقط إلى الخطابة التي كانت في مقام ديني، مثل خطب الجمعة أو خطب الأعياد أو الخطب الصادرة عن شخصيّات دينيّة ولا نعرّض إلى الخطب التي وظّفت الأسلوب الخطابيّ الديني، وأجرّته في حُطّة إنجاز قولها، غير أنّها تدخّل في مقامات ومقاصد غير دينيّة، مثل الخطب ذات المنحى السياسيّ التي كثيرًا ما استخدّمت الأسلوب الخطابيّ الدينيّ.

لقد كانت منطقة شبه الجزيرة العربيّة فضاءً احتوى الرّسالة المحمّدية، وفيها تنزّل القرآن الكريم، وفيها كانت رسالة الرّسول

مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَدَّى الْأَمَانَةَ وَتَكَوَّنَ فِي مَقَامِهِ نُجْبَةٌ مِنْ حَمَلَةِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ، مِنْهُمْ مَنْ عَاصَرَ الرَّسُولَ وَعَايَشَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَتَى بَعْدَهُ وَتَسَلَّحَ بِعِلْمٍ وَوَعْيٍ وَدِينٍ خَاضَ فِيهِ عِبْرَ خُطْبِ حِفْظِهَا التَّارِيخُ وَرَسَخَهَا، فَتَكَوَّنَتْ بِهَذَا التَّرَاكُمِ الْمَرْجِعِيُّ لِرُمُوزِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ خُطْبٌ لِشَخْصِيَّاتٍ لَهَا مَنَازِلُ دِينِيَّةٌ نَافِذَةٌ فِي فِضَاءِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَكَوَّنَتْ مَدُونَةٌ خُطَابِيَّةٌ إِسْلَامِيَّةٌ صَارَتْ مَرْجِعًا وَحِجَّةً لَطَالِبِ النَّفْقَةِ فِي الدِّينِ، وَاحْتَلَّتْ مِنَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَكَانَةَ الْأَصْلِ وَالْمَنْبَعِ.

إِنَّ الْأَسَاسَ الْأَوَّلَ لِلخُطَابَةِ الدِّينِيَّةِ هُوَ الرَّسُولُ -مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنْ مَنْزِلَةِ دِينِيَّةٍ جَعَلَتْهُ الْقَائِمَ عَلَى أَمْرِ الرِّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُتَعَهِّدِ الْأَسَاسَ بِتَبْلِيغِهَا التَّبْلِيغَ التَّامَّ وَإِنْفَاذِهَا التَّفَازَ الْكَامِلَ، وَكَانَتْ الْخُطَابَةُ هِيَ الْوَاسِطَةُ الْأَسَاسَ لِتَعْلِيمِ النَّاسِ أَمْرَ دِينِهِمْ، وَوَضَعَهُمْ فِي مَسَارِ الدِّينِ الْجَدِيدِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْمَنَازِعِ الدِّينِيَّةِ، وَثَنِيَّةً أَوْ شِرْكًَا أَوْ تَوْحِيدًا، وَلِذَلِكَ كَانَتْ لِلرَّسُولِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خُطْبٌ حَمَلَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةَ وَأَبَانَتْ عَنْ مُتَكَلِّمٍ لَهُ مِنَ الْخِلَالِ وَالصِّفَاتِ مَا يُوَهِّلُهُ لِحَمْلِ النَّاسِ عَلَى التَّأَثُّرِ وَالْاِقْتِنَاعِ بِمَا يَقُولُهُ، وَكَانَ لِلْمُخَاطَبِينَ مَنَازِلُ مِنْهُ مُخْتَلِفَةٌ اقْتِرَابًا وَابْتِعَادًا مِنْ رِسَالَتِهِ، وَمِنْ دَعْوَتِهِ، وَهِيَ مَظَاهِيرُ تَبْدُو فِي الْخُطْبَةِ وَتُظْهَرُ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَ عَلَى ذَلِكَ مَثَالًا خُطْبَتَهُ وَقَدْ اسْتَهْلَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ، وَهِيَ خُطْبَتُهُ الْأُولَى الَّتِي دَعَا فِيهَا قَوْمَهُ جَهْرًا وَإِعْلَانًا، يَقُولُ:

«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ الرَّائِدَ⁽¹⁾ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ دَارٌ إِلَّا جَنَّةٌ أَوْ نَارٌ، وَخُلِقَ جَمِيعُ الْخَلْقِ وَبُعْثُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَخَلْقِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَبُعْثَهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»⁽²⁾.

لعلنا نلاحظ من هذه الخطبة التي افتتح بها الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- الدعوة الإسلامية تركز القول على أمرين هامّين على صلة بالذاتين التخاطبيتين المكوّنتين لأصل القول، ذات المتكلّم، وذات المخاطب. فأما المتكلّم، ومَرَجُعُهُ إِلَهِيٌّ، فهو يقع في دائرة مرجعية نبويّة، في هَرَمِ التَّعَهُّدِ بِأَمْرِ الدَّعْوَةِ الدِّينِيَّةِ، فَهُوَ الذَّاتُ الْمُخْتَارَةُ لِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وهو نبيّ في قومه، ولذلك كان رُكْنُ هَامٍّ من قوله قائمًا على بيان انتسابه إلى الذّوات المُخاطَبة، هذه الذّوات المخصوصة بالدّعوة.

وأما المُخاطَبُ فهو واقعٌ في دائرة الشُّرْكِ، الجاهل بالطَّرِيقِ القويم، وبوجودِ آخِرَةٍ فيها جزاءٌ أو عقابٌ وهما أبدَيان، ولذلك لاحظنا في إنجاز القول أنّ العلاقة التخاطبيّة بين طرفي الخطاب ليست قائمةً على التّصديق بل قوامها التّكذيب. يظهر ذلك من خلال توسّل المتكلّم بعددٍ من أدوات التّوكيد لتأكيد قوله، منها القَسَمُ ولام التّوكيد والمفعول المُطلق، وهي طريقةٌ في القول دالّةٌ في

(1) المرسل في طلب الكلا.

(2) ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني): الكامل في التاريخ، تحقيق، أبو صهيب الكرمي، (بيت الأفكار الدوليّة، عمّان- الأردن، الرياض- السعودية (د. ت.))، ص، 207.

أصل البلاغة العربيَّة على وجودِ مُخاطَبٍ مشحونِ الذَّهْنِ، واقعٍ من المتكلم موقع الرَّفَضِ، وواقعٍ مِمَّا يَقُولُهُ مَوْقِعَ التَّكْذِيبِ. مقامُ الخطبة الدينيَّة هو مقامٌ تخاطبيٌّ يختلف عن الخطب الاجتماعيَّة والسياسيَّة، المتكلم فيها هو صوتُ الحقِّ وراعي الدِّين، والمُخاطَبون يعتقدون في هذه الصُّورة التي يتلبَّسها المتكلم ويأتون إليه وفي أذهانهم صورة المرشدِ إلى الحقِّ الدَّاعي إلى الطَّريق القويمِ في عامَّة الخطب الدينيَّة بعد أن اسْتَقَرَّ الإسلام وثبتت أركانها، أمَّا حُطَبُ البدايات فإنَّها مختلفةٌ في وجودِ مخاطَبٍ مُنْكَرٍ أو متشكِّكٍ متردِّدٍ، كما هو الشَّانُ في خطبة الرِّسول محمَّد سالفه الذِّكر، فحُطَبُ بدايات الدعوة الإسلاميَّة لها شَأْنٌ خاصٌّ، ومداخلُ تضع المتكلم في منزلة حاملِ الرِّسالة السَّماويَّة، مبلَّغها، وتضع المُخاطَب في وضع الرَّافض.

إنَّ العلاقة التَّخاطبيَّة في الخطابة الدينيَّة محدَّدٌ هامٌّ لبنى الخطبة وطرائق صوغها، ولذلك، فقد اشتهرت حُطَبُ لأهل شبه الجزيرة العربيَّة كانت أُصُولاً للخطابة العربيَّة، فإضافةً إلى ما تركَّز من حُطَبٍ حَامِلٍ رِسالةِ الإسلام فإنَّ حُطَبًا لِصحابته وأعضاءِ دعوتِه قد تَنَوَّلَتْ في التُّراث العربيِّ، مثل حُطَب أبي بكر الصديق وحُطَب عمر بن الخطَّاب وحُطَب عليِّ بن أبي طالب في شُؤون الدِّين لا في شُؤون السِّياسة.

وهذه الحُطَب تحتاج مداخل تداوليَّة لدراستها وتعميق النَّظر فيها، إذ أنَّنا نعتقد أنَّ مقاربتها لحدِّ اليوم هي مقاربةٌ ضعيفةٌ تكاد تنحصر في المعاني الدينيَّة دون كبيرِ اهتمامٍ بالصِّلات التَّخاطبيَّة،

فخذُ مثلاً على ذلك خطبة الرسول في حجة الوداع، وقد أشاد أغلب دارسيها بمعانيها البليغة وحسن صوغها، ولا شك في ذلك، غير أن قيمة الخطبة لا تكمن في هذه البلاغة التي كانت عندهم وسيلةً فحوّلها اللاحقون إلى غايةٍ، وحتى ندرك قيمة هذه الخطبة كان علينا أن نصدر عن سؤالٍ مقلقٍ، وهو: لم يجعل الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - في خطبة وداعٍ وفراقٍ العادات والمساائل الاجتماعية محطّ تبئير، ويضرب عن التذكير والترسيخ والنوصية بالعبادات؟

إنّ خطبة الوداع أو خطبة حجة الوداع تظهر طبيعة العلاقات التخاطبية بين الخطيب المُفارق، الذي أدّى الرسالة وأكمل دوره في ترسيخ الإسلام، والمُخاطب الذي ما زالت بعض الشوائب في المعاملات تغلب عليه، أو هي تحتاج توصيةً من صاحب الدعوة، ومن هذه المعاملات الثأر - الربا - النسيء - معاملة المرأة - الميراث - التعامل المالي. فلعلنا نلاحظ أنّ الرسول لم يوص بالصلاة ولا بالحج ولا بالزكاة، ولا بكل ما له صلة بالعبادة، لأنّ العبادة هي صلة الإنسان بربه، ولا تحتاج توصيةً مادام المرء قد دخل الإسلام وقنع به، غير أنّ المتكلّم يعي حالات المخاطب وطبائعه، وهو عالمٌ أنّ غلبة العادات على الإنسان قد تفوق غلبة العبادات، ولذلك فإنّ مبدأ الثأر أو مبدأ الربا، أو النظرة الدونية للمرأة هي مسالك وأعراف ومعاملات يصعب التخلص منها، وخير دليل أنّها ما زالت قائمةً ليوم الناس هذا.

إِنَّ الْمُتَكَلِّمَ فِي الْخُطْبِ الدِّينِيَّةِ لَيْسَ مَعْبَرًا عَنْ ذَاتِهِ، وَلَا نَاطِقًا بِاسْمِهِ- وَإِنْ ظَهَرَتِ الْأَمَارَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمُتَكَلِّمِ- وَإِنَّمَا هُوَ رَجْعُ الصَّوْتِ الْإِلَهِيِّ، وَالْمُخَاطَبُ فِي الْخُطْبَةِ الدِّينِيَّةِ هُوَ الْمُخَاطَبُ مَفْتَرَضُ الْخَطِيئَةِ، وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ طَرِيقِ التَّخَاطُبِ قَائِمَةً عَلَى التَّحْذِيرِ وَالتَّنْبِيهِ وَالْوَعْظَ وَالتَّرْشِيدَ، فَالْمُخَاطَبُ هُوَ الْخَطَاءُ الْمُرْتَشِّحُ لِإِتْيَانِ الذَّنْبِ، وَالْمُتَكَلِّمُ هُوَ صَوْتُ الْهَدَايَةِ وَنُورُ الْحَقِّ، وَعَلَى هَذِهِ الْعِلَاقَةِ تُبْنَى الْخُطْبَةُ الدِّينِيَّةُ وَتُقَامُ عُنَاوَرُهَا، وَيَشْفَعُ الْمَقَامُ لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُنَزَّلَ الْمُخَاطَبِينَ الْمَنَازِلَ الَّتِي يَرَاهَا مُنَاسِبَةً. وَمِنْ هَذِهِ الْخُطْبِ الدِّينِيَّةِ الْأُولَى الَّتِي عُدَّتْ أَصُولًا لِلْخُطَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ خُطْبُ مَرْوِيَّةٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَهُوَ صَدِيقُ رَسُولِ اللَّهِ وَصَاحِبُهُ وَمِنْ أَوَائِلِ مَنْ صَدَّقَهُ فِي رِسَالَتِهِ، وَأَوَّلُ مَنْ خَلَفَهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ، فَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، «رَجُلًا مَأْلَفًا لِقَوْمِهِ، مُحِبًّا سَهْلًا، وَكَانَ أَنْسَبَ قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ، وَأَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِهَا، وَبِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَكَانَ رَجُلًا تَاجِرًا ذَا خُلُقٍ وَمَعْرُوفٍ، وَكَانَ رَجُلًا قَوْمِهِ يَأْتُونَهُ وَيَأْلَفُونَهُ لِعَيْفَرٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَمْرِ، لِعِلْمِهِ وَتَجَارِبِهِ وَحُسْنِ مُجَالَسَتِهِ، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ مَنْ وَثِقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ مِمَّنْ يَغْشَاهُ وَيَجْلِسُ إِلَيْهِ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ- فِيمَا بَلَغَنِي- عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، فَجَاءَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) حِينَ اسْتَجَابُوا لَهُ، فَأَسْلَمُوا وَصَلُّوا، فَكَانَ هَؤُلَاءِ الثَّمَانِيَّةُ، النَّفَرُ الَّذِينَ سَبَقُوا إِلَى الْإِسْلَامِ، فَصَلُّوا وَصَدَّقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ (ص) وَآمَنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ فِي الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، الرِّجَالُ مِنْهُمْ وَالنِّسَاءُ، حَتَّى فَشَا ذِكْرُ الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ وَتَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ»⁽¹⁾، وَكَانَ نَاصِحًا لِلنَّاسِ وَاعْظًا لَهُمْ، مُتَّكِنًا

(1). الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): تاريخ الرُّسُل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1967)، 2/ 317



على هذه المرجعية الدينية صُحِبَ للرَّسُول وأوليَّته في الإسلام حتَّى يُنْفِذَ قَوْلُهُ وَيُوجِّهَ المسلمين في أوَّل صِلَتِهِم بالإسلام الوجهة السَّليمة، ويحملهم على اتِّباع طريق الصَّواب، يقول في خُطبة له⁽¹⁾:

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، فَأُرِيدُوا اللَّهَ بِأَعْمَالِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أَخْلَصْتُمْ لَهُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَطَاعَةٌ أَنْتُمْ مَوْهَا، وَحَظٌّ ظَفِرْتُمْ بِهِ، وَضَرَائِبُ أَدَيْتُمْ مَوْهَا، وَسَلَفٌ قَدَمْتُمْ مَوْهُ، مِنْ أَيَّامٍ قَانِيَةٍ لِأُخْرَى بَاقِيَةٍ، لِحِينٍ فَقَرَكُم وَحَاجَتِكُمْ، اعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ بِمَنْ مَاتَ مِنْكُمْ، وَتَفَكَّرُوا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. أَيْنَ كَانُوا أَمْسٍ؟ وَأَيْنَ هُمْ الْيَوْمَ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ وَأَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا لَهُمْ ذِكْرُ الْقِتَالِ وَالْغَلْبَةِ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ؟ قَدْ تَضَعَّضَ بِهِمُ الدَّهْرُ، وَصَارُوا رَمِيمًا، قَدْ تَرَكْتَ عَلَيْهِمُ الْقَالَاتُ⁽²⁾ الْخَبِيثَاتُ، وَإِنَّمَا الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَأَيْنَ الْمُلُوكُ الَّذِينَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا؟ قَدْ بَعَدُوا، وَنَسِيَ ذِكْرَهُمْ، وَصَارُوا كَلًا شَيْءٍ؛ إِلَّا وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى عَلَيْهِمُ التَّبِعَاتِ، وَقَطَعَ عَنْهُمْ الشَّهَوَاتِ، وَمَضَوْا وَالْأَعْمَالُ أَعْمَالُهُمْ، وَالْدُنْيَا دُنْيَا غَيْرِهِمْ، وَبَقِينَا خَلْفًا مِنْ بَعْدِهِمْ؛ فَإِنْ نَحْنُ اعْتَبَرْنَا بِهِمْ نَجُونَا، وَإِنْ اغْتَرَزْنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ، أَيْنَ الْوِضَاءُ⁽³⁾ الْحَسَنَةُ وَجُوهُهُمْ، الْمُعْجَبُونَ بِشَبَابِهِمْ؟ صَارُوا ثُرَابًا، وَصَارَ مَا فَرَّطُوا فِيهِ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ، أَيْنَ الَّذِينَ بَنَوْا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحَوَائِطِ، وَجَعَلُوا فِيهَا الْأَعَاجِيبَ؟ قَدْ تَرَكُوهَا لِمَنْ خَلَفَهُمْ؛ فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ خَاوِيَةً، وَهُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْقُبُورِ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ، أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا⁽⁴⁾؟ أَيْنَ مَنْ

(1) م. ن. 3 / 224.

(2) القول: في الخيرة، والقال والقيل والقالة: في الشر.

(3) الوضياء جمع وضياء: وهو الحسن والنظيف.

(4) الصوت الخفي.

تَعْرِفُونَ مِنْ أَبْنَائِكُمْ وَأَخْوَانِكُمْ؟ قَدْ انْتَهَتْ بِهِمْ أَجَالُهُمْ، فَوَرِّدُوا عَلَى مَا قَدَّمُوا، فَحَلُّوا عَلَيْهِ، وَأَقَامُوا لِلشَّقْوَةِ وَلِلسَّعَادَةِ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ لَا شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ سَبَبٌ يُعْطِيهِ بِهِ خَيْرًا، وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُ بِهِ سُوءًا إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عبيدٌ مَدِينُونَ، وَأَنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، أَمَا وَإِنَّهُ لَا خَيْرَ بِخَيْرِ بَعْدَهُ النَّارِ، وَلَا شَرَّ بِشَرِّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ»⁽¹⁾.

وتدخل ضمن هذا المقام الخطابي الديني الوعظي حُطْبُ عديدة يعود أصحابها إلى شبه الجزيرة العربية انتساباً، فإضافةً إلى ما توفّر من حُطْبِ الرّسول وخلفائه الرّاشدين، فقد كان لصحبه آثارٌ في وسم هذه الحُطْبِ، ولعلنا نقصر التمثيل على هذه الظاهرة بحُطْبَةِ لِعُبَادَةِ بَنِ الصَّامِتِ، وهو صاحبُ الرّسول، ومن أوائل مَنْ بايعه وآخاه، يعود إلى بني غنم بن عوف من الخزرج، وكان شاهداً على كلّ الوقائع التي خاضها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، ومُساهماً فاعلاً في الفتوح الإسلاميّة، وصادحاً بالحقّ لا يخبو صوته، ولما قدّم على أهل حمص، قام في النّاس خطيباً، فحمد الله وصلى على النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، ثمّ قال: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ قَدْ اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمُ الشُّكْرَ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فِيمَا آتَاكُم مِنْ كَرَامَةِ الْآخِرَةِ وَالْدُنْيَا، عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ مِنْكُمْ لَهُ، وَلَا رَغْبَةٍ مِنْكُمْ فِيهِ إِلَيْهِ، فَخَلَقَكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئاً لِنَفْسِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَكَانَ قَادِرًا أَنْ يَجْعَلَكُمْ لِأَهْوَى خَلْقِهِ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ لَكُمْ عَامَّةَ خَلْقِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْكُمْ لشيءٍ غَيْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً،

(1) تاريخ الطبري: 315/2.

وَحَمَلَكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، ثُمَّ
جَعَلَ لَكُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ نِعَمٌ عَمَّ بِهَا بَنِي آدَمَ،
وَمِنْهَا نِعَمٌ اخْتَصَّ بِهَا أَهْلَ دِينِكُمْ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النِّعَمُ خَوَاصُّهَا
وَعَوَامُّهَا فِي دَوْلَتِكُمْ وَزَمَانِكُمْ وَطَبَقَتِكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ تِلْكَ النِّعَمِ نِعْمَةٌ
وَصَلَتْ إِلَى امْرئٍ خَاصَّةٌ إِلَّا لَوْ قَسَمَ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْهَا بَيْنَ النَّاسِ
كُلِّهِمْ أَتَعْبَهُمْ شُكْرُهَا، وَقَدَحَهُمْ حَقُّهَا، إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ، فَأَنْتُمْ مُسْتَخْلِفُونَ فِي الْأَرْضِ، قَاهِرُونَ لِأَهْلِهَا، قَدْ نَصَرَ اللَّهُ
دِينَكُمْ، فَلَمْ تُصْبِحْ أُمَّةٌ مُخَالَفَةً لِدِينِكُمْ إِلَّا أُمَّتَانِ، أُمَّةٌ مُسْتَعْبِدَةٌ
لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، يَجْزُونَ لَكُمْ، يَسْتَصِفُونَ مَعَاشِهِمْ وَكَدَائِحَهُمْ
وَرُشْحَ جِبَاهِهِمْ، عَلَيْهِمُ الْمُتُونَةُ وَلَكُمْ الْمُنْفَعَةُ، وَأُمَّةٌ تَنْتَظِرُ وَقَائِعَ اللَّهِ
وَسَطَوَاتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَدْ مَلَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ رُغْبًا، فَلَيْسَ لَهُمْ
مَعْقِلٌ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ، وَلَا مَهْرَبٌ يَتَّقُونَ بِهِ، قَدْ دَهَمَتْهُمْ جُنُودُ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ وَنَزَلَتْ بِسَاحَتِهِمْ، مَعَ رِفَاعَةِ⁽¹⁾ الْعَيْشِ، وَاسْتِفَاضَةِ الْمَالِ، وَتَتَابَعِ
الْبُعُوثِ، وَسَدِّ الثُّغُورِ بِإِذْنِ اللَّهِ، مَعَ انْعَافِيَةِ الْجَلِيلَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَمْ
تَكُنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى أَحْسَنِ مِنْهَا مُذْ كَانَ الْإِسْلَامُ، وَاللَّهُ الْمُحْمَدُ، مَعَ
الْفُتُوحِ الْعِظَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ فَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَعَ هَذَا شُكْرُ الشَّاكِرِينَ
وَذِكْرُ الذَّاكِرِينَ وَاجْتِهَادُ الْمُجْتَهِدِينَ، مَعَ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصَى
عَدُّهَا، وَلَا يُقَدَّرُ قَدْرُهَا، وَلَا يُسْتَطَاعُ آدَاءُ حَقِّهَا إِلَّا بِعَوْنِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ
وَلُطْفِهِ! فَسَأَلَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي أَبْلَانَا هَذَا، أَنْ يَرْزُقَنَا
الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، وَالتَّسَارِعَةَ إِلَى مَرْضَاتِهِ.

وَادْكُرُوا عِبَادَ اللَّهِ بَلَاءَ اللَّهِ عِنْدَكُمْ، وَاسْتَتِمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَفِي مَجَالِسِكُمْ مَثْنَى وَفَرَادَى، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِمُوسَى: «أَخْرِجْ

(1) رفع عيشه: اتسع، الرفاعة والرفاغية: سعة العيش.

قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ»، وقال لمحمد (ص): «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ»، فَلَوْ كُنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ مَحْرُومِينَ خَيْرَ الدُّنْيَا عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ الْحَقِّ، تَوَّامُونَ بِهَا، وَتَسْتَرِيحُونَ إِلَيْهَا، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَدِينِهِ، وَتَرْجُونَ بِهَا الْخَيْرَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، لَكَانَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَشَدَّ النَّاسِ مَعِيشَةً، وَأَتْبَتَهُمُ بِاللَّهِ جَهَالَةً فَلَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي اسْتَشْلَاكُمْ بِهِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ حَظٌّ فِي دُنْيَاكُمْ، غَيْرَ أَنَّهُ ثِقَةٌ لَكُمْ فِي آخِرَتِكُمْ الَّتِي إِلَيْهَا الْمَعَادُ وَالْمُنْقَلَبُ، وَأَنْتُمْ مِنْ جَهْدِ الْمَعِيشَةِ عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ أَحْرِيَاءُ أَنْ تَشْحُوا عَلَى نَصِيبِكُمْ مِنْهُ، وَأَنْ تَظْهَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَبَلَهُ مَا إِنَّهُ قَدْ جُمِعَ لَكُمْ فَضِيلَةُ الدُّنْيَا وَكَرَامَةُ الْآخِرَةِ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَأَذْكُرْكُمْ اللَّهُ الْحَائِلَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ إِلَّا مَا عَرَفْتُمْ حَقَّ اللَّهِ فَعَمَلْتُمْ لَهُ، وَقَسَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَلَى طَاعَتِهِ، وَجَمَعْتُمْ مَعَ السُّرُورِ بِالنِّعَمِ خَوْفًا لَهَا وَلَا نِتْقَالِهَا، وَوَجَلًا مِنْهَا وَمِنْ تَحْوِيلِهَا، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَسْلَبَ لِلنِّعْمَةِ مِنْ كُفْرَانِهَا، وَإِنَّ الشُّكْرَ أَمْنٌ لِلْغَيْرِ، وَنَمَاءٌ لِلنِّعْمَةِ، وَاسْتِجَابٌ لِلزِّيَادَةِ، هَذَا لِلَّهِ عَلَيَّ مِنْ أَمْرِكُمْ وَنَهْيِكُمْ وَاجِبٌ⁽¹⁾.

إنَّ مدار هذه الخطب على بيان عَرْضِيَّةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَبَدِيَّةِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ، تَتَفِيرًا مِنْ إِتْيَانِ سَيِّئِ الْأَعْمَالِ وَتَرْغِيْبًا فِي حَسَنِ الْأَفْعَالِ، وَهُمَا دَائِرَتَانِ يَضَعُ فِيهِمَا الْمُتَكَلِّمُ الدِّينِيَّ مَخَاطِبِيهَ، وَيُحَدِّثُ الْفَصْلَ بَيْنَهُمَا، دَائِرَةُ الدُّنْيَا وَارْتِبَاطُهَا بِالْعَرْضِيِّ وَدَائِرَةُ الْآخِرَةِ وَارْتِبَاطُهَا بِالْخُلُودِ، وَهَاتَانِ الدَّائِرَتَانِ مُرْتَبِطَتَانِ بِسَبِيلَيْنِ، سَبِيلُ الْخَيْرِ الَّذِي يُدْرِكُهُ الْمُتَكَلِّمُ وَسَبِيلُ الضَّلَالِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ

(1) تاريخ الطبري، 4/ - 216 218.

فيه المُخاطَب، وعلى هذا تدور أغلب الخطب، ويتفنن الخطباء في إيقاع التأثير بها، فالخطبة الدينية لا تحتاج كبير جهدٍ في التوسُّط بوسائل الإقناع، وإنَّما الحُجج فيها جاهزة فيما قاله الله بالنصِّ أو بالمعنى، وفي ما قاله الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- بالنصِّ أو بالمعنى، ولذلك فإنَّ المتكلِّم لا يُقنع بصورته ولا بوقعه ولا بمنزلته، وإنَّما تظلُّ ذاته غائبةً نصًّا، حاضرةً معنىً وأداةً.

في الآن ذاته فإنَّ صورة المخاطب في الخطابة الدينية هي صورة المرشَّح للوقوع في الإثم والزَّلل، هو خطَّاء بالضرورة، وخطاب الخطيب في جزء هامٍّ منه متركِّز حول إثبات إمكان الوقوع في الخطيئة المؤدِّية بالضرورة إلى سوء المنتهى، في رسم عالَمين تتجاذبهما معان متناقضة، عالَم الخطيئة، وفيه الذُّنوب والإساءة، والمعصية، والخروج عن جادة السَّبيل، ونتأججه العقاب الأبديُّ في الآخرة، وعالَم الفضيلة والخير وتتَّصل به معاني البرِّ والتَّقوى والعبادة وحسن المعاملة واقتداء سبيل السَّلف، ويؤدِّي إلى الجَنَّة وإلى الرضى الإلهيِّ.

لقد وَرَدَ في خطبة عُمر بن عبد العزيز، الخليفة الأمويِّ الصَّالح، الذي عُرف بهروبه إلى التَّقوى ونُفوره من مرغبات الدُّنيا، التي كان زاهدًا فيها، مُعْرِضًا عنها، حتَّى ألحقه البعض في الترتيب بالخلفاء الرَّاشدين، وهو مِن سُلالة شريفة من شبه الجزيرة العربيَّة، فهو سليلُ العائلة الأمويَّة من جهةٍ، ويُرَدُّ انتسابًا إلى عمر بن الخطَّاب من جهةٍ ثانية، وتقول سيرته أنَّه تربَّى في المدينة عند أخواله من بني الخطَّاب، وأنَّه أخذ علوم الفقه

والحديث هناك، وبسبب من هذه المرجعية ومن صورة المتكلم الدينية، ومن عمله على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، فإن قوله في المخاطبين نافذ وفاعل، يقول:

«مَا الْجَزَعُ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَمَا الطَّمَعُ فِيمَا لَا يُرْجَى، وَمَا الْحِيلَةُ فِيمَا سَيَزُولُ؟ وَإِنَّمَا الشَّيْءُ مِنْ أَصْلِهِ، فَقَدْ مَضَتْ قَبْلَنَا أَصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ أَصْلِهِ؟ إِنَّمَا النَّاسُ فِي الدُّنْيَا أَغْرَاضٌ تَنْتَضِلُ⁽¹⁾ فِيهِمُ الْمَنَآيَا، وَهُمْ فِيهَا نُهْبٌ لِلْمَصَائِبِ، مَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرِقَ⁽²⁾، وَيَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ، وَلَا يَنَالُونَ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقٍ أُخْرَى، وَلَا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ يَوْمًا مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِهَدْمٍ آخِرٍ مِنْ أَجَلِهِ، وَأَنْتُمْ أَعْوَانُ الْحَتُوفِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَأَيْنَ الْمَهْرَبُ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ؟ وَإِنَّمَا نَتَقَلَّبُ فِي قُدْرَةِ الطَّالِبِ، مَا أَصْغَرَ الْمُصِيبَةَ الْيَوْمَ، مَعَ عَظِيمِ الْفَائِدَةِ غَدًا، وَأَكْبَرَ خَبِيَّةِ الْخَائِبِ فِيهِ، وَالسَّلَامُ»⁽³⁾.

فندرك من هذه الخطبة وأمثالها كثير، أن المتكلم لا يبذل جهداً قولياً لإقناع المخاطبين بما يقول، وإنما القول يُعرض على أنه حقائق مطلقة، يؤدي المتكلم دور إدراكها والتذكير بها فحسب، فكأنه واسطة تنبيه وتحذير من مغبة الاسترسال في الاندماج في الدنيا ونسيان الآخرة، وتلك خصيصة الخطبة الدينية أنها تجعل الدنيا مطيئةً ووسيلةً إلى دوام آخرة فيها البقاء والخلود.

(1) جمع غرض: وهو الهدف، وانتضلت: تناضلت وتبارت في الرمي.

(2) شرق بريقه: غص.

(3) القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي): كتاب الأُمالي مع كتابي «ذيل الأُمالي» و«النوادر»، تحقيق: صلاح بن فتحي هلال، سيّد بن عبّاس الجليمي، مؤسّسة الكتّاب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (2001)، ص 359.

وتتبيّن لنا من خلال الخطبة صورُ المتخاطبين وطبيعةُ العلاقة الواصلة بينهما، فالمتكلّم -بالرّغم من منزلته السياسيّة- قد تلبّس لبوس الواعظ الدينيّ، رجل الدّين، وليس رجل الدّنيا، وصورته في التّاريخ تؤكّد أنّه لا يتوسّل بالخطاب الدينيّ مطيّةً لبلوغ مآرب سياسيّة، وإنّما أصّل الخطاب في مرجعيّته الدينيّة هو عرضيّة الدنيا واتّخاذها سبيلاً لتحقيق السّلامة وإرضاء الله عزّ وجلّ، وهي صورةٌ بدّت في خطبته، وبدّت أيضاً في جلّ أقواله المُسنّدة إليه، وتكتشفُ صورة المُخاطب الرّاضي، القانع، المؤمن بقول القائل، لا يعترض عليه ولا يرفضه، فهو مُخاطبٌ دينيٌّ أيضاً ينظر إلى القائل مرجعيّةً يقينيّةً صدقيّةً، يُنزّهه عن الكذب والزّور والمغالطة، ويَنأى به عن التّشكيك، لأنّه يتبوأ مرجعيّة مقدّسة ويُعبّر عن حقائق دينيّة لا تقبل التّكذيب أو التردّد. ولذلك كانت العلاقة التّخاطبيّة حاصلّة في مقام يقينيّ روحيّ دينيٍّ لا تؤثر فيه ولا نزاع.

الخطب الدينيّة عديدةٌ ومتنوّعةٌ، وقد سُخّرت في بداية الدّعوة الإسلاميّة لأجل تسيير أمور العباد، وضبط السُّنن والقوانين، وتبديل ما هو حالّ بما هو حادثٌ توافقاً مع الدّعوة الإسلاميّة وتماشياً معها، وتطوّرت من بعد ذلك لتعمّق مفاهيم دينيّة متنوّعة ولتعمّق الإيمان، ولتوضّح الثّنائيّة الأصليّة التي قامت عليها هذه الخطابة، وهي الدُّنيويّ والدينيّ، أو عالم الغيب وعالم الشّهادة، أو العرضيّ الزائل والدائم الباقي. غير أنّ هذا النمط الخطابيّ سيُتخذ في لاحق الزّمن أوّجهاً متعدّدة إذ يخرج من مضارب جزيرة العرب إلى بلاد الإسلام الحادثة، ويدخل في مقاماتٍ تخاطبيّةٍ

مَعْقَدَةٌ اجْتِمَاعِيًّا وَدِينِيًّا وَسِيَاسِيًّا، لَعَلَّ أَهَمَّ هَذِهِ الْأَوْجُهَ مَاثِلٌ فِي التَّوْظِيفِ الْمَذْهَبِيِّ وَالتَّوْظِيفِ السِّيَاسِيِّ لِلخُطَابَةِ الدِّينِيَّةِ.

وَفِي مَرَحَلَةٍ لَاحِقَةٍ مِنْ تَارِيخِ الْعَرَبِ، بَدَايَةً مِنْ حُكْمِ بَنِي أُمَيَّةٍ سَيَتَدَاخِلُ الْخُطَابَانِ الدِّينِيُّ وَالسِّيَاسِيُّ فِي مَسَارِ الْخُطَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ، هَذِهِ الْخُطَابَةُ السِّيَاسِيَّةُ الَّتِي تَتَشَكَّلُ بِقَصْدِيَّةٍ أَوْضَحَ، وَتُصْبِحُ أَدَاءً فَاعِلَةً فِي تَحْوِيلِ مَعْتَقَدَاتِ الْمَخَاطَبِينَ، وَحَمَلِهِمْ عَلَى التَّأَثُّرِ بِقَوْلِ الْمُتَكَلِّمِ، تَرْهِيْبًا وَتَرْغِيْبًا، إِقْنَاعًا وَتَأْثِيرًا، فِي خُطْبِ سَاسَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَ الْأَصْلِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يَنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَوْرُوثٍ هَذَا الْأَصْلِ الْبَلَاغِيِّ وَالْخُطَابِيِّ، وَاسْتَقْرَارِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَتَوْضُحِ مَعَالِمِهِ الْكُبْرَى.





الخطابة السياسية

الخطب السياسيّة هي الباب الواسع للخطابة في شبه الجزيرة العربيّة، وهي بابٌ من أبواب البحث البكر، يحتاج إلى جهود دراسيّة معمّقة، وقد كان هذا النّمط من الخطب حاضراً في شبه الجزيرة العربيّة بأشكال مختلفة، يبدأ بتلك الخطب التي كانت الوفود العربيّة تلقّيها، وهي شبيهة بما يُعرف اليوم برسائل الحملات الدبلوماسية، وتنتهي بخطب السّاسة وحكّام البلدان على المنابر، وقد توفّر في التراث العربيّ كمٌّ هائلٌ من هذه الخطب، منها ما هو بسيطٌ أداء يتوجّه نحو التزييق اللّغوي والتمتين البلاغيّ دون شدّة في تفعيل القول، وهذه الظّاهرة تشمل الخطب السياسيّة الجاهليّة أساساً، ومنها ما هو قليلٌ إعمال الأدوات البلاغيّة، والمحسنات القوليّة، شديدُ الفِعْل، قويُّ الأثر.

وأغلب هذه الظّاهرة متحقّق في الخطابة الأمويّة السياسيّة، فلقد «أصابَت الخطابة السياسيّة في عصر بني أميّة خطاً بعيداً من الازدهار والرّقّي، اتّبعَت فيه خطاً صاعداً، سواء في ناحية الكمّ أو في ناحية الكيف، فكان عصرُ بني أميّة لذلك، العصر الذهبي للخطابة

السِّيَاسِيَّةُ»⁽¹⁾، فَخُطِبَ السَّاسَةُ مِنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَمْتَدَّةً مِنْ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ، بَلْ وَإِلَى فُتُرَاتٍ لَاحِقَةٍ مِنَ التَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ لِشِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّا لِيُضَابِطِ مَنْهَجِيٍّ، مُكْرَهُونَ عَلَى الْوُقُوفِ عَلَى نَمُودَجٍ يُمَثِّلُ تَارِيخِيَّةَ هَذِهِ الْخُطَابَةِ وَقَدْ بَلَّغَتْ قُوَّتُهَا وَأَوْجَهَا وَمَنْزِلَتُهَا الرَّفِيعَةَ، وَهُوَ خُطْبُ السَّاسَةِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، ذَلِكَ أَنَّ الْخُطَابَةَ السِّيَاسِيَّةَ هِيَ الْوَجْهَ الَّذِي مَيَّزَ عَصْرَ بَنِي أُمَيَّةَ، «حَتَّى لِيُمْكِنَ الْقَوْلُ إِنَّ الْخُطَابَةَ السِّيَاسِيَّةَ فَنُّ أُمَوِيٍّ خَالِصٌ»⁽²⁾، اعْتُمِدَتْ أَدَاةً اسْتَعْمَلَهَا زَعَمَاءُ النَّحْلِ وَالْفِرْقِ الْمُتَصَارِعَةِ عَلَى الْخِلَافَةِ، وَكَانَتْ سُلْطَةً قَوْلِيَّةً يُوجِّهُهَا الْخُطَبَاءُ السِّيَاسِيُّونَ كَيْفَمَا أَرَادُوا.

وَيُمْكِنُ أَنْ نُثَمِّلَ عَلَى هَذَا النَّمَطِ مِنَ الْخُطَابَةِ الَّذِي سَادَ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِنُوعَيْنِ، النَّوْعُ الْأَوَّلُ هُوَ خُطْبُ الْوُفُودِ، وَالنَّوْعُ الثَّانِي هُوَ خُطْبُ الْقَادَةِ وَالسَّاسَةِ وَأُولِي الْأَمْرِ مِمَّنْ كَانَ لَهُمْ أَثَرٌ قَوْلِيٌّ يُسَايِرُ وَيُضَاهِي أَوْ يَفُوقُ أَحْيَانًا الْأَثَرَ الْفَعْلِيَّ.



(1) النَّصُّ إِحْسَانُ: الْخُطَابَةُ السِّيَاسِيَّةُ، (دَارُ الْفِكْرِ، دِمَشْقُ، سُورِيَا، (د. ت.))، ص 83.

(2) م. ن. ص 83.



خُطَب الوفود

وهي أقوالٌ تُلقى في مجالس الملوك والأمراء في مناسبات معلومة تهنئة أو مفاخرة، ويقوم بإنجازها خطيبٌ يُمثِّل وفدًا رسميًا لقبيلة أو عشيرة أو فئة بعينها، وقد ساد هذا النمط من الخطابة في شبه الجزيرة العربية منذ ما قبل الإسلام⁽¹⁾، وذكرت كتب الأدب أسماء برعت فيها وبُرِّزت، ومنها خطب عامر بن الظرب العدواني وأكثم الصيفي وحديفة بن بدر الفراري وحاجب بن زُرارة والحارث بن عَبَّاد وعمرو بن الشريد وخالد بن جعفر الكلابي وعَلَقَمَة بن عُلاثة الكلابي وقيس بن مسعود الشيباني وعامر بن الطفيل العامري وعمرو بن معد يكرب الربيدي والحارث بن ظالم المري، وغيرهم كثر، ممَّن أحسنوا القول في وفادتهم على كسرى أساسًا في عصر ما قبل الإسلام، وقد تواصلت خُطَب الوفود شكلاً تعبيرياً داخلاً في المقام السياسي في فترة الإسلام، في عصر صدر الإسلام والدولة الأموية والدولة العباسية، وكانت الوفود

(1) انظر على سبيل المثال الفصل الذي عقده صاحب كتاب **العقد الفريد** بعنوان «كتاب الجمانة في الوفود» 1/ 274، والذي ضمَّ فيه عيوناً من خُطَب الوفود في الجاهلية وفي الإسلام، منها وفود العرب على كسرى ووفود حاجب بن زُرارة على كسرى، ووفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر، ووفود قريش على سيف بن ذي يزن، والوفود على النبي وعلى الخلفاء الراشدين وعلى ملوك بني أمية.

تأتي الملوك لغايات متعددة وتنتقي من بينها شخصاً بليغاً حكيماً لتمثيلها، ويُمكن أن نعرض أمثلةً لهذا النمط الخطابي في كلِّ عصرٍ من العصور التي شهدت فيها البلاغة في شبه الجزيرة العربية أوج توهُّجها.

لقد تجسّدت في عصر ما قبل الإسلام علاقات قبائل شبه الجزيرة العربية مع الممالك المجاورة لها والإمارات المحاذية، في ما بقي من حُطْب الوفود التي أبقاها التاريخ وحفظتها الذاكرة الأدبيّة، ومن أبرزها خطبة أكتثم الصّيفيّ في مجلس كسرى، وأكثم الصّيفيّ بن رِيّاح بن الحارث بن مخاشن بن مُعاوية بن شريف بن جزوة بن أُسيد بن عمرو بن تميم، أحد حُكماء العرب بعد أبيه صيفيّ، وحكيمهم، ومُرشد بني تميم وهاديها وفارسها، وكان كبير السّبعة من رجال تميم الذين اجتمعوا وتدارسوا حال قومهم بعد يوم الصّفقة⁽¹⁾، وقد بلغه أمر الدّعوة الإسلاميّة، فسعى إلى الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ليُسَلِّم على يديه، بيد أنّه مات في الطريق السنة العاشرة قبل الهجرة، وهو صاحب القولة الشهيرة وقد بلغته الآية الكريمة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»⁽²⁾، قال: «يَا قَوْمُ، أَرَأَيْتُمْ، يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَيَنْهَىٰ عَنِ مَلَأْتُمَهُمَا، فَكُونُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ رُؤَسَاءَ، وَلَا تَكُونُوا أَذْنَابًا، وَكُونُوا فِيهِ أَوَّلًا وَلَا تَكُونُوا فِيهِ آخِرًا»، وفيه نزلت الآية الكريمة: «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَىٰ

(1) حسن (حسين): أعلام تميم، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980)، ص: 104.

(2) سورة النحل، الآية 90.

اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»⁽¹⁾.

وبسبب من منزلته تلك، وصِفته حكمةً وسداد رأيٍ فقد كان لسانَ قبيلته وصوتها الذي به تُلاقي الملوك والأمراء والوجهاء، في مختلف المناسبات التي تقتضي تمثيلاً ووفادةً. ومن بين خطب الوفود المعلومة والمشهورة في تاريخ ما قبل الإسلام، خطبته وقد سلف لكسرى أن ذمَّ العرب بخلالٍ فيهم، ونَعَثَهُم بنعوت تشيئهم وتحطُّ من قدرهم في حضور⁽²⁾ النُّعمان بن المنذر، ومايز بين العرب وبقية الأمم فأثبت فضلَ بقية الأمم على العرب، وبين ما في الأقوام من خصالٍ تُمجِّدها وما في العرب من خصالٍ تحطُّ من شأنها⁽³⁾، فغضب النُّعمان بن المنذر ودعَا وقدَّ ليخطب في

(1) سورة النساء، الآية 100.

(2) أعلام تميم، ص. 105: «في سنة 590 م (قبل الهجرة بنحو 33 سنة) كان أكثرهم زعيم الخطباء عند كسرى أبرويز، حين وفدت عليه وفود الروم والهند، وخطب كسرى ففضل قومه الفرس على جميع الأمم. وقام النعمان بن المنذر ملك الحيرة وخطب وفضل قومه العرب على جميع الأمم، فردَّ عليه كسرى بكلام نقص فيه العرب. فغادر النعمان المكان وعقد مؤتمرًا عربيًّا في الخورنق، وطلب من رجال العرب وخطبائهم أن ينطلقوا إلى كسرى ويحدثوه عن مآثر العرب وسجاياهم وأنهم على غير ما ظنَّ فيهم، وقال لهم: ليكن أول من يبدأ الكلام أكثرهم بن صيفي».

(3) العقد الفريد، 1/275. يقول: «فَقَالَ كَسْرَى -وَأَخَذَتْهُ عِزَّةُ الْمَلِك- يَا نُعْمَان، لَقَدْ فَكَّرْتُ فِي أَمْرِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَنَظَرْتُ فِي حَالَةِ مَنْ يَقْدِمُ عَلَيَّ مِنْ وَفُودِ الْأُمَمِ؛ فَوَجَدْتُ لِلرُّومِ حَظًا فِي اجْتِمَاعِ أَلْفَتِهَا، وَعَظَمِ سُلْطَانِهَا، وَكَثْرَةِ مَدَائِنِهَا، وَوُثْقِ بُيَانِهَا، وَأَنَّ لَهَا دِينًا يَبِينُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَبَرْدَ سَفِيهِهَا، يُقِيمُ جَاهِلَهَا، وَرَأَيْتُ الْهِنْدَ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ فِي حَكْمَتِهَا وَطِبِّهَا، مَعَ كَثْرَةِ أَنْهَارِ بِلَادِهَا وَثَمَارِهَا، وَعَجِيبِ صِنَاعَتِهَا، وَطِبِّ أَشْجَارِهَا، وَدَقِيقِ حَسَابِهَا، وَكَثْرَةِ عَدَدِهَا، وَكَذَلِكَ الصِّينَ فِي اجْتِمَاعِهَا، وَكَثْرَةِ صِنَاعَاتِ أَيْدِيهَا، وَفُرُوسِيَّتِهَا وَهَمَّتِهَا فِي آلَةِ الْحَرْبِ، وَصِنَاعَةِ الْحَدِيدِ، وَأَنَّ لَهَا مَلَكًا يَجْمَعُهَا، وَالتُّرْكَ وَالْخَزَرَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنْ سُوءِ الْحَالِ فِي الْمَعَاشِ، وَقِلَّةِ الرِّيفِ (أَرْضِ فِيهَا زَرْعٌ وَخَصْبٌ وَالسَّعَةِ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ) وَالثَّمَارِ

كسرى وَيُجَلِّي لَهُ مَنْزِلَةَ الْعَرَبِ وَيُوضِّحُ لَهُ قِيَمَهُمْ وَمَحَاسِنَ أَعْمَالِهِمْ
وَأَخْلَاقَهُمْ، وَنَصَّبَ عَلَى رَأْسِ الْخُطَبَاءِ أَكْثَمَ بْنَ صَيْفِيٍّ الَّذِي قَالَ:
«إِنَّ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ أَعَالِيَهَا، وَأَعْلَى الرِّجَالِ مُلُوكُهَا، وَأَفْضَلَ
الْمُلُوكِ أَعْمَلُهَا نَفْعًا، وَخَيْرَ الْأَزْمَنَةِ أَخْصَبُهَا، وَأَفْضَلَ الْخُطَبَاءِ
أَصْدَقُهَا، الصَّدْقُ مَنْجَاةٌ، وَالْكَذِبُ مَهْوَاةٌ، وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ⁽¹⁾، وَالْحَرْمُ
مَرْكَبٌ صَعْبٌ، وَالْعَجْزُ مَرْكَبٌ وَطِيءٌ، آفَةُ الرَّأْيِ الْهَوَى، وَالْعَجْزُ
مِفْتَاحُ الْفَقْرِ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ الصَّبْرُ، حُسْنُ الظَّنِّ وَرِطَةٌ، وَسُوءُ الظَّنِّ
عِصْمَةٌ، إِصْلَاحُ فُسَادِ الرِّعْيَةِ خَيْرٌ مِنْ إِصْلَاحِ فُسَادِ الرَّاعِي، مَنْ
فَسَدَتْ بَطَانَتُهُ كَانَ كَالْغَاصِّ بِالْمَاءِ، شَرُّ الْبِلَادِ بِلَادٌ لَا أَمِيرَ بِهَا، شَرُّ
الْمُلُوكِ مَنْ خَافَهُ الْبَرِيُّ، الْمَرْءُ يَعْجِزُ⁽²⁾ لِمَا مَحَالَةٌ⁽³⁾، أَفْضَلُ الْأَوْلَادِ
الْبَرَّةُ، خَيْرُ الْأَعْوَانِ مَنْ لَمْ يَرَأِ⁽⁴⁾ بِالنَّصِيحَةِ، أَحَقُّ الْجُنُودِ بِالنَّصْرِ

وَالْحُصُونِ، وَمَا هُوَ رَأْسُ عِمَارَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمَلَابِسِ، لَهُمْ مُلُوكٌ تَضُمُّ
قَوَاصِيَهُمْ، وَتُدَبِّرُ أَمْرَهُمْ، وَلَمْ أَرَ لِلْعَرَبِ شَيْئًا مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ فِي أَمْرٍ دِينٍ وَلَا
دُنْيَا، وَلَا حَرْمٍ وَلَا قُوَّةَ، وَمَعَ أَنَّ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَهَانَتِهَا وَذِلَّتِهَا، وَصَغَرِ هِمَّتِهَا مَحَلَّتِهِمْ
(حُلُّ الْمَكَانِ وَبِهِ يَحُلُّ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ) الَّتِي هُمْ بِهَا مَعَ الْوُحُوشِ النَّافِرَةِ، وَالطَّيْرِ
الْحَائِرَةِ، يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ مِنَ الْفَاقَةِ، وَيَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنَ الْحَاجَةِ، قَدْ خَرَجُوا
مِنْ مَطَاعِمِ الدُّنْيَا وَمَلَابِسِهَا وَمَشَارِبِهَا وَلَهْوِهَا وَلَذَاتِهَا؛ فَأَفْضَلُ طَعَامِ ظَفَرٍ بِهِ
نَاعِمُهُمْ لُحُومُ الْإِبِلِ الَّتِي يَغَافُهَا كَثِيرَةٌ مِنَ السَّبَاعِ، لِثِقَلِهَا، وَسُوءِ طَعْمِهَا، وَخَوْفِ
دَائِهَا، وَإِنْ قَرَى أَحَدُهُمْ ضَيْفًا عَدَّهَا مَكْرَمَةً وَإِنْ أَطْعَمَ أَكَلَةً عَدَّهَا غَنِيمَةً، تَنْتَقِ
بِذَلِكَ أَشْعَارَهُمْ، وَتَفْتَحِرُ بِذَلِكَ رِجَالَهُمْ، مَا خَلَا هَذِهِ التَّوَخُّيَّةَ الَّتِي أَسَّسَ جَدِّي
اجْتِمَاعَهَا، وَشَدَّ مَمْلَكَتَهَا، وَمَنَعَهَا مِنْ عَدُوِّهَا؛ فَجَرَى لَهَا ذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَإِنْ
لَهَا مَعَ ذَلِكَ آثَارٌ وَلِبَوسٌ، وَقَرَى وَحُصُونٌ، وَأُمُورٌ تُشَبِّهُ بَعْضَ أُمُورِ النَّاسِ -يَعْنِي
الْيَمَنَ- ثُمَّ لَا أَرَاكُمْ تَسْتَكِينُونَ عَلَى مَا بَيْنَكُمْ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْقِلَّةِ وَالْفَاقَةِ وَالْبُؤْسِ حَتَّى
تَفْتَحِرُوا وَتَرِيدُوا أَنْ تَنْزِلُوا فَوْقَ مَرَاتِبِ النَّاسِ»

(1) أي أصله اللجاجة، وهي تماحك الخصمين وتماديهما.

(2) من بابي شرب وسمع

(3) المحالة: الحيلة.

(4) المراءة: الملق والرياء.

عِظَامًا، نَفَعَلُ فِيهَا الْمَعْرُوفَ، وَجَعَلْنَا أَعَزَّ أَهْلَ الْمَشْرِقِ، وَأَكْثَرَهُمْ عَدَدًا؛ فَمَنْ يُفَاخِرُنَا فَلْيَعُدُّ مِثْلَ عَدَدِنَا. ثُمَّ جَلَسَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، أَجِبِ الرَّجُلَ، فَقَامَ ثَابِتٌ فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ خَلَقَهُ، قَضَى فِيهِنَّ أَمْرَهُ، وَوَسَّعَ كُرْسِيُّهُ عِلْمَهُ، وَلَمْ يَكُ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ، ثُمَّ كَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مَلُوكًا، وَاصْطَفَى مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولًا، أَكْرَمَهُمْ نَسَبًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا، وَأَفْضَلَهُمْ حَسَبًا؛ فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ، وَتَمَنَّهُ عَلَى خَلْقِهِ، فَكَانَ خَيْرَ اللَّهِ -تَعَالَى- مِنَ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ، فَأَمَّنَ بِهِ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ، أَكْرَمَ النَّاسِ أَنْسَابًا، وَأَحْسَنَ النَّاسِ وُجُوهًا، وَخَيْرُ النَّاسِ فِعَالًا، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ الْخَلْقِ اسْتِجَابَةً لِلَّهِ، حِينَ دَعَاهُ نَحْنُ؛ فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَوُزَرَاءُ رَسُولِهِ، نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مَنَعَ مَالَهُ وَدَمَهُ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللَّهِ أَبَدًا، وَكَانَ قَتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيرًا، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالسَّلَامَ عَلَيْكُمْ»⁽¹⁾.

إنَّ هذه الصَّلَةَ التَّوَاصِلِيَّةَ قَوْلًا، وَهَذَا التَّمَثِيلَ الْقَبْلِيَّ أَوْ الْعَشْرِيَّ فِي الْمَحَافِلِ الرَّسْمِيَّةِ، يُمَثِّلُ ظَاهِرَةً فِي الْحَيَاةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ، فَتَكْثُرُ الْوُفُودُ الَّتِي تَأْتِي الرَّسُولَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَتَتَكَلَّمُ فِي مَقَامِهِ، لِنُتْلِيَ إِسْلَامَهَا⁽²⁾، وَتُبَيِّنَ

(1) ابن الأثير (عزُّ الدِّينِ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزْرِيُّ الشَّيْبَانِيُّ): الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ، تَارِيخُ ابْنِ الْأَثِيرِ، تَحْقِيقُ: أَبُو صُهَيْبٍ الْكَرْمِيُّ، (بَيْتُ الْأَفْكَارِ الدَّوْلِيَّةِ، الْأُرْدُن، السَّعُودِيَّةُ (د. ت.))، ص 267.

(2) وَرَدَ فِي كِتَابِ الْكَامِلِ فِي التَّارِيخِ، ص 267، قَوْلُهُ: «لَمَّا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مَكَّةَ وَأَسْلَمَتْ ثَقِيفٌ، وَفَرَّغَ مِنْ تَبُوكَ، ضَرَبَتْ إِلَيْهِ وَفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ

مَنْزِلَتَهَا وَشَرَفَهَا، مِنْهَا - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - خُطْبَةُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ، وَخُطْبَةُ طَهْفَةَ بْنِ أَبِي زَهِيرِ النَّهْدِيِّ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا لَوْفُودِ الْعَرَبِ الَّتِي قَدِمَتْ عَلَى الرَّسُولِ، وَخُطْبَةُ طَبَّيَّانِ بْنِ حَدَّادٍ لَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ فِي سَرَاةٍ مَذْحِجٍ، وَخُطْبَةُ مَالِكِ بْنِ نَمَطٍ مِمَّا لَوْفَدَ هَمْدَانَ، وَخُطْبَةُ سَفَانَةَ⁽¹⁾ بِنْتِ حَاتِمٍ، وَقَدْ وَفَدَتْ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ ضَمَنِ سَبَايَا طَيِّءٍ، فَرَأَاهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَرَغِبَ فِيهَا شَكْلًا فَلَمَّا تَكَلَّمَتْ - وَهُوَ رَأْسُ الْبَلَاغَةِ - أَخَذَ بِمَنْطِقِهَا، وَأَنَسَاهُ جَمَالَ بَيَانِهَا حَسَنَ بَيَانِهَا، وَرَوَى قَوْلَهَا الَّذِي قَالَتْهُ فِي وَفَادَتِهَا عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تَقُولُ:

«يَا مُحَمَّدُ: هَلَكَ الْوَالِدُ، وَغَابَ الْوَاكِدُ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُحْلِيَ عَنِّي، فَلَا تُشْمِتْ بِي أَحْيَاءَ الْعَرَبِ؛ فَإِنِّي بِنْتُ سَيِّدِ قَوْمِي⁽²⁾. كَانَ أَبِي يُمْكُ الْعَانِي⁽³⁾، وَيَحْمِي الدَّمَارَ، وَيُضْرِي الضَّيْفَ، وَيُشْبِعُ الْجَائِعَ، وَيُفْرِجُ عَنِ الْمَكْرُوبِ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَيُفْشِي السَّلَامَ، وَلَمْ يَرُدْ طَالِبَ حَاجَةٍ قَطُّ، أَنَا بِنْتُ حَاتِمِ طَيِّءٍ». فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا جَارِيَةَ هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ، وَلَوْ كَانَ أَبُوكَ إِسْلَامِيًّا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ،

وَجِهَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَنْتَظِرُ بِإِسْلَامِهَا قُرَيْشًا؛ إِذْ كَانُوا أَمَامَ النَّاسِ، وَأَهْلَ الْحَرَمِ، وَصَرِيحَ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا تُنْكِرُ الْعَرَبُ ذَلِكَ، وَكَانَتْ قُرَيْشُ هِيَ الَّتِي نَصَبَتْ الْحَرْبَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَخِلَافَهُ، فَلَمَّا فَتَحَتْ مَكَّةَ وَأَسْلَمَتْ قُرَيْشٌ عَرَفَتْ الْعَرَبُ أَنَّهَا لَنَا طَاقَةٌ لَهَا بِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَنَا عَدَاوَتُهُ، فَدَخَلُوا فِي الدِّينِ أَفْوَاجًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (سورة النصر، الآيات: 1-3)»

(1) السفانة في الأصل: اللؤلؤة.

(2) جواب الشرط محذوف وهذا تعليل له أي فافعل فإنني ...

(3) العاني: الأسير.

خَلُّوا عَنْهَا؛ فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»⁽¹⁾.

خُطِبُ الْوُفُودِ مِنَ الْأَشْكَالِ الْقَوْلِيَّةِ الَّتِي بَقِيَتْ وَاتَّخَذَتْ مَظَاهِرَ مُتَطَوِّرَةٍ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ وَالْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ، لِأَنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِمَقَامٍ سِيَاسِيٍّ، وَبِحَرَكَةٍ دَاخِلِ هَذَا الْمَقَامِ، وَهُوَ دُخُولُ الْوُفُودِ الْقَادِمَةِ مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ أَوْ مُمَثِّلَةٍ لِفَتَاتٍ مَذْهَبِيَّةٍ أَوْ دِينِيَّةٍ أَوْ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ قَبْلِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ أَوْ مُؤْتَلِفَةٍ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا كَانَتْ تَشْهَدُهُ مَجَالِسُ أُمَرَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَخُلَفَائِهِمْ مِنْ اسْتِقْبَالِ لُوفُودٍ قَادِمَةٍ عَلَيْهِمْ وَالْإِنْصَاتِ إِلَى أَقْوَالِهِمْ، وَمُجَادَلَةِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، فَكَمَا هُوَ مَعْلُومٌ فَإِنَّ السُّلْطَةَ لَمْ تَتَحَوَّلْ إِلَى بَنِي أُمَيَّةٍ طَوْعًا وَيُسْرًا وَلَا إِجْمَاعًا، وَإِنَّمَا أُخِذَتْ قِتَالًا وَمِرَاسًا وَجَدَالًا، كَمَا أَعْلَنَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ فِي إِحْدَى خُطْبِهِ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَقُولُ فِيهَا: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا وَلَيْتُهَا بِمُحَبَّةٍ عَلِمْتُهَا مِنْكُمْ، وَلَا مَسْرَّةٍ بَوْلَايَتِي، وَلَكِنِّي جَالِدْتُكُمْ بِسَيْفِي هَذَا مُجَالِدَةً»⁽²⁾.

وَلِذَلِكَ، فَقَدْ كَثُرَتْ خُطْبُ الْوُفُودِ فِي عَهْدِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ، وَهِيَ خُطْبٌ فِيهَا تَنْوِيْعٌ وَاخْتِلَافٌ عَنْ سَابِقِ خُطْبِ الْوُفُودِ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ أَوْ زَمَنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ وَخِلَافَتِهِ الرَّاشِدَةِ، ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَ أَضْحَتْ تُتَّخَذُ أَدَاءً لِلْجِدْلِ السِّيَاسِيِّ وَالْقَبْلِيِّ، وَمُنَاقَشَةِ أَحَقِّيَّةِ الْوَلَايَةِ، خَاصَّةً فِي شَأْنِ الْفُرْقَةِ الْكُبْرَى بَيْنَ عَلِيٍّ

(1) جمهرة خطب العرب، 1/ 169.

(2) العقد الفريد، 4/ 171.

ومعاوية، فنجد صُورًا عن هذه الوفود وحديثٍ جدلٍ واسترجاعٍ لماضي الزَّمن، فقد كانت الوفود التي تأتي معاوية تحديدًا تحمل مرجعيَّاتٍ مختلفة، بعد أن تراكمت الفتن، وخاض فيها الخاضعون، ولم يُعدْ شأن الوفود الدُّخول في المقامات القوليَّة البسيطة، ذودًا عن القبيلة وإعلاءً من شأنها، أو دخولاً في مناسبة مقامية محدَّدة، مثل التهنئة أو الافتخار أو المدح، وإنَّما صار خطيب الوفد حاملاً لمرجعيَّة قبليَّة وسياسيَّة، ومتَّخذاً موقعاً من السُّلطة السَّائدة التي أُحيطت بخلافات متعدِّدة حول شرعيَّتها، وقامت على حروبٍ ونزاعات على السُّلطة، إضافةً إلى التَّراكم الخلافيِّ القبليِّ، الذي انضاف إليه تراكمٌ خلافيٌّ سياسيٌّ، ومن ذلك مَنْ وفد على معاوية مِنْ وَجْهائِ القبائل وسادتها بعد أن استقرَّ له الأمر وتمكَّن من السُّلطة، بعد حربٍ مع عليِّ بن أبي طالب، وحربٍ مع مَنْ ناصره، وبعد تفرُّق المسلمين جرَّاء هذه الحرب إلى مللٍ وفِرَقٍ، وعلى رأس هذه الوفادة وفود الأحنف بن قيس وهو رأس بني تميم وخطيبهم وحكيمهم وداهيَّتهم، وصورته في الثَّراث العربيِّ هي صورة السيِّد القائد العاقل الحكيم، وقد كان له في الجاهليَّة أثرٌ وفي الإسلام آثَارٌ، فلم يكن عنصراً سالِباً وإنَّما كان عنصراً فاعلاً داخلاً في مختلف الصِّراعات السياسيَّة التي شهدتها فترة الإسلام الأولى، «وَكَانَ مِنْ جَلَّةِ التَّابِعِينَ وَأكَابِرِهِمْ، وَكَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ، مَوْصُوفاً بِالْعَقْلِ وَالِدَّهَاءِ، وَالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ»⁽¹⁾ وَمِنْ مظاهر بيان منزلته أنَّ معاوية بن أبي سفيان كان يُجزل له العطاء، وينصت إليه ويُحسن وفادته، رغم

(1) ابن خلِّكان (أبو العبَّاس شمس الدين أحمد بن محمَّد بن أبي بكر): وفَيَات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان، تحقيق: إحسان عبَّاس، (دار صادر، بيروت، لبنان د. ت)، ص، 499.

العلاقة العدائية تاريخياً وقولياً بينهما، ذلك أنَّ معاوية لما استقرَّ له الملك، دخل عليه الأحنف يوماً فقال له معاوية: «وَاللَّهِ يَا أَحْنَفُ مَا أَذْكَرُ يَوْمَ صَفَيْنَ إِلَّا كَأَنْتَ حَزَازَةٌ فِي قَلْبِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ لَهُ الْأَحْنَفُ: وَاللَّهِ يَا مُعَاوِيَةَ إِنَّ الْقُلُوبَ الَّتِي أَبْغَضْنَاكَ بِهَا لَفِي صُدُورِنَا، وَإِنَّ السُّيُوفَ الَّتِي قَاتَلْنَاكَ بِهَا لَفِي أَعْمَادِهَا، وَإِنْ تَدُنْ مِنَ الْحَرْبِ فَتَرَا نَدُنْ مِنْهَا شِبْرًا، وَإِنْ تَمْشِ إِلَيْهَا نُهْرِلُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَامَ وَخَرَجَ. وَكَانَتْ أُخْتُ مُعَاوِيَةَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَسْمَعُ كَلَامَهُ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ قَالَ: هَذَا الَّذِي إِذَا غَضِبَ غَضِبَ لِعُضْبِهِ مِائَةً أَلْفٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ لَا يَدْرُونَ فِيمَ غَضِبَ»⁽¹⁾.

إِنَّ قَوْلَ الْأَحْنَفِ فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ -وهو الخليفة والامر- مستمدٌّ من منزلته التي وصَّفها معاوية نفسه، وكما سلف أن ذكرتُ فَإِنَّ الْخُطْبَةَ لَيْسَتْ مُحَضَّ قَوْلٍ فِي مَنَاسِبَةٍ مَا، وَإِنَّمَا هِيَ نَشَاطٌ قَوْلِيٌّ قَادِرٌ عَلَى تَحْوِيلِ الْأَقْوَالِ إِلَى أَعْمَالٍ، وَقَادِرٌ أَيْضًا عَلَى جَعْلِ الْقَوْلِ نَفْسِهِ فِعْلًا، فَالْأَحْنَفُ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْخُطْبِيِّ صَوْتُ ضَرِيعٍ لِمُعَاوِيَةَ الْخَلِيفَةِ، لَا يَرَى نَفْسَهُ فِي مَنَزَلَةٍ أَقْلٍ، وَمُعَاوِيَةُ ذَاتَهُ يُدْرِكُ مَقَامَ الْوَاقِدِ وَيَتَقَبَّلُ مِنْهُ صَيْغُ التَّهْدِيدِ الظَّاهِرَةِ فِي الْخُطَابِ.

لقد ورد في خُطْبَةٍ ثَانِيَةِ لِلْأَحْنَفِ وَقَدْ وَفَدَ أَيْضًا عَلَى مُعَاوِيَةَ قَوْلُهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَهْلُ الْبَصْرَةِ عَدَدٌ يَسِيرٌ، وَعَظْمٌ كَسِيرٌ، مَعَ تَتَابُعٍ مِنَ الْمُحُولِ⁽²⁾، وَاتِّصَالٍ مِنَ الدُّحُولِ⁽³⁾؛ فَاكْثَرُ فِيهَا قَدْ أَطْرَقَ،

(1) م. ن. ص. 500.

(2) جمع محلّ كشمس: وهو القحط والجذب.

(3) جمع ذحل كشمس أيضًا: وهو الثَّأْر.

وَالْمُقِلُّ قَدْ أَمْلَقَ، وَبَلَغَ مِنْهُ الْمَخْنَقُ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُنْعَشَ
الْفَقِيرَ وَيَجْبَرَ الْكَسِيرَ، وَيَسْهَلَ الْعَسِيرَ، وَيُضْفَحَ عَنِ الدُّحُولِ، وَيَدَاوِيَ
الْمُحُولَ، وَيَأْمُرَ بِالْعَطَاءِ، لِيُكْشَفَ الْبَلَاءُ، وَيُزِيلَ اللَّأْوَاءُ⁽¹⁾، وَإِنَّ السَّيِّدَ
مَنْ يَعْمُ وَلَا يَخْصُصُ، وَمَنْ يَدْعُو الْجَفْلَى⁽²⁾ وَلَا يَدْعُو النَّقْرَى، إِنَّ أَحْسَنَ
إِلَيْهِ شَكَرٌ، وَإِنْ أَسِئَ إِلَيْهِ غَفَرَ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ لِرِعِيَّتِهِ عَمَادًا،
يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْمَلَمَّاتِ، وَيُكْشِفُ عَنْهُمْ الْمُغْضِلَاتِ؛ فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ: هَا
هُنَا يَا أَبَا بَحْرٍ، ثُمَّ تَلَا: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ»⁽³⁾⁽⁴⁾.

فالعلنا أن ندرك من هذه الخطبة، قدرةً في تخيُّر اللفظ، ووضع
المُخَاطَبِ في وَضْعٍ يُلْزِمُهُ فِيهِ تَحْقِيقَ مَطَالِبِهِ، فَالْعَلَاقَةُ التَّخَاطُبِيَّةُ فِي
ظَاهِرِ وُجُودِهَا بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِصِفَةِ الْمَعَارِضَةِ، وَالْوُقُوفِ
ضِدَّ سُلْطَانِ الْمُتَكَلِّمِ، وَالْمُخَاطَبِ الْمُعَادِي أَيْضًا لِلْمُتَكَلِّمِ الْمُوصُولِ
بِعَلَاقَةٍ تَارِيخِيَّةٍ قَائِمَةٍ عَلَى اخْتِلَافِ الْمَرْجِعِيَّاتِ وَرَفْضِ الْوُجُودِ،
فَالْأَسَاسُ الْوَاصِلُ بَيْنَ مَنْزِلَتِي الْمُتَخَاطِبِينَ هُوَ التَّضَادُّ، هِيَ عِلَاقَةُ
تَوَاصُلٍ وَوَعْيٍ بِالْمِشَارَكَةِ فِي ظِلِّ الرَّابِطَةِ الَّتِي تَصِلُ الْحَاكِمَ بِالْمَحْكُومِ،
فَالْحَاكِمُ لَيْسَ حَاكِمَ زُمْرَةٍ نَاصِرَتُهُ وَإِنَّمَا هُوَ مُتَعَهِّدٌ بِالْقِيَامِ عَلَى
أُمُورِ كُلِّ الرِّعْيَةِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ مَدْخَلُ الْخُطْبَةِ ضَاطِبًا لِلْمَسَارِ الَّذِي
وَضَعَ فِيهِ الْمُخَاطَبُ عَلَى إِقْرَارِ الْاِخْتِلَافِ فِي الْمَرْجِعِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ.
وَيُمَثِّلُ دِهَاءُ الْمُخَاطَبِ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى تَقْبُلِ هَذَا الْخُطَابِ وَالسَّعْيِ
إِلَى الْعَمَلِ بِهِ، نَظَرًا إِلَى مَنْزِلَةِ الْمُتَكَلِّمِ الْقَبْلِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ.

(1) الشدة.

(2) الدعوة العامة: النقري: الدعوى الخاصة.

(3) أي في معناه وفجواه.

(4) جمهرة خطب العرب، 2/ 344.

وَمِنْ الظَّوَاهِرِ الْمُمَيَّزَةِ فِي خُطْبِ الْوُفُودِ وَفِرَّةِ خُطْبِ الْوَافِدَاتِ فِي الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ، وَأَغْلِبُهُنَّ مَمَّنْ كُنَّ فِي نُصْرَةِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي صَفِّينَ، وَمَمَّنْ دَارَ عَلَيْهِنَّ الزَّمَانُ، فَلَقَيْنَ مَعَاوِيَةَ بَعْدَ انْتِصَارِهِ وَجُلُوسِهِ عَلَى رَأْسِ الْخُلَافَةِ، وَفِي الْغَالِبِ الْأَعْمِ يَكُونُ مَوْضُوعُ الْوَفَادَةِ فِي شَأْنِ هَذِهِ الْخُطْبِ قَائِمًا عَلَى الْخُطَاطَةِ الْقَوْلِيَّةِ التَّالِيَةِ:

- تَحْمِيلُ وَلِيِّ الْأَمْرِ أَمْرَ الرِّعْيَةِ.
- الْبَقَاءُ فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِضَةِ لِلْحَالِّ وَوَاقِعِهِ، وَالثَّبَاتُ عَلَى الْمَوْقِفِ الْأَوَّلِيِّ.
- تَدَخُّلُ مَعَاوِيَةَ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّائِبِ عَلَى مُعَارَضَتِهِ.
- جَوَابُ الْوَافِدَةِ بِمَا يُعْلِي مِنْ شَأْنِ عَلِيٍّ وَإِظْهَارُ وَاجِبِ نُصْرَتِهِ.
- إِذْعَانُ مَعَاوِيَةَ لِأَمْرِ الطَّالِبِ.

وَيَدْخُلُ ضَمْنَ نِطَاقِ هَذِهِ الْخُطَّةِ الْخُطْبِيَّةِ لِلوَافِدَاتِ، وَفَادَةِ سَوْدَةَ بِنْتِ عِمَارَةَ، وَأُمِّ سَنَانِ بِنْتِ خَيْثَمَةَ وَبِكَارَةِ الْهَلَالِيَّةِ وَأَرْوَى بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأُمِّ الْبَرَاءِ بِنْتِ صَفْوَانَ وَدَارِمِيَةَ الْحَجُونِيَّةِ الَّتِي طَلَبَهَا مَعَاوِيَةُ لِيَتَبَيَّنَ عَلَّةُ نُصْرَتِهَا لِعَلِيٍّ وَرَفَضِهَا لِمَعَاوِيَةَ، فَكَانَ جَوَابُهَا جَارِحًا، قَاطِعًا، بَلِيغًا. وَلَعَلَّ أَبْلَغَ مِثَالٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُبَيِّنَ عَنْ طَبِيعَةِ خُطْبِ الْوَافِدَاتِ عَلَى مَعَاوِيَةَ خَاصَّةً بَعْدَ مِحْنَةِ الْمُسْلِمِينَ تَنَازَعًا وَتَقَاتُلًا، الْمَوْقِفَ الْجَدَلِيِّ الَّذِي خَاضَتْهُ أَرْوَى بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَعَ مَعَاوِيَةَ وَأَنْصَارِهِ مَمَّنْ كَانُوا فِي صَحْبَتِهِ فِي مَجْلِسِهِ، وَهُوَ مَوْقِفٌ مُظْهِرٌ بِلَاغَةً وَفُطْنَةً وَثَبَاتًا عَلَى الرَّأْيِ، وَنُورِدُهُ كَامِلًا لِلْمَوْقِفِ عَلَى بَيَانِهِ وَبِلَاغَتِهِ وَحَسَنِ الْمَجَابَةِ فِيهِ:



«دَخَلْتُ أَرْوَى بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَهِيَ
عَجُوزٌ كَبِيرٌ؛ فَلَمَّا رَأَاهَا مُعَاوِيَةَ قَالَ: مَرْحَبًا بِكَ وَأَهْلًا يَا عَمَّةَ، فَكَيْفَ
كُنْتَ بَعْدَنَا؟ فَقَالَتْ: «يَا ابْنَ أَخِي، لَقَدْ كَفَرْتُ يَدَ النِّعْمَةِ، وَأَسَأْتُ لِابْنِ
عَمِّكَ الصُّحْبَةَ، وَتَسَمَّيْتُ بِغَيْرِ اسْمِكَ، وَأَخَذْتُ غَيْرَ حَقِّكَ مِنْ غَيْرِ
بَلَاءٍ كَانَ مِنْكَ وَلَا مِنْ آبَائِكَ، وَلَا سَابِقَةَ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَقَدْ كَفَرْتُمْ بِمَا
جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَأَتَعَسَ اللَّهُ مِنْكُمْ الْجُدُودَ⁽¹⁾،
وَأَضْرَعَ⁽²⁾ مِنْكُمْ الْخُدُودَ، وَرَدَّ الْحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، وَكَانَتْ
كَلِمَتُنَا هِيَ الْعُلْيَا، وَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمَنْصُورُ؛ فَوَلَّيْتُمْ
عَلَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ -وَتَحْتَجُّونَ بِقَرَابَتِكُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ، وَأَوَّلَى بِهَذَا الْأَمْرِ- فَكُنَّا فِيكُمْ بِمَنْزِلَةِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ
نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؛ فَغَايَتُنَا الْجَنَّةُ،
وَعَايَتُكُمُ النَّارُ. فَقَالَ لَهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: كَفَى أَيْتُهَا الْعَجُوزُ
الضَّالَّةُ، وَأَقْصِرِي مِنْ قَوْلِكَ، وَغَضِّي مِنْ طَرَفِكَ. قَالَتْ: وَمَنْ أَنْتَ،
لَا أُمُّ لَكَ؟ قَالَ: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، قَالَتْ: يَا ابْنَ اللَّخْنَاءِ⁽³⁾ النَّابِغَةُ⁽⁴⁾
تَتَكَلَّمُ! وَأُمُّكَ كَانَتْ أَشْهَرَ امْرَأَةٍ تُغْنِي بِمَكَّةَ، وَآخَذَهُنَّ لِأَجْرَةٍ أَرْبَعٍ
عَلَى ظِلْعِكَ، وَاعْنِ بِشَأْنِ نَفْسِكَ؛ فَوَاللَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ قُرَيْشٍ فِي اللَّبَابِ
مِنْ حَسَبِهَا، وَلَا كَرِيمٍ مَنْصِبِهَا، وَلَقَدْ ادَّعَاكَ خَمْسَةُ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ،
كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَبُوكَ؛ فَسَأَلْتُ أُمُّكَ عَنْهُمْ، فَقَالَتْ: كُلُّهُمْ أَتَانِي،
فَانْظُرُوا أَشَبَّهُهُمْ بِهِ، فَأَلْحِقُوهُ بِهِ، فَغَلَبَ عَلَيْكَ شَبَهُ الْعَاصِ بْنِ وَاثِلٍ،

(1) جمع جد: وهو الحظ

(2) أذل، وفي بلاغات النساء «وأصعر

(3) رجل ألخن وأمة لخناء: لم يختن، ولخن السقاء، وغيره كفرح: أنتن، والجوزة
فسدت، ومن شتم العرب «يابن اللخناء» كأنهم يقولون يا دنيء الأصل أو يا لثيم الأم.

(4) اسم أم عمرو بن العاص.

فَلَحَقْتُ بِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَمَّكَ أَيَّامَ مَنْى بِمَكَّةَ مَعَ كُلِّ عَبْدٍ عَاهِرٍ⁽¹⁾،
فَأَتَمَّ بِهِمْ فَإِنَّكَ بِهِمْ أَشْبَهُ.

فَقَالَ مَرْوَانُ: كُفِّي أَيْتُهَا الْعَجُوزُ، وَأَقْصِرِي لِمَا جِئْتَ لَهُ، سَاخَ
بَصْرُكَ مَعَ ذَهَابِ عَقْلِكَ، فَلَا تَجُوزُ شَهَادَتُكَ، فَقَالَتْ: وَأَنْتِ أَيْضًا يَا
ابْنَ الزَّرْقَاءِ تَتَكَلَّمُ؟ فَوَاللَّهِ لَأَنْتِ إِلَى سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ أَشْبَهُ
مِنْكَ بِالْحَكَمِ، وَإِنَّكَ لَشَبْهَهُ فِي زُرْقَةِ عَيْنَيْكَ، وَحُمْرَةِ شَعْرِكَ، مَعَ قِصْرِ
قَامَتِهِ، وَظَاهِرِ دِمَامَتِهِ⁽²⁾، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْحَكَمَ مَادًّا⁽³⁾ الْقَامَةَ، ظَاهِرَ
الْإِمَةِ⁽⁴⁾، سَبَطَ⁽⁵⁾ الشَّعْرَ، وَمَا بَيْنَكُمَا قَرَابَةٌ إِلَّا كَقَرَابَةِ الْفَرَسِ الضَّامِرِ
مِنَ الْأَتَانِ الْمُقْرَبِ⁽⁶⁾؛ فَاسْأَلِ أُمَّكَ تُخْبِرُكَ بِشَأْنِ أَبِيكَ إِنْ صَدَقْتَ، ثُمَّ
الْتَفَتْتُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا جَرَأَ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ غَيْرُكَ، وَإِنَّ أُمَّكَ
لَلْقَائِلَةِ يَوْمَ أَحَدٍ فِي قَتْلِ حَمْرَةَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ (مِنَ الرِّجْزِ):

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَالْحَرْبُ بَعْدَ الْحَرْبِ ذَاتُ سُعْرِ⁽⁷⁾
مَا كَانَ عَنْ عُتْبَةَ لِي مِنْ صَبْرٍ أَبِي وَعَمِّي وَأَخِي وَصَهْرِي⁽⁸⁾

(1) فاجر.

(2) الدمامة: القبح.

(3) ممتدّها.

(4) الإمة بالكسر ويضم: الشأن والنعمة والهيئة.

(5) طويله.

(6) الأتان: الحمارة، والمقرب التي قرب ولادها فيكون بطنها كبيراً.

(7) السعر بالفتح مصدر سعر الحرب: أي أوقدها، وبالضم: الجنون.

(8) قتلوا أربعتهم يوم بدر: أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - قيل اشترك في قتله علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب - وعمها شيبه بن ربيعة - قتله حمزة - وأخوها الوليد بن عتبة - قتله علي - وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان - وليست هند أمه، قيل اشترك في قتله حمزة، وعلي، وزيد بن حارثة -.



شَفِيتْ وَحْشِي غَلِيلَ صَدْرِي شَفِيتْ نَفْسِي وَقَضِيتْ نَذْرِي⁽¹⁾
فَشَكُرْ وَحْشِي عَلَيَّ دَهْرِي حَتَّى تَرَمَّ أَعْظَمِي فِي قَبْرِي⁽²⁾
فَأَجَبْتُهَا:

يَا بِنْتَ جَبَّارِ عَظِيمِ الْكُفْرِ خَزِيتِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرٍ
صَبَحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ بِالْهَاشِمِيِّنَ الطُّوَالَ الزَّهْرِ⁽³⁾
بِكُلِّ قِطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي حَمْرَةً لَيْثِي، وَعَلَيَّ صَفْرِي

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِمُرَّوَانَ وَعَمْرُو: وَيْلَكُمَا! أَنْتُمَا عَصْتُمَانِي (هكذا!)
لَهَا، وَأَسْمَعْتُمَانِي مَا أَكْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: يَا عَمَّةُ أَقْصِدِي قَصْدَ حَاجَتِكَ،
وَدْعِي عَنْكَ أَسَاطِيرَ النِّسَاءِ، قَالَتْ تَأْمُرُ لِي بِأَلْفِي دِينَارٍ، وَأَلْفِي
دِينَارٍ، وَأَلْفِي دِينَارٍ، قَالَ: مَا تَصْنَعِينَ يَا عَمَّةُ بِأَلْفِي دِينَارٍ؟ قَالَتْ:
أَشْتَرِي بِهَا عَيْنًا خَرْخَارَةً⁽⁴⁾ فِي أَرْضِ خَوَارَةٍ⁽⁵⁾، تَكُونُ لَوْلَدِ الْحَارِثِ
ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: نَعَمْ الْمَوْضِعَ وَضَعْتَهَا، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي
دِينَارٍ؟ قَالَتْ: أُزَوِّجُ بِهَا فَتَيَانِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مِنْ أَكْفَانِهِمْ، قَالَ: نَعَمْ
الْمَوْضِعَ وَضَعْتَهَا، فَمَا تَصْنَعِينَ بِأَلْفِي دِينَارٍ؟ قَالَتْ: أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى
عُسْرِ الْمَدِينَةِ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، قَالَ: نَعَمْ الْمَوْضِعَ وَضَعْتَهَا،
هِيَ لَكَ نَعْمٌ وَكَرَامَةٌ⁽⁶⁾، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عَلَيَّ مَا أَمَرَ لَكَ
بِهَا، قَالَتْ: صَدَقْتَ، إِنَّ عَلَيَّ أَدَى الْأَمَانَةِ، وَعَمَلُ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَأَخَذَ بِهِ،

(1) وحشي: غلام جبير بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد .

(2) رم العظم كضرب وأرم: بلي فهو رميم .

(3) الزهر: الحسان البيض الوجوه .

(4) الخرخار: الماء الجاري، أي عين ماء جارية .

(5) المراد أرض سهلة تصلح للزراعة، من قولهم: خوار العنان، أي سهل المعطف،
كثير الجري .

(6) يقال: نعم عين ونعمة ونعام بفتحهن، ونعمى ونعامى ونعم ونعم ونعمة
بضمهن، ونعمة ونعام بكسرهما: أي أفعل ذلك إنعاماً لعينك وإكراماً .

وَأَنْتَ ضَيَّعْتَ أَمَانَتَكَ، وَخُنْتَ اللَّهَ فِي مَالِهِ، فَأَعْطَيْتَ مَالَ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْحُقُوقَ لِأَهْلِهَا وَبَيْنَهَا؛ فَلَمْ تَأْخُذْ بِهَا، وَدَعَانَا (أَي عَلِيٍّ) إِلَى أَخْذِ حَقِّنَا، الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ لَنَا فَشْغَلَ بِحَرْبِكَ عَنْ وَضْعِ الْأُمُورِ مَوَاضِعَهَا، وَمَا سَأَلْتُكَ شَيْئًا فَتَمَنُّ بِهِ؛ إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّنَا، وَلَا نَرَى أَخْذَ شَيْءٍ غَيْرِ حَقِّنَا، أَتَذْكُرُ عَلِيًّا؟ فَضَّ اللَّهُ فَاكٌ⁽¹⁾، وَأَجْهَدَ بِلَاءَكَ، ثُمَّ عَلَا بُكَاءُهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبُ عَلِيًّا؛ فَأَمَرَ لَهَا بِسِتَّةِ آلَافِ دِينَارٍ، وَقَالَ لَهَا: يَا عَمَّةُ: أَنْفَقِي هَذِهِ فِيمَا تُحِبِّينَ، فَإِذَا اخْتَجَّتْ فَارْكَبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ صَفْدَكَ⁽²⁾ وَمَعُونَتَكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ⁽³⁾.

لقد أوردنا الخطبة، وما كان فيها من مجاوبات وحوار -على امتدادها- حتى نتبين صورةً من صُور القدرة الخطابية، ومظهرًا من مظاهر عناية عرب شبه جزيرة العرب بتصريف القول وسياسته، ولعلنا ندرك، أنَّ الوافدة ذات المرجعية التاريخية المعارضة لسلطة الوافدة عليه، وقد كان مدار الوفاة آخذًا مسار الطلب، غير أنَّه سرعان ما تحوَّل إلى مجادلةٍ ومناكفةٍ في الأصول وفي السياسة، وقد تميَّزت هذه المُجادلة بالانعدام التوازن شكلاً، فالوافدة امرأة، ذات مرجعية مهزومة، قد خرجت من الصِّراع بين البيت الأمويّ وشيعة عليّ بن أبي طالب بالخُسْران الحربيّ والسلطويّ، ووقف في مقابلها معاوية بن أبي سفيان صاحب السلطة الحائلة وأعضاده الذين آزره وساعدوه، وأبرزهم عمرو

(1) تدعو عليه: أي نشر الله أسنانك.

(2) الصفد: العطاء.

(3) العقد الفريد، 1/ -358 ابن أبي طاهر (أبو الفضل أحمد): بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن في الجاهلية والإسلام، (مطبعة مدرسة والده عباس الأول، القاهرة، ط1، 1908)، ص، -32 35.

ابن العاص ومروان بن الحكم، وكلُّ منهم صاحبُ رأيٍ وقولٍ ودهاءٍ وفطنة، فتنقَسَم الخطبة إلى مراحل ثلاثة في عَرَضها، مرحلة التأنيب ووضع المُخاطَب في موضع الزلل والخروج عن الحدِّ وعن الأخلاق، ومرحلة الجدل بين الوافدة الطالبة الراغبة، وأنصار معاوية، ومرحلة تفصيل الطلب والاستجابة له. ونُدرِك في كلِّ هذه المراحل بلاغةً للوافدة، وحضورَ بديهةٍ وقدرةٍ على تصريف مناحي القول والإتيان بالحجّة المُبَكِّتة، على الرغم من كِبَر سنِّها وتقدُّمها في العمر.

لقد تبيَّنًا منزلةَ خطبِ الوفود في التُّراث العربيِّ بلاغةً وأداءً وأداةً للفعلِ وتحقيق الأعمال في شبه الجزيرة العربية، من خلال حُطْبِ حفظها لنا التَّاريخُ من جهةِ التَّوثيق لحالٍ مِنَ التَّفَاعُل السياسيِّ بين الأطراف المتقاربة أو المتباعدة، وحفظها لنا الأدب من جهةٍ ثانيةٍ صُورةً عن بلاغةٍ وحسنِ أداءٍ في القولِ وقدرةٍ على تبليغ المعنى وتحويل اعتقاد المخاطَب والتأثير فيه. ومن جهةٍ ثالثةٍ فإنَّ الأَرْضِيَّة السياسيَّة في العهد الأمويِّ رَشَّحت حُطْبَاء لا يخطبون في النَّاس من أجل الإرشاد والوعظ، ولم تكن الخُطبة معهم أداةً للتَّواصل الاجتماعيِّ، بل تحوَّلت إلى فعلٍ يُنَجَز بالقول، لا فعلٍ يُنَجَز إثر القول، بمعنى أنَّ القول نفسه أصبح فعلًا، وهذه الخصيصة لا تتوفَّر إلَّا بوجود خطيبٍ سياسيٍّ يحتلُّ منزلةً تُمكنه من تحويل الأقوال أفعالاً تتحقَّق فور قولها، فالتَّهديد والتَّرهيب وإيقاع الخوف هي مقاصد كان الخطيب السياسيُّ الفاعل يصبو إلى تحقيقها، ولهذا السَّبب فإنَّ الخطابة السياسيَّة في العصر

الأمويُّ أخذت أوجهًا في شبه الجزيرة العربيَّة غيَّرت مسار الخطابة المألوف بنيةً وقصدًا وفعلاً، وأسهمت بقسطٍ فاعلٍ في تغذية النشاط الخُطبيِّ وإثراء طرائقه ووسائطه وأساليبه، وبُرِّز خُطباء في شبه الجزيرة العربيَّة امتلكوا ناصية القول ودانت لهم الرقاب بوساطته، وهيمنوا على الفضاء المعرفِّ والسياسيِّ بسبب قدرتهم القوليَّة.





خطب القادة والساسة.

للقادة والساسة ووجهاء القبائل ورؤسائها صفاتٌ وُخلالُ بها يتتَفَضَّلون وتستقيمُ لهم أمور النَّاسِ، ولعلَّ أهمُّ ما يُمكن أن يمتلكه السَّائِسُ الخطيبُ هو القدرة على القول والاستطاعة في صياغة الأعمال والأفعال أقولاً نافذةً فاعلةً، فالسَّائِسُ النَّاجِعُ النَّاجِحُ هو القادر على إنجاز الأقوال وإلقاء الخطب على رؤوس النَّاسِ، والتمكُّن من النَّفاذ إليهم وتحويل معتقداتهم.

لقد شهدت منطقة شبه الجزيرة العربيَّة بعد الخلافة الرَّاشِدة، مرحلة نزاع حول الخلافة بدأت من خلافة عثمان بن عفَّان، وتجلَّت ملامحُ هذا النِّزاع في الفُرقة التي حصلت بعد مقتل عثمان بن عفَّان، ومطالبة الأمويين بدمه، ومطالبة أنصار عليِّ بن أبي طالب بالخلافة لعلِّي، وبذلك دخل التَّاريخ الإسلاميُّ في شبه الجزيرة العربيَّة فُرقةً سياسيَّةً سُرعان ما تحوَّلت إلى فُرقة مذهبيَّة، تُجادل في مسائل خلافيَّة وتعمد الخطبة وسيلةً وأداةً لتحقيق الإقناع بالنَّهج السياسيِّ أو بالنَّهج المذهبيِّ، فكان لأنصار عليِّ بن أبي طالب خطباءٌ وخطبٌ، وكان لمعاوية وأعضاده خطباءٌ وخطبٌ، وكان للزبير ومَن ناصره خطباءٌ وخطبٌ، وكان للشُّراة

خُطْبَاءٌ وَخُطَبٌ، فَتَهَيَّأَ مَقَامٌ مِنَ الْخِلَافِ السِّيَاسِيِّ، أَسْهَمَ بِقَسْطٍ وَفِيرٍ فِي تَغْذِيَةِ خُطَبٍ صَارَتْ مِنْ مَأْثُورِ الْخُطَابَةِ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ الْأَدَبِيِّ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّا سَنَأْخُذُ نَمُودَجًا مِنْ كُلِّ فَرْقَةٍ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ أَثَرَتْ الْفَضَاءَ الْخُطَابِيَّ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ أَصْلِ الْخِلَافِ السِّيَاسِيِّ وَعَنْ التَّوَجُّهِ التَّارِيخِيِّ لِهَذَا النَّزَاعِ.

لَقَدْ تَفَتَّنَ الْقَائِلُونَ فِي الْخُطَبِ السِّيَاسِيَّةِ وَجَاءَ كُلُّ صَاحِبِ رَأْيٍ وَرُؤْيَاةٍ بِالْحُجَّةِ الدَّاعِمَةِ لِقَوْلِهِ، وَتَحَوَّلَتْ الْخُطَابَةُ مِنْ فَنٍّ يُجَمَلُ فِيهِ الْقَوْلُ وَيَحْسُنُ تَأْثِيرًا وَبَعَثًا لِعَاطِفَةٍ فِي الْمَخَاطَبِ إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَدَلِ وَالْمَقَارَعَةِ بِالْحُجَجِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَأْخُذَ عَلَى ذَلِكَ نَمَازَجَ تُمَثِّلُ مَخْتَلَفَ الشَّرَائِحِ السِّيَاسِيَّةِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ زَمَنَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ، مِنْ خُطَبٍ مُتَنَوِّعَةٍ، جَامِعُهَا هُوَ الْمَقَامُ السِّيَاسِيُّ، وَقَدْ بَرَعَ فِي ذَلِكَ عَدَدٌ هَامٌّ مِنَ الْخُطْبَاءِ السِّيَاسِيِّينَ، مِنْهُمْ رَأْسُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَبَاعَثُهَا مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ، وَمَنْ تَلَاهُ مِنْ أَعْضَادِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ وَأَنْصَارِهَا أَوْ مَنْ عَاصَرَهُ مِمَّنْ وَقَفُوا نُصْرَةً لَهُ وَلِإِمَارَتِهِ، وَمِنْهُمْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ رَأْسَ الْفُرْعِ الْمَرْوَانِيِّ فِي الْحُكْمِ الْأُمَوِيِّ، وَالْحُجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ الَّذِي أَرَخَّخَهُ الْخُطَابَةُ وَمَتَتَتْ مِنْ حُضُورِهِ الْفَاعِلُ فِي التَّارِيخِ السِّيَاسِيِّ الْعَرَبِيِّ، وَمِنْهُمْ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ نَصِيرُ مَعَاوِيَةَ وَقَرِيبُهُ وَصَاحِبُ وَايَةِ الْعِرَاقِ أَيَّامَ اسْتِدَادِ الْفُرْقَةِ السِّيَاسِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مِنَ الْخَطِّ الْمَعَارِضِ، أَوْ الْمَوَازِي، عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ صَرِيحُ مَعَاوِيَةَ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ فِي طَلَبِ الْخِلَافَةِ وَنِدُّهُ، وَمِنْهُمْ أَبُو حَمْزَةَ الشَّارِي صَاحِبُ الْخُطَبِ الشَّهِيرَةِ، فِي الْوُقُوفِ ضِدَّ الْمُتَنَازِعِينَ، وَمِنْهُمْ الزُّبَيْرِيُّونَ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ الْمَصْعَبُ الزُّبَيْرِيُّ

وعبد الله بن الزبير صاحب الخلافة الخارجة عن الحكم الأموي،
المعتصم بمكة، الداعي إلى نصرته وإقامة خلافته من مكة.

إنَّ هذا الثَّراءَ السياسيَّ واختلافَ الأصدقاء والأصحاب
وتوزَّعهم ملأً ونحلاً كلَّ منهم يرى أنَّه يتَّبِع السَّبِيلَ الحَقَّ وأنَّ
مَنْ سِوَاه واقِعٌ في ظُلْمة الضَّلَالِ هو ما مهَّد الطَّرِيقَ لوفرةٍ من
الخطابة السياسيَّة التي لا تهتمُّ بأمر الدين، كما كانت الأقوال
زمن الرِّسُول وصحابته، ولا تعتني بمشاغل النَّاس أو القبائل
كما كان الأمر في الخطب الاجتماعيَّة، وإنَّما مقصدها هو حملُ
المخاطب على الاقتناع في مرحلةٍ أُولى بأنَّ المتكلِّم على حقٍّ وأنَّ
مَنْ خَرَجَ عَنْهُ على باطل، وحَمَلَ المخاطب في مرحلة ثانية -إنَّ
لَمْ تكن الأولى- على الخوف من المتكلِّم والإيمان به فَرَقًا وفزعًا
وطلبًا للسلامة لا حبًّا وميلًا. ومن السُّمات البارزة لهذا المقام
الخطابيَّ أنَّ المتكلِّم ذاتًا فرديَّةً وجمعيَّةً حاضرٌ بشكل لافت، وهو
ما نُبِّئُهُ في لاحق التحليل، وهو يتصرَّف في تصويغ وجوده داخل
الخطاب صدورًا عن حُطَّة يتقصد فيها الظُّهور بشكل مفرد أو
الظُّهور بصورة جمعيَّة أو المراوحة بين الصيغتين الحَمَّالَتين لمختلف
المقاصد والمعاني، ذلك أنَّ المتكلِّم -كما سلف أن أشرنا- لا يُنجز
الخُطبة خلًّا من تمثُّل مُخاطب ما يتلقَّى خُطبته، وهو مُخاطب
واجب الوجود في الواقع، وواجب الوجود في ذهن الخطيب.

لقد كان حُطباء شبه الجزيرة يَعُونَ جيِّدًا مقامَ المُخاطب
مراعاةً واعتبارًا في عموم الخُطب، ولكنَّ الأمر يُصبح أوكَدَ وأشدَّ

بيانا وجلاءً في خُطْبِ خطباء أولي الأمر، من حُكَّامٍ وأمراءٍ ووُلاةٍ، فالمتكلم الخطيب يتبوأ موقعا هاما من عملية إنتاج الخطاب، فهو منجزُ القول والمتصرف فيه، يُوجِّهه حيث شاء وكيفما أراد، بلوغا إلى مقاصد ومرامي يسعى إلى تحقيقها، إذ يحوّل اللغة من جهازٍ مخزونٍ إلى استعمالٍ محسوسٍ، فينقلها من محض الوجود المجرد، الممكن، إلى الوجود الفعلي، عبر الاستعمال والتصرف في شئٍ تصاريفها. غير أن خُطْبَتَهُ تُبنى وفق تمثّلٍ لمنزلة مخاطبٍ من قوله، فالمخاطب وتَدُّ تَشَدُّ إليه الخطبة، فله من الإنشاء والخلق ما للمتكلّم. ونلاحظ حضوره المكثف في الخطب السياسيّة، وقُدرة الخطباء على مراعاة منازله.

لقد حدّد أرسطو أنواع الخطابة وفق أوضاع المخاطبين، وحسب أحوال السّامعين، فقال: «أنواعُ الخطابةِ ثلاثةٌ تتناسبُ معَ السّامعينَ، لأنَّ كُلَّ خُطْبَةٍ تتألّفُ من ثلاثةِ عناصرٍ: الخطيبُ والمَوْضُوعُ الذي يتناوَلُهُ والشَّخْصُ الذي يُوجَّهُ إِلَيْهِ الخِطَابُ»، وجعل منتهى مقاصد الخطبة أن تُوقع الإقناع في ذات المُنصّت، لذلك جعل مراعاة مقامه، وبناء الخطبة وفق موقعه، أمرا أكيدا. أمّا البلاغة العربيّة فقد جعلت بناء الخطاب رهين حال المخاطب، فكما يكون المخاطب، يكون الخطاب، وتلك حال الكلام البليغ، فعلى الخطيب أن «لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الْأَمَةِ بِكَلَامِ الْأَمَةِ وَلَا الْمُلُوكَ بِكَلَامِ السُّوقَةِ»⁽¹⁾. وفي صحيفة بشر بن المعتمر، اهتمامٌ بمراعاة مقتضى الحال، وبأقدار

(1) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة 1998)، 92/1.

المخاطبين، إذ يقول: «يُنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يَعْرِفَ أَقْدَارَ الْمَعَانِي وَيُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَقْدَارِ الْمُسْتَمْعِينَ، وَبَيْنَ أَقْدَارِ الْحَالَاتِ، فَيَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا، وَلِكُلِّ حَالَةٍ مِنْ ذَلِكَ مَقَامًا»⁽¹⁾.

فالمخاطب هو التّودّ الموازي للمتكلّم، المقابل له، تُشَدُّ إليه الخطبة باعتبارها تُوجّه إلى مخاطبٍ معلوم، فلا تكون إلّا بكونه، لذلك فإنّ حضوره بين طَيِّ المقُول، فهو يسهم شأنه في ذلك شأن المتكلّم في إنجاز ملفوظ الكلام من حيث أنّه مبتغى القول ومقصوده. ويخرج المُخاطَبُ في نظريّات التّخاطب الحديثة⁽²⁾ من محض كونه متقبّلًا سلبيًّا للخطاب إلى المشاركة في الإنجاز، بل هو يتحوّل من موضعه المحدّد له من حيث التّقبّل السلبيّ إلى مخاطب. فكلُّ تخاطب هو فعلٌ لغويٌّ مشتركٌ، يقع بين طرفين: متكلّم ومخاطب. والمتكلّم ساعة يعلن وضعه داخل الخطاب منجزًا للغةٍ وموجّهًا لها، يضع في مواجهته مخاطبًا محدّدًا بالضرورة.

لقد توسّعنا قليلًا في بيان الأرضيّة النظريّة لاعتبار المُخاطَب مقابل الخطيب في الخطب السياسيّة، بسبب من الظُّهور الجليّ

(1) م. ن. 139/1.

(2) ولقد اهتمّ دارسو التّخاطب بتجليّ المخاطب داخل الخطاب، فذهب «إليورد» إلى أنّ وجود المخاطب المفترض ضرورة تخاطبية، وموقعة-منطقيّة-هو عامل أساسي للتّواصل، ولإنشاء الخطاب، وبانعدام وجود المخاطب المفترض تنعدم المخاطبة. فالتلفظ من حيث هو اتّجاه نحو الآخر هو الذي يفترض ضرورة وجود هذا الآخر داخل منطوق الكلام.

Eluierd (Roland) : La pragmatique linguistique. Ed. Nathan Université. Paris/ 1985. P 72.

لِلتَّنَازَعِ الْقَوْلِيِّ الشَّافِّ عَنْ تَنَازُعٍ فَعْلِيٍّ بَيْنَ طَرَفَيْ التَّنَاطُبِ،
فَإِضَافَةً إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْهَامَّةِ الَّتِي يَحْتُلُّهَا الْمُتَكَلِّمُ فَإِنَّ مَنْزِلَةً لِلْمُخَاطَبِ
لَا تَظْهَرُ بِجَلَاءٍ فِي الْخُطَابَةِ الدِّينِيَّةِ وَلَا فِي الْخُطَابَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ،
وَتَبْدُو بِشَكْلِ لَا فِتٍ فِي الْخُطَابَةِ السِّيَاسِيَّةِ، فَالْمُخَاطَبُ فِي خُطْبِ
بَنِي أُمَيَّةٍ السِّيَاسِيَّةِ طَرَفٌ تُعْقَدُ عَلَيْهِ الْخُطْبَةُ، فَهُوَ مَدَارُهَا، وَرَكْنُ
رَأْسِهَا يُعْتَمَدُ سَاعَةً بَنَائِهَا، لِذَلِكَ فَإِنَّ مَرَاعَاةَ مَقَامِهِ وَمَوْقِعِهِ مِنْ
السُّلْطَةِ، إِنْ كَانَ مُعَارِضًا أَوْ مُسَانِدًا مِنَ الشُّرُوطِ الْأَسَاسِيَّةِ الْمُعْتَمَدَةِ
عِنْدَ إِنْجَازِ الْقَوْلِ، فَعَلِيَّةٌ تُقَدُّ بِنَى الْخُطَابِ، وَبِوَاسِطَتِهِ تُعَدُّ خُطَّةُ
الْخُطْبَةِ⁽¹⁾.

(1) دوماً أُخِيرَ أَنْ أُضْرَبَ مَثَلاً عَلَى تَحَوُّلِ بَنِيَّةِ الْخُطْبَةِ بِخُطْبَةِ الْحَجَّاجِ الَّتِي
تُسَمَّى بِخُطْبَةِ «دِيرِ الْجَمَاجِمِ»، الَّتِي يَظْهَرُ فِيهَا بِشَكْلِ جَلِيٍّ تَغْيِيرُ مَعْجَمِ الْخُطْبَةِ
وَتَبَدُّلُ أَسْلُوبِهَا بِالتَّحَوُّلِ مِنْ مُخَاطَبَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ إِلَى مُخَاطَبَةِ أَهْلِ الشَّامِ،
فَتَغْيِيرُ الْمُخَاطَبِ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ وَمَعَ مُتَكَلِّمٍ وَاحِدٍ يَجْعَلُ الْخُطْبَةَ بَنِيَّةً وَأَسْلُوباً
تَتَبَدَّلُ، وَأَفْضَلُ أَنْ أُورِدَ الْخُطْبَةُ كَامِلَةً لِأَظْهَرَ هَذِهِ السِّمَةَ فِي الْخُطْبَةِ. وَقَدْ وَرَدَتْ
هَذِهِ الْخُطْبَةُ فِي كِتَابِ الْعَقْدِ الْفَرِيدِ، ج 4، ص 205، يَقُولُ الْحَجَّاجُ فِيهَا: «يَا أَهْلَ
الْعِرَاقِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ اسْتَبْطَنَكُمْ فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالدَّمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ
وَالْأَعْضَاءَ وَالشَّغَافَ ثُمَّ أَفْضَى إِلَى الْمَخَانِخِ وَالصَّمَانِخِ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَعَشَّشَ؛ ثُمَّ بَاضَ
وَفَرَخَ، فَحَشَاكُمْ شَقَاقًا وَنَفَاقًا، أَشْعَرَكُمْ خِلَافًا اتَّخَذْتُمُوهُ دَلِيلًا تَتَّبِعُونَهُ، وَقَائِدًا
تَطِيعُونَهُ، وَمُؤَامِرًا تَسْتَشِيرُونَهُ، فَكَيْفَ تَنْفَعُكُمْ تَجْرِبَةُ، أَوْ تَعْظُمُكُمْ وَقْعَةُ، أَوْ يَحْجُزْكُمْ
إِسْلَامٌ، أَوْ يَرُدْكُمْ إِيْمَانٌ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَاؤِ حَيْثُ رَمْتُمُ الْمَكْرَ؛ وَسَعَيْتُمُ بِالْغَدْرِ،
وَاسْتَجْمَعْتُمُ لِلْكَفْرِ، وَظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْذُلُ دِينَهُ وَخِلَافَتَهُ، وَأَنَا أَرْمِيكُمْ بِطَرَفِي
وَأَنْتُمْ تَتَسَلَّلُونَ لَوَاذًا؛ وَتَنْهَزُمُونَ سَرَاعًا؛ ثُمَّ يَوْمَ الزَّوَايَةِ؛ وَمَا يَوْمَ الزَّوَايَةِ؟ بَهَا كَانَ
فَشْلُكُمْ وَتَنَازَعُكُمْ وَتَخَاذُلُكُمْ وَبِرَاءَةُ اللَّهِ مِنْكُمْ وَنُكُوصُ وَلِيِّكُمْ عَنْكُمْ؛ إِذْ وَلَيْتُمْ كَالْإِبْلِ
الشَّوَارِدِ إِلَى أَوْطَانِهَا، النِّوَازِعِ إِلَى أَعْطَانِهَا؛ لَا يَسْأَلُ الْمَرْءُ مِنْكُمْ عَنْ أَخِيهِ، وَلَا يُلَوِي
الشَّيْخَ عَلَى بَنِيهِ، حَتَّى عَضَكُمْ السَّلَاحَ، وَقَصَمْتُمْ الرِّمَاحَ، ثُمَّ يَوْمَ دِيرِ الْجَمَاجِمِ:
وَمَا دِيرُ الْجَمَاجِمِ؟ بَهَا كَانَتْ الْمَعَارِكُ وَالْمَلَا حِمٌّ، بِضَرْبِ يَزِيلِ الْهَامِ عَنْ مَقِيلِهِ، وَيَذْهَلُ
الْخَلِيلُ عَنْ خَلِيلِهِ.

يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ وَالْكَفَرَاتُ بَعْدَ الْفَجَرَاتِ؛ وَالْغَدَرَاتُ بَعْدَ الْخَتَرَاتِ، وَالنَّزْوَةُ بَعْدَ النَّزَوَاتِ،
إِنْ بَعَثْتُمْ إِلَى ثُغُورِكُمْ غُلَّتُمْ وَخَنْتُمْ، وَإِنْ أَمَنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ، وَإِنْ خَفْتُمْ نَافَقْتُمْ؛ لَا



تبدو صورة المتكلم السياسي بشكلٍ بَيِّنٍ في خطب معاوية ابن أبي سفيان، الذي رَصَدَ طريقًا للخُطبة يتجَلَّى فيه التَّصوُّرُ السِّياسيُّ الصرف، واصلًا بين الدِّين والدَّولة من جهةٍ، فاصلًا بينهما من جهةٍ ثانية، فهو كاشَفٌ في عدد من حُطبه طبيعة هذه العلاقة الحادثة بين السَّائس والمسوس، ويُمكن أن نعرض على ذلك أمثلةً، نعود إليها بالنَّظر والبيان.

مثال (1):

«قَالَ الْقَحْذَمِيُّ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاوِيَةُ الْمَدِينَةَ عَامَ الْجَمَاعَةِ تَلَقَّيْتُهُ رِجَالٌ مِنْ وُجُوهِ قُرَيْشٍ فَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّ نَصْرَكَ، وَأَعْلَى أَمْرَكَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَتَّى صَعَدَ الْمُنْبَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي وَاللَّهِ مَا وَلَيْتُهَا بِمَحَبَّةٍ عَلِمْتُهَا مِنْكُمْ وَلَا مَسْرَةً بَوْلَايَتِي، وَلَقَدْ رَضْتُ⁽¹⁾ لَكُمْ نَفْسِي عَلَى عَمَلِ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَأَرَدْتُهَا عَلَى عَمَلِ عُمَرَ، فَفَضَرْتُ مِنْ ذَلِكَ نَفَارًا شَدِيدًا، وَأَرَدْتُهَا مِثْلَ سُنِّيَاتِ⁽²⁾ عُثْمَانَ، فَأَبَتْ عَلَيَّ، فَسَلَكْتُ بِهَا طَرِيقًا لِي

تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة! يا أهل العراق: هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استفزكم عاص أو استنصركم ظالم، أو استعزذكم خالع إلا وثقتموه وأويتموه وعزرتموه ونصرتموه ورضيتموه.

يا أهل العراق؛ هل شغب شاغب، أو نعب ناعب، أو نعق ناعق، أو زفر زافر، إلا كنتم أتباعه وأنصاره. يا أهل العراق، ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام، إنما أنا لكم كالظليم الذاب عن فراخه؛ ينفي عنها المدر، ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر، ويحميها من الضباب؛ ويحرسها من الذئاب؛ يا أهل الشام، أنتم الجنة والرداء، وأنتم العدة والحذاء».

(1) من راض المهر: إذا ذلَّه.

(2) سنية مصغر سنة، والمراد حكم عثمان

وَلَكُمْ فِيهِ مَنَفْعَةٌ، مُؤَاكَلَةٌ حَسَنَةٌ، وَمُشَارَبَةٌ جَمِيلَةٌ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُونِي خَيْرَكُمْ فَأَنَا خَيْرٌ لَّكُمْ وَلَايَةً، وَاللَّهِ لَا أَحْمِلُ السَّيْفَ عَلَى مَنْ لَا سَيْفَ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ إِلَّا مَا يُسْتَشْفَى بِهِ الْقَائِلُ بِلسَانِهِ، فَقَدْ جَعَلْتُ ذَلِكَ لَهُ دَبْرًا أَذْنِي وَتَحْتَ قَدَمِي، وَإِنْ لَمْ تَجِدُونِي أَقْوَمَ بِحَقِّكُمْ كُلِّهِ فَأَقْبِلُوا مِنِّي بَعْضُهُ، فَإِنْ أَتَاكُمْ مِنِّي خَيْرٌ فَأَقْبِلُوهُ، فَإِنَّ السَّيْلَ إِذَا زَادَ عَنِّي وَإِنْ قَلَّ أَغْنَى، وَإِيَّاكُمْ وَالْفِتْنَةَ، فَإِنَّهَا تُفْسِدُ الْمَعِيشَةَ، وَتُكَدِّرُ النِّعْمَةَ. ثُمَّ نَزَلَ⁽¹⁾.

مثال (2):

«أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا قَدَمْنَا عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا قَدَمْنَا عَلَى صَدِيقٍ مُسْتَبْشِرٍ، أَوْ عَلَى عَدُوٍّ مُسْتَتِرٍ، وَنَاسٌ بَيْنَ ذَلِكَ يَنْظُرُونَ وَيَنْتَظِرُونَ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ، وَلَسْتُ وَاسِعًا كُلَّ النَّاسِ؛ فَإِنْ كَانَتْ مَحْمَدَةٌ فَلَا بُدَّ مِنْ مَدْمَةٍ، فَلَوْ مَا هَوْنَا إِذَا ذُكِرَ غُضِرٌ، وَإِيَّاكُمْ وَالَّتِي إِنْ أُخْفِيتْ أُوْبِقَتْ، وَإِنْ ذُكِرَتْ أَوْثِقَتْ. ثُمَّ نَزَلَ⁽²⁾.

مثال (3):

«يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، إِنِّي لَسْتُ أُحِبُّ أَنْ تَكُونُوا خَلْقًا كَخَلْقِ الْعِرَاقِ؛ يَعْيِبُونَ الشَّيْءَ وَهُمْ فِيهِ، كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ شَيْعَةٌ نَفْسِهِ، فَأَقْبِلُونَا بِمَا فِينَا فَإِنَّ مَا وَرَاءَنَا شَرٌّ لَّكُمْ، وَإِنْ مَعْرُوفَ زَمَانِنَا هَذَا مُنْكَرَ زَمَانٍ قَدْ مَضَى، وَمُنْكَرَ زَمَانِنَا مَعْرُوفَ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ، وَلَوْ قَدْ أَتَى فَالَرْتُقُ خَيْرٌ

(1) العقد الفريد، 4/171.

(2) م. ن. ص.

مَنْ الْفَتْقُ، وَفِي كُلِّ بَلَاغٍ، وَلَا مُقَامَ عَلَى الرِّزْيَةِ⁽¹⁾.

هذا وجهٌ من الخطابة في شبه الجزيرة العربية، في المدينة، وفي مكة، صادرٌ عن شخصيةٍ سياسيَّةٍ لها منبَتٌ من رَحِمِ أرضِ العرب، ولها امتدادٌ إلى بلاد بعيدة، ومعاوية بن أبي سفيان في مختصرٍ من التعريف هو عبد الرَّحمان معاوية بن حرب بن صخر الأمويِّ القرشيِّ، وقد ولد -حسب أشهر الآراء- قبل بعثة الرِّسول عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ بخمس سنين، والده هو أبو سفيان وأمُّه هند بنت عتبة، فهو سليلُ أسرةٍ من أشرف قريش وحكَّامها، وله ميزةٌ صُحبة رسول الله وكتابته الوحي.

ومن كلِّ هذه المرجعيَّات تتكوَّنُ شخصيَّةُ الخطيب المتكلِّم، الذي تُمثِّلُ أَنَاهُ قُوَّةٌ وسلطَةٌ ومرجعًا، وهو متَّخذٌ لِذَاتِهِ صُورَةً متحقِّقَةً داخل الخُطبة وللمُخاطَبين صُورًا يُريدُها أن تكون، فالخطبة تصبح وسيلةً نفوذٍ سياسيَّة، فما هي بخطابة متكلِّم فرد، وليست كذلك خطابة مقصد عامٍّ يُراد، إنَّما هي قولٌ مؤسَّسة -سلطَةٌ، يُقدُّ وفق مواقع الحال، ووفق تصوُّرٍ مفترَضٍ يظلُّ يتحكَّم دوماً في بناها وصورها ومعانيها. ذلك أنَّ المتكلِّم يعمد إلى الظُّهور، تصریحًا أو تلميحًا داخل قوله، وهو الأمرُ الذي لا يُمثِّلُ عنصرًا واجبَ الوجود في النمطين الخُطبيين السَّالِفين.

فالخطبة السَّياسيَّة تُظهِرُ مُنْجَرَهَا وتُعلن وجوده، وذلك قد يعود إلى اقتران الفاعل، المنجَز بأفعاله، وإثبات ذاته من حيث علوُّه على المجتمع، وعلى ذلك كان معاوية بن أبي سفيان في

(1) م. ن. 4 / - 171 172.

المثال الأول مُرَسَّخًا صُورَتَهُ ذَاتًا فَرْدِيَّةً رَاغِبَةً فِي الْحُكْمِ، طَالِبَةً لِسِيَاسَةِ النَّاسِ، وَمَرَاوِحًا فِي الْمَثَالِينَ الثَّانِي وَالثَّلَاثَ بَيْنَ الْوُجُودِ فَرْدًا وَالتَّحَقُّقِ جَمْعًا.

وَيَسْتَخْدِمُ مَعَاوِيَةَ هَذِهِ الْخَطَّةَ لِكَيْ يُخْرِجَ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ مِنْ حَيْزِ شَخْصِهِ الْمَفْرَدِ إِلَى نِطَاقِ سُلْطَةِ الْخِلَافَةِ بُغْيَةً إِحْدَاثِ التَّأْثِيرِ وَإِعْلَانِ الدَّوْلَةِ الْمُمَثِّلَةِ فِي شَخْصِهِ، الَّذِي لَا يَثْبِتُهُ فَرْدًا، وَلَا يَنْطِقُ بِاسْمِهِ، بَلْ هُوَ يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ خِلَافَةٍ جَمْعٍ، إِعْلَانًا بِالتَّأْسِيسِ، وَتَصْرِيحًا بِضَرُورَةِ الْفَصْلِ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ الْفَرْدِ، ذَاكَ الَّذِي سَعَى جَاهِدًا فِي تَقْصِي آثَارِ الْحُكْمِ، «وَلَقَدْ رُضْتُ (...) أُرِدْتُهَا (...)» وَأُرِدْتُهَا (...) «فَأَبَتْ عَلَيَّ»، وَمَعَاوِيَةَ-السُّلْطَةَ، «أَقْبَلُونَا بِمَا فِينَا، فَإِنْ مَا وَرَاءَنَا شَرٌّ لَكُمْ»، الَّذِي يَسْعَى إِلَى إِحْدَاثِ تَوَازُنٍ تَخَاطُبِيٍّ، وَهُوَ بِذَلِكَ يَصْنَعُ أَفْقَهُ الْخِطَابِيِّ الْخَاصَّ بِهِ، فَمَعَاوِيَةَ يَخْتَلِفُ فِي خُطَابِهِ عَنِ جُمْلَةِ الْخُطَبَاءِ السِّيَاسِيِّينَ الْأُمَوِيِّينَ، لِأَنَّهُ يُلْجَأُ إِلَى الظُّهُورِ بِصِیْغَةِ الْجَمْعِ بَغْيَةً تَحْسِيسِ الْمَخَاطَبِينَ بِأَنَّ جَمَاعَتَهُ أَسْلَمَ مِنَ الْجَمَاعَاتِ الْأُخْرَى، وَطَرِيقَهُ أَقْوَمُ مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا رَافِضُوهُ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ بِاسْمِ الْجَمَاعَةِ أَوْ الْقَبِيلَةِ أَوْ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ بِصَدَدِ تَأْسِيسِهَا، وَالْمَخَاطَبُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، لَيْسَ مَعَارِضًا فِي مَقَامٍ خَاصٍّ مَعْلُومٍ، بَلْ هُوَ مَخَاطَبٌ يُمَثِّلُ مَعَارِضَةً عَامَّةً، تَمَثَّلَتْ فِي وَجُودِ فَرَقٍ كَبْرَى تُتَازَعُ الْأُمَوِيُّونَ فِي الْخِلَافَةِ، لِذَلِكَ فَإِنَّ صِیْغَةَ الْجَمْعِ الَّتِي يَظْهَرُ عَلَيْهَا مَعَاوِيَةُ قَدْ تَسْهَمُ فِي إِحْدَاثِ التَّوَازُنِ بَيْنَ مَعَارِضَةٍ-جَمْعٍ، وَخُطِيبٍ-جَمْعٍ.

إنَّ المتكلم في خطب بني أمية السَّياسِيَّة، لا يثبت على موضع إحتاليٍّ واحدٍ، بل هو في ظهوره يعمد إلى حيلٍ وأشكالٍ تَلَوُّنٌ توقُّرها له أنظمة الضَّمائر في اللُّغة وطرق تصرُّفه فيها. والوضع الوحيد الذي يمكن إقراره هو ظهور المتكلم على صورة من القوَّة والفعل النَّافذ، فهو يسخر إمكانات لغة الخطاب لإثبات هذا الوضع بواسطة طريقتين كبيرتين:

الأولى: إثبات الوضع السَّياسِيَّ للمتكلِّم بواسطة الظُّهور في صيغة الجمع وفرض صورة له في ذهن المخاطب محلَّ صورةٍ أخرى.

والثَّانية: إثبات الوضع السَّياسِيَّ للمتكلِّم عبر تأكيد حضور «الأنا» الفاعل، القادر.

ويغلب استعمال الطريقة الثَّانية على خطب بني أمية السَّياسِيَّة، فالمتكلم غالباً ما يضع نفسه في مواجهة جمع المخاطبين. فصيغة الجمع التي يظهر عليها المتكلم، توظَّف للتأكيد أو التهويل أو الإعلان السَّياسِيَّ. ويَنزَعُ الخطباء إلى استخدام ضمير المتكلم في صيغة الجمع، لغايات، منها:

- ✧ تأكيد القول وجعله مندرجاً ضمن إطار السُّلطة الحاكمة.
- ✧ التأثير في المخاطبين بترهيبهم ساعة يظهر المتكلم-جمعاً.
- ✧ إعلان السُّلطة وإظهار حضور المؤسَّسة القابضة خلف المتكلم.

✧ إحداث التَّوازن التَّخاطبيَّ إذ يُوهم الفرد المتكلم بأنَّه جمعٌ

أمام جمَع المخاطبين.

أمَّا ظهور المتكلم في صيغة المفرد (كما هو الحال في المثال الأول وفي أجزاء من المثالين الثاني والثالث)، فذلك قد يردُّ إلى صلة الخطبة بحدثٍ معيَّن يمسُّ العلاقة القائمة بين المتخاطبين.

ترتبط الخطابة الأمويَّة السِّياسيَّة، ارتباطًا وثيقًا بالأحداث، فغالبًا ما تَنَتُّجُ الخطبة عن أحداثٍ حَالَّةٍ، اجْتَبَاهَا المخاطبون أو الخطيب، مثل حدث الولاية، أو مروق المخاطبين وعصيانهم للسلطة السِّياسيَّة، وهذا ما يجعل الخطبة تُشَدُّ في الأساس إلى المقام الخاصِّ، الذي يُحدِّد وجهة العلاقة التخاطبيَّة، ويُكيِّف الخطَّة القولِيَّة التي يَنْهَجُها المتكلم، فالعلاقة التخاطبيَّة المرتبطة بسياقٍ حدثيٍّ أو نفسيٍّ أو تاريخيٍّ هي المكوَّنَةُ لمقامِ الخطبة الخاصِّ.

ومِمَّا يُلاحظ في هذا المستوى أنَّ المتكلم يَفْجَأُ المخاطب، إذ يُعلن ظهوره منذ بدء الخطبة، فَمِنْ خصائص هذا النوع من الخطب أنَّ المتكلم يفرض وجوده داخل الخطبة طيلة إنجازها، منذ المستهلِّ إلى المنتهى، وكأنَّه مدارها ومنتهاها. وهذا ما بدا مكتومًا مخفيًا في أغلب الأنماط الخطابيَّة الأخرى.

فالمتكلم داهية لغة -وهذا قد يندرج ضمن دهائه السِّياسيِّ- إذ تُنسب إليه الخطبة فيكون منتجها ومنجزها، فهو يُنتج الخطاب ويقبع طيِّه يتلوَّن بتلوَّن مقام القول فيَقْفُرُ حينًا ويشتدُّ أحيانًا ويجنح إلى الصُّلح فتخرج اللغة كاشفةً عن ذات متكلمة مسالمة

تَسُوْسُ مخاطبيها ذودًا وحمايةً، ويعلن المواجهة، فتشتدُّ اللُّغةُ، ويستبدُّ المتكشِّف، إذ يظهر على صورة المقرِّع، المهْدَد.

ويُراوَحُ الخطيبُ المتكلمُ في إظهارِ ذاته داخل قوله الخطبي بين الأفراد والجمع، بين الظهور ذاتًا فردًا تملأ الخطاب وتحمل المخاطب على الإيمان بها، وبين التعبير عن الذات في صيغة الجمع، وهذه المراوحة في استخدام ضمير المفرد وضمير الجمع، هي إحداث لموازنة على وجهين؛ موازنة بين طرفي التَّخاطب، إذ يلجأ الخطيب إلى الظهور بصيغة الجمع حتَّى يحقق معادلةً مقاليَّةً بين حضور المخاطبين، جماعةً، وحضوره المفرد الذي يتحوَّل إلى حضورٍ-جمعٍ؛ وموازنةً بين ما هو راجع إلى الخطيب تحقيقًا وفعلاً، وما هو راجع إلى السُّلطة انتماءً وتأسيسًا فالخروج من استعمال الضمير المفرد إلى الضمير الجمع، في وجهٍ من وجوهه هو إنْفَادٌ للأمر، وإحداثٌ للتَّوازن بين المقام الخاص والمقام العام.

إنَّ الخطبة السِّياسيَّة في أداء حُكَّام بني أميَّة، لا تخرج عن إستراتيجيَّة عامَّة تتحكَّم في بُناها وتوجِّه مناحي القول فيها، فالخطيب مدفوعٌ إلى الاندراج في سلطة شاملة، جامعة، داخل خطبته، لا بدَّ أن يشيد بها وأن يحتمي بظلِّها، قولاً، وهو بذلك يحقق خطَّة الوالي السِّياسيَّة، ذلك أنَّ القول السِّياسيَّ لا يمكن له أن يخرج عن ضوابط المقام السِّياسي الذي يُحدِّد طبيعة العلاقات التخاطبيَّة ويكيِّف مسار القول ويمكن بُناه.

جِهَةٌ خطابيَّةٌ ثانيةٌ لها في الخطابة أثرٌ، وفي السِّياسة آثارٌ، وهي من منابت شبه الجزيرة العربيَّة، ومن أصول الدَّعوة الإسلاميَّة،

وهو عليّ بن أبي طالب الذي يمثل مصدرًا من مصادر الخطابة السياسيّة، وهو الدّاخلُ في عمق الخلاف السّياسيّ مع الخارجين عنه، الرّافضين لخلافته، وقد كان عليّ بن أبي طالب من رؤوس البلاغة العربيّة (بصرّف النظر عن توظيف خطّبه في مجالاتٍ مليّةٍ أو مذهبيّةٍ، فاشتغلنا على خطّبه مقاميّ فنّيّ خطابيّ فحسب)، إضافةً إلى مكانته الدينيّة قرابةً نسبيّةً من الرّسول وانتصارًا دينيًّا لرسالته، وهو بهذه الصّفات مشروع خطيبٍ مركزيٍّ في تاريخ الخطابة في شبه الجزيرة العربيّة، وقد خصّه الشّريف الرضيّ بجمعٍ لمنتخب بلاغاته وعيون أقواله وبلغ خطّبه في كتابٍ سمّاه نهج البلاغة⁽¹⁾، وهو الكتاب الذي صدر عنه ابن أبي الحديد لجمع خطبٍ متعدّدةٍ لعلّيّ بن أبي طالب وغيره من الذين عاصروه أو اتّصل بهم بسببٍ، في كتابٍ شارحٍ لنهج البلاغة⁽²⁾ أصبح أصلًا من أصول البحث في الخطابة العربيّة، رغم انعدام الموضوعيّة في الكتابين ونسبة خطبٍ إلى عليّ لم يُتَّفَقْ حول منتجها وقائلها، واختلف في مصدرها، ولذلك فإنّ ابن أبي الحديد يُنّههم بوفرة الاستيلاء على خطب الآخرين ونسبها إلى عليّ بن أبي طالب.

يشيد الشّريف الرضيّ في مفتتح كتاب نهج البلاغة بالمنزلة البلاغيّة لخطب عليّ، فيقول: «عِلْمًا أَنَّ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ مِنْ عَجَائِبِ الْبَلَاغَةِ، وَغَرَائِبِ الْفَصَاحَةِ، وَجَوَاهِرِ الْعَرَبِيَّةِ، وَثَوَاقِبِ الْكَلِمِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَاوِيَّةِ، مَا لَا يُوْجَدُ مُجْتَمِعًا فِي كَلَامٍ، وَلَا مَجْمُوعٌ الْأَطْرَافِ فِي كِتَابٍ، إِذْ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَشْرَعُ الْفَصَاحَةِ وَمَوْرِدُهَا،

(1) الشّريف الرضيّ (محمّد بن حسين): نهج البلاغة، تحقيق قيس بهجت العطّار، (مؤسّسة الرافد للمطبوعات، إيران، الطبعة الأولى، 2010).

(2) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمّد إبراهيم، (دار الكتاب العربي، بغداد، الطبعة الأولى، 2007).

وَمِنْشَأُ الْبَلَاغَةِ وَمَوْلِدُهَا، وَمِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ظَهَرَ مَكُونُهَا، وَعَنْهُ
أُخِذَتْ قَوَائِنُهَا، وَعَلَى أَمْثَلَتِهِ حَدَا كُلُّ قَائِلٍ خَطِيبٍ، وَبِكَلَامِهِ اسْتَعَانَ
كُلُّ وَاعِظٍ بَلِيغٍ⁽¹⁾.

وقد عُدَّتْ خُطْبُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِثَالًا يُحْتَذَى لِلْبَلَاغَةِ
العَرَبِيَّةِ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي خُطْبِهِ السِّيَاسِيَّةِ (عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَهُ
فِي خُطَابَةِ الْعِبَادَةِ وَالزَّهْدِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْفِرَاقِ لِعِبَادَةِ اللَّهِ بَابٌ،
وَلَهُ فِي خُطْبِ السِّيَاسَةِ أَبْوَابٌ) فِي مَا دَخَلَ فِيهِ سَاسَةُ بَنِي أُمَيَّةَ
مِنْ مِرَاعَاةِ مَقَامِ الْمُخَاطَبِ وَاتِّخَاذِهِ أَرْضِيَّةً لَتَوْجِيهِ خُطْبَتِهِ وَتَحْدِيدِ
مُخْتَلَفِ مَقَاصِدِهَا، وَيُمْكِنُ أَنْ نَضْرِبَ عَلَى ذَلِكَ مِثْلًا خُطْبَتَهُ فِي
أَهْلِ الْعِرَاقِ قَالُوا: «أَغَارَ سُفْيَانُ بْنُ عَوْفٍ الْأَزْدِيُّ ثُمَّ الْغَامِديُّ عَلَى
الْأَنْبَارِ، زَمَانَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَلَيْهَا حَسَّانٌ - أَوْ ابْنُ
حَسَّانٍ - الْبَكْرِيُّ فَقَتَلَهُ، وَأَزَالَ تِلْكَ الْخَيْلَ عَنْ مَسَالِحِهَا، فَخَرَجَ عَلِيٌّ
ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى جَلَسَ عَلَى بَابِ السُّدَّةِ، فَحَمَدَ
اللَّهُ وَأَتَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ. فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ
أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمَلَهُ الْبَلَاءُ، وَلَزِمَهُ الصَّغَارُ، وَسِيَمَ الْخَسْفُ،
وَمُنِعَ النَّصْفُ⁽²⁾. أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا
وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا، وَقُلْتُ لَكُمْ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزَوْكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا
غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عَصْرِ⁽³⁾ دَارِهِمْ إِلَّا دُلُّوا فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَادَلْتُمْ، وَثَقُلَ
عَلَيْكُمْ قَوْلِي وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا، حَتَّى شَنَّتْ عَلَيْكُمْ الْغَارَاتُ.

(1) م. ن. ص 38.

(2) النصف، بالتَّحْرِيك، وكذا النِّصْفَة: الإنصاف.

(3) عقر القوم، بالضم والفتح: محلَّتْهم بين الدَّارِ والحوض.

هَذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ، وَقَتَلَ حَسَّانَ - أَوْ ابْنَ حَسَّانَ -
 الْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَقَتَلَ مِنْكُمْ رَجُلًا صَالِحِينَ.
 وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى
 الْمُعَاهِدَةِ، فَيَنْزِعُ حِجْلَهَا وَقُلْبَهَا وَرِعَاثَهَا⁽¹⁾، ثُمَّ أَنْصَرَفُوا وَافْرِينَ، مَا
 كَلِمَ رَجُلٍ مِنْهُمْ كَلِمًا، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفًا،
 مَا كَانَ عِنْدِي بِهِ مَلُومًا، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا. فَيَا عَجَبًا مِنْ جَدِّ
 هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي بَاطِلِهِمْ، وَفَشْلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ. فَقَبِّحَا لَكُمْ وَتَرَحَّا⁽²⁾،
 حِينَ صَرْتُمْ هَدَفًا يُرْمَى، وَفَيْنَا يُنْتَهَبُ، يُعَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ،
 وَتُغَيِّرُونَ وَلَا تَغْرُونَ، وَيُعَصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ
 فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ: حَمَارَةُ الْقَيْظِ⁽³⁾، أَمْهَلْنَا يَنْسَلِخُ عَنَّا الْحَرُّ، وَإِذَا
 أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ فِي الْبَرْدِ قُلْتُمْ: أَمْهَلْنَا يَنْسَلِخُ عَنَّا الْقُرُّ. كُلُّ ذَا فِرَارًا
 مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ. فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُونَ، فَأَنْتُمْ وَاللَّهُ مِنَ
 السَّيْفِ أَقْرُ، يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالًا، وَيَا أَحْلَامَ الْأَطْفَالِ وَعُقُولَ
 رِبَاتِ الْحِجَالِ، وَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيكُمْ وَقَبَضَنِي
 إِلَى رَحْمَتِهِ مِنْ بَيْنِكُمْ. وَاللَّهُ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرْكُم، وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ.
 مَعْرِفَةُ وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدْمًا. قَدْ وَرِثْتُمْ صَدْرِي غِيظًا⁽⁴⁾، وَجَرَعْتُمُونِي
 الْمَوْتَ أَنْفَاسًا⁽⁵⁾، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ، حَتَّى قَالَتْ
 قُرَيْشُ: ابْنُ أَبِي طَالِبٍ شَجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ. لِلَّهِ أَبُوهُمْ،
 وَهَلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا أَوْ أَطْوَلَ لَهَا تَجْرِبَةً مِنِّي؟ لَقَدْ

(1) الْحِجَلُ: الخِلخال. القُلْب: السَّوَار. الرِعَاث: القِرط.

(2) قَبِّحَهُ اللَّهُ قَبِّحًا: أَقْصَاهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ كُلِّ خَيْر.

(3) حَمَارَةُ الْقَيْظِ: شِدَّةُ حَرِّهِ.

(4) يُقَالُ وَرَى الْقَيْحَ جَوْفَهُ يَرِيهِ وَرِيًّا: أَكَلَهُ.

(5) أَنْفَاسًا: جَمَعَ نَفْسَ، وَهُوَ الْجُرْعَةُ مِنَ الْمَاءِ وَنَحْوِهِ.

مَارَسْتُهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، فَهَآنَذَا قَدْ نَيْفْتُ عَلَى السِّتَيْنِ وَلَكِنْ
لَا رَأْيَ لِي أَنْ لَا يُطَاعُ»⁽¹⁾.

نتبين من الخطبة صلةً تخاطبيةً متوترةً بين المتكلم الحاكم الذي يُظهر ذاته وتجربته وأثره ومُخاطبٍ متخاذلٍ خارجٍ عن طوع رأيه، وهذه الصلة المتأسسة في الخطبة تصل أوجها بعد العرض والعمل على استمالة المخاطبين بتحديد صفات المخاطب نداءً، «يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ»، وهي عبارة مُفصّحة عن عمق التوتّر الحاصل بين المتخاطبين، وأغلبُ الخطب السياسيّة في العصر الأمويّ قائمة على إظهار هذه الصلة المرتبكة بين طريفي التخاطب، ولعلنا نلاحظ في هذه الخطبة أنّ المتكلم آثر أن يُظهر صورته في صيغة المفرد، فهو -بالرغم من أنّه الحاكم- يُعوّل على مرجعيّته الذاتيّة صُحبةً للرّسول وأسبقيّةً في الإسلام وانتساباً إلى فئة الشُّجعان الأبطال. إنّ ظهور المتكلم مفرداً، إثباتٌ لمقام الخطبة الخاصّ الذي يصل الخطيب بالمخاطبين، فتظهر قدرةً منجز القول وصاحب الفعل على إثبات حضوره السياسيّ والخطابيّ فرداً، دون الاستناد إلى ضميرٍ جمعيّ يجعل خطابَه خطابَ مؤسّسةٍ ويضخم من وضعه، وإنّما هو يعوّل على سطوّته الدّاتيّة وسلطته الفرديّة، وعلى شرعيّته التّاريخيّة، ومآثره المعروفة المشهورة. وعلى ذلك، فإنّ باباً من الدّراسة يُمكن أن يُفتح في دراسة هذا النّمط الخطابيّ الذي تكون فيه ذاتُ المتكلم ممثّلةً لمرجعيّة تاريخيّةٍ ولحجّةٍ قوليّةٍ يستند إليها لاستمالة المخاطب عبر وسائط قوليّةٍ عديدة.

(1) البيان والتبيين، 2/ 53-55، والعقد الفريد، 4/ 160-161.

صورةً ثالثةً يُمكن أن تُشكِّل مدخلاً من مداخل إعادة النَّظر في دراسة الخطابة العربيَّة، وهي صورةٌ تظهرُ في أصواتٍ لمتكلِّمين عددٍ تختلف مرجعيَّاتهم من الخلافة أساساً وتتباين مواقفهم، منهم حُطِيبُ بُرْز وشاعت حُطْبُه، وهو أبو حمزة الشَّاري، وهو سليل قبيلة بني سليمة، من قرية مجز في صُحار عُمان، واسمُه المختار بن عوف الأزدي، الذي نتج ضمن فضاءٍ كان فيه النَّشاط الحُطْبِيّ في عُمان معلوماً، ويُمكن أن نستدلَّ على ذلك بقولٍ للجاحظ، يُبدي فيه عجباً من بلاغة أهل عُمان، يقول: «قَالَ عَمْرٍو بَنُ بَحْر: لَرُبَّمَا سَمِعْتَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ يَقُولُ: وَمِنْ أَيْنَ لِأَهْلِ عُمان الْبَيَانُ؟ وَهَلْ يَعُدُّونَ لِبَلَدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْخُطَبَاءِ وَالْبُلْغَاءِ مَا يَعُدُّونَ لِأَهْلِ عُمان؟ مِنْهُمْ: مَصْقَلَةُ بْنُ رَقْبَةَ، أَخْطَبَ النَّاسَ قَائِماً وَجَالِساً وَمُنَافِساً وَمُجِيباً وَمُبْنِدِئاً. ثُمَّ ابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَرَبُ بْنُ مَصْقَلَةَ. وَلَهُمَا حُطْبَتَا الْعَرَبِ: الْعَجُوزُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَالْعَذْرَاءُ فِي الْإِسْلَامِ»⁽¹⁾.

ويورد في المقام ذاته مجادلةً قولِيَّةً تُظهر البلاغة الخطابيَّة لأهل عُمان، من خلال محادثة معاوية بن أبي سفيان مع صُحار العبيدي (ت 165 هـ): «قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: قَالَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ لِمُصْحَارِ بْنِ عِيَّاشِ الْعَبْدِيِّ مَا هَذِهِ الْبَلَاغَةُ الَّتِي فِيكُمْ؟ قَالَ: شَيْءٌ تَجِيشُ بِهِ صُدُورُنَا فَتَقْذِفُهُ عَلَى أَلْسِنَتِنَا. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ عُرُضِ الْقَوْمِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَؤُلَاءِ بِالْبُسْرِ وَالرُّطْبِ، أَبْصَرُ مِنْهُمْ بِالْخُطْبِ. فَقَالَ لَهُ صُحَارُ: أَجَلُ وَاللَّهِ، إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الرِّيحَ تُلْقِحُهُ، وَأَنَّ الْبَرْدَ لِيَعْقِدُهُ، وَأَنَّ الْقَمَرَ لِيَصْبِغُهُ، وَأَنَّ الْحَرَ لِيُنْضِجَهُ. وَقَالَ لَهُ

(1) السالمي (عبد الله بن حميد، نور الدين): تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان (د.ت)، 14/1.

مُعَاوِيَةَ: مَا تَعْدُونَ الْبَلَاغَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: الْإِيْجَارُ. قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: وَمَا الْإِيْجَارُ؟ قَالَ صُحَارُ: أَنْ تُجِيبَ فَلَا تُبْطِئَ، وَتَقُولَ فَلَا تُخْطِئَ. فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَوْ كَذَلِكَ تَقُولُ يَا صُحَارُ؟ قَالَ صُحَارُ: أَقْلَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَّا تُبْطِئَ وَلَا تُخْطِئَ⁽¹⁾. ويردُّ الجاحظ القُدرة الخُطبيَّة لأهل عُمان إلى بُعدِ تاريخيِّ، يقول: «وَشَأْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ عَجَبٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بَعْدَ مُحَارَبَةِ إِيَادٍ تَفَرَّقُوا فِرْقَتَيْنِ: فَفِرْقَةٌ وَقَعَتْ بِعُمَانَ وَشَقَّ عُمَانَ، وَهُمْ خُطَبَاءُ الْعَرَبِ، وَفِرْقَةٌ وَقَعَتْ إِلَى الْبَحْرَيْنِ وَشَقَّ الْبَحْرَيْنِ، وَهُمْ مِنْ أَشْعَرِ قَبِيلٍ فِي الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ حِينَ كَانُوا فِي سُرَّةِ الْبَادِيَةِ وَفِي مَعْدِنِ الْفَصَاحَةِ. وَهَذَا عَجَبٌ. وَمِنْ خُطَبَائِهِمُ الْمَشْهُورِينَ: صَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ، وَزَيْدُ بْنُ صُوحَانَ، وَسَيْحَانُ بْنُ صُوحَانَ. وَمِنْهُمْ صُحَارُ بْنُ عِيَّاشٍ. وَصُحَارُ مِنْ شَيْعَةِ عُثْمَانَ، وَبَنُو صُوحَانَ مِنْ شَيْعَةِ عَلِيٍّ. وَمِنْهُمْ مَصْقَلَةُ بْنُ رَقَبَةَ، وَرَقَبَةُ بْنُ مَصْقَلَةَ، وَكَرْبُ بْنُ رَقَبَةَ»⁽²⁾.

يعمل الجاحظ في عدد من المواقف على تبيان هذه البلاغة الخطابيَّة التي يتميَّز بها أهل عُمان من خلال أعلام الخطابة المذكورين، ويُمكن أن ننتهي بإيراد محاورة خطابيَّة تُظهِرُ حضور بديهة صَعَصَعَةَ بْنِ صُوحَانَ وأنسياب البلاغة على لسانه. «قَالَ أَبُو عَمْرٍو: خَرَجَ صَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ عَائِدًا إِلَى مَكَّةَ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، كَيْفَ تَرَكْتَ الْأَرْضَ؟ قَالَ: عَرِيضَةٌ أَرِيضَةٌ، قَالَ: إِنَّمَا عَنِيتُ السَّمَاءَ. قَالَ: فَوْقَ الْبَشَرِ، وَمَدَى الْبَصَرِ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ،

(1) البيان والتبيين، 96/1

(2) م. ن. 1/96-97.

إِنَّمَا أَرَدْتُ السَّحَابَ! قَالَ: تَحْتَ الْخَضِرَاءِ، وَفَوْقَ الْغُبَرَاءِ. قَالَ: إِنَّمَا
أَعْنِي الْمَطَرَ. قَالَ: عَفَى الْأَثَرُ، وَمَلَأَ الْقُتْرَ، وَبَلَّ الْوَبَرَ، وَمُطِرْنَا أَحْيَا
الْمَطَرَ. قَالَ: إِنْ سَيَّ أَنْتَ أَمْ جِنِّي؟ قَالَ: بَلْ إِنْ سَيَّ، مِنْ أَمَةٍ رَجُلٍ مَهْدِيٍّ،
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»⁽¹⁾.

وقد وردَ في كتابِ تَحْفَةِ الْأَعْيَانِ بِسِيرَةِ أَهْلِ عُمَانَ، ذِكْرٌ لِخُطْبَاءِ
عُمَانَ وَجَلِيلِ أَثَرِهِمْ فِي الْخُطَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَدْ قَدَّمَ الْكِتَابَ صُورَةً
بَيِّنَةً عَنْ أَثَرِ هَؤُلَاءِ الْخُطْبَاءِ، وَأَبَانَ مَنْزِلَتَهُمْ وَقَدَّرَتَهُمْ⁽²⁾، وَفَرَّغَ
لِلْحَدِيثِ عَنْ خُطِيبٍ أَفْرَدَ لَهُ مَنْزِلَةً وَمَكَانَةً، وَهُوَ أَبُو حَمْزَةَ الشَّارِي
مِنْ مُؤَسَّسِي دَوْلَةِ الْإِمَامَةِ فِي الْيَمَنِ وَحَضْرَمُوتَ، وَعَلَمًا مِنْ أَعْلَامِ
الْخُطَابَةِ الْمَذْكُورِينَ، وَرَأْسًا مِنْ رُؤُوسِ مَذْهَبِهِ، وَقَائِدًا إِمَامًا، وَقَوْلُهُ
فِي خُطْبِهِ يَسْتَمِدُّ جَانِبًا مِنْ أَثَرِهِ وَقَوَّتِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي احْتَلَّهَا
الْمُتَكَلِّمُ، وَلَهُ خُطْبٌ مَعْلُومَةٌ مَشْهُورَةٌ، وَبَعْضُهَا عُذٌّ مِنْ وَجْهِ الْبَلَاغَةِ
الْعَرَبِيَّةِ، يَقُولُ السَّالِي فِيهِ:

«وَمِنْهُمْ أَبُو حَمْزَةَ الشَّارِي، الْمُخْتَارُ بْنُ عَوْفٍ، وَهُوَ مِنْ بَنِي سَلِيمَةَ
ابْنِ مَالِكِ بْنِ فَهْمٍ، صَاحِبُ الْإِمَامِ طَالِبُ الْحَقِّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى
الْحَضْرَمِيِّ، وَلَهُ الْخُطْبُ الْمَشْهُورَةُ الْمَأْثُورَةُ، رَوَى بَعْضُهَا مَالِكُ
ابْنِ أَنَسٍ، وَقَالَ عِنْدَ رَوَايَتِهِ: خُطَبْنَا أَبُو حَمْزَةَ الْمُخْتَارُ بْنُ عَوْفٍ
خُطْبَةً حَيْرَتِ الْمُبْصِرَ وَرَدَّتِ الْمُرْتَابَ، يَعْنِي أَنَّ الْمُبْصِرَ فِي دِينِهِ، الْمُخَالَفَ
لَأَبِي حَمْزَةَ صَارَ بَعْدَ سَمَاعِ خُطْبَتِهِ مُخْتَارًا غَيْرَ مُبْصِرٍ، لَمَّا سَمِعَ
فِيهَا مِنَ الْحُجَجِ الْبَاهِرَةِ، الْقَاهِرَةِ، النَّاقِصَةِ، لَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ

(1) م. ن. 4 / 99.

(2) تحفة الأعيان، 1/ 15-17.

الاعتقاد، وأنَّ المرتاب في مذهبه، رَجَعَ بِسَمَاعِ خُطْبَةِ أَبِي حَمْرَةَ إِلَى مَذْهَبِ الْحَقِّ وَتَرَكَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّيْبِ»⁽¹⁾.

وقد تنبَّه السَّالِي إلى مميَّزات الخطبة عند أبي حمزة الشَّارِي، وهو رأس الخطباء وإمامهم، وله حضورٌ ظاهرٌ في عدد من المصنَّفات القديمة والحديثة، وقد أورد له جامعُ خُطَب العرب عددًا هامًا من خُطبه التي أظهرت سياسةً في القول وقُدرةً على تصريف الكلام وامتلاكًا لخاصية البلاغة واقتدارًا على أسر المخاطبين، وفنًا في العرْض والإتيان بالحُجَّة، ووضع المخاطبين في الوَضْع الذي يريده لهم، وهو وضع الاتِّهام في خُطبه السياسيَّة حتَّى يتمكن من النفاذ إليهم وتغيير معتقداتهم.

يظهر ذلك بصورة بيَّنة في خُطبته التي توجَّه بها إلى أهل المدينة في مقام لَوْمٍ وتقريع بعد أن بلغه أنَّ أهل المدينة يعيبونه وأصحابه⁽²⁾، تُظهر هذه القُدرة الخطابيَّة والبراعة في سياسة الكلام وامتلاك الفضاء الخطابي. يقول، وقد بلغه أنَّ أهل المدينة قد عابوا أصحابه نظرًا إلى «حادثة أسنانهم، وخفَّة أحلامهم»: «يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، قَدْ بَلَغْتَنِي مَقَالَتُكُمْ لِأَصْحَابِي، وَلَوْلَا مَعْرِفَتِي بِضَعْفِ رَأْيِكُمْ وَقِلَّةِ عُقُولِكُمْ، لَأَحْسَنْتُ أَدَبَكُمْ، وَيَحْكُمُ! إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَبَيَّنَ لَهُ فِيهِ السُّنَنَ، وَشَرَعَ لَهُ فِيهِ الشَّرَائِعَ، وَبَيَّنَ لَهُ فِيهِ مَا يَأْتِي وَمَا يَذُرُّ، فَلَمْ يَكُنْ يَتَقَدَّمُ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَلَا يُحْجِمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ، وَعَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ مَعَالِمَ دِينِهِمْ، وَلَمْ

(1) تحفة الأعيان، 17/1.

(2) روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة، وذكر أن اسم أبي حمزة «يحيى بن المختار». البيان والتبيين، 2/ 122.

يَدْعُهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي شُبْهَةٍ، وَوَلَّى أَبَا بَكْرٍ صَلَاتَهُمْ؛ فَوَلَّاهُ الْمُسْلِمُونَ أَمْرَ دُنْيَاهُمْ، حِينَ وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ دِينِهِمْ؛ فَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَاتَلَ أَهْلَ الرِّدَّةِ، وَشَمَّرَ فِي أَمْرِ اللَّهِ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَالْأُمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ رَحْمَةً اللَّهِ عَلَيْهِ وَمَغْفِرَتِهِ، ثُمَّ وَلَّى بَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَسَارَ بِسِيرَةِ صَاحِبِهِ، وَعَمِلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَجَنَّدَ الْأَجْنَادَ، وَمَصَّرَ الْأَمْصَارَ، وَجَبَى الْفِيءَ، وَفَرَضَ الْأَعْطِيَةَ، وَشَمَّرَ عَنْ سَاقِهِ، وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعِهِ، وَجَلَدَ فِي الْخَمْرِ ثَمَانِينَ، وَجَمَعَ النَّاسَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ⁽¹⁾، وَغَزَا الْعَدُوَّ فِي بِلَادِهِمْ، وَفَتَحَ الْمَدَائِنَ وَالْحُصُونِ، حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَالْأُمَّةُ عَنْهُ رَاضُونَ، رَحْمَةً اللَّهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، ثُمَّ وَلَّى مِنْ بَعْدِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ؛ فَسَارَ سِتِّ سِنِينَ بِسِيرَةِ صَاحِبِيهِ -وَكَانَ ذَوْنَهُمَا- ثُمَّ سَارَ فِي السِّتِّ الْأَوَّخِرِ بِمَا أَحْبَطَ بِهِ الْأَوَائِلَ، وَاضْطَرَبَ حَبْلُ الدِّينِ بَعْدَهَا؛ فَطَلَبَهَا⁽²⁾ كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ، وَأَسْرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ سَرِيرَةً أَبْدَاهَا اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى مَضَوْا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ وَلَّى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؛ فَلَمْ يَبْلُغْ مِنَ الْحَقِّ قَصْداً، وَلَمْ يَرْفَعْ لَهُ مَنَاراً، ثُمَّ مَضَى لِسَبِيلِهِ، ثُمَّ وَلَّى مُعَاوِيَةَ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ (....) فَسَفَكَ الدَّمَ الْحَرَامَ، وَاتَّخَذَ عِبَادَ اللَّهِ حَوْلًا⁽³⁾، وَمَالَ اللَّهِ دَوْلًا⁽⁴⁾، وَبَغَى دِينَهُ عَوْجًا وَدَعْلًا⁽⁵⁾⁽⁶⁾.

(1) أي لصلاة القيام، وفي رواية: «وقام في شهر رمضان».

(2) أي الخلافة، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها، وطمع معاوية فيها.

(3) عبيدا

(4) جمع دولة بالضم: أي متداولاً بين عشيرته دون سائر المسلمين.

(5) الدغل: الفساد كالدخل.

(6) جمهرة خطب العرب، 1/352.



يعرضُ المتكلم الخطيب في أغلب روايات هذه الخطبة، المسار التاريخي لحكام بني أمية وبني مروان، ويبيدي موقفه ووجهة نظره من أدائهم ومن إدارتهم لشؤون الناس، وهو واسمهم بسماتٍ جارحة، يُمكن أن تهزَّ المخاطب وأن تشدَّ مشاعره، حتَّى يبلغ المقطع الجواب، أو المقطع المقصد، الذي يذكر فيه خصال أصحابه، يقول: «فَأَيُّ هَؤُلَاءِ الْفِرَقِ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ تَتَّبِعُونَ، أَمْ بِأَيِّ مَذَاهِبِهِمْ تَقْتَدُونَ؟ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي! قُلْتُمْ شَبَابُ أَحْدَاثٍ، وَأَعْرَابُ جُفَاةٍ، وَيَحْكُمُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ! وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِهِ الْمَذْكُورُونَ فِي الْخَيْرِ إِلَّا شَبَابًا أَحْدَاثًا؟ أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَعَالِمٌ تَتَابِعُكُمْ فِيمَا يَضُرُّكُمْ فِي مَعَادِكُمْ، وَلَوْ لَا اسْتَعَالِي بَغِيرِكُمْ عَنْكُمْ مَا تَرَكْتُ الْأَخَذَ فَوْقَ أَيْدِيكُمْ. شَبَابُ وَاللَّهِ مُكْتَهَلُونَ⁽¹⁾ فِي شَبَابِهِمْ، غَضِيضَةٌ عَنِ الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ، ثَقِيلَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ أَرْجُلُهُمْ، أَنْضَاءُ⁽²⁾ عِبَادَةٍ، وَأَطْلَاحُ سَهَرٍ⁽³⁾، بَاعُوا أَنْفُسًا تَمُوتُ غَدًا، بِأَنْفُسٍ لَا تَمُوتُ أَبَدًا، قَدْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، مُنْحَنِيةً أَصْلَابَهُمْ عَلَى أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ، كُلَّمَا مَرَّ أَحَدُهُمْ بِآيَةٍ مِنْ ذِكْرِ الْجَنَّةِ بَكَى شَوْقًا إِلَيْهَا، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ مِنْ ذِكْرِ النَّارِ شَهِقَ شَهْقَةً، كَأَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ بَيْنَ أُذُنَيْهِ، قَدْ أَكَلَتْ الْأَرْضُ رُكْبَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأُنُوفَهُمْ وَجَبَاهُمْ، وَوَصَلُوا كَلَالًا⁽⁴⁾ اللَّيْلِ بِكَلَالِ النَّهَارِ، مُصَفَّرَةً أَلْوَانُهُمْ، نَاحِلَةً أَجْسَامُهُمْ، مِنْ طُولِ الْقِيَامِ، وَكَثْرَةِ الصِّيَامِ، مُسْتَقِلُّونَ لِذَلِكَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، مُوفُّونَ

(1) أي قد أحرزوا رزاة الكهول وسداد رأيهم.

(2) جمع نضو كحمل، وهو المهزول.

(3) جمع طلح وهو كنضو وزنًا ومعنى.

(4) الكلال: التعب والإعياء.

بِعَهْدِ اللَّهِ، مُنْجِرُونَ لَوَعْدِ اللَّهِ، حَتَّى إِذَا رَأَوْا سِهَامَ الْعَدُوِّ وَقَدْ فُوقَتْ⁽¹⁾،
وَرَمَاحَهُمْ وَقَدْ أَشْرَعَتْ⁽²⁾، وَسُيُوفُهُمْ وَقَدْ انْتَضَبَتْ⁽³⁾، وَبَرَقَتْ الْكَتِيبَةُ
وَرَعَدَتْ بِصَوَاعِقِ الْمَوْتِ، اسْتَخَفُّوا بِوَعِيدِ الْكَتِيبَةِ لَوَعِيدِ اللَّهِ، وَلَمْ
يَسْتَخَفُّوا بِوَعِيدِ اللَّهِ لَوَعِيدِ الْكَتِيبَةِ، وَلَقُوا شَبَاً⁽⁴⁾ الْأَسِنَّةِ، وَشَائِكِ
السَّهَامِ، وَظُبَاتِ السُّيُوفِ بِنُحُورِهِمْ، وَوُجُوهِهِمْ وَصُدُورِهِمْ، فَمَضَى
الشَّابُّ مِنْهُمْ قُدَمًا، حَتَّى اخْتَلَفَتْ رِجْلَاهُ عَلَى عُنُقِ فَرَسِهِ، وَاخْتَضَبَتْ
مَحَاسِنُ وَجْهِهِ بِالدِّمَاءِ، وَعُفِّرَ⁽⁵⁾ جَبِينُهُ بِالنَّثَرِ، وَانْحَطَّتْ عَلَيْهِ طَيْرُ
السَّمَاءِ، وَتَمَرَّقَتْهُ سِبَاعُ الْأَرْضِ؛ فَطُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا بَ؛ فَكَمْ مِنْ
عَيْنٍ فِي مَنْقَارِ طَائِرٍ طَالَمَا بَكَى بِهَا صَاحِبُهَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَوْفِ
اللَّهِ، وَكَمْ مِنْ يَدٍ قَدْ أُبِينَتْ عَنْ سَاعِدِهَا، طَالَمَا اعْتَمَدَ عَلَيْهَا صَاحِبُهَا
زَاكِعًا وَسَاجِدًا، وَكَمْ مِنْ وَجْهِ رَقِيقٍ، وَجَبِينٍ عَتِيقٍ⁽⁶⁾، قَدْ فُلِقَ بِعَمْدِ
الْحَدِيدِ، ثُمَّ بَكَى، وَقَالَ: آه، آه عَلَى فِرَاقِ الْإِخْوَانِ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى
تِلْكَ الْأَبْدَانِ، وَأَدْخَلَ أَرْوَاحَهُمُ الْجَنَانَ»⁽⁷⁾.

تُظْهِرُ الْخُطْبَةُ تَقْدِيرًا بَيِّنًا لِلْخَلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَسُكُوتًا عَنْ وَسْمِ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَكَتْفَاءَ بِالْإِشَارَةِ دُونَ الْعِبَارَةِ، وَبِالتَّلْمِيحِ دُونَ

(1) فوق السهم: جعل له فوقاً «بالضم» وهو موضع الوتر من السهم؛ أي أعدت الرمي.

(2) سددت.

(3) استلت.

(4) جمع شبة: وهي حد كل شيء؛ والظبات: جمع ظبة؛ وهي حد السيف.

(5) أصابه العفر: وهو التراب.

(6) كريم.

(7) جمهرة خطب العرب، 1/356-357.

التَّصْرِيح، ثُمَّ التَّعَرُّضُ بالتَّفْصِيلِ والْبَيَانِ لإِمَارَةِ الْأُمُويِّينَ والمُرَوَانِيِّينَ وعَرَضَ مَوْقِفَ مَعْلَنٍ مِنْ خَلْفَائِهِمْ، انْتِهَاءً إِلَى السُّؤَالِ الْمَرْكَزِ الَّذِي يَضَعُ الْمُخَاطَبِينَ فِي خَانَةِ الْمَرْوَقِ وَالْخُرُوجِ وَسُوءِ الْإِخْتِيَارِ، وَهُوَ «فَأَيُّ هَؤُلَاءِ الْفِرَقِ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ تَتَّبِعُونَ، أَمْ بِأَيِّ مَذَاهِبِهِمْ نَقْتَدُونَ؟». فَالْخُطْبَةُ قَائِمَةٌ عَلَى الْخُطَّةِ النَّمُودَجِيَّةِ الَّتِي تَتَّبَنِي عَلَيْهَا الْخُطَابَةُ فِي شَكْلِهَا التَّامِّ مِنْ تَقْدِيمٍ وَعَرَضٍ وَوَضْعٍ لِلْمُخَاطَبِ فِي دَائِرَةِ الْمُتَكَلِّمِ يُصَرِّفُهُ كَيْفَمَا شَاءَ، إِضَافَةً إِلَى انْبِنَائِهَا عَلَى الْمَقَارَعَةِ بِالْحُجَّةِ وَتَنْوِيعِ طَرَائِقِ التَّأْثِيرِ بِقُوَّةِ الْقَوْلِ.

وَلَعَلَّ عُمُقَ الْخُطْبَةِ يَظْهَرُ فِي تَصْوِيرِهِ لِأَصْحَابِهِ رَدًّا عَلَى الْمُخَاطَبِينَ، وَوَضْعًا لَهُمْ فِي مَوْضِعِ الْخُرُوجِ عَنِ الدِّينِ، وَالْخُرُوجِ عَنِ سُنَّةِ الرَّسُولِ، وَهُوَ أَمْرٌ يُحَقِّقُ مَقَاصِدَ الْخُطْبَةِ، إِذْ يَتَوَجَّهَ الْمُتَكَلِّمُ إِلَى تَعْدِيلِ مَوَاقِفِ الْمُخَاطَبِينَ أَوْ تَغْيِيرِهَا، فَيَتَوَسَّعُ فِي وَسْمِ أَصْحَابِهِ وَيَصِلُهُمْ بِعَالَمِ الْعِبَادَةِ، رَغْبَةً فِي الْآخِرَةِ وَرَغْبَةً عَنِ الدُّنْيَا، طَلِبًا لِلْآخِرَةِ وَإِعْرَاضًا عَنِ مِلَادِ الدُّنْيَا، وَهُوَ إِذْ يَعْزِضُ سَمَاتِهِمْ وَأَوْصَافَهُمْ وَخِصَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ يَوْقَعُ فِي ذَهْنِ الْمُخَاطَبِ مَقَارَنَةً بَيْنَهُمْ وَمَنْ ذَكَرَ مِنْ حُكَّامِ بَنِي أُمَيَّةٍ وَمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ، فَالْقِيَاسُ حَاصِلٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَالْمُقَارَنَةُ نَتَاجُ مَنْطَقِيٍّ، وَاسْتِمَالَةِ قُلُوبِ السَّامِعِينَ وَاسْتِدْرَاجِ أَذْهَانِهِمْ إِلَى عَالَمِ أَنْصَارِ الْمُتَكَلِّمِ «الْغَضِيضَةُ أَبْصَارُهُمْ» عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَرْوَقِ، الْبَعِيدَةِ أَفْعَالَهُمْ عَنِ الْخَطِيئَةِ هُوَ مَقْصَدُ الْخُطْبَةِ وَمَرْمَاهُ.

الْمُتَكَلِّمُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، أَيَّ مَقَامِ الْخُطَابَةِ، يَرْكُنُ إِلَى اللُّغَةِ أَدَاءً لِلتَّوَاصُلِ وَالْفِعْلِ وَالتَّأْثِيرِ. وَفَعَلَ اللُّغَةَ يَصِيرُ أَوْكَدَ وَأَشَدَّ حُضُورًا مَتَى نَبَعَ الْخُطَابُ مِنْ فِضَاءٍ سِيَاسِيٍّ، فَالْقَوْلُ السِّيَاسِيُّ يَتَضَمَّنُ

دومًا مقاصد تتجاوز وساطة اللُّغة إبلاغًا إلى اعتماد الفعل بواسطة اللُّغة، ناهيك أنَّ الخطيب السِّيَاسِيَّ يعتمد على موقعه السُّلطويَّ لتحويل القول إلى سلطة تكتسب خصائصها من بُناها وصُورها وآثارِ وَقَعِهَا.

إنَّ الملاحظ في مستوى العلاقة التَّخاطبيَّة في بناء الخطابة السِّيَاسِيَّة في عصر الأمويين، هو انكشافها، وإعلان طبيعتها، فالمتكلم غالبًا ما يعمدُ إلى إظهار نوع الرَّابطة التي تصله بالمخاطبين، وهي رابطة سياسيَّة، يسعى إلى إثباتها في عديد المواطن طيَّ حُطْبِهِ، لذلك فإنَّ هذا النوع من الحُطْب يقوم في أغلب الأحيان على المشادَّة والتوثير، وإنَّ كُنَّا لا نعدم وجود بعض الخطب التي تقوم على التوسُّل بأسلوب الخطابة الدينيَّة، قولاً وعظيًّا، والتَّماسًا ليَّنًا، بغية إرضاخ المخاطب إلى سلطة المتكلم؛ غير أنَّ الغالب في مستوى هذه العلاقة، عدُّ المخاطب غايةً تُدرَك بوسائط اللُّغة الممكنة وبأساليبها وألوان إجرائها، فلا يعمد المتكلم إلى وسائل إقناعيةٍ دومًا تجعل أفكاره مقبولةً، بل هو يعوِّل على إنشاء مقام من الوعيد والتَّرهيب في الغالب الأعمَّ، يكشف عن طبيعة العلاقة القائمة بينه وبين مخاطبيه. لذلك فإنَّ حُطَّة الحُطْبَة تُبنى على تصوُّر مخاطبٍ مفترَض ولكنَّه ماثلٌ أمام الخطيب، هذا المخاطب الرَّافض أو المشكِّك في شرعيَّة المتكلم أو في قدرته على الفعل، وفي جدارته بتولِّي الحكم.

وانطلاقًا من هذا المعطى، فإنَّ الحُطْبَة تكون دومًا دفاعًا عن هذا المبدإ السِّيَاسِيَّ، إذ تُعلي من شأن المتكلم وتحطُّ من شأن المخاطب، وتُعلن الرِّعامة السِّيَاسِيَّة، وتذكر، تصريحًا، طبيعة



العلاقة القائمة بين الأمر والمأمور، أو بين رجل السياسة الفاعل، والرعيّة المتقبّلة، الواجب عليها الإيمان بهذه الرّعاية.

إنّ قولاً - إعلاناً، مثل قول زياد بن أبيه في خطبته «البتراء»: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً.» هو في حقيقة الأمر تصريح وكشف عن طبيعة الرّابطة التي تُصِلُ المتكلّم بالمخاطب ف«ساسة»، تعني مُوجّهين وآمرين وزاجرين، وتفيد أيضاً قوّة الفعل والقدرة على إتيانه. فصيغة العلاقة بين المتكلّم والمخاطب، هي صياغة تُوجّه إلى تركيز التسليم أو الاقتناع بالأمر الواقع. والخطبة تساعد المتكلّم على إبراز علاقة الحاكم بالمحكوم المؤكدة «بإنّ»، فضلاً عمّا يفيد فعل «أصبح» من دعوة إلى الإقرار بالواقع الجديد المفروض. وهذه الصّورة تؤكدُها صيغُ الأمر والنّهي والرّجر والنّداء بواسطة القذف والسّتم، التي تُميّز هذه الخطب، سواء في خطب السّاسة الأمويين أو في خطب عليّ بن أبي طالب وهو حاكمٌ بأمره أيضاً موازاة مع حُكم بني أميّة، يكتسبُ شرعيّته من تاريخيّة صلّته بالدّعوة الإسلاميّة أسبقيّة في الإسلام، ومن صلّة القرابة بالرّسول مؤازرةً وسنداً، ومن شرعيّة نزاعيّة فعلى السلطة في قُريش منذ الجاهليّة بين البيت الأمويّ والبيت الهاشميّ، أو في خطب أبي حمزة السّاري الذي يبحث عن شرعيّة ثالثة تخرّج عن التّجاذب الثنائيّ بين المتنازعين التّاريخيين، ليُحدِث خطاباً فيه احتذاءً بالرّسول الكريم واتّباعاً لسبيله.

وعلى هذه الصّلات المتوتّرة بين طرفي التّخاطب، تكون الحجج اللّغويّة هي الأقوى والأكثر إجراءً، يعتمدُها المتكلّم لا لإقناع

المُخَاطَبِينَ - فَأَمْرُ إِقْنَاعِهِمْ يَبْدُو عَسِيرًا وَصَعَبَ الْمُنَالِ - وَلَكِنْ لِلتَّأْثِيرِ فِيهِمْ، وَالْعَمَلِ عَلَى تَغْيِيرِ مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ، تَخْوِيفًا وَتَرْهِيبًا، وَإِقْنَاعًا لِلْفَزَعِ وَالرَّوْعِ فِي قُلُوبِهِمْ. فَالْخُطْبَةُ السِّيَاسِيَّةُ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ لَا تَتَحَوَّلُ فِي أَعْمَالِ حُجَّجِهَا إِلَى الْإِتْيَانِ بِالْأَدَلَّةِ الْمُنْطَقِيَّةِ الَّتِي تُبْدِي رَغْبَةَ الْمُتَكَلِّمِ فِي تَحْوِيلِ قَنَاعَاتِ الْمُخَاطَبِ، وَإِنَّمَا الْغَالِبُ عَلَيْهَا هُوَ فَرَضُ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ، وَقُوَّةُ الْوَاقِعِ تَتَجَلَّى فِي قُوَّةِ اللُّغَةِ وَالتَّوَسُّلِ بِمُخْتَلَفِ أَدْوَاتِ الْخُطَابِ الْمُحَقَّقة لِقَصْدِيَّةِ التَّأْثِيرِ فِي الْمُخَاطَبِينَ.

لَقَدْ مَثَّلْنَا عَلَى الْخُطَابَةِ السِّيَاسِيَّةِ، بِنَمَازِجٍ مِنَ الْخُطَبَاءِ الَّذِينَ كَانُوا أَصِيلِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَبُخِطَبَ أَيْضًا أُقِيَّتْ فِي مَكَّةَ أَوْ الْمَدِينَةِ، رَغْمَ أَنَّ أَمْثَلَهُ هَامَّةٌ لَخُطَبَاءِ مَنْ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ تَوَزَّعُوا فِي مُخْتَلَفِ بَقَاعِ الْأَرْضِ وَأَلْقَوْا خُطَبًا صَارَتْ نَمَازِجَ تُحَدِّثُ وَتُقْتَدَى، (وَلَعَلَّ أَهْمَهُمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ النَّفَّاسِ وَزِيَادُ بْنُ أَبِيهِ)، يُمَكِّنُ أَنْ تَفْتَحَ أَبْوَابًا لِلْبَحْثِ وَالدِّرَاسَةِ وَأَنْ تُشَكِّلَ مَادَّةً دِرَاسِيَّةً خَاصَّةً فِي مَسْأَلَتِي التَّأْثِيرِ بِالْقَوْلِ وَالْعِلَاقَاتِ التَّخَاطُبِيَّةِ وَكَيْفِيَّةِ إِنْبَاءِ اللُّغَةِ بِصُورِ الْمُتَخَاطَبِينَ، وَبِوَسَائِلِ التَّأْثِيرِ.





خاتمة

لَقَدْ اخترنا الخطابة فاتحةً لدراسة النثر في شِبْهِ الجزيرة العربية نظرًا إلى منزلتها في الأداء اللُّغوي العربي من جهة، ونظرًا إلى أنَّ أصول الخطابة العربية المتنوعة في العصور اللاحقة في بغداد والشَّام وبلاد المغرب والأندلس، ناتجة في بُناها ومختلف مقاصدها عن هذا الأصل الذي بلغ أَوْجَهُ في العصر الأمويّ اختلافًا وتنوعًا وثراءً.

لَقَدْ حدّدنا في هذا البحث نهجًا قائمًا على النظر في الخطابة في شِبْهِ الجزيرة العربية على التحديد الزمنيّ فكان هذا الحدُّ من الجاهليّة إلى العصر الأمويّ، وعلى التّحديد الجغرافيّ في شِبْهِ الجزيرة العربيّة، وعلى التّحديد الموضوعاتيّ، فاخترنا ثلاثة مسالك كُبرى انتظمت فيها أغلب الخُطب، وهي: الخطابة الاجتماعيّة، والخطابة الدينيّة والخطابة السياسيّة التي كان لها النصيب الأوفى والأشجع.

فأدركنا من الخطابة الاجتماعيّة أنّ العرب كانوا يتوسّلون بها لغاية قضاء حوائجهم، في التزويج والخِطبة أو في التوسُّط بالصُّلح

بين الأفراد المتنازعين، وتوصلنا إلى أنَّ الخطبة دومًا موصولة بمقاصد تصبو إلى تحقيقها وأنَّ هذه المقاصد لا يُمكن أن تُدرك إلا بوجود ذاتٍ متكلمة لها منزلة ومرجعِيَّة سياديَّة أو قيمِيَّة، وقد توقَّر في أرض شبه جزيرة العرب عددٌ هامٌّ من هؤلاء الذين سادوا وتسيَّدوا بقيم تحلَّوا بها وعُرفُوا جوَّزَتْ لهم الدُّخول في الخطب الاجتماعيَّة لتحقيق الصُّلح بين الأفراد أو لطلب امرأة للزواج.

وأدركنا من الخطب الدينيَّة أنَّ شيوعها وتكرُّسها كان مقروناً بالدَّعوة إلى الإسلام دينًا حادِّثًا، وأنَّ الرِّسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام وصحَّبه ومَن تبعه من بعد ذلك قد اعتمدوا الخطبة وسيلةً وأداةً تُصلِّهم بالمُخاطَبين لغاية التَّواصل مع ثلاث فئات من المُخاطَبين، الفئة الأولى تمثَّلت في المُخاطَبين الذي آمنوا بالرِّسالة المحمَّديَّة واحتاجوا إلى مزيدٍ توضيحٍ وبيانٍ لعناصر الدِّين الجديد، والفئة الثَّانية، هي فئة الرَّاغبين في معرفة الحقِّ، الطَّالِبين معرفةً لِيَمِيلُوا إلى الإيمان أو إلى التُّكران، والفئة الثَّالثة هي فئة الرَّاغِبين، الواقفين ضدَّ دعوة الرِّسول، المقاومين لها. وقد تشكَّلت الخطبة الدينيَّة الخالصة توجُّهًا إلى هذه الفئات الثلاث، فتمثَّلت خُطب الرِّسول محمَّد الأَرْضِيَّة الأولى والمهاد الأساس لهذا النَّمط الخطابي الذي توسَّع في مراحل لاحقة وحفظ لنا التَّاريخ منها عيونًا من الخُطب ما زال يُهتَدى بها ويُحتَذَى.

ولا تستمدُّ الخطبة الدينيَّة قوَّتَها من ذاتِ المتكلم فحسب، ولا من قدرته الإقناعيَّة، فهي خطابة قائمة على التَّأثير بالقول أكثر من قيامها على الحجَّة المنطقيَّة (التي تُوجد فيها ولا يُمكن أن

نعدم وجودها)، وإنما هي مكتسبةٌ قوّتها من المراوحة بين عالمين، عالم الشَّهادة وعالم الغيب، أي بين فعل الحياة، وجزاءٍ ما بعد الحياة، فهي تدعو إلى اعتبار الدُّنيا سبيلاً للآخرة التي تُؤتَى مداخلُها من المعاملات والعبادات. ولذلك فقد لاحظنا في هذا النوع الخطابيِّ تراجعاً أو غياباً لِذاتِ المتكلِّم، التي لا تضعُ ذاتها تُجاه المُخاطَبين، بل تضع المُخاطَبين أمام ذاتِ إلهيَّة، وما المتكلِّم إلَّا واسطة تنبيه وتذكير.

وتفرَّغنا في القسم الثَّالث من أقسام الخطابة الرَّائجة والشَّائعة في شبه الجزيرة العربيَّة إلى الخطابة السِّياسيَّة التي كانت لها أصولٌ وجذورٌ في الجاهليَّة من خلال حُطْب الوفود، وتوسَّعت وتكاثرت وتتَّوَّعت في ظلِّ الفرقة السِّياسيَّة الحاصلة في زمن بني أميَّة، والتي انفصل فيها السِّياسيُّ عن الدِّينيِّ، وذلك ظاهرٌ في قول معاوية بن أبي سفيان: «يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَتَرَانِي قَاتَلْتُكُمْ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ تُصَلُّونَ وَتَزَكُّونَ وَتَحُجُّونَ؟ وَلَكِنِّي قَاتَلْتُكُمْ لِأَتَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ وَعَلَى رِقَابِكُمْ، وَقَدْ أَتَانِي اللَّهُ ذَلِكَ وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ، أَلَا إِنَّ كُلَّ مَالٍ أَوْ دَمٍ أُصِيبَ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ فَمَطْلُوعٌ، وَكُلُّ شَرْطٍ شَرَطْتُهُ فَتَحَتْ قَدَمِي هَاتَيْنِ، وَلَا يُصْلِحُ النَّاسُ إِلَّا ثَلَاثَ: إِخْرَاجَ الْعَطَاءِ عِنْدَ مَحَلِّهِ، وَإِقْضَالَ الْجُنُودِ لَوَقْتِهَا، وَغَزْوَ الْعَدُوِّ فِي دَارِهِ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ تَغْزُوهُمْ غَزَوْكُمْ»⁽¹⁾.

لقد اعتبر مؤرِّخو الأدب أنَّ الخطابة السِّياسيَّة تُعبِّر عن واقع الحال، فاتَّخذوها وسيلةً يُدرِكُ بواسطتها الواقعُ السِّياسيُّ الذي

(1) جمهرة حُطْب العرب. 2 / 8.

«تَعكِّسه»، والْحَقُّ أَنَّ الْخُطَابَةَ السِّيَاسِيَّةَ لَمْ تَكُنْ تَصْوِيرًا لِلْوَاقِعِ وَلَا تَعْبِيرًا عَنْهُ، بِقَدَرِ مَا كَانَتْ أَدَاةً سِيَاسِيَّةً يَرْصُدُ بِهَا الْخُطِيبُ وَاقِعًا مَخْصُوصًا يَصْبُو إِلَى إِنْشَائِهِ وَإِقَامَتِهِ، فَهُوَ قَوْلٌ-فِعْلٌ، وَمُمَارَسَةٌ نُضَاهِي جَمَلَةِ الْأَفْعَالِ السِّيَاسِيَّةِ الْخَارِجَةِ عَنْ رَحَابِ الْقَوْلِ، فَالْقَائِلُ لَا يَقُولُ مُجَرَّدَ الْوَعْظِ أَوْ التَّعْلِيمِ أَوْ الْإِعْلَامِ، وَإِنَّمَا هُوَ يَبْنِي بِوَسْطَةِ الْقَوْلِ سُلْطَتَهُ السِّيَاسِيَّةَ وَصُورَتَهُ الْفَاعِلَةَ وَحُدُودَ إِمَارَتِهِ وَسُتْنِ سُلْطَانِهِ.

وَلِذَلِكَ، فَقَدْ مَثَّلَ هَذَا النُّوعُ مِنَ الْخُطْبِ الْجَانِبَ الْقَوْلِيَّ مِنَ السِّيَاسَةِ أَوْ النَّشَاطِ الْكَلَامِيِّ مِنْ جَمَلَةِ النَّشَاطِ السِّيَاسِيِّ، يَعْتَمِدُهُ الْمُتَكَلِّمُ وَاسْطَةَ نَفْوذٍ وَأَدَاةً سُلْطَةً تُقَوِّمُ بِهَا الرِّعْيَةَ وَتُقَاوِمُ. وَتُتَضَافَرُ إِمْكَانَاتُ اللَّغَةِ وَطُرُقُ التَّصَرُّفِ فِيهَا مِنْ إِيقَاعٍ وَتَصْوِيرٍ وَبَلَاغَةٍ قَوْلٍ لِإثْبَاتِ الْعِلَاقَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَإِخْضَاعِ الْمُخَاطَبِ وَإِحْلَالِهِ مَوْضِعَ الْخُرُوجِ عَنْ سُلْطَانِ الدِّينِ وَسُلْطَةِ السِّيَاسَةِ، وَتُتَّخَذُ هَذِهِ الْوَسَائِلُ حُجَجًا قَوْلِيَّةً لِإثْبَاتِ مَوَاضِعِ الْمُتَخَاطَبِينَ، فَيَرْصُدُ الْمُتَكَلِّمُ لِنَفْسِهِ وَضْعَ الْأَمْرِ، الْفَاعِلِ، الْقَادِرِ، وَيُحَلُّ الْمُخَاطَبِينَ -فِي الْغَالِبِ الْأَعْمَ- مَوْضِعَ الْمَارِقِ، الْخَارِجِ عَنْ كُلِّ الْحُدُودِ وَالتَّشْرِيعَاتِ، وَهُوَ سَاعَةٌ يُشْعِرُهُمْ بِعُمُومِ الْخُطِيئَةِ يَتِمَكَّنُ مِنْ إِنْفَازِ أَحْكَامِهِ وَأَوَامِرِهِ. فَتَعْضُدُ السُّلْطَةُ الْقَوْلِيَّةُ السُّلْطَانَ السِّيَاسِيَّ وَتَمَثِّلُ فِعْلًا وَنَشَاطًا سُلْطَوِيًّا يُلْجَأُ إِلَيْهِ الْخُطِيبُ لِرَدِّعِ الْمُخَاطَبِينَ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ إِحْلَالِ الْخَوْفِ فِي نَفُوسِهِمْ هُوَ كَسَبٌ سِيَاسِيٌّ وَتَحْقِيقُ لِفِعْلٍ مُقَامِيٍّ يَنْتَجُهُ الْقَوْلُ.





البابُ الثاني

الخبرُ شكلاً دارجاً
في شبه الجزيرة
العربية



مقدمة.

لقد شكّلت منطقة شبه الجزيرة العربية المهاد الأساسي الأول لنشأة الخبر شكلاً أجوف قابلاً للامتلاء ولاحتواء مختلف الموضوعات، فقد كان الخبر الواسطة الإعلامية الرئيسة التي توسّع مجالها في العصر العباسي لتمثّل الشكل الدارج الذي فيه يمكن أن تُصبّ المعارف والفنون كلّها. وكانت بداية نشأته في الجزيرة العربية مع أعلام كان لهم الدور الجليل في تسخير الخبر شكلاً للتفاعل والتواصل والتعبير.

فمن نافل القول أن نُقرّ أن «الخبر» هو شكل تعبيريّ عربيّ خالص في أصل تكوينه الشفويّ وبدايات تحوُّله إلى التدوين، وقد أدّى هذا الدور أعلام كبار كان لهم بالغ الأثر في تدوين التاريخ من جهة وفي تمثين التخييل من جهة ثانية، فالخبر كان حملاً أوجه، له القدرة على استيعاب مختلف المعارف والآداب واحتوائها، فهو شكل جامع يتميّز بخلالٍ شكليةٍ تُمكنه من الانفتاح على سائر أنواع الأدب ومختلف أنواع المعارف إضافة إلى أنّه الشكل الأوفى المعتمد للتواصل والإخبار والإعلام، وقد تمثّلت هذه الخصائص الشكلية في انبناء الخبر على قسم فاتحةٍ يُعلن فيه الراوية مصادره وقنوات توصيل المحتوى الأخباري، وهذه الفاتحة تُسمّى بالسند،

وقضاياها في التُّراث العربيِّ متعدِّدة، فهي لا تشي فحسب بإعلان صدقيَّة الخبر وارتباطه بمصادر يُظْهر فيها الرِّاويَّة أمانة الحَمَل والنقل، بل هي في أحيان كثيرة صارت دارجاً مُعتمداً اقتضاها ضرورةً كُلُّ محتوًى إخباريٍّ ولا يَغري عنها، مِثْلُ المقدِّمة الطَّلبيَّة في القصائد الجاهليَّة.

لقد عرَّف محمَّد القاضي الخبر، بقوله: «إِنَّ الْخَبَرَ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الْمَعْرِفَةِ فِي الْقَدِيمِ مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ. وَلَهُ بِشَتَّى الْمَعَارِفِ الْمُتَدَاوِلَةِ بَيْنَ الْعَرَبِ صَلَاتٌ لَا تُنْكَرُ. غَيْرَ أَنَّهَا صَلَاتٌ غَامِضَةٌ يَعْسُرُ أَنْ نَضْبِطَ لَهَا إِطَارًا مُحَدَّدًا. فَلِلْخَبَرِ وَشَائِجِ تَشْدُّهُ إِلَى التَّارِيخِ وَالْأَنْسَابِ وَالْآدَابِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ مَا حَدَا بَابِنَ النَّدِيمِ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي عَقَدَهَا لـ «أَخْبَارِ الْأَخْبَارِيِّينَ مِنَ النَّسَابِيِّينَ وَأَصْحَابِ الْأَحْدَاثِ وَالْآدَابِ»⁽¹⁾.

ولذلك، فإنِّي أَعُدُّ الخبر الشكل الأجوف الذي تتضوي داخله أشكالٌ مختلفةٌ من السَّرد، منها النَّسَبُ وَالْقَصَصُ وَالْأَنْبَاءُ وَالْأَحَادِيثُ وَالْأَسَاطِيرُ وَقَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَيَّامُ الْعَرَبِ، وَغَيْرُهَا مِنْ مُخْتَلَفِ الْأَنْوَاعِ الْأَدَبِيَّةِ وَغَيْرِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي تَوَسَّلَتْ بِالْإِيجَازِ فِي الْقَوْلِ أَسْلُوبًا وَبِالْسَّنَدِ فَاتِحَةً تُعْلِنُ أَنَّ الْخَبَرَ مَحْمُولٌ مُتَنَاقِلٌ، وَتِلْكَ سِمَتُهُ أَلَّا يَتَّخِذَ عَلَى حَالٍ وَلَا يَحُلُّ فِي مَكَانٍ.

(1) القاضي (محمَّد): الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، (منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1998)، ص 84.

وعلى ذلك فقد ارتأينا في هذا القسم من البحث أن نثير جملة من القضايا العالقة بشكل الخبر وأن نعتمد جملةً من فروعهِ نتخيّر لها مدوّنات مصادر ناشئة في شبه الجزيرة العربيّة ولمؤلّفين ينتسبون إليها، ونرشّح جنسين للدراسة عُداً من فروع الخبر، وكثُرَ فيهما التّأليف، وحدّداً صورة الموروث العربيّ فكراً وحياةً ووقائعَ وتمثّلاً وتاريخاً، وهما «الخبر التّاريخي» والنّسب.





الخبر بين التاريخي والأدبي

الخبر شكل في الكتابة عابرٌ للأجناس، ولذلك فإننا واجدوه معتمداً أداةً للتأريخ ومعتمداً أداةً للتخييل، ناهيك أن التاريخ نفسه لم يكن عند العرب منفصلاً عن الأدب، فالأدب هو جامع علومهم ومعارفهم، واقعهم وخيالهم، تاريخهم وأساطيرهم، سيرهم وقصصهم، ولذلك فإن «الفرق بين المؤرخ والراوي زائف لأن كلا منهما راوٍ، كما أن رِوَاةَ الأخبار التي نجدُها في كتب الأدب لا يمتنعون عن نقد هذه الأخبار، وكذا كان أصحاب المؤلفات التاريخية لا يترددون أحياناً في إيراد أخبار مدخولة إذ هي مُحصت بميزان العقل بأن خلطها»⁽¹⁾.

وتشي المؤلفات الأخبارية الأولى في شبه الجزيرة العربية بهذا التداخل البين بين التاريخي والأدبي في حرم الأخبار، فلم يكن هنالك فاصل قاطع بين التاريخي والأدبي، بل إن المدونات الأخبارية الأولى كانت أميل إلى تتبع آثار القدامى وحوادثهم، وهو نسيج شائك، متداخل، يصعب أحياناً تخليص بعضه من بعض، فالإطار المقامي الجامع هو الخبر، القادر على حمل الأنساب وقصص الأنبياء، وتواريخ الأولين، ومواقع المدن وحكايات تميمها، وبدء

(1) م. ن. ص. 596.

الكون وتتسيل الأعراق والأجناس، والأوّل من كلّ شيء، كلّ هذه المواضيع يحويها الخبر شكلاً جامعاً، ويرافقه التاريخ موضوعاً قارّاً في المصنّفات الأولى.

هل كان العرب على وعي بالحدّ الفاصل بين التاريخيّ من حيث هو تثبّت من وقائع السابقين وتدبّر لكبرى الوقائع والحوادث، والأدبيّ من حيث هو نشاط لغويّ قوامه التخيل؟ قطعاً، الجواب يكون بالنفي، وخير دليل على ذلك ما ورد في مقدّمة ابن خلدون من قوله: «هذا العلم لا موضوع له، يُنظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان تمرّنه، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك، متفرقة، يستقرئ منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربيّة، مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم بها ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهمّ من الأنساب الشهيرة والأخبار العامّة، والمقصود بذلك كلّ أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم (...) ثمّ إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفنّ قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علمٍ بطرف»⁽¹⁾.

فالأدب في المفهوم العالم السائد موصول بالرواية وبالقدرة على حفظ تاريخ العرب نسباً وأدباً ووقائع، ولذلك، فلا غرابة أن يُوجد الخبر ذاته في مصنّف تاريخيّ وفي آخر تخيليّ، ونجد

(1) ابن خلدون (وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد): مقدّمة ابن خلدون، تحقيق، عبد الله محمّد الدرويش، (دار يعرب، دمشق، الطبعة الأولى 2004)، 376/2.

أخباراً بنفس الصياغة ونفس المحتوى في كتبٍ تمحّضت للأدب،
وفي كتبٍ تمحّضت للتاريخ، ولا فرّق بينها سوى أنّ هذا الكتاب عُدَّ
في التاريخ، وذاك الكتابُ عُدَّ في الأدب.

وبدت مسألة التداخل بين التاريخي والأدبيّ أجلى وأوضح في
المصنّفات الأخباريّة الأولى التي احتواها مقامٌ أدبيٌّ ونَحَتْ مَنْحَى
الإخبار في التاريخ، إذ ندركُ من المدوّنة الأخباريّة المكتوبة الأولى أنّ
مقاصد إنجازها تمثّلت في البحث عن سِير الأوّلين، وهي سِير رُويت
من وجهة نظرٍ أخباريّ قاصٍّ هو عبيد بن شريّة الجُرهمي، الذي
تُرَدُّ إليه اللبنة الأخباريّة المدوّنة الأولى في تاريخ الأخبار العربيّة.

وهذه الأصول الأولى التي صاغت «علم الخبر» لم تكن تُقيم
فاصلاً واضحاً، حادّاً وجليّاً بين الدخول في ذكر أخبار الماضين
والحوادث المنقضية، والدخول في الأدب، فالأدب هو العلم الجامع
الذي يُدْخِل ذكر الحوادث السابقة في مجاله، ويستوعبها ويُعيد
إنتاجها، والرّواة الأوّل كانوا على يقينٍ بأنّهم يُثبّتون في ما يروونه
وقائع التاريخ التي تُسْتَحْضَر في مقاماتٍ متعدّدة ومختلفة، لعلّ
أهمّها مقام المسامرة والتسلّي ومقامُ الساسة الذين يطلبون من
الوقائع الماضية الاعتبار والتعلّم، ولذلك، فإنّ العلم بهذه الحوادث
الماضية كان يتمُّ بواسطة الرواية أولاً وبواسطة رِوَاةٍ كان لهم الدور
الفاعل في مراعاة مقام الرواية قبل أن تتحوّل الرواية إلى أصلٍ
علميّ تعليميّ. ومن هذا الباب كان من أصول رواية الأخبار المنشدة
إلى التاريخيّ في مقامٍ تسلّيّةٍ سياسيٍّ عبيد بن شريّة الجرهمي.





الكتاب الأول

عَبِيدُ بْنُ شَرِيَّةَ الْجُرْهَمِيُّ هُوَ حَسَبَ بَعْضِ الدَّارِسِينَ أَوَّلُ الْمُؤَرِّخِينَ الْعَرَبِ، وَهُوَ حَسَبَ الْبَعْضِ الْآخِرِ قِصَّاصٌ، مُنْشِئٌ لِفَنِّ الْقِصَّةِ، ضَابِطٌ لِأَصُولِهِ مَحَدِّدٌ لِنَوَاهِ الْأَوَّلَى، وَهُوَ مِنْ أَصُولِ يَمَنِيَّةٍ، يُرَدُّ مَوْلَدُهُ إِلَى خِلَافَةِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، وَهُوَ مِنَ الْمُعَمَّرِينَ، وَحَادِثَتُهُ الَّتِي صَنَعَتْ صُورَتَهُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ دَعَاهُ إِلَى مَجْلِسِهِ وَطَلَبَ مِنْهُ رِوَايَةَ أَخْبَارِ السَّلَفِ، فَكَانَ هَذَا مَبْعَثَ كِتَابِهِ أَخْبَارُ عَبِيدِ بْنِ شَرِيَّةَ الْجُرْهَمِيِّ فِي أَخْبَارِ الْيَمَنِ وَأَشْعَارِهَا وَأَنْسَابِهَا، الَّذِي وَرَدَ فِي ذَيْلِ كِتَابِ وَهْبِ بْنِ مَنْبَهٍ كِتَابُ التَّيْجَانِ فِي مُلُوكِ حَمِيرٍ⁽¹⁾.

وَهُوَ كِتَابٌ مُسْتَدٌّ يَعْزُضُ لِلْقِبَائِلِ الْيَمَنِيَّةِ وَإِلَى أَصُولِهَا وَوَقَائِعِهَا وَأَهَمُّ حَوَادِثِهَا، وَقَدْ كَانَ مَنْشَأُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ فِي مَقَامٍ مُسَامِرَةٍ يُطَلَّبُ فِيهِ أَحَادِيثُ مَنْ مَضَى، وَهُوَ مَقَامُ سُلْطَةِ سِيَاسِيَّةٍ قَائِمَةٍ تَدْعُو أَخْبَارِيًّا عَارِفًا عَالِمًا مُعَمَّرًا، وَتُوجَّهُ رِوَايَةُ أَخْبَارِهِ بِأَسْئَلَةٍ يَجِيبُ عَنْهَا الْمَسْئُولُ بِكُلِّ دَقَّةٍ وَتَفْصِيلٍ، وَهُوَ مَقَامٌ يَتَدَاخَلُ فِيهِ الْأَسْطُورِيُّ الْتَخِيلِيُّ مَعَ مُمْكِنِ التَّارِيخِيِّ، وَقَدْ أَبَدَتْ مُقَدِّمَةُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ هَذَا

(1) ابن منبه (وهب): كتاب التيجان في ملوك حمير، (تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الجمهورية العربية اليمنية، صنعاء، الطبعة الأولى، 1347 هجرية).

المقام، فَوَرَدَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ، قَوْلُ الرَّأْيَةِ النَّاقِلِ:

«حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ شَرِيَّةَ الْجُرْهُمِيُّ عَنِ الْبَرَقِيِّ يَرْفَعُ الْحَدِيثَ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، كَانَ أَمِيرًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَشْرَ سِنِينَ، وَوَلِيَهَا لِعُثْمَانَ أَيْضًا عَشْرًا، ثُمَّ وَلِيَهَا بِنَفْسِهِ عَشْرِينَ سَنَةً، وَدَانَتْ لَهُ الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ وَنَالَ رِفَاعَةَ الْمُلْكِ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَمَلَّكَ وَاتَّخَذَ الْمُقْصُورَةَ وَوُقِفَ عَلَى رَأْسِهِ إِذَا سَجَدَ وَجَمَعَ الْأَمْوَالَ - وَكَانَتْ أَفْضَلَ لِدَانَتِهِ فِي آخِرِ عُمُرِهِ الْمَسَامَرَةَ وَأَحَادِيثَ مَنْ مَضَى. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ: لَوْ بَعَثْتَ إِلَى الْجُرْهُمِيِّ الَّذِي بِالرَّقَّةِ مِنْ بَقَايَا مَنْ مَضَى فَإِنَّهُ أَدْرَكَ مُلُوكَ الْجَاهِلِيَّةِ وَهُوَ أَعْلَمُ مَنْ بَقِيَ الْيَوْمَ فِي أَحَادِيثِ الْعَرَبِ وَأَنْسَابِهَا، وَأَوْصَفَهُ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ مِنْ تَصَارِيفِ الدَّهْرِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَاتَى فِي مَحْمَلٍ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ وَشِدَّةِ شَوْقٍ مِنْ مُعَاوِيَةَ إِلَيْهِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ شَيْخٌ كَبِيرُ السِّنِّ صَحِيحُ الْبَدَنِ ثَابِتُ الْعَقْلِ مُنْتَبِهٌ ذَرِبَ اللِّسَانِ كَأَنَّهُ الْجِدْعُ، فَسَلَّمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ بِالْخِلَافَةِ، فَرَحَّبَ بِهِ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَرَدْتُ اتِّخَاذَكَ مُؤَدِّبًا لِي وَسَمِيرًا وَمَقُومًا، وَأَنَا بَاعْتُ إِلَى أَهْلِكَ وَأَنْقَلَهُمْ إِلَى جَوَارِي، وَكُنْ لِي سَمِيرًا فِي لَيْلِي وَوَزِيرًا فِي أَمْرِي. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (رَأَيْتَنِي وَرَأَيْتَ رَحْلِي) فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا فِي الْعَرَبِ، قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: فَذَلِكَ أَخَفُّ لِمُؤْنَتِكَ وَأَحْلَى لِلزُّومِكَ. فَأَمَرَ بِهِ مُعَاوِيَةُ فَأَنْزَلَهُ فِي قُرْبِهِ وَأَخْدَمَهُ وَأَمَرَ مَنْ يُجْرِي وَضِيفَتَهُ وَوَسَّعَ عَلَيْهِ وَأَلْطَفَهُ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ السَّمَرِ فَهُوَ سَمِيرُهُ فِي خَاصَّتِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَكَانَ يُقْصِرُ عَلَيْهِ لَيْلَهُ وَيُذْهِبُ عَنْهُ هُمُومُهُ وَأَنْسَاءُ عَلَى كُلِّ سَمِيرٍ كَانَ قَبْلَهُ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِهِ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا وَجَدَ عِنْدَهُ فِيهِ شَيْئًا وَفَرَحًا وَمَرَحًا. فَإِذَا بِهِ كَانَ يُحَدِّثُهُ وَقَائِعَ الْعَرَبِ وَأَشْعَارَهَا وَأَخْبَارَهَا، أَمَرَ أَهْلَ دِيَوَانِهِ وَكُتَّابَهُ أَنْ يُوقِعُوهُ وَيُدُونُوهُ فِي الْكُتُبِ»⁽¹⁾.

(1) م. ن. ص 325.

إذن هنالك مناسبةٌ أُخرجت هذه الأخبار من النسيان إلى التذكُّر، ومن إمكان الضياع الشفويِّ إلى التثبيت التدوينيِّ، وهذه المناسبة تمثلت في المقام السياسي الذي لعب فيه معاوية بن أبي سفيان دور الباعث للأخبار والباحث عن «المعلومة» والدافع إلى تدوينها وتثبيتها. فبصرَّف النظر عن الاختلاف في اسم عبيد بن شريّة الجُرهمي، وبصرَّف النظر أيضاً عن وجوده من عدمه، فإنَّ ذاتاً في التاريخ وُجدت ورَوَت هذه الأخبار التي تدوَّنت زمن معاوية أو بعد ذلك بقليل، وهذه الذات هي ذاتُ عارفة، عالمة، مُدركةٌ لطبيعة المقام، ولها علمٌ جامعٌ بالتَّاريخ الدينيِّ والتَّاريخ الشعبيِّ والتَّاريخ القبليِّ، ولها معرفةٌ بأصول العرب وأنسابها ومللها وعشائرها وحلَّها وترحالها، وهذا العلم وُضع -كما سلف أن ذكرنا- في مقام سياسيٍّ، كان فيه معاوية بن أبي سفيان، هو الباحث عن الرَّأْيَةِ الدَّاعي له، وكان أيضاً هو مُدير الحوار، مُوجَّهه، وهذه السَّمة الخاصَّة بطلب المعرفة التَّاريخيَّة لازمت معاوية بن أبي سفيان في الصُّورة التي ترسَّخت له، من ذلك أنَّ المسعودي يروي في مَروِجِ الذَّهَب أنَّ معاوية «كَانَ يَسْتَمِرُّ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ فِي أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَيَّامِهَا، وَالْعَجَمِ وَمُلُوكِهَا، وَسِيَاسَتِهَا لِرِعِيَّتِهَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، ثُمَّ تَأْتِيهِ الطَّرْفُ الْغَرِيبَةُ مِنْ عِنْدِ نِسَائِهِ مِنَ الْحُلُوى وَغَيْرِهَا مِنْ الْمَآكِلِ اللَّطِيفَةِ، ثُمَّ يَدْخُلُ فَيَنَامُ ثُلُثَ اللَّيْلِ، ثُمَّ يَقُومُ فَيَقْعُدُ فَيَحْضِرُ الدَّفَاتِرَ فِيهَا سَيْرَ الْمُلُوكِ وَأَخْبَارَهَا، وَالْحُرُوبَ وَالْمَكَائِدَ، فَيَقْرَأُ ذَلِكَ عَلَيْهِ غُلَمَانٌ مُرْتَبُونَ، وَقَدْ وُكِّلُوا بِحِفْظِهَا وَقِرَاءَتِهَا، فَتَمُرُّ بِسَمْعِهِ كُلُّ لَيْلَةٍ مِنْ جَمَلِ الْأَخْبَارِ وَالسَّيَرِ وَالْأَثَارِ وَأَنْوَاعِ السِّيَاسَاتِ»⁽¹⁾.

(1) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي): مَروِجِ الذَّهَبِ ومَعَادِنُ الْجَوْهَرِ، تحقيق: كمال حسن مرعي، (المكتبة العصرية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2005)، 32/3.

إضافةً إلى ما راجَ في كُتُب القدامى والمُحدثين من مِيلٍ معاوية ابن أبي سفيان إلى إعادة إحياء الجاهليَّة أشعارًا وأخبارًا، والعمل على تدوين مجالس الرواية التاريخيَّة والأدبيَّة، وفي ذلك يقول فؤاد سزكين: «فقد بدأ في عهد معاوية جمع الأخبار التاريخيَّة وما يتَّصل بها من أشعارٍ، ألَّف عبيد بن شريَّة الجرهمي كتابًا « في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » وألَّف زياد بن أبيه « كتاب المثلّاب »، وألَّف بن مُفرِّغ الحميري (ت 69 هـ / 688 م) « سيرة بُنَّع وأشعارها »، وهذه الكتب يُمكن أن تُعدَّ من أقدم المؤلَّفات في هذا الاتِّجاه»⁽¹⁾.

وقد وَفَّرَتْ أَحْبَارُ عبيد بن شريَّة الجرهمي مَادَّةً قوليَّةً شاقَّةً عن قوَّة المخيلة العربيَّة وتقصِّيها للقِصص الذي كان متداخلًا مع التاريخ، فالتَّاريخ لم يكن محض أحداثٍ تُروى بتجرُّدٍ ويُراعى في روايتها منطق الحدوث، وإنَّما التَّاريخ كان أيضًا جَبًّا للشُّعرات التي لم يتمكَّن العقل العربيُّ من إيجادِ الجواب المنطقيِّ لها، ومن هذه الكوَّة تدخل الأساطير من حيث هي حكاياتٌ يُوجد بها العقلُ الباحثُ عن تفسير الظَّواهر أجوبةً، هي قِصصٌ تجعل الخارق والمفارق والمتعالي والغيبِّي يدخل عالم الشَّهادة ويُزاوجه.

ولقد ذهب قسمٌ من الدَّارسين إلى إعلاء شأن الأخبار التي أوردها عبيد بن شريَّة الجرهمي لأنَّها الأرضيَّة القصصيَّة

(1) سزكين (فؤاد): تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربيَّة محمود فهمي حجازي، نشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة محمَّد بن سعود الإسلاميَّة، المملكة الربيَّة السعوديَّة، 1983، م 2/ ج 1/ ص 38.

والتَّاريخِيَّة المكتوبة الأولى التي دَوَّنت الخيال العربيَّ من جهةٍ،
وأُحالَت إلى وقائع في التَّاريخ صارت بعد ذلك سندًا في رواية
التَّاريخ من جهةٍ ثانيةٍ، يقول فاروق خورشيد:

«إِنَّ الصُّورَةَ الَّتِي يَنْقُلُهَا وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ وَعَبِيدُ بْنُ شَرِيَّةٍ صُورُ
خَالِدَةَ بِمَعْنَى الْخُلُودِ الْكَامِلِ، صُورُ إِنْسَانِيَّةٍ صَادِقَةٍ تُعَبِّرُ بِحَقِّ عَنْ
حَيْرَةِ الْإِنْسَانِ وَقَلْقَه وَتَرْسُومٍ فِي وَضُوحٍ صِرَاعِهِ مَعَ الْقَدَرِ، وَصِرَاعِهِ
مَعَ الطَّبِيعَةِ، وَصِرَاعِهِ مَعَ الْحَيَاةِ، بَلْ هِيَ فِي كَثِيرٍ مِنْ فُصُولِهَا تَرْسُومٌ
صُورًا لِلصَّرَاعِ ضِدَّ الْغَرَائِزِ وَمَحَاوَلَةِ التَّغْلِبِ عَلَيْهَا، كَمَا هِيَ بَعْدَ هَذَا
تَنْقُلُ لَنَا صُورَةَ حَقِيقِيَّةٍ لَطِيبَةِ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ، هِيَ بَلَا شَكٍّ أَكْثَرُ
صِدْقًا وَإِبَانَةً مِنَ الصُّورَةِ الَّتِي يَنْقُلُهَا الشَّعْرُ أَوْ تَنْقُلُهَا الْخَطَابَةُ وَمَا
شَابَهَهَا، وَلَسْنَا نُرِيدُ أَنْ نَخْتِمَ كَلَامَنَا هُنَا دُونَ أَنْ نُشِيرَ إِلَى مَا نُحْسُهُ
مَنْ أَسَفٍ إِذْ نَلْمَحُ هَذَا الْعُمُرَ الطَّوِيلَ الَّذِي مَضَى عَلَى أَبْحَاثِنَا
الْمُعَاصِرَةِ وَهِيَ تَلُوكُ حَدِيثًا حَوْلَ السَّجْعِ وَالتَّرْسُلِ وَالتَّرَادُفِ وَأَشْبَاهِ
هَذَا الْعَبَثِ دُونَ أَنْ نَلْتَفِتَ إِلَى هَذِهِ الْقِيَمِ الْفَنِيَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ الَّتِي
يَزْخَرُ بِهَا تَرَاثُنَا الْأَدَبِيُّ النَّثْرِيُّ وَالْمَثْمَلُ فِي هَذَا الثَّرَاثِ الْقَصَصِيِّ
الضَّخْمِ الْمُتَفَرِّقِ فِي كُتُبِ الْأَخْبَارِ وَالْأَدَبِ حِينًا، وَالْمَوْجُودِ بِشَكْلِ
مُسْتَقِلٍّ فِي كُتُبِ الْقَصَصِ وَاللِّيَالِي وَالسِّيَرِ»⁽¹⁾.

فالكتاب الأول أخبار عبيد بن شريّة الجهمي في أخبار
اليمن وأشعارها وأنسابها الذي أُسند إلى شخصيّة لها انتماء
إلى المرجعيّتين الفاعلتين، المرجعيّة القوميّة العربيّة، والمرجعيّة
القصصيّة اليهوديّة، هو كتاب أصل ومصدر مبيّن عن القوّة

(1) خورشيد (فاروق): الرواية العربيّة، عصر التجميع، (دار الشروق، بيروت،
القاهرة، الطبعة الثالثة 1982)، ص 76.

القصصية للمخيال العربي، وعن القدرة التاريخية، ناهيك أن المرجعية القصصية اليهودية فتحت من آفاق السرد الأخباري عند عبید بن شریة، فلم يقصر رواياته على تاريخ اليمن، وإنما هو تاريخ العرب يُروى بمرجعياته الإحالية وبمرجعياته القصصية وبتمثلاته الأسطورية.

فالأساطير التي رواها هي تدوين للقدرة العربية على تمثيل سردياتها الكبرى، هذه السرديات التي كوّنت الذهن العربي، وشكّلت اعتقاده، وبنّت تصوّره لماضيه، ولهذا السبب فإن عبید بن شریة، ومن بعده وهب بن منبه عُداً من الأصول الصّانعة لأرضية معرفية صاغت سردية التاريخ العربي «هناك القصاصون الكبار، من أمثال عبید بن شریة ووهب بن منبه ممن كان يأخذ عنهم غيرهم، وممن ذكروا تاريخهم وقصصهم منذ بدء الخليقة وتتبعوا أخبار الملوك وتاريخ العرب وأساطيرهم، ويُعدّ هؤلاء في الواقع مركز حركة التجميع القصصي، وفي أعمالهم إشارات إلى أساطير خالدة»⁽¹⁾.

تحتوي فاتحة الكتاب جملة من المنطلقات الهامة في بيان سيادة شكل قوليّ تحوّل من الإنجاز الشفوي إلى التحقق الكتابي، وتظهر أولى هذه المنطلقات في العلاقة الخاصة بين المتخاطبين، يتحدّد الأوّل الطالب في منزلة السائل، الباحث عن أجوبة، وهو في محلّ سياسي سيادي، أبانته المقدّمة، فهو أمير المؤمنين، معاوية بن أبي

(1) م. ن. ص 86.

سُفيان، الدَّاعي، والطَّالب، وصاحبُ الأمر والنَّهي، والرَّاعِب في الاستماع إلى مرويات الراوية، وهو مَنْ «دَانَتْ لَهُ الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ وَنَالَ رِفَاعَةَ الْمُلْكِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَمَلَّكَ وَاتَّخَذَ الْمُقْصُورَةَ وَوَقَّفَ عَلَى رَأْسِهِ إِذَا سَجَدَ وَجَمَعَ الْأَمْوَالَ»⁽¹⁾، فهذا مقامُ الطَّالِبِ السَّائِلِ فِي الظَّاهِرِ. وَالْأَمْرِ، مُطَاعُ الْأَمْرِ فِي بَاطِنِ الْمَقَامِ السِّيَاسِيِّ.

وَأَمَّا الْجَهَّةُ التَّخَاطُبِيَّةُ الثَّانِيَّةُ، فَهِيَ الذَّاتُ الرَّأْيِيَّةُ، كَبِيرُ الرُّوَاةِ، الَّذِي تَتَحَدَّدُ لَهُ صِفَاتٌ لَا تَقُلُّ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً وَدِرَايَةً بِالْأَخْبَارِ عَنْ مَنْزِلَةِ مَعَاوِيَةَ السِّيَاسِيَّةِ، فَالْأَوَّلُ سُلْطَانٌ فِي السِّيَاسَةِ وَالثَّانِي سُلْطَانٌ فِي الرُّوَاةِ، وَهُوَ عُبَيْدُ بْنُ شَرِيَّةَ الْجُرْهُمِيِّ الَّذِي عُدَّ الْمُؤَرِّخُ الْأَوَّلُ لِأَخْبَارِ الْيَمَنِ، وَلَأَخْبَارِ الْعَرَبِ. يُؤْتَى بِهَذَا الرَّجُلِ مِنْ دِيَارِهِ لِيُرَوِّي أَخْبَارًا قَدِيمَةً عَنْ أَصْلِ الْعَرَبِ وَعَنْ عِلَلِ تَفَرُّقِهِمْ وَعَنْ حَوَادِثِهِمْ الْكُبْرَى، صَدُورًا عَنْ سُؤَالٍ مِنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ الَّذِي وَجَّهَ الْأَخْبَارَ الْمَرْوِيَّةَ وَحَمَلَهَا إِلَى التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ، وَإِنْ كَانَ الرَّأْيِيَّةُ لَا يَمِيلُ إِلَى هَذِهِ الْأَخْبَارِ وَإِنَّمَا هُوَ يَعْزِزُ الدُّخُولَ فِي رِوَايَةِ أَخْبَارٍ يُمَكِّنُ أَنْ تَنْفَعِ السَّمِيرَ وَأَنْ تُبْهَجَهُ، «قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: إِنَّكَ لَمُنْصَفٌ فَخُذْ فِي حَدِيثِكَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ عَنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ. وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ حَمِيرٍ وَسَيْرِهَا فِي الْبِلَادِ وَمُلْكِهَا فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ تَسْخُرُ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ؟ وَعَنْ افْتِرَاقِ أُنْسِنَةَ النَّاسِ وَعَنْ أَهْلِ بَابِلَ؟ وَمَتَى كَانَ ذَلِكَ؟ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ وَسَأَلْتُكَ أَلَا تَمُرُّ بِشَعْرِ تَحْفَظُهُ فِيمَا قَالَهُ أَحَدٌ إِلَّا ذَكَرْتَهُ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ مَا يُقْصَرُ لَيْلُكَ، وَتَلَدُّ بِهِ فِي نَهَارِكَ فَإِنَّ فِيهِ مَا تَهْوَى وَمَا

(1) كتاب التيجان، ص 325.

لَا تَهْوَى وَمَغْضَبَةً وَشَغَفًا لِلْمُلُوكِ! وَنَعَشَ الْمَوَدَّةَ. قَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا اتَّبَعْتَ هَوَايَ وَحَدَّثْتَنِي مَا عَلِمْتَ مِمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، فَأَنْتَ فِي جَوَارِ اللَّهِ وَذِمَّتِهِ وَأَمَانٍ مِنِّي وَمِنْ غَضَبِي وَنَعَشِ مَوَدَّتِي. قَالَ جَمِيعُ جُلَسَاءِ مُعَاوِيَةَ: وَلَكَ مِنَّا ذَلِكَ مِنْ جَمِيعِنَا. وَأَمَرَ مُعَاوِيَةَ كُتَّابَهُ أَنْ يَدُونُوا مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ عُبَيْدُ بْنُ شَرِيَّةٍ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ سَمَرَ فِيهِ مَعَ مُعَاوِيَةَ⁽¹⁾.

إِنَّ عُبَيْدُ بْنُ شَرِيَّةٍ الْجُرْهُمِيَّ الرَّأْيِيَّةَ كَانَ عَلَى درايةٍ بَأَنَّ «مَسْأَلَةَ الْمُلُوكِ تُوقِعُ الْحَيْرَةَ»، وَأَنَّ الْخَوْضَ فِي الْأَصُولِ وَالْأَنْسَابِ وَالتَّوَارِيخِ يُمَكِّنُ أَلَّا يَجِدَ هَوَى فِي نَفْسِ السَّائِلِ، الْأَمْرَ، وَلِذَلِكَ عَرَضَ أَنْ تَكُونَ أَخْبَارُهُ دَاخِلَةً فِي مَقَامِ السَّمَرِ وَالتَّلَذُّذِ بِالْأَخْبَارِ، لَا فِي مَقَامِ طَلَبِ «الْحَقَائِقِ» الْمُتَّصِلَةِ بِالْأَنْسَابِ وَبِأَصُولِ الْعَرَبِ وَبِتَفْرِيقِهِمْ إِلَى قِبَائِلٍ وَشُعُوبٍ، غَيْرَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ وَصَحْبَهُ كَانُوا يُرِيدُونَ مِنَ الْأَخْبَارِيِّ «الْحَقَائِقِ»، أَيِ التَّارِيخِ، وَالتَّارِيخِ عِنْدَ الْعَرَبِ هُوَ شُعْبَةٌ مِنَ الْأَدَبِ، وَفَرَعٌ مِنْهُ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الْوَعْيِ الْعَرَبِيِّ فِي الْمَصْنُفَاتِ وَالتَّوَارِيخِ كُلِّهَا الَّتِي ادَّعَتِ التَّارِيخَ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ تَارِيخًا بِالْمَعْنَى الْعِلْمِيَّ الْمُسْتَقَرَّ الْيَوْمَ، تَخْلِيصًا لَهُ مِنَ الدَّائِيَّةِ وَمِنَ الْأَسَاطِيرِ وَالرُّؤْيِ الْقَبِيلِيَّةِ وَالشُّعُوبِيَّةِ وَالْمَذْهَبِيَّةِ أَحْيَانًا⁽²⁾.

(1) م. ن. ص 327.

(2) لقد انتهيتُ في دراسة أعددتُها حول الخبر وصلته بالتاريخ إلى أن المصنَّفات الأخبارية الأدبية أكثر دقة في التأريخ من المصنَّفات الأخبارية التاريخية، وأنجزت مقارنة بين ما ورد في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني من دقة وتقليب للخبر على أوجهه ووصفه للرواة الذي يأخذ عنهم بالتزيّد والكذب متى كانوا كذلك، وما روي في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، أو في تاريخ الطبري، أو في تاريخ ابن خلدون. زروق (محمّد عبد الله): التاريخي والتخييلي في الخبر، مجلة الآداب، مج (31)، عدد (3)، ص ص 23-38، جامعة الملك سعود، الرياض، 2019.



لقد دخل عُبيد بن شَرِيَّة الجُرهمي في رواية أصول الكون ومنشأ العرب وأصولهم وفروعهم، وهو -تقريباً- الموضوع البدئي لكل المصنّفات الأخباريّة التّاريخيّة القديمة، التي كانت تتحو منحى الصُّدور عن المبدأ التّاريخي الدّيني، وهو نزول آدم إلى الأرض وبداية حياة البشريّة مع التّعرُّض إلى الأمم البائدة والحضارات القديمة وتواريخ الرُّسل من مصادر إسرَائيليّة عُدَّت المنفذ الأساسيّ للمعارف التّاريخيّة، فالخبر عند العرب لم يكن محض شكل أدبيّ يجمع بين الإرجاع والتّخيل، بل كان أصل المعارف ومحتواها، فيه يتكوّن التّاريخ وتُضَبَط الأنساب، وتُقام صُور الأبطال، وتُصنّع الأساطير وتُروى «الحقائق»، «فالخبر إذن وثيق الصّلة بمعارف العرب منذ الجاهليّة»⁽¹⁾.

ولهذا السّبب فالخبر كان السّند التّاريخيّ المعتمد، يسعى رُواةُ عُلماء إلى ضمان تحرّكه عبر الأزمان، ويحمّله رُواة نَقْلَهُ هم في محلّ القناة الواصلة بين الرُّواة العُلماء والرُّواة الأصول الذين بعثوا هذه الأخبار وحوّلوها من الشّفويّ إلى المكتوب، وعملوا على تدوينها وتثبيتها في المكتوب، على هيئة عُبيد بن شَرِيَّة الجُرهمي الذي مثّل أصلاً من أصول رواية أخبار الأقدمين، فأخباره تصنّفت على أنّها تاريخ لحوادث العرب الغابرة، ولأهمّ الوقائع التي حصلت في التّاريخ البعيد والقريب، وقد اعتمدها عددٌ هامٌّ من الرُّواة العُلماء أصلاً للتّاريخ العربيّ على ما شابها من أسطورةٍ وتخييل.

(1) الخبر في الأدب العربي، ص 85.

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ عَالِقٌ بِالتَّأْرِخِ، مَنْصَرَفٌ إِلَيْهِ، وَالْخَبْرُ فِي طَبْعِهِ مَتَوَجِّهٌُ إِلَى تَثْبِيتِ الْوَقَائِعِ وَرَوَايَتِهَا سِوَاءِ ارْتَبَطَتْ بِالْمَاضِي أَوْ بِالْحَاضِرِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْخَبْرَ فِي الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ يَتَّصِلُ بِمَحْوَرَيْنِ لَا يُفَارِقُهُمَا، الْأَوَّلُ هُوَ التَّأْرِخُ وَالثَّانِي هُوَ الْوَقَاعُ.

لقد عرض «الكتاب الأول» إلى تاريخ اليمن وهو القسم الأوفى من تاريخ العرب، مجيباً عن أسئلة السِّيَاسِيِّ معاوية بن أبي سُفْيَانَ، فكانت البداية بذكر أَوْلِيَّةِ الْيَمَنِ عَلَى بَقِيَّةِ الْعَرَبِ وَضَبْطِ أَصُولِهَا وَتَفَرُّعِ قِسْمِ هَامٍّ مِنَ الْعَرَبِ مِنْهَا، «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِثْلَكَ يَجْهَلُ هَذَا، إِنَّمَا كَانَتْ مُضَرٌ بِالْأُمَسِ، وَكَانَتْ الْيَمَنُ، وَمَلَكَتْ، وَلَمْ يَكُنْ مُضَرٌ وَلَا مُعَدٌّ وَلَا عَدْنَانٌ وَلَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّمَا الْيَمَنُ مِنْ وَلَدِ هُودٍ بِالسَّرْيَانِيَّةِ عَابِرٌ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَمَانِمِائَةُ سَنَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَمُضَرٌ مِنْ وَلَدِ قَيْدَارِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، فَكَيْفَ حَتَّى وَلَدَ عَدْنَانٌ وَمُعَدٌّ وَنَزَارٌ وَمُضَرٌ؟ وَكَيْفَ شَعَبَتِ الْأَثَارُ وَانْتَشَرُوا فِي الْبِلَادِ؟»⁽¹⁾.

البداية تأصيل لجذور العرب وانتسابها ومرجعها، قبل التوسُّع في ذكر حوادثها وشخصياتها وتقلُّباتها الكبرى، وما قيل من أشعارها، وكان جوابه عن ماهيَّة العرب العاربة والعرب المستعربة، وعن أصولهما والفوارق بينهما، فعاد وثمرود وطسم وجديس وأرم العماليق وجرهم وقحطان بن هود هم -حسب إخباره- أوائل النَّاسِ، وعنهم صدرت العربيَّة التي تكلم بها النَّاسُ نسبةً إلى

(1) كتاب التيجان، ص 326-327.

يَعْرَبُ بن قحطان بن هُود، ومنه تولدت نسبة العربيِّ ووسمت اللغة بالعربيَّة، إلى أن وصل الأمر إلى إسماعيل الذي نتجت عنه تفرُّعات القبائل، وأخبار الأنبياء، ويتوسَّع في حكاية لقمان ونسوره، وحديث عاد الآخرة، وحديث نَمُود بن عابر بن أرم بن سَام وهو ابن نُوح بن ملك بن متوشلخ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، وحديث مفصَّل عن عَقْر ناقة صالح، وعن خروج جُرْهم من اليَمَن إلى الحَرَم، وعن زواج النبيِّ سليمان من الأسطورة بلقيس سليلة المزج بين الإنس والجنِّ، ولذلك فإنَّ أعاجيب اليمن من بنايات وصنائع راجعة إلى دخول الجنِّ عالم الإنس، منذ أسطورة الملك الهَدَّهَاد، الذي تُرَدُّ إليه عجائب بلاد اليَمَن، «فَعَامَةُ صِنَاعَاتُ اليَمَنِ مِنْ قَبْلِ الشَّيَاطِينِ». ويُمكن أن تُورد خبره تامًّا، مفصَّلًا إذ هو الخبر الذي شكَّل عالمًا سرديًّا ممكنًا، تلقَّته الثقافة الشعبيَّة والعامة وتوسَّعت في نَوَاهِ، لتفسير جوانب من حضارة العرب.

«هَذَا هُوَ الْمَلِكُ الْهَدَّهَادُ بْنُ شَرْحَبِيلِ بْنِ بَرِيلِ ذِي سِحْرِ بْنِ شَرْحَبِيلِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ زَيْدِ بْنِ سَدَدِ بْنِ زُرْعَةَ، وَهُوَ حَمِيرُ الْأَصْغَرِ بْنِ سَبَأِ الْأَصْغَرِ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَهْلِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرُو بْنِ قَيْسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَشَمِ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ وَائِلِ بْنِ الْعَوْثِ بْنِ جِيدَانَ بْنِ قَطَنِ بْنِ عَرِيبِ بْنِ زُهَيْرِ بْنِ أَيْمَنِ بْنِ الْهَمَيْسَعِ بْنِ حَمِيرِ الْأَكْبَرِ بْنِ سَبَأِ الْأَكْبَرِ. وَهُوَ أَبُو بَلْقَيْسِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ فِي سُورَةِ النَّمْلِ. وَكَانَ الْهَدَّهَادُ مَلِكًا عَظِيمًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ، وَلَا عَقَبَ غَيْرَ بَلْقَيْسِ، أُمُّهَا مِنَ الْجِنِّ، وَشَمْسُ أُمُّهَا مِنْ

الْعَرَبِ. فَأَمَّا بَلْقَيْسُ فَقَدْ مَلَكْتَ بَعْدَ أَبِيهَا، وَأَمَّا شَمْسُ فَكَانَتْ عِنْدَ يَاسِرٍ يَنْعَمُ صَاحِبِ الْمُسْنَدِ بِوَادِي الرَّمْلِ، وَكَانَ سَبَبُ تَرْوِيجِ الْهَدَاهِدِ بْنِ شَرْحِ بْنِ شَرْحِيلٍ مِنَ الْجِنِّ أَنَّهُ خَرَجَ لِلصَّيْدِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ خَدَمِهِ وَخَاصَّتِهِ. فَرَأَى ذَنْبًا يَطْرُدُ غَزَالَةً، وَقَدْ أَلْجَأَهَا إِلَى مَضِيقٍ لَيْسَ لِلْغَزَالَةِ مَخْلَصٌ عَنْهُ وَلَا مَحِيصٌ، فَحَمَلَ الْهَدَاهِدَ عَلَى الذَّنْبِ فَرَدَّهُ عَنِ الْغَزَالَةِ، وَبَقِيَ الْهَدَاهِدُ يَتَّبِعُ نَظْرَهُ إِلَى الْغَزَالَةِ، لِيَنْظُرَ إِلَى أَيْنَ تَنْتَهِي، فَسَارَ فِي إِثْرِهَا، وَانْقَطَعَ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذْ رُفِعَ لَهُ عَنْ مَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ، فِيهَا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ بِاسْمِهِ مِنَ النِّسَاءِ، وَالنَّعَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالْإِبِلِ، وَالنَّخِيلِ، وَالزَّرْعِ، وَالْفَوَاكِهِ. فَوَقَفَ دُونَهَا مُتَعَجِّبًا مِمَّا ظَهَرَ لَهُ مِنْهَا. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ لَهُ، فَسَلَّمَ وَرَحَّبَ بِهِ وَحَيَّاهُ، وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي أَرَاكَ مُتَعَجِّبًا مِمَّا ظَهَرَ لَكَ فِي يَوْمِكَ هَذَا، فَقَالَ لَهُ الْهَدَاهِدُ: إِنِّي لَكَمَا قُلْتُ، فَمَا هَذِهِ الْمَدِينَةُ؟ وَمَنْ سَاكِنُهَا؟ فَقَالَ هَذِهِ مَارُبُّ، سُمِّيَتْ بِاسْمِ بَلَدِ قَوْمِكَ. وَهِيَ مَدِينَةُ عَرَمٍ حَيٍّ مِنَ الْجِنِّ، وَهُمْ سُكَّانُهَا، وَأَنَا الْيَلْبُ بْنُ صَعْبٍ مَلِكُهُمْ وَصَاحِبُ أَمْرِهِمْ.

قَالَ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ مَرَّتْ بِهِمْ امْرَأَةٌ لَمْ يَرَ الرَّاوُونَ (هكذا!) أَحْسَنَ مِنْهَا وَجْهًا، وَلَا أَكْمَلَ مِنْهَا خَلْقًا، وَلَا أَظْهَرَ مِنْهَا صَبَاحَةً، وَلَا أَطْيَبَ مِنْهَا رَائِحَةً، فَافْتَتَنَ بِهَا الْهَدَاهِدُ، وَعَلِمَ مَلِكُ الْجِنِّ أَنَّهُ قَدْ هَوِيَهَا، وَشَغَفَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنْ كُنْتَ قَدْ هَوَيْتَهَا فَهِيَ ابْنَتِي وَأَنَا أَرْوُجُكَهَا، فَجَزَاهُ الْهَدَاهِدُ خَيْرًا عَلَى كَلَامِهِ، وَقَالَ لَهُ: مَنْ لِي بِذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهُ الْجَنِّي: إِنَّمَا عَرَضْتُ عَلَيْكَ مِنْ تَرْوِيجِي مِنْكَ وَجَمْعِي بَيْنَكُمَا عَلَى أَسْرَ الْأَحْوَالِ وَأَنَا بِهَا زَعِيمٌ، فَهَلْ عَرَفْتَهَا؟ فَقَالَ لَهُ الْهَدَاهِدُ: مَا رَأَيْتُهَا قَبْلَ يَوْمِي هَذَا، فَقَالَ لَهُ الْجَنِّي: فَإِنَّهَا الْغَزَالَةُ



التي خَلَصَتْهَا مِنَ الذُّنْبِ، وَلَا نُكَافِئُكَ عَلَى فِعْلِكَ الْجَمِيلِ أَبَدًا
بِأَحْسَنِ مِنْ حِبَائِكَ بِهَا، بِشَهَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَشَهَادَةِ مَلَائِكَتِهِ. فَإِذَا
أَرَدْتَ ذَلِكَ فَأَقْدِمِ إِلَيْنَا بِخَاصَّةِ أَهْلِ بَيْتِكَ وَمُلُوكِ قَوْمِكَ لِيَشْهَدُوا
إِمْلَاكَهَا، وَيَحْضُرُوا وَلِيَمْتَنَّا، وَمِيعَادُكَ الشَّهْرَ الدَّاخِلَ. وَقَالَ
فَانْصَرَفَ الْهَدَّهَادُ عَلَى الْمِيعَادِ، وَغَابَتِ الْمَدِينَةُ، وَإِذَا أَصْحَابُهُ حَوْلَهُ
يُدَوِّرُونَ عَلَيْهِ. فَقَالُوا لَهُ: أَيْنَ كُنْتَ؟ وَنَحْنُ فِي طَلَبِكَ مُذْ فَارَقْتَنَا، وَلَمْ
نَتْرِكْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْفُلُواتِ إِلَّا قَلْبَنَا لَكَ وَطَلَبْنَاكَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُمْ
الْهَدَّهَادُ: إِنِّي لَمْ أَبْعُدْ، وَلَمْ أَجُبْ. وَأَقْبَلَ يَسِيرُ وَهُوَ يَقُولُ:

عَجَائِبُ الدَّهْرِ لَا تَفْنِي أَوَابِدَهَا وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ لَا يَخْلُو مِنَ الْعَجَبِ
مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْأَرْضَ يُعَمِّرُهَا غَيْرَ الْأَعَاجِمِ فِي الْأَفَاقِ وَالْعَرَبِ

قَالَ: فَذَكَرُوا أَنَّ الْهَدَّهَادَ خَرَجَ إِلَى الْمِيعَادِ إِلَى أَصْهَارِهِ فِي
خَاصَّةِ قَوْمِهِ وَخَدَمِهِ، حَتَّى وَافَاهُمْ، فَوَجَدُوا قَصْرًا بَنَاهُ لَهُ الْجِنُّ
فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ مُحْفُوفَةٍ بِالنَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَأَنْوَاعِ الزَّرْعِ وَفُنُونِ
الْفُؤَاكِهِ، تَخْتَرِقُ فِيهَا الْمِيَاهُ الْجَارِيَّةُ. فَعَجِبَ الْقَوْمُ مِنْ ذَلِكَ عَجَبًا
شَدِيدًا، وَرَأَوْا مُلَكًا عَظِيمًا، وَنَزَلُوا فِي الْقَصْرِ مَعَهُ عَلَى فِرَاشٍ لَمْ
يَرَوْا مِثْلَهَا قَطُّ، وَقُرِيتَ لَهُمْ مَوَائِدُ عَلَيْهَا مِنْ طَيِّبَاتِ الْمَأْكُولِ وَالْوَانِهِ
التي لَمْ يَأْكُلُوا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا طَعْمًا، وَلَا أَذْكَى رَائِحَةً، وَسَقُوا
مِنَ الشَّرَابِ مَا لَمْ يَشْرَبُوا قَطُّ أَلْدَّ وَلَا أَهْضَمَ وَأَمْرًا وَلَا أَحَفَّ عَنْهُ،
فَمَكَّثُوا مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بَلِيَالِيهَا فِي ذَلِكَ، وَرُفَّتْ إِلَى الْهَدَّهَادِ امْرَأَتُهُ
الْحُرُورَى ابْنَةُ الْيَلْبِ بْنِ صَعْبِ الْعَرَمِيِّ مَلِكِ الْجِنِّ، فَأَذِنَ الْهَدَّهَادُ
لِبَنِي عَمِّهِ وَخَاصَّةِ عَشِيرَتِهِ بِالْانْصِرَافِ إِلَى مَوَاضِعِهِمْ، وَصَارَ ذَلِكَ
الْقَصْرُ دَارَ مَمْلَكَتِهِ، قَالَ فَذَكَرُوا أَنَّهَا أَقَامَتْ مَعَهُ زَمَانًا: الْحُرُورَى
ابْنَةُ الْيَلْبِ، فَوَلَدَتْ لَهُ بَلْقَيْسَ، فَنَشَأَتْ مِنْ أَعْقَلِ امْرَأَةٍ سَمِعَ بِهَا فِي

ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَأَفْضَلُهُ رَأْيًا وَحِلْمًا وَتَدْبِيرًا وَعِلْمًا. وَكَانَتْ ذَاتُ الْمَشُورَةِ عَلَى أَبِيهَا، حَتَّى عَرَفَ ذَلِكَ جَمِيعُ حَمِيرٍ مِنْهَا، وَقَالَ: فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بَعَثَ إِلَى رُؤَسَاءِ حَمِيرٍ وَأَهْلِ الرَّأْيِ وَالْقَدْرِ مِنْهُمْ، فَقَالَ: إِنِّي اسْتَخْلَفْتُ عَلَيْكُمْ بَلْقِيسَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، تَدْعُ أَهْلَ بَيْتِكَ وَأَفَاضِلَ قَوْمِكَ وَتَسْتَخْلِفُ عَلَيْنَا امْرَأَةً، وَإِنْ كَانَتْ بِالْمَكَانِ الَّذِي هِيَ بِهِ مِنْكَ وَمِنَّا، فَقَالَ: يَا مَعَاشَرَ حَمِيرٍ إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الرِّجَالَ وَعَجَمْتُ أَهْلَ الْفَضْلِ وَالرَّأْيِ، فَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ بَلْقِيسَ رَأْيًا وَحِلْمًا وَعِلْمًا، مَعَ أَنَّ أُمَّهَا مِنَ الْجِنِّ. وَأَنَا أَرْجُو أَنْ تَظْهَرَ لَكُمْ بِهَا عِنَايَةً مِنَ الْجِنِّ فَتَنْفَعُوا بِهَا وَأَنْتُمْ وَعَاقِبَتُكُمْ، فَاقْبَلُوا رَأْيِي فِيهَا»⁽¹⁾.

لقد أوردتُ الخبرَ تامًّا كما أورده نَشَوَانُ الْحَمِيرِيُّ، واستند فيه أساسًا إلى النِّوَاةِ الْأُولَى الَّتِي بَنَّاها الْكِتَابُ الْأَوَّلُ الْمَوْسُسُ، ومنه انبعثت أجوبة عن تاريخ العرب ومآثرهم، فارقت الأدب والثقافة الشعبيَّة لتدخل مصنِّفات التَّارِيخِ وتصير قصَّة الملك الهدهاد وأصول الملكة بلقيس المشتركة بين عالمي الإنس والجنِّ، «حقائق تاريخيَّة» تُعَلَّلُ بها «عجائب اليمن» في الصناعات والبناءات، وقد اسْتُعْمِلَ هذا الخبر وغيره من الأخبار الضَّارِبَةِ فِي عُمُقِ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ صُورَةً مِنْ صُورِ وَفَرَةِ الْمُخَيَّلَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَثَرَاءِ عَوَالِمِهَا الْحِكَايَةِ وَتَصَوُّرَاتِهَا الْعَقْدِيَّةِ⁽²⁾.

(1) الحميري (نشان بن سعيد) (ت 573 هـ): ملوك حمير وأقبال اليمن، وشرحها المسمى خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك والتبابعة، تحقيق: علي بن إسماعيل المؤيد، إسماعيل بن أحمد الجرايفي، (دار العودة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1978)، ص 74-77.

(2) Folia Orientalia; 2018; vol. LV; 195-211

The wedding of al-Hadhā and al-Harūrā. Glimpses of paganism in Arabia
Daniele Mascitelli. <http://journals.pan.pl/Content/108808/PDF/FoliaOrien->

نص «الهدهاد» هو نموذج من نماذج عديدة في كتاب عُبيد ابن شريّة الجُرهميّ، فيه مُراعاةٌ للمقام السياسيّ السمرّي الذي وُجد فيه الرّأوية، وفيه تدرُّج حكايّ ومقوّمات قصصيّة يُمكن أن تُكوّن مادّة بحثٍ ونظريّ. وهو دليل صارخ على قوّة قصصيّة ضاربة في ثُراث شبه الجزيرة العربيّة، وهي قوّة كانت فيه القصّة هي الإطار الذي فيه يجتمع الشّعُر والنّسب وملامح التّاريخ وإشارات جغرافيّة، فتصبح القصّة في هذا المقام إطارًا جامعًا، تتداخل فيه نصوصٌ وأجناسٌ وأنواعٌ، تتفاعل لتحقيق التلقّي الحسّن. ولقد صدرت عن الرّأوية عبارةٌ دالّةٌ في توجيه القول المُراد منه، وهي العبارة التي بُنيت عليه مروياته فعلًا، إذ قال لمعاوية:

«وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ حَمِيرٍ وَسِيرِهَا فِي الْبِلَادِ وَمُلْكِهَا فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ تَسْخُرُ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ؟ وَعَنْ افْتِرَاقِ أَلْسِنَةِ النَّاسِ وَعَنْ أَهْلِ بَابِلَ؟ وَمَتَى كَانَ ذَلِكَ؟ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ وَسَأَلْتُكَ أَلَا تَمُرُّ بِشَعْرِ تَحْفَظُهُ فِيمَا قَالَهُ أَحَدٌ إِلَّا ذَكَرْتَهُ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ مَا يُقْصِرُ لَيْلَكَ، وَتَلَدُّ بِهِ فِي نَهَارِكَ فَإِنَّ فِيهِ مَا تَهْوَى وَمَا لَا تَهْوَى وَمَغْضَبَةٌ وَشَغْفٌ لِلْمُلُوكِ! وَنَعَشُ الْمَوَدَّةِ»⁽¹⁾.

ودون أن نوسّع الوقوف على الأمثلة أو الطّواهر التي أصّلها هذا الكتاب المصدر، المؤسّس للسّردية العربيّة وتحديد مساراتها القادمة، يُمكن أن نقرّ مسائل مُحفّزة على البحث، منها:

■ المقام القصصيّ: وهو مبدأ يُمكن الخوض فيه في النّظر

فِي الْقَصَصِ الْبَدَائِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَهُوَ مَقَامٌ يُوهِمُ الْقَارِئَ أَنَّ الطَّرْفَ السَّائِلَ (معاوية) هُوَ الْمُحَدِّدُ لَوَجْهَتِهِ، الضَّابِطُ لِمَكْنِ السَّرْدِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الرَّأْيُ، وَالْحَالُ أَنَّ لِلرَّأْيِ خُطَّةً قَصَصٌ اعْتَمَدَهَا وَأَجْرَاهَا، وَشَفَّ عَنْهَا قَوْلُهُ مِنْذُ الْمَقْدَمَةِ الْأُولَى الْمَحْدَدَةِ لِلْعَلَاقَةِ لِلتَّخاطُبِيَّةِ الْقَصَصِيَّةِ بَيْنَ السَّائِلِ وَالْمَسْئُولِ، بَيْنَ الطَّالِبِ وَالْمُجِيبِ، بَيْنَ السَّامِعِ وَالرَّأْيِ، بَيْنَ الْبَاتِّ الْحَاكِي، وَالْبَاتِّ السَّائِلِ، وَهِيَ الْخُطَّةُ الَّتِي انْتَهَجَ فِيهَا الرَّأْيُ «لِذِيذِ الْحَدِيثِ».

■ الْمَقَامُ الْقَصَصِيُّ، هَيَّأَ أَيْضًا الرَّأْيُ لِيَدْخُلَ فِي قَصَصِ الْيَمَنِ أَوْ فِي مَا صَارَ يُنَعَتُ بِسَرَدِيَّاتِ الْيَمَنِ الْكُبْرَى⁽¹⁾، فَقَدْ تَوَجَّهَ السَّرْدُ بِإِرَادَةِ السَّائِلِ، الْعَامِلِ الْحَافِزِ عَلَى الْإِحْدَاثِ السَّرْدِيِّ، وَبِإِذْرَاكِ الذَّاتِ الْمُتَكَلِّمَةِ، إِلَى بِنَاءِ صُورَةٍ نُمُوذَجِيَّةٍ، مِثَالِيَّةٍ، عَنْ أَبْطَالِ الْيَمَنِ وَرُمُوزِهَا التَّارِيخِيَّةِ وَمُلُوكِهَا وَآثَارِهِمْ، تَضَخِيمًا⁽²⁾ سَرْدِيًّا أَوْ اخْتِلَاقًا⁽³⁾ قَصَصِيًّا دَاخِلًا فِي تَوْفُرٍ أَرْضِيَّةٍ مَعْرِفِيَّةٍ عَمِلَتْ عَلَى صِيَاغَةِ صُورَةٍ ضَارِبَةٍ فِي التَّارِيخِ، فَاعِلَةٍ فِي الْأُمَمِ، بَاعِثَةٍ لِأَقْوَامٍ.

■ هَذَا الْبُعْدُ الْخُطَابِيُّ السَّرْدِيُّ لِخِطَابِ عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةٍ، هُوَ بُعْدٌ مُوصُولٌ بِعَقْلٍ سَارِدٍ مُدْرِكٍ، وَخَاضِعٌ لثَقَافَةٍ تُؤْمِنُ بِالْقُوَّةِ

(1) الْكَعْبِيُّ (ضِيَاءُ الدِّينِ عَبْدُ اللَّهِ خَمِيسُ): سَرَدِيَّاتُ الْيَمَنِ الْكُبْرَى: «أَخْبَارُ عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةِ الْجَرُهمِيِّ» وَ«التَّيْجَانُ فِي مَلُوكِ حَمِيرٍ» أُنْمُوذَجَا، مَجَلَّةُ كَلِيَّةِ الْعُلُومِ، جَامِعَةُ الْقَاهِرَةِ، كَلِيَّةُ دَارِ الْعُلُومِ، عَدَدُ 111، 2018.

(2) م. ن. ص 662.

(3) م. ن. ص 663.

والرّفعة لعرب اليمن، وهو الأمر المؤسّس لسرديّاتٍ جنوبيّةٍ قحطانيّةٍ يمنيّةٍ تُضادُّ سرديّاتٍ مقابلةٍ لعرب الشّمال، وهذا الأمر إن دُرِسَ مزجًا للبُعدين الخطابيّ والثّقافيّ يُمكن أن يفتح في السرديّات العربيّة أبوابًا وفيرةً من إعادة قراءة تاريخ السّرد العربيّ وإعادة التّفاعّل معها وتنزيله منزلةً مختلفةً عن المنزلة التي هو عليها اليوم.

ويُمكن أن نختم هذا الفصل من البحث بشاهدٍ يحوي بيانًا لمنزلة الخطاب القصصي في كتاب عبيد بن شريّة الجرهميّ، خطابيًّا في الوقوف على نصّ قصصيٍّ مميّزٍ من أُسس السّرد العربيّ، وحضاريًّا في تسخير السّرد وتوجيهه لا إلى متعة المقام الدّاعي فحسب، بل إلى بناء صورة رمزيّة (أسطوريّة أحيانًا)، تخيليّة لحضارةٍ عربيّةٍ، اكتسبت برواية عبيد بن شريّة، مرجعيّة رمزيّة وتخييليّة باعثة لنوى قصصيّة، وأسست صورةً مقصودةً عن تاريخٍ أثيرٍ، أصيلٍ، مليءٍ بالأبطال والأنبياء والملوك، زاخرٍ بالأعمال المجانبة للواقع والمُفارقة له، يقول ضياء الكعبي:

«لقد بيّنت نبهة عبود كونيّة سرديّات اليمّن الكبرى في أدبٍ قبل الإسلام، عندما لاحظتُ تخطّيها حدودها المكانية الضيّقة (اليمن) إلى حدودٍ مكانيّة هي العالم القديم آنذاك، وهذا يعني أنّ سرديّات اليمّن الكبرى هي بالفعل (سرديّات كونيّة)، وهذا يعني أيضًا أنّه في مُقابل أدب أيام العرب الشماليين التي لم تتعدّ الحدود مع الآخر إلى معركة ذي قار، فإنّ سرديّات اليمّن الكبرى تشابكت وتقاطعت مع الآخر بتنوّعاته الإثنيّة الأجناسيّة المختلفة، ولعلّ

هذا ما يُفسِّرُ طابعها السَّرْدِيَّ المُلْحَمِيَّ⁽¹⁾.

فوجب أن نُفَكِّرَ -ضرورةً- في الصَّدور عن نصِّ عبيد بن شريّة الجرهميّ أرضيّةً تخيليّةً معرفيّةً تشفّ عن قدرة تخيليّة تمثيليّة صانعة لعوالم مليئة بالتصوّرات والاعتقادات، وهي أرضيّة لا تختلف عن العوالم الحكائيّة التي بعثها اليونانيّون عن أبطالهم الخالدين والفانين وعن ملوكهم وعن أنصاف آلهتهم.



(1) م. ن. ص. 681.



وهب بن منبّه: ملء الفراغات

يُعَرِّضُ الخبر لمقاصد شتى، فأصله ووضعه مرتبطان بمقاصد ينشأ إليها مقام الخبر، فهو محمول ومُتَقَلُّ مَادَّةٌ حَدِيثِيَّةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّوْجِيهِ وَالتَّصْوِيعِ، قَابِلَةٌ لِلتَّكْيُفِ وَالتَّطْمِيطِ وَالِاِقْتِصَادِ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ فَإِنَّ كِتَابَ وَهْبِ بْنِ مَنْبَهٍ «كِتَابُ التَّيْجَانِ فِي مُلُوكِ حَمِيرٍ»، هُوَ حَامِلٌ وَمَحْمُولٌ، نَاقِلٌ وَمَنْقُولٌ، فَصَاحِبُهُ يُورِدُ أَخْبَارًا يَجِدُ فِيهَا الرَّاغِبُ الطَّالِبُ أَجوبَةً عَنْ مُلُوكِ حَمِيرٍ، وَعَنْ أَصُولِ الْعَرَبِ، وَعَنْ أَشْهَرِ الْفَاعِلِينَ فِي التَّارِيخِ، وَعَنْ قِصَصِ الْعِشَاقِ وَعَنْ بَدَايَاتِ الْكُونِ، وَعَنْ تَفَرُّقِ الْأُمَمِ، وَهِيَ أَخْبَارٌ يَرَوِيهَا لِاحِقٌ عَنْ سَابِقٍ دَاخِلَةٌ فِي الْكُونِ الشُّفَوِيِّ لِلشُّعُوبِ، وَوَهْبُ بْنُ مَنْبَهٍ مِنَ الرُّوَاةِ الرُّؤُوسِ الْقَادِرِينَ عَلَى تَجْمِيعِ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِمْ مِنْ مُخْتَلَفِ الرُّوَايَاتِ وَإِخْرَاجِهَا فِي صِيَاجَةٍ جَدِيدَةٍ، وَقَدْ كَانَ لِكِتَابِهِ أَثَرٌ بَالِغٌ فِي تَفْتِيحِ عَوَالِمِ السَّرْدِ الْمُمْكِنِ، الْمُنْفَتِحِ فِي جَانِبٍ مِنْهُ عَلَى التَّارِيخِ، وَالْمُنْفَتِحِ فِي جَوَانِبٍ أُخْرَى عَلَى الْقِصَصِ التَّخْيِيلِيِّ، وَتِلْكَ لِعَمْرِي سِمَةُ الْخَبَرِ فِي جَوْهَرِهِ، أَنْ يَكُونَ آخِذًا مِنَ الْوَاقِعِ بِطَرَفٍ وَآخِذًا مِنَ التَّخْيِيلِ أَطْرَافًا.

لَقَدْ عُرِفَ الرَّجُلُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ بِأَنَّهُ مِنْ مَكُونَاتِ الْأَرْضِيَّةِ الرُّوَايَةِ الْعَامِلَةِ الْأُولَى، فَهُوَ مِنَ الْمَصَادِرِ الْأُولَى الَّتِي كَوَّنتِ اللَّبَنَةَ

التاريخية الإسلامية، وبنّت التصوُّر الإسلامي الأوَّل لتاريخ البشريَّة، وعرضت قصص الأنبياء والحوادث الكبرى من بداية خلق آدم عليه السَّلام إلى مبعث الرِّسول محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، فقد كان أمر هذا القصص من اختصاص أهل اليمن، من أهل الكتاب الذين توارثوا قصصًا متأتية من الثقافة اليهودية، وقد أسهمت الروايات اليمنية بقسطٍ وفيرٍ في صناعة متخيَّل قصصيٍّ أجاب عن أسئلة البدايات، وعن حدوث الوقائع الكبرى في التَّاريخ، وصاغ عوالم للأنبياء وللرُّسل، وقد احتاج مفسِّرو القرآن إلى قسم من هذه المرويَّات المنقولة عن أهل الكتاب، ومن رموز هذه الروايات من اليمن، أمثال كعب الأحبار (ت 34 هـ) وعبد الله بن سلام (ت 40 هـ) وهب بن منبه، وقد أفاض ابن خلدون في مقدِّمته في تفصيل هذه الظَّاهرة وبيانها، يقول:

«وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالنُّقْلِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ. وَقَدْ جَمَعَ الْمُتَقَدِّمُونَ فِي ذَلِكَ وَأَوْعَوْا، إِلَّا أَنَّ كُتُبَهُمْ وَمَنْقُولَاتِهِمْ تَشْتَمِلُ عَلَى الْغَثِّ وَالسَّمِينِ وَالْمَقْبُولِ وَالْمَرْدُودِ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَلَا عِلْمٍ وَإِنَّمَا غَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الْبَدَاوَةُ وَالْأُمْيَةُ. وَإِذَا تَشَوَّقُوا إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِمَّا تَشَوَّقُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ فِي أَسْبَابِ الْمَكُونَاتِ وَبَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَأَسْرَارِ الْوُجُودِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْهُ أَهْلُ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهُمْ وَهُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَمَنْ تَبَعَ دِينَهُمْ مِنَ النَّصَارَى. وَأَهْلُ التَّوْرَةِ الَّذِينَ بَيْنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ بَادِيَةٌ مِثْلَهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا تَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمُعْظَمُهُمْ مِنْ حَمِيرِ الَّذِينَ أَخَذُوا بِدِينِ الْيَهُودِيَّةِ. فَلَمَّا أَسْلَمُوا بَقُوا عَلَى مَا

كَانَ عِنْدَهُمْ مِمَّا لَا تَعْلُقُ لَهُ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَخْتَاطُونَ لَهَا
مِثْلَ أَخْبَارِ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ وَمَا يَرْجِعُ إِلَى الْحَدِثَانِ وَالْمَلَأِمْ وَأَمْثَالِ
ذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ كَعْبِ الْأَخْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنْبَهٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ
وَأَمْثَالِهِمْ. فَامْتَلَأَتْ التَّفَاسِيرُ مِنَ الْمُنْقُولَاتِ عِنْدَهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ
الْأَعْرَاضِ أَخْبَارَ مَوْقُوفَةٍ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَتْ مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى الْأَحْكَامِ
فَيَتَحَرَّى فِي الصَّحَّةِ الَّتِي يَجِبُ بِهَا الْعَمَلُ. وَتَسَاهِلُ الْمَفْسَّرُونَ فِي
مِثْلِ ذَلِكَ وَمَلَوْوا كُتُبَ التَّفْسِيرِ بِهَذِهِ الْمُنْقُولَاتِ. وَأَصْلُهَا كَمَا قُلْنَا
عَنْ أَهْلِ التَّوَرَةِ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الْبَادِيَةَ، وَلَا تَحْقِيقَ عِنْدَهُمْ بِمَعْرِفَةِ
مَا يَنْقُلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَعْدَ صِيَّتِهِمْ وَعَظُمَتِ أَقْدَارُهُمْ، لِمَا كَانُوا
عَلَيْهِ مِنَ الْمَقَامَاتِ فِي الدِّينِ وَالْمَلَّةِ، فَتَلَقَّيْتُ بِالْقَبُولِ مِنْ يَوْمَئِذٍ⁽¹⁾.

وهو قولٌ صائبٌ إذا ما حملنا هذه المرويَّات على أنَّها «تأريخ»
خالص، إلَّا أنَّنا نقرُّ أمرين على غاية من الأهميَّة، الأمر الأوَّل
أنَّ هذه المرويَّات هي داخلَةٌ في باب القصص الذي يُرادُّ منه في
أحيان كثيرة تأنيث مجالس السَّمَر أو إرضاء صاحب سلطة، طالب
حكايات وأخبار، والأمر الثاني عالقٌ بالأوَّل متَّصل به، وهو ماثلٌ
في أنَّ الأساطير لم تكن تُعدُّ من الخيالات الضَّاربة في الوهم، وإنَّما
هي داخلَةٌ في معتقدات الشُّعوب، فالغَيْبِيُّ والأسْطُورِيُّ والمُفَارِقُ
لِعَالَمِ الشَّهَادَةِ، عَوَالِمُ اعتقد فيها النَّاسُ وآمنوا بصِدْقِهَا وحُدُوثِهَا،
ولِذَلِكَ وَجَدْنَا هَذَا الْقَصَصَ «الْأُسْطُورِيَّ» أو المِفَارِقَ للمنطق والعقل
حاضِرًا في مُصَنَّفَاتِ المؤرِّخين الأوَّلَى والمتأخِّرة أيضًا، بل نحن

(1) ابن خلدون (وليُّ الدين عبد الرحمن بن محمد): مقدِّمة ابن خلدون، تحقيق،
عبد الله محمَّد الدرويش، دار يعرب، دمشق، الطبعة الأولى 2004، 175/2.

واجدون من الأساطير والقصاص في مقدّمة ابن خلدون ما يُخالف
رؤيته النظرية⁽¹⁾، ويُقيم عوالم من التخيل ومن القصص.

وهَب بن مُنَبِّه هو حامل تراثٍ عربيٍّ يضمُّ في أثنائه وطياته
الوقائع والأنساب والأساطير والقصاص والحكايات، وقد وُقِّر
للتراث العربيِّ نوى حكاية وقصصية توسَّع فيها اللاحقون وأثَّثوا
هذه النوى في مجالين مجال التخيل ومجال التأريخ، وهو يُمثِّل
صورةً شافَّةً عن انتشار الحكاية في الواقع العربيِّ وعن اعتمادها
للإفادة والتَّسْلِيَةِ، للتَّأريخ والتَّخيل على حدٍّ سواء، وقد توسَّعت
الدِّراسات في بيان الأثر التَّأريخيِّ لِكِتَابِ التَّيْجَانِ فِي مُلُوكِ حَمِيرٍ،
ولم يُدرَس الكتاب في صورته القصصية بالشكل الذي يستحقُّ،
وعلى ذلك فإنَّا مُظهِرون التَّوظيف التَّأريخيِّ لمرويات وهَب بن
منَبِّه، ومثيرون الوجه القصصيّ من خلال إشارات نفتح بها
المجال للدَّارسين.

لقد غلب الوجه التَّأريخي على دراسة كِتَابِ التَّيْجَانِ فِي مُلُوكِ
حَمِيرٍ، فعُدَّ أساساً مكيِّناً لتاريخ العرب وضبط ماضي اليمن
ومُلُوكها وكبريات حوادثها وأهمَّ شَخْصِيَّاتِها، فمن ذلك على سبيل
المثال دراسة بعنوان أَتَرَ كِتَابِ التَّيْجَانِ فِي مُلُوكِ حَمِيرٍ لَوَهْبِ بْنِ
مُنَبِّه (34- 114 هـ) في كُتُبِ التَّأريخ «ابن إسحاق مُؤَدَّجاً» لرُسْمِيَّة
يوسف قُعدان، التي تحدَّثت فيها عن مدى تأثير مرويات وهَب بن
منَبِّه على المصادر التَّأريخيَّة، وبعد أن تعرَّض في بحثها سيرة ابن

(1) التَّأريخي والتَّخيلي في الخبر، ص 31.

منبّه والاختلاف حوله ولادةً ومما تأليفًا وإسلامًا، وبعد أن تقف على بعض من دَرس منزلة ابن وهب التاريخيّة والعلميّة، تُبين أثره مصدرًا معرفيًا في مرويات ابن إسحاق، لتصل إلى النتيجة التالية: «تأثر الكثير من الباحثين والمؤرخين في وهب بن منبّه، ولعل من أهمهم ابن إسحاق صاحب أشهر كتب التدوين، وهو كتاب السير والمغازي، وجاء تأثره بمرويات بن منبّه من خلال روايته للأحداث المسندة وغير المسندة، ومنها ما ورد في الإسرائيليات وكتب التوراة والإنجيل التي رواها وهب بن منبّه في كتاب التيجان، بالإضافة إلى المرويات التي تناقلتها العرب بشكل شفهي ودوّنت في التيجان»⁽¹⁾.

وعلى المسار نفسه سار المبحث الذي أنجزه رؤوف عبّد الله الشريفين وسلامة النعيمات، عندما أثارًا مسألة مرويات وهب بن منبّه في كتاب «تاريخ الرسل والملوك» للطبري وأصولها التوراتيّة⁽²⁾، وانتهيا إلى أنّ ابن منبّه قد بنى أرضيّة أخباريّة مُهمّة لطبقة المؤرخين الأولى. ونهجت الدّراسة نهج المقارنة التاريخيّة، وضبطت أخبار ابن وهب التي اعتمدها الطّبري، وعمل الدّارسان على بيان أصول هذه الأخبار في نسبها إلى التوراة أو إلى نصوص يهوديّة أو مسيحيّة، ذلك أنّ المنظور السائد في سَم مرويات وهب ابن منبّه، أنّها مرويات قد شكّلت المنفذ الأوّل والأساس للقصاص

(1) قعدان (رسميّة يوسف): أثر كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبّه (34-114 هـ) في كتب التاريخ «ابن إسحاق نموذجًا»، مجلّة اللغة العربيّة وأدبها، المجلّد (1)، العدد (4)، 30 سبتمبر 2022، ص 59.

(2) الشرفين (عبد الله) النعيمات (سلامة): مرويات وهب بن منبّه في كتاب «تاريخ الرسل والملوك» للطبري وأصولها التوراتيّة، المجلّة الأردنيّة للتاريخ والآثار، المجلّد (13)، العدد (2)، 2019.

الإسرائيلي، وللرؤية اليهودية للرُّسل والأنبياء ولتقلُّبات أحداث الكون عبر التاريخ، وقد اجتهد ابن منبّه في تطويع هذه المرويَّات وأسَلَمَتها، وجعلها موافقةً للتصوُّر القرآني، وللقصَّة الإسلاميَّة المُقدَّمة، فشكَّل بذلك قناة الوصل بين التصوُّرين الدينيين، وأحضر الأخبار والقصص من المجال الكتابي المسيحي واليهودي السابق للإسلام، لملء فراغات في التصوُّر الشعبيِّ والعالم للتاريخ، وعلى ذلك عُدَّ ابن منبّه الباب الرئيس لِتسرُّب الإسرائيليات إلى مجالين هامَّين في الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة وهما التاريخ وتفسير القرآن الكريم.

لقد انتهى الباحثان في هذه الدِّراسة إلى إثبات هذه الصُّورة التي يكادُ يُجمَعُ عليها كُلُّ مَنْ درسوا أعمال وهب بن منبّه، والمتمثلة في أنَّه محض ناقل لما ورد من قصص وأخبار من كُتب يهودية ومن العهد القديم، ليختِمَا البحث، بعد دراسةٍ مقارنةٍ إحصائيةٍ بقولهما: «هَذَاكَ مَجْمُوعَةُ رِوَايَاتٍ لَمْ تَرِدْ فِي نَصِّ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَهِيَ الْأَوَّلَى، وَالثَّالِثَةُ، وَالسَّادِسَةُ وَالسَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ عَشْرَةَ وَالْعُشْرُونَ وَالرَّابِعَةَ وَالْعُشْرُونَ وَالسَّادِسَةَ وَالْعُشْرُونَ وَالثَّامِنَةَ وَالْعُشْرُونَ وَالثَّلَاثُونَ، إِضَافَةً إِلَى الرِّوَايَاتِ مِنْ 36 إِلَى 47- جَاءَتْ الْأَخْبَارُ الْيَهُودِيَّةُ الَّتِي دَخَلَتْ كِتَابَ تَارِيخِ «الرُّسُلِ وَالْمُلُوكِ لِلطَّبْرِيِّ مِنْ مَصَادِرٍ يَهُودِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، أَخَذَهَا الْعَهْدُ الْقَدِيمُ»⁽¹⁾.

(1) م. ن. ص 28.

وليسَ لنا أن نتوسَّع في هذا المجال، ولكن خلاصة الرأي أن كتاب وهب بن منبه اعتمد مصدرًا أساسًا في توثيق عديد المراحل التاريخية وإضاءتها، ولا عجب أنه أُدخل إلى أقسام التاريخ في الجامعات العربية نظرًا ودراسةً ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك رسالة الماجستير للباحث عمّار فريز زقزوق التي أُعدت في جامعة النجّاح الوطنية بنابلس، فلسطين، قسم التاريخ بعنوان وهب بن منبه (ت 114 هـ) ودوره في الكتابة التاريخية، سنة 2002، التي اعتمدها عدد من الباحثين صورةً من صور القدرة التوثيقية والتاريخية لكتاب ابن منبه، والتي شدّت كتاب التيجان إلى التأصيل التاريخي، وهو أمرٌ - في ظنّي - يُفقر الكتاب من جوهره ويُخرجه من أصله، إذ هو كتابةٌ في نوع تألّفي هو الخبر، والخبر هو شكلٌ تخيليٌّ وإنّ مازج بين الإحالة المرجعية وسدّ الفراغات التي تقلُّ فيها هذه الإحالات إلى واقعٍ معلوم، بصناعة شخصيات وأحداث تملأ فراغات الروايات السائدة.

وننتهي إلى ما أقرّه جواد عليّ في شأن كتابة وهب بن منبه، إذ يقول: «والذي يهْمُنَا من أمر وهب بن منبه أخبارُهُ عن الجاهليّة. ولَوْهَبٌ أَخْبَارٌ عَنِ الْيَمَنِ وَالْأَقْوَامِ الْعَرَبِيَّةِ الْبَائِدَةِ، وَنَجْدٌ رِوَايَتُهُ عَنِ نَصَارَى نَجْرَانَ وَتَعْدِيْبِ ذِي نُوَّاسٍ إِيَّاهُمْ، وَقِصَّةُ الرَّاهِبِ فَيْمُيُونَ مُطَابِقَةٌ لِلرِّوَايَاتِ النَّصْرَانِيَّةِ وَلَمَّا جَاءَ فِي كِتَابِ شَمْعُونِ الْأَرَشَامِيِّ عَنْ هَذَا الْحَادِثِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ قَدْ أَخَذَهَا مِنَ الْمُؤَلِّفَاتِ النَّصْرَانِيَّةِ أَوْ مِنْ أَشْخَاصٍ كَانُوا قَدْ سَمِعُوا بِمَا وَرَدَ عَنْ حَادِثِ (نَجْرَانَ) مِنْ أَخْبَارٍ (...) أَمَّا مَا ذَكَرَهُ عَنِ التَّبَاعَةِ وَالْعَرَبِ الْبَائِدَةِ، فَإِنَّهُ قِصَصٌ. وَأَمَّا

عِلْمُهُ بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ الْآخِرِينَ، فَيَكَادُ يَكُونُ صِفْرًا، فَلَا نَجْدُ فِي رِوَايَتِهِ شَيْئًا يُعَدُّ تَأْرِيخًا لِعَرَبِ الْحِيرَةِ أَوْ الْغَسَّاسِيَّةِ أَوْ عَرَبِ نَجْدٍ. فَهُوَ فِي هَذَا الْبَابِ مِثْلُ (عُبَيْدِ بْنِ شَرِيَّةٍ) مِنْ طَبَقَةِ الْقُصَّاصِ⁽¹⁾.

وهذا ما يُفَضِي بنا إلى الوجه الثاني لكتاب التَّيْجَانِ، الذي لم يُتَوَسَّعْ فيه، وهو الوجه القصصي، وهو - في ظنِّي - الوجه الأهمُّ والأعمق، ذلك أنَّ ابن منبّه أسَّهَمَ في وضع اللَّبَنَاتِ الْأُولَى لِلْسَرْدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلِلْقَصَصِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَفَرَّعَتْ عَنْهَا أَشْكَالٌ فِي السَّرْدِ كَانَ لَهَا عَمِيقُ الْأَثَرِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّا نَعْمَلُ عَلَى إظهار الطبيعة التَّخْيِيلِيَّةِ لِمُرُويَّاتِ وَهْبِ بْنِ مَنْبَهٍ، وَوَضْعُهَا فِي مَحَلِّهَا الطَّبِيعِيِّ، وَهِيَ الطَّبِيعَةُ الْقَصَصِيَّةُ الشَّاقَّةُ عَلَى عَمَقِ الْمُخَيَّلَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقُدْرَتِهَا الْإِبْدَاعِيَّةِ الَّتِي شَمِلَتْ نَوَى قَصَصِيَّةٍ لثَلَاثِ ثِيَمَاتٍ كُبِّرَى تُوسَّعُ فِي تَفْصِيلِهَا فِي لَاحِقِ الْأَخْبَارِ وَالْقَصَصِ، وَهِيَ:

- الْمَجَالُ الْأَوَّلُ: الْقَصَصُ الدِّينِيُّ.
- الْمَجَالُ الثَّانِي: قَصَصُ الْمُلُوكِ وَالْأَبْطَالِ الْخَارِقِينَ.
- الْمَجَالُ الثَّلَاثُ: الْقَصَصُ الْمُتَفَرِّقُ.



(1) علي (جواد): المُفَصَّلُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، (جامعة بغداد، الطبعة الثانية 1993)، ج 1 ص 84-85.



المجال الأول: القصص الديني

القصص الديني، الذي خص الأنبياء والرسل أساسًا، وما كان من أفعالهم وأقوالهم، مازجًا في ذلك بين الأصل القرآني الذي يُجريه من خلال الآيات التي يعرضها والزيادات التوسيعية التي يأتي بها من القصص الإسرائيلّي أو ممّا هو رائج من القصص الشعبي، فتمكّن من عرض قصص الأنبياء تامّة الهيكل، مكتملة العناصر، يغلب عليها التخيل والتّمثيل، فمن ذلك مثلاً قصّة آدم عليه السّلام في حال العصيان، ومخالفة أمر الله عزّ وجلّ، فالقصّة في صورتها القرآنيّة تردّ مجملّة غير مفصّلة العناصر، الأمر الذي يستغلّه القاصّ لتأثيث هذه الفراغات بإحداث عالم حكايّ متخيّل، فمن ذلك توسّعه التفصيليّ في قصّة خلق الكون وبداياته وتفصيل عناصره ومكوّناته، من أنهارٍ وبحارٍ ومناخ، ومن ذلك أيضًا قصّة خلق آدم وحوّاء ومخالفتهما لأمر الله بعدم الاقتراب من شجرة بعينها، وما تبع ذلك من عقوبة وإبعاد آدم عن جوار الله وإنزاله الأرض، وبداية قصص الإنسان في صراعه مع الطّبيعة ومع الغيبيّات ومع نوازع الشرّ التي استهلّت بنزاع الأخوين قابيل وهابيل.

وقد تميَّز السَّردُ في هذا المجال بالدقَّة في سرد الأماكن، والأزمنة والأنساب، وخذ على ذلك مثلاً تحديد المكان الذي نزل فيه آدم وحواء ساعة أخرجهما الله من جواره، «قال وهب: قال بعضُ أهلِ العلم: إنَّ إبليسَ ركبَ الحيَّةَ وكانت ذات قوائم أربَع حينَ أتى آدمَ ليأكلَ مِنَ الشَّجَرَةِ. قالَ لَهُمُ اخْرُجُوا مِنَ الْجَنَّةِ، اهْبُطُوا إِلَى الْأَرْضِ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، قالَ: وَسَلِبَتِ الْحَيَّةُ قَوَائِمَهَا، وَأَخَذَ جَبْرِيلُ بِجَنَاحِهِ، فَرَمَاهُ بِجَبَلٍ جِي بِخُرَاسَانَ. وَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهُ الدَّجَالُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَنَزَلَ آدَمُ عَلَى جَبَلٍ لُبْنَانٍ، وَقَالَ قَوْمٌ عَلَى الْجُودِيِّ، وَنَزَلَتْ حَوَاءٌ عَلَى جَبَلٍ الطُّورِ»⁽¹⁾.

إنَّ هذا الشَّاهد -وغيره كَثُرَ- يَضَعُ الدَّارسَ على أرضيَّة بحثيَّة ثريَّة، وهي بداياتُ السَّردِ الدِّينيِّ وما يُمكن أن يَتوسَّع فيه، وأن يُتَّطَلَقَ منه في حياكةِ عوالمٍ قصصِيَّةٍ كان لها في لاحق الحضارة العربيَّة الأثر الواسع، فلا ريب أنَّ كتاب التَّيجان يُمثِّلُ أصلاً من أصول هذه السَّردِيَّة الدِّينيَّة التي نَبَعَ منها قَصَصُ الأنبياء وأساطير الأوَّلِينَ، والتي بَعَثَ ابنُ منبِّهٍ مهادها من خلال نوَى أوليَّة صاغها مُجمَلَةً، جامعاً فيها بين الهيكلَةِ القرآنيَّة الإسلاميَّة والتَّفصيل الذي يظفر به في المرويَّات الإسرائيَّليَّة، فكان أن بعث القَصَصُ التكوينيَّة الأولى، بدايةً من خَلْقِ آدم إلى تطوُّر البشريَّة وتوزُّعها، وكانت القِصَّة الدِّينيَّة هي حافزٌ أساسيٌّ ومتطلَّبٌ رئيسٌ من مقتضيات مقامِ التَّخاطبِ.

(1) كتاب التَّيجان، ص 16.



وعلى ذلك، نجد في هذه الأرضية القصصية نوى قصص الأنبياء، منها، قصة لقمان⁽¹⁾، قصة نوح والطوفان⁽²⁾، وتوسّع في قصة إعادة ملء الأرض بعد الطوفان بأبناء نوح⁽³⁾، وتتبع السلالة الباقية من نوح، وهي التي نتج عنها التكوّن الثاني للكون، قصة النبي صالح، قصة أهل الكهف، قصة الخضر، وأغلب قصص الأنبياء. تلك إذن أرضية إخبارية قصصية بدئية صنعها وهب بن منبه في كتاب «التيجان»، الذي ملأ فراغات عديدة في الخطاب القصصي الديني وحقّق استجابة لما يُمكن أن يتطلّع إليه السامع أو القارئ من إتمام للحكاية الدينية التي تكون عامّة في النص المقدّس مجملّة، غير مفصّلة.



(1) م. ن. 78.

(2) م. ن. 33-30.

(3) «قال وهب: وعاش نوح بعد الطوفان خمسمائة عام وأن السبعين رجلاً الذين كانوا معه في السفينة ماتوا بلا عقب، وإنما أعقب بنو نوح الثلاثة، سام وحام ويافث، فولد سام أرفخشذ وأرم وبين كثيرًا، درجوا ودرج أبنائهم، فولد أرم: عوص، فولد عوص عاد الأكبر، وولد عابر بن أرم، فولد عابر ثمودا وطسم، وولد أرم أيضا لاوى، فولد لاوى عملاقا وريثا، وولد أيضا فارسا ومارما، فولد فارس الفرس. وقال بعض الرواة أن طسم وجديس ورايش وعملاقا أولاد من ابن أرم، فأما بني أرفخشذ فهم النخلة يعني نسبهم في نخلة النسب فأغنى عن أبنائهم هنا». م. ن. ص 32-33.



المجال الثاني:

قَصُّ الملوك والأبطال الخارقين

حكايات الملوك والأبطال الخارقين، هي نواة سردية ثانية انصرف ابن وهب إلى التوسُّع السردِيَّ فيها، وجمَعَ فيها بين صُور هؤلاء الأبطال قُوَّة واستطاعة والتَّوظيف الدينيِّ إيمانًا أو عصيَانًا، وهي أيضًا نوى سردية بُذرت في هذا الكتاب لِتَكُون بذرةً تنبُت توسُّعًا وإفاضةً في لاحق الأعمال الموسوعية مثل سيرة سيف بن ذي يزن⁽¹⁾، أو حكايات شدَّاد بن عاد⁽²⁾، وقصة ذي القرنين⁽³⁾ وغيرها من القصص التي بنى كتاب التَّيجان نواها البطولية الأولى، ووضَعَ سِمَاتِهَا المُمَيِّزة، وأسلمَهَا، وأخضع الظَّاهرَ منها إلى التَّصوُّر القرآنيِّ إنَّ قال فيها القرآن قولاً، وإلى التَّصوُّرات القصصية الشعبيَّة أو الدينيَّة السَّابقة إن سَكَتَ القرآن عنها، لِيُفْتَحَ البابُ لإنشاء سِيرٍ تخيلية وحكايات أسطورية وقصصٍ شعبيةٍ لهؤلاء الأبطال في لاحق التَّمثُّل الشعبيِّ أو العالم لها.

(1) م. ن. ص 317.

(2) م. ن. ص 74.

(3) م. ن. ص 90.

وَيُمْكِنُ أَنْ نَقِفَ عَلَى مِثَالَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْقِصَصِ:

مثال (1):

«قَالَ وَهَبُ: وَوَلِي الْمَلِكِ الصَّعْبُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بْنِ الْحَارِثِ الرَّائِسِ
ذِي مَرَاثِدِ بْنِ عَمْرٍو الهمالِ ذِي مَنَاحِ بْنِ عَادِ ذِي شَدَدِ تَجَبُّرًا، لَمْ يَكُنْ
فِي التَّبَايَعَةِ مُتَجَبِّرًا مِثْلَهُ وَلَا أَعْظَمَ سُلْطَانًا وَلَا أَشَدَّ سَطْوَةً، وَكَانَ لَهُ
عَرْشٌ مِنْ ذَهَبٍ صَامِتٍ مُرْصَعٍ بِالْذُرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرْدِ وَالزُّبُرْجِدِ،
وَكَانَ يَلْبَسُ ثِيَابًا مَنَسُوجَةً مِنَ الذَّهَبِ مَنْظُومَةً دُرًّا وَيَاقُوتًا، وَكَانَ
عَظِيمَ الْحِجَابَةِ. قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ إِذْ رَأَى رُؤْيَا كَأَنَّهُ آتِيًا
آتَاهُ فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَسَارَ بِهِ حَتَّى رُقِيَ بِهِ جَبَلًا عَظِيمًا مَنِيْفًا، لَا يَسْلُكُ
فِيهِ سَائِرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ مَا رَأَى، إِذَا شَرُفَ عَلَى جَهَنَّمَ وَهِيَ تَحْتَهُ تُزْفُّ
وَأُمُوجُهَا تَلْتَطِمُ وَفِيهَا قَوْمٌ سُوطٍ تَتَخَطَّفُهُمُ النَّيِّرَانُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.
فَقَالَ لَهُ الصَّعْبُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ لَهُ: الْجَبَابِرَةُ فَأَخْلَعَ يَا صَعْبُ رِدَاءَ
الْكِبَرِ، وَتَوَاضَعَ لِلَّهِ يُعْطِكَ عِزًّا أَعْظَمَ مِنْ عِزِّكَ وَهَيْبَةً أَجَلُ مِنْ هَيْبَةِ
الْكِبَرِ وَعِزًّا أَعْظَمَ مِنْ عِزِّ الْمُلْكِ، فَاحْتَرِ لِنَفْسِكَ أَيَّ الْمَقَامَيْنِ أَحَبُّ
إِلَيْكَ. قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ بَرَزَ لِلنَّاسِ بَعْدَ الْحِجَابَةِ، وَتَوَاضَعَ وَانْبَسَطَ
بَعْدَ الْعِزِّ وَالْقَسْوَةِ، وَجَلَسَ بَيْنَ النَّاسِ وَدَخَلَ قَلْبَهُ وَخَشَةُ خَوْفًا مِنَ
اللَّهِ ثُمَّ أَمَرَ بِالْعَرْشِ فَأُخْرِجَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ اهْتَكُوا، وَلِكُلِّ يَدٍ مَا
أَخَذَتْ. فَهَتَكَ الْعَرْشَ وَانْتَبَهَ النَّاسُ، ثُمَّ رَمَى بِثَوْبِهِ فَتَخَطَّفَهُ النَّاسُ،
ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ الْجَبَّارَ يَبْغِضُ الْجَبَّارِينَ، فَهَرِ الْمَوْتُ مَنْ
ادَّعَى إِنَّهُ نَدْرَهُ وَأَذَلَّ الْمُلْكَ مَنْ ادَّعَى إِنَّهُ ضِدُّهُ وَاسْتَأَثَرَ بِالْبَقَاءِ بَعْدَ
ذَهَابِهِ الْإِمْلَاءِ»⁽¹⁾.

(1) م. ن. ص - 91- 92.

الملاحظ في هذه القصة، أنَّ راويها أسَّسها على عاملين مركزيين في بناء الشخصية الإشكالية، وهما صورة شخصية ذي القرنين التي حدَّد القرآن مسارها وخلالها، ولذلك لم يقدر الراوية أنَّ يُخرجها من دائرة الإيمان، وصورة الشخصية الجبارة التي دانت لها الأرض مغاربها ومشارقها، فكيف تكون هذه الشخصية صالحة، على ما علق بها من تمثُّل شعبيٍّ يصلُّها بالقوَّة والجاه والامتلاك والقسوة؟

لقد أجمل القرآن الكريم قصة ذي القرنين وضبط النَّوى السَّردية الكبرى المُحدَّدة لمسارها القصصي، وهذه النَّوى، هي:

- ذو القرنين شخصية بطولية ملكت الأرض من مشارقها إلى مغاربها.

- ذو القرنين عبدٌ من عباد الله الصَّالحين.
- ذو القرنين مُنفذٌ لمشية الله، مُعذِّبٌ للمُفسِّدين، مانعٌ لفسادهم، وهو ساجنٌ يأجوج ومأجوج، بقوَّته واستطاعته ومباركة الله لأعماله.

وعلى ذلك، فإنَّ فراغات عديدة يمكن ملؤها في هذه القصة الإطار، جواباً على أسئلة تظل قائمة وتحتاج قاصاً مالِكاً أداة القصص لجبِّ هذه الفراغات ولإرضاء متلقِّي القصص، ومن هذه الفراغات:

- هويَّة ذي القرنين ونسبته.
- أعماله وبطولاته.
- انتقاله إلى الإيمان وليس مذكوراً من الأنبياء ولا من الرُّسل.
- كيفية امتلاكه لمشارق الأرض ومغاربها.
- صلته بياجوج ومأجوج.

مثال (2):

«قَالَ وَهَبُ: لَمَّا وَلِيَ (شَدَّادُ بْنُ عَادٍ) الْمُلْكَ جَمَعَ الْجُنُودَ وَكَانَ امْرَأً حَازِماً فَسَارَ يَدُوسُ الْأَرْضَ وَبَلَغَ أَرَمِينِيَّةَ الْكُبْرَى فَقَتَلَ فِيهَا كُلَّ تَائِرٍ بِهَا ثُمَّ عَبَرَ الْفُرَاتَ إِلَى الْمَشْرِقِ فَبَلَغَ أَقْصَاهَا، لَا أَحَدَ يَقِفُ لَهُ إِلَّا هَلْكَ، ثُمَّ مَضَى عَلَى سَاحِلِ سَمَرْقَنْدٍ إِلَى أَرْضِ التَّبَّتِ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى أَرَمِينِيَّةٍ فَأَمْعَنَ، ثُمَّ جَازَ إِلَى الشَّامِ وَبَلَغَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَأَكْثَرَ الْأَثَارَ فِي الْمَغْرِبِ حَتَّى بَلَغَ الْبَحْرَ الْمَحِيطَ يَبْنِي الْمَدْنَ، وَيَتَّخِذُ الْمَصَانِعَ فَأَقَامَ فِي الْمَغْرِبِ مَائَتَيْ عَامٍ، ثُمَّ قَفَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ، فَأَنَفَ أَنْ يَدْخُلَ غَمْدَانَ، وَمَضَى إِلَى مَارِبَ فَبَنَى بِهِ الْقَصْرَ الْعَتِيقَ الَّذِي يُسَمِّيهِ بَعْضُ الرُّوَاةِ (إِرَمَ بْنَ الْعِمَادِ) فَلَمْ يَدْعُ بِالْيَمَنِ دُرّاً وَلَا جَوْهَراً وَلَا عَقِيقاً وَلَا جَزْعاً وَلَا بِأَرْضِ بَابِلَ، وَأَرْسَلَ فِي الْأَفَاقِ بِجَمْعِ ذَلِكَ فَجَمَعَ جَوَاهِرَ الدُّنْيَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالْقَصْدِيرِ وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاصِ، فَبَنَى فِيهِ وَزَخَرَفَهُ وَرَصَعَهُ بِجَمِيعِ ذَلِكَ الْجَوَاهِرِ، وَجَعَلَ أَرْضَهُ رُخَاماً أَبْيَضَ وَأَحْمَرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْوَانِ، وَجَعَلَ تَحْتَهَا أَسْرَاباً، فَاضَ إِلَيْهَا مَاءُ السَّدِّ، فَكَانَ قَصْراً لَمْ يُبْنَ فِي الدُّنْيَا مِثْلُهُ ثُمَّ مَاتَ شَدَّادُ بْنُ عَادٍ بَعْدَ أَنْ عَمَرَ خَمْسَمِائَةَ عَامٍ، فَتُقِبَتْ لَهُ مَغَارَةٌ فِي جَبَلِ شِمَامٍ وَدُفِنَ بِهَا، وَجَعَلَ فِيهَا جَمِيعَ أَمْوَالِهِ»⁽¹⁾.

تتأسس صورة شَدَّادِ بْنِ عَادٍ، ملكاً ذا مرجعية بطوليّة، من سُلالة الأنبياء، يبعثُ ملكاً لا يُحدُّ، ويجمع مالاَ وجاهاً لا يُعدُّ، ويأتي من جليل الأفعالِ ما لا يُقدَّرُ عليه بشرٌ، ولذلك فإنَّه يُفارقُ في التمثيل القصصي منزلةَ الإنسان العاديِّ، ويلجُ فضاء الأسطورة،

(1) م.ن. ص 74.



لِيُصْبِحَ تُكَاءٌ لِكُلِّ فَعْلٍ خَارِقٍ لِلزَّمَنِ وَلِلْمَنْطِقِ الْوُجُودِيِّ. فَأَسَّسَ
الْوَضْعُ السَّرْدِيُّ الْأَصْلِيَّ أَوْ الْأَسَاسِيَّ صُورَةَ الْبَطْلِ الَّذِي هَزَمَ
مُخَالَفِيهِ وَمُعَارِضِيهِ، وَطَوَى جَوَانِبَ الْأَرْضِ وَضَمَّهَا إِلَى مُلْكِهِ، فِي
سَرْدٍ يُوجِزُ الرَّأْيَ عُنَاوِيهِ وَيَقْتَصِرُ فِيهِ عَلَى الثِّمَاتِ الْمُتَضَامَّةِ
الْأَصْلِيَّةِ، دُونَ تَفْصِيلٍ أَوْ تَوْسِيعٍ، وَلِذَلِكَ فَقَدْ وَسَمْنَا هَذَا الْقَصَصَ
بِأَنَّهُ بَعَثَ لِلنَّوَى السَّرْدِيَّةِ الْكُبْرَى الَّتِي فَرَّعَتْ الْقَصَصَ الْعَرَبِيَّ قَبْلَ
الْإِسْلَامِ.

لَا يَقْتَصِرُ الرَّأْيُ عَلَى ضَبْطِ الْوَضْعِ الْأَسَاسِ لِحِكَايَةِ شَدَّادِ
ابْنِ عَادَ، بَلْ يُحَوِّلُهُ إِلَى شَخْصِيَّةٍ حَاضِرَةٍ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، جُثْمَانَهَا
مُسَجَّى فِي كَهْفٍ حُرَّاسُهُ حَيَّاتٌ عَظِيمَةٌ، وَتَتَّيْنُ «أَحْمَرُ الْعَيْنَيْنِ»،
فَاتِحُ فَاهٍ⁽¹⁾، وَأَسَدٌ عَظِيمٌ. تُحْمَى الْمَغَارَةُ الَّتِي يُخَلِّدُ فِيهَا الْبَطْلُ،
الَّتَابِتُ، الْمَوْسُومُ بِامْتِلَاكِ ذَهَبِ الْكَوْنِ وَأَحْجَارِهِ الْكَرِيمَةِ، لِيَصِلَ إِلَيْهِ
صَعَالِيكَ بَعْدَ مَرُورِ أَزْمَنَةٍ عَلَى اخْتِفَائِهِ (أَوْ مِمَاتِهِ)، وَلِيَجِدُوهُ «بِدَارٍ
عَظِيمَةٍ، وَفِيهَا بَيْتٌ فِي وَسْطِهِ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَعَلَيْهِ شَيْخٌ عَلَى
رَأْسِهِ لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقٌ، وَسَقْفُ الْبَيْتِ مُرَصَّعٌ بِأَصْنَافِ الْيَوَاقِيتِ،
وَعَلَى رَأْسِهِ فِي الْحَائِطِ لَوْحٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ، مَكْتُوبٌ (أَنَا شَدَّادُ بْنُ
عَادَ عَشْتُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَافْتَضَضْتُ فِيهَا أَلْفَ بَكْرٍ، وَقَتَلْتُ أَلْفَ
مُبَارِزٍ، وَرَكَبْتُ أَلْفَ جَوَادٍ مِنْ عِتَاقِ الْخَيْلِ)»⁽²⁾.

(1) م. ن. ص 77.

(2) م. ن. ص 77.

تلك إذن الأرضيَّة الأولى التي بُذِرَتْ منها حكاياتُ ملوكٍ وأبطالٍ، وفتَّحت السَّبيل لتوسيع هذه النُّوى الحكائيَّة، التي لم تقتصر على التوسيع الحكائيِّ الشعبيِّ، بل دخلت صريحةً واضحةً فضاء التَّأريخ وفضاء التَّفسير، ومن هذا المنطلق كان من الضروريِّ أن نفتح هذا الباب الذي ما زال يحتاج إلى جهود الباحثين، في بيان منابت السَّرد العربيِّ وأصول تكوُّنه.





المجال الثالث: القصص المتفرقة.

المجال الأخير الذي انصرف وهب بن منبّه إلى التوسّع السردّي فيه في كتاب التّيجان هو قصص متفرقة لا ينتظم بالضرورة ضمن قصص الأنبياء والرُّسل أو قصص الملوك والأبطال، بل يدخل في متفرقة القصص، خاصّة في حال الاستطراد عن الموضوع الهيكليّ الجاذب للقصص وهو حكايات الأنبياء وخلفائهم، ولعلّ أبين مثال على هذا القصص المتفرقة هو قصص العشاق الذي يُمكن أن نختصره في قصة مضاض ابن أخي عمرو الملك وميّا ابنة مهليل ابن عامر وكانت من بنات عمّه⁽¹⁾، وهي قصة مبينة عن تأصل نمط قصصيّ ساد من بعد ذلك، وهو قصص العشاق والمُتيمّن، وقد بانّت القصة التي رواها ابن منبّه تامّة العناصر، من وجود مُحِبّين عانيًا نار الوجد، ومن توفّر جهة مانعة، مُعطلة، مُعزّلة، ومن مسارٍ حدثي تتواصل فيه الصّلة بين المُحبّين وتتقطّع، إلى حدّ حدوثِ النّهاية المُساوية من فراقٍ فموتٍ للعاشقين وجداً وحُباً.

وتكون أغلب هذه الحكايات استطراداً عن حكاية أصل، أو عن حكاية إطار يدخل فيها الرّواية، ويستطرد بمتفرقة من

(1) م. ن. ص 198 وما بعدها.

الحكايات التي تضبطُ نَسَبًا أو تذكر حكاية تَسْمِيَةَ مَكَانٍ، وقِصَّةُ العِشْقِ آنفة الذكر هي استطراد عن سؤالِ تَسْمِيَةِ مَكَانٍ. ويُمكن أن نقف على شاهدٍ مُبينٍ، في قول ابن مُنَبِّه بداية دخوله في سرِّد الحكاية العِشْقِيَّة:

«ثُمَّ قَالَ لِي: يَا بُنَيَّ أَتَدْرِي لِمَ سُمِّيَ هَذَا الْمَوْضِعُ مَوْطِنَ الْمَوْتِ؟ قُلْتُ لَهُ: لَا، قَالَ لِي: أَتَدْرِي لِمَ سُمِّيَ جَبَلُ مَكَّةَ أَبَا قُبَيْسٍ؟ قُلْتُ لَهُ: لَا، قَالَ لِي: أَتَعْرِفُ مَوْضِعًا يُقَالُ لَهُ الدَّارُ؟ قُلْتُ لَهُ: نَعَمْ. قَالَ: أَتَدْرِي لِمَ سُمِّيَ (الدَّارُ) قُلْتُ: لَا، قَالَ: أَتَعْرِفُ مَوْضِعًا يُقَالُ لَهُ (الْجَارُ)؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَتَدْرِي لِمَ قِيلَ لَهُ الْجَارُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ لِي: نَعَمْ يَا بُنَيَّ، إِنَّهُ لَمَّا شَبَّ مُضَاضُ ابْنُ أَخِي عَمْرٍو الْمَلِكُ لَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ وَلَا مَا وَالَاهَا أَجْمَلَ مِنْهُ، وَإِنَّهُ كَانَ مِنْ بَنَاتِ عِمَّةٍ مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ جَارِيَّةً تُسَمَّى مَيَّا ابْنَةُ مَهْلِيلِ بْنِ عَامِرٍ صَاحِبِ الشَّعْبِ، وَكَانَتْ مَعَهُ فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ، وَكَانَتْ أَجْمَلَ مَنْ رَأَتْهُ الْعُيُونُ، فَفُتِنَ بِهَا وَفُتِنَتْ بِهِ، وَشَبَّ مَعَهَا، وَشَبَّتْ مَعَهُ فِي حَيٍّ وَاحِدٍ، وَصَانَ مِثْرَهُ عَنْهَا، وَكَانَ ذَلِكَ خِيْفَةَ الطَّعْنِ فِي الْمَلِكِ، فَلَمَّا بَلَغَ بِهِمَا الْهَوَى مَبْلَغُهُ وَحَذِرَا مِنْ الْفَضِيحَةِ أَوْ السَّقَمِ وَالْمَوْتِ، بَعَثَا إِلَيَّ فَشَكَوَا مَا نَزَلَ بِهِمَا مِنْ شَوْقٍ بَعْضُهُمَا إِلَى بَعْضٍ، فَأَرْسَلْتُ إِلَى مَهْلِيلِ بْنِ عَامِرٍ بَنِ عَمْرٍو وَأَعْلَمْتُهُ مَا كَانَ مِنْهُمَا، فَقَالَ لِي: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْتَ وَلِيُّهُمَا، أَفْعَلْ بِهِمَا بِرَأْيِكَ، وَرَوِّجْهَا مِنْهُ، وَقَدْ هَجَمَ عَلَيْنَا الشَّهْرُ الْأَصَمُّ رَجَبٌ، وَكُنَّا لَا نُحَدِّثُ فِيهِ حَدَثًا غَيْرَ الْعُمَرَةِ وَالطَّوَافِ حَتَّى يَنْسَلِخَ، قُلْتُ لَهُ: يَا مَهْلِيلُ يَنْصَرِفُ رَجَبٌ وَأَفْعَلُ»⁽¹⁾.

(1) م. ن. ص - 198 199.



تتطَلَّقُ الحكايةُ وفقًا لهذه الأَرْضِيَّةِ التي تبدو فَوَاتِحُهَا سِلْسَلَةً، لا تَعْقُدُ فيها ولا تَأَزَّم، غير أنَّ العارضَ، هو دخول عاملٍ مُرَبِّكِ للمسارِ الحدَثِيِّ السَّلْسَلِ، فتتَأَزَّم الصَّلَّةُ بين الراغِبَيْنِ المُتَحَابِّينِ، إلى حدِّ بلوغِ الموتِ حزنًا وألمًا وفرطَ عِشْقٍ، وتُعَدُّ الحكايةُ أصلًا متح منه رُؤَاةِ الحكاياتِ الغزليَّةِ المُكوِّنِ الرئيسِ للقِصَّةِ الغزليَّةِ التي عُرِفَ بها العربُ، والتي مثَّلت زائدًا أدبيًّا ثريًّا، هذا المكوِّنُ الحكائيَّ القائم على:

- وقوع الحبِّ واتِّصالِ المحبوبَيْنِ.
- دخول الكاشح وإفسادُ العلاقة.
- حصول الألم والتباعد والفرقة.
- الموت.

فندركُ أنَّ الخبرَ وإن انطلق من مقامِ البحثِ عن اسمِ المكانِ إلَّا أنَّ الأصلَ فيه هو الدخولُ في حكايةِ العاشِقَيْنِ، وبيان ما حُصِّلَ لهما، وهي قِصَّةٌ تدخلُ في بابِ التسليةِ وتتَّصلُ مقصدًا بالإمتاعِ.

خُلَاصَةُ الرَّأْيِ أَنَّ كِتَابَ التَّيْجَانِ فِي مُلُوكِ حَمِيرٍ لَيْسَ فَحَسَبَ كِتَابًا لَضَبْطِ تَارِيخِ الْيَمَنِ وَقِصِّ حِكَايَاتٍ مِنْ حَكْمُوها، وَإِنَّمَا هُوَ أَيْضًا كِتَابٌ فِي تَأْصِيلِ الْمَهَادِ الْأَوَّلِ لِلْسَرْدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْمَنْشَأُ الْأَصْلِيَّ لِلنَّوَى الْبَاعِثَةَ لِأَصُولِ الْقِصَصِ الْعَرَبِيِّ، الَّذِي نَتَجَّتْ عَنْهُ مَجَالَاتٌ رِوَايِيَّةٌ وَحِكَايِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَابِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ، وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَابِ الْأَنْسَابِ وَمَنَابِتِ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَخَلَ بَعْضُهَا فِي تَأْسِيسِ صُورِ أَبْطَالٍ تَرَسَّخَتْ صُورُهُمُ الْتَخْيِيلِيَّةُ فِي الذَّاكِرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

ووجب علينا أن نفتح باباً أراه على غايةٍ من الأهميَّة في هذا المبحث، وهو أننا واجدون في مرويات وهب بن منبّه، وفي مرويات عُبيد بن شريّة الجُرهمي، أصولاً لنوَى قصصيّة يُتوسّع في عناصرها في لاحق القَصَصِ، وخاصّة في مجالين، الأوّل هو القَصَصُ الشعبيّ الذي عنه نتج كتابٌ صار نموذج القصص الكونيّ، وهو ألفُ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ، ويُمكن أن يشغل الباحثون على عددٍ من الموتيفات القصصيّة المتضامّة أو الأصليّة التي وردت في كتابي الجُرهمي أو ابن منبّه، وبُنيت عليها حكايات متعدّدة وردت في ألف ليلة وليلة، ثمّ يُمكن التفكير أيضاً في طريقة الحكاية التي انتهجها ابن منبّه، وعمد فيها إلى نهج التّضمين القصصيّ، وتوخّى أسلوب الحكاية الإطار التي تتفرّع عنها حكايات متولّدة عنها.

الأمر الثّاني المُلاحظ في باب تأصيل الأصول القصصيّة، هو ضرورة بيان أثر الكاتبين في تحديد المسارات الكبرى لقصص الأنبياء ولقصص الملوك والغابرين، وأبطالٍ لا ظلّ لوجودهم سوى الحكاية أو إشارات واردة في الكتب الدينيّة. أمّا المسألة الأخيرة، فهي توجيه كتابيّ ابن منبّه والجُرهمي النّسابين العرب في ضبط الأنساب البعيدة، الضّاربة في التّاريخ، فلهما القدرة على تأليف الأنساب رجوعاً إلى آدم، المصدر الأوّل للوجود الإنسانيّ، أو إلى نوح، وهو في التّصوّر القصصيّ الأصل الثّاني للكون بعد إفناؤه بواسطة الطّوفان الذي أنهى الوجود ولم يُبقِ إلّا أصحاب السّفينة، الذين لم يُنتج من البشر فيهم إلّا نوح، ومثال هذه الدقّة في ضبط الأنساب، قوله:

«قَالَ وَهَبُ: أَقَامَ الْمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ عَامًا وَقَالَ بَعْضُ
الرُّوَاةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ السَّمَاءَ فَأَقْلَعَتْ مَاءَهَا، وَأَمَرَ الْأَرْضَ
فَغَاصَتْ مَاءَهَا، وَنَزَلَتْ السَّفِينَةُ بِنُوحٍ عَلَى الْجُودِيِّ فَقَالَ: «بُعْدًا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». قَالَ وَهَبُ: وَعَاشَ نُوحٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ خَمْسَمِائَةَ عَامٍ،
وَأَنَّ السَّبْعِينَ رَجُلًا الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ مَاتُوا بِلَا عَقَبٍ،
وَأَمَّا أَعْقَبُ بَنُو نُوحٍ الثَّلَاثَةُ سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ، فَوَلَدَ سَامٌ ارْفَخَشَدَ
وَأَرَمَ وَبَنِينَ كَثِيرًا دَرَجًا وَدَرَجًا أَبْنَاؤُهُمْ، فَوَلَدَ أَرَمُ: عَوْصٌ فَوَلَدَ عَوْصٌ
عَادَ الْأَكْبَرُ، وَوَلَدَ عَابِرُ بْنُ أَرَمَ فَوَلَدَ عَابِرٌ ثَمُودًا وَطَسَمَ وَوَلَدَ أَرَمُ أَيْضًا
لَاوِي، فَوَلَدَ لَاوِي عِمْلَاقًا وَرِيثًا، وَوَلَدَ أَيْضًا فَارِسًا وَمَارِمًا، فَوَلَدَ فَارِسُ
الْفُرْسَ. وَقَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ أَنَّ طَسَمَ وَجَدِيسَ وَرَايشَ وَعِمْلَاقًا أَوْلَادًا
مِنْ ابْنِ أَرَمَ، فَأَمَّا بَنِي ارْفَخَشَدَ فَهُمْ النَّخْلَةُ، يَعْنِي نَسَبُهُمْ فِي نَخْلَةِ
النَّسَبِ فَأَغْنَى عَنْ أَبْنَائِهِمْ هُنَا وَلَدَ حَامٌ كُوشًا وَمَارِيْعَ، فَوَلَدَ كُوشُ
الْحَبَشَةَ، وَلَدَ لِمَارِيْعَ بْنِ حَامٍ كَنْعَانَ بْنَ مَارِيْعَ بْنِ حَامٍ فَوَلَدَ بَرْبَرُ بْنُ
مَارِيْعَ وَثُوبَةَ بْنَ مَارِيْعَ، وَوَلَدَ حَامٌ قَبْطَ بْنَ حَامٍ وَسَنْدَ بْنَ حَامٍ وَقَوْلَ
ابْنِ حَامٍ وَعَامُورُ بْنُ حَامٍ، وَوَلَدَ يَافِثُ عَجْلَانَ بْنَ يَافِثَ، وَوَلَدَ يَافِثُ
عُوجَانَ بْنَ يَافِثَ وَبُرْجَانَ بْنَ يَافِثَ، فَوَلَدَ عَجْلَانُ بْنُ يَافِثَ يَاجُوجَ
وَمَاجُوجَ وَالتُّرْكَ وَالْخَزَرَ أَوْلَادَ عَجْلَانَ بْنِ يَافِثَ، وَوَلَدَ عُوجَانُ بْنُ
يَافِثَ صَقَالِبَ بْنَ عُوجَانَ وَسَكْسَ بْنَ عُوجَانَ وَقُوطَ بْنَ عُوجَانَ»⁽¹⁾.

(1) م. ن. ص 32-33.

إنَّ هذا التفصيل الدَّقِيق في ضَبْطِ الْأَنْسَابِ، هو تفصيلٌ تخييليٌّ، داخلٌ في النَّسَقِ السَّرْدِيِّ، ضمنَ مقامٍ عربيٍّ ينصرف إلى تَتَبُّعِ الْأَنْسَابِ، فلا يَهْنَأُ سَامِعُ الْقَصَصِ دُونَ أَنْ يَكُونَ الْوَضْعُ الرَّئِيسُ لِلْحِكَايَةِ قَائِمًا عَلَى وَضْعِ الشَّخْصِيَّةِ فِي نِطَاقِهَا نِسْبَةً وَانْتِسَابًا، وَعَلَى ذَلِكَ كَانَ مَقَامُ النَّسَبِ مَقَامًا مَنَشِئًا لِلْأَخْبَارِ، مَوْلِدًا لِلْحِكَايَاتِ فِي الْكِتَابَةِ النُّثْرِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَصَنَّفَتْ وَفَقًّا لِهَذِهِ الْأَرْضِيَّةِ مُصَنَّفَاتٌ اخْتَصَّتْ بِحِكَايَاتِ الْأَنْسَابِ.





سردُ الأنساب

النَّسَبُ مجالٌ وسيعٌ للكتابة النثرية في تراث شبه الجزيرة العربية، ويمكن أن نقول باطمئنان إنَّ الثقافة العربية تفرَّدت بالضبط الوسيط للأنساب، وقد اشتهر في هذا الباب رُواة تخصصوا في تتبع أنساب العرب، وسادت هذه الظاهرة، حتَّى يكاد لا يخلو كتابٌ في الأخبار أو في التعريفات أو في التاريخ من ضبطٍ وجيزٍ أو مديدٍ للأنساب. والانصراف إلى الكتابة في الأنساب وتتبعها داخلٌ في ثقافة عامَّةٍ في شبه الجزيرة العربية تعنى بتتبع المنابت، وبالاتساب، وبالحاق الفروع إلى أصولٍ تعودُ إليها وترجعُ.

ولا ريبَ أنَّ ضبطَ النسب قد نشط في تاريخ التأليف العربيِّ بعد أن داخلت العرب قوميات أخرى وأعراقٌ مختلفة، اندمجت في الحضارة العربية، وتكلَّمت لسانها وانتسبت إلى قبائلها. إضافةً إلى ميلٍ عربيٍّ إلى تصنيف القبائل العربية، وبيان سُلالاتها، وفقًا لمرجعية دينية غالبية تردُّ سُكَّانَ شبه الجزيرة العربية إلى شجرة الأنبياء، كما كان للوضع السياسي الجديد في شبه الجزيرة العربية بعد سيادة الإسلام، وقيام العرق العربيِّ على نشر الدَّعوة وإقامة دولة الإسلام الأثر البين في ضبط الأنساب والتشجيع على تدوين

ذلك، في توطين القبائل وتمصير الأمصار في البلاد المفتوحة، وفي توزيع العطايا والهبات، وفي تجنيد الجيوش، على ضرورة ضبط الأنساب في تحديد الصدقات بعد أن أقام عمر بن الخطاب ديوان الصدقات.

وقد زادت الظاهرة تمثُّلاً وتأصُّلاً بوجود أحاديث وأقوالٍ ماثورةٍ تحتُ على بيان النسب والخوض فيه، من ذلك ما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قوله حاثاً على تبين الأنساب وضرورة تعلُّمها، «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صَلَاةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الْأَثَرِ»⁽¹⁾ وأثر عنه قوله أيضاً «اعْرِفُوا أَنْسَابَكُمْ تَصِلُوا أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّهُ لَا قُرْبَ بِالرَّحِمِ إِذَا قُطِعَتْ، وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبَةً، وَلَا بُعْدَ مَا إِذَا وُصِلَتْ، وَإِنْ كَانَتْ بَعِيدَةً»⁽²⁾، أو قوله «إِنَّ الرَّحِمَ شَجَنَةٌ مِنَ الرَّحْمَانِ تَقُولُ: يَا رَبِّ إِنِّي قُطِعْتُ إِنِّي أَسِيءُ إِلَيْكَ يَا رَبِّ فَيُجِيبُهَا رَبُّهَا فَيَقُولُ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ وَأَقْطَعَ مِنْ قَطْعِكَ»⁽³⁾.

وهذه أَرْضِيَّة هَامَّة لتسوية الدُّخول في ضبط الأنساب والتوسُّع في تدقيقها. فبرزت نتاج ذلك طائفة من العلماء عملوا

(1) ابن حنبل (أحمد): المُسْتَدْرَك، شرح حمزة أحمد الزين، (دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى 1995)، ج 9، ص 30، رقم الحديث 8854.

(2) النيسابوري (الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم): المُسْتَدْرَك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2002)، ج (4)، ص 178، حديث رقم 44/7283.

(3) م.ن. ج (4) ص 179، حديث رقم 48/7287.

على تدوين أنساب القبائل، واستندوا إلى طبقةٍ من النسابين الذين نُقلت عنهم مروياتهم الشفوية في النسب، منهم «دَعْفَلُ بْنُ حَنْظَلَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ الدُّهْلِيِّ الشَّيْبَانِيِّ: نَسَابَةُ الْعَرَبِ، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي مَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ، قَالَ الْجَاحِظُ: «لَمْ يُدْرِكِ النَّاسُ مِثْلَهُ لِسَانًا وَعِلْمًا وَحِفْظًا»، قِيلَ: اسْمُهُ حَجَرٌ وَلَقَبُهُ دَعْفَلٌ. وَقَدْ عَلَى مُعَاوِيَةَ فِي أَيَّامِ خِلَافَتِهِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِيَّةِ، وَعَنْ أَنْسَابِ النَّاسِ وَعَنِ النُّجُومِ، فَأَعْجَبَهُ عَمَلُهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَلَّى تَعْلِيمَ ابْنِهِ يَزِيدَ، فَفَعَلَ. وَغَرِقَ يَوْمَ دَوْلَابٍ (بِفَارِس) فِي وَقْعَةٍ مَعَ الْأَزَارِقَةِ»⁽¹⁾، وَالنَّحَّارُ بْنُ أَوْسٍ بْنُ أَبِي الْعُدْرِيِّ، «وَكَانَ عَلَّامَةً بِالْأَنْسَابِ، حَتَّى قَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ: «كَانَ أَنْسَابُ الْعَرَبِ» وَأَخَذَ عَنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ السَّائِبِ الْكَلْبِيُّ: نَسَبَ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، وَهُوَ مِمَّنْ اسْتَوْفَدَهُمْ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»⁽²⁾، وقبل ذلك اشتهر عددٌ ممن عُدُّوا مراجع في التثبت من الأنساب، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعقيل بن أبي طالب وجُبَيْرُ بْنُ مُطْعَمٍ وأبو الجهم عامر بن حذيفة.

كلُّ هؤلاء كان لهم الفضل في تمهيد الأرضية الأولى لظهور مدوناتٍ واسعةٍ تختصُّ بالأنساب، بدأ تدوينها منذ منتصف القرن الثاني للهجرة مع علمٍ له الأيادي الحسان في صناعة الأخبار، وله السبق في تدوين الأنساب، وهو هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 204 هـ)، وصحبه في هذا الفضل فريقٌ من المؤلفين الذين

(1) الزركلي (خير الدين): الأعلام، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، 2002)، ج (2) ص 340.

(2) أبو زيد (بكر): طبقات النسابين، (دار الرشيد، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى 1987)، ص 21.

وهبوا حياتهم للتأليف في الأنساب، تتبَّعًا لِنَسَبِ قَبِيلَةٍ بَعِينَهَا، أَوْ تَقْصِيًّا لِأَنْسَابِ الْعَرَبِ عَامَّةً، وَمِنْهُمْ مُؤَرِّجُ بَنِ عَمْرُو السَّدُوسِيِّ وَوَهَّابُ بَنِ مَنبَّهِ الْقُرْشِيِّ، وَالْقَاسِمُ بَنِ سَلَامٍ، وَمَصْعَبُ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ الزَّيْيرِيِّ، وَالزَّيْبِيرُ بَنِ بَكَّارٍ، وَابْنُ حَزْمِ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَيُوسُفُ بَنِ عَبْدِ الْبَرِّ النَّمَرِيِّ، وَابْنُ قُدَامَةَ الْمَقْدِسِيِّ، وَغَيْرُهُمْ كَثُرَ فِي مَرَاكِلِ مُخْتَلَفَةٍ مِنَ تَارِيخِ الْكِتَابَةِ فِي الْأَنْسَابِ.

وَلَقَدْ تَخَيَّرْنَا لِبَيَانِ مَنْزِلَةِ النِّثْرِ مِنَ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ كِتَابَ نَسَبِ قُرَيْشٍ لِمَصْعَبِ الزَّيْيرِيِّ⁽¹⁾، وَكِتَابَ الْأَنْسَابِ لِأَبِي الْمُنْذِرِ سَلَمَةَ بَنِ مُسْلِمِ الْعُوتَبِيِّ الصُّحَارِيِّ، وَاخْتِيَارْنَا رَاجِعًا إِلَى عَامِلِينَ الْأَوَّلِ هُوَ انْتِسَابُهُمَا إِلَى شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْعَامِلِ الثَّانِي رَاجِعٌ إِلَى مَنْزِلَةِ الْكِتَابِينَ فِي تَارِيخِ الْمَوْئَلَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ، إِذْ يُعَدُّ كِتَابُ الْمَصْعَبِ مَصْدَرًا أَوَّلِيًّا مِنْ مَصَادِرِ الْأَنْسَابِ الْخَاصَّةِ، الَّتِي اِهْتَمَّتْ بِنَسَبِ قَبِيلَةٍ فَحَسَبَ، وَيُعَدُّ كِتَابُ الْعُوتَبِيِّ مَصْدَرًا لِمُطْلَقِ النَّسَبِ الْمَوْصُولِ بِوَفْرَةِ الْقَصَصِ.



(1) «الزَّيْيرِيُّ (أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَصْعَبُ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمَصْعَبِ): كِتَابُ نَسَبِ قُرَيْشٍ، تَعْلِيْقٌ وَتَصْحِيْحٌ: لِإِبْنِ بَرُوفْنَسَالٍ، (دَارُ الْمَعَارِفِ، الْقَاهِرَةُ، الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ، 1982).



نَسَبُ الْقَبِيلَةِ وَنَدْرَةُ الْقَصَصِ.

يُعَدُّ كِتَابُ الْمُصْعَبِ الزُّبَيْرِيِّ نَسَبَ قَرِيشٍ مِنْ أَوَائِلِ كِتَابِ الْأَنْسَابِ، وَمِنْ الْمَصَادِرِ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا النَّسَابُونَ اللَّاحِقُونَ، وَاتَّخَذُوهُ هَدًى وَهَدًى، إِذْ انْصَرَفَ فِيهِ صَاحِبُهُ إِلَى قَرِيشٍ يَحِيلُ قِبَائِلَهَا وَأَفْخَاذَهَا وَبُطُونَهَا وَعَشَائِرَهَا إِلَى أَصُولِهَا الْأُولَى الَّتِي عَنْهَا نَبَتَتْ. وَمُصْعَبُ الزُّبَيْرِيِّ هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُصْعَبِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، مِنْ مَوَالِيدِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ تَقْرِيبًا سَنَةَ 156هـ، وَهُوَ مِنْ سُلَالَةِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، شَاعِرٌ وَمُحَدِّثٌ ثَقَّةٌ، وَاشْتَهَرَ بِكِتَابِ النَّسَبِ، وَهُوَ عَمُّ الرَّأْيَةِ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ الَّذِي كَانَ يُكْثِرُ الْإِسْتِنَادَ إِلَى عَمِّهِ مُصْعَبٍ فِي أَخْبَارِهِ وَأَنْسَابِهِ. وَقَدْ نَزَلَ مُصْعَبُ الزُّبَيْرِيُّ إِلَى الْعِرَاقِ رَاوِيَةً، نَسَابَةً، تَتَلَمَّذَ عَنْهُ عَدَدٌ مِنَ الرُّوَاةِ⁽¹⁾. وَقِيمَةُ كِتَابِهِ تَمَثَّلُ فِي أَنَّهُ لَا يَقْصِرُ الْحَدِيثُ فِي النَّسَبِ عَلَى تَتَبُّعِ السُّلَالَةِ أَصْلَهَا وَمُنْبَعِهَا وَمُنْبَتِهَا، وَإِنَّمَا يَرْفُدُ حَدِيثَ النَّسَبِ بِأَخْبَارٍ دَاعِمَةٍ سَانِدَةٍ مَبِينَةٍ عَنِ النَّسَبِ، فَيَتَحَوَّلُ مِنْ ضَبْطِ النَّسَبِ إِلَى حِكَايَةِ النَّسَبِ، يُصْبِحُ النَّسَبُ قِصَّةً وَحِكَايَةً، وَمُنَاسِبَةً لِإِيرَادِ أَخْبَارٍ وَوَقَائِعٍ وَأَحْدَاثٍ.

(1) ابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، (دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994)، ص 140.

يَرُدُّ مُصْعَبُ الزُّبَيْرِيِّ الْعَرَبَ - عَلَى هَيْئَةِ عَامَّةِ النَّسَابِينَ - إِلَى أَصْلَيْنِ كَبِيرَيْنِ، وَهُمَا «الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ، وَهُمْ الْقَحْطَانِيُّونَ، وَالْعَرَبُ الْمُسْتَعْرِبَةُ، وَهُمْ الْعَدْنَانِيُّونَ، فَجَمِيعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْبَاقِيَةِ تَرْجِعُ عَنْدهُمْ إِلَى أَحَدِ أَصْلَيْنِ كَبِيرَيْنِ هُمَا عَدْنَانُ وَقَحْطَانُ. وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ يَتَفَرَّعُ إِلَى قَبَائِلَ وَبُطُونٍ وَأَفْخَاذٍ وَعَشَائِرٍ وَفَصَائِلَ. وَعَدْنَانُ يَتَفَرَّعُ إِلَى جِذْمَيْنِ كَبِيرَيْنِ هُمَا مُضَرٌّ وَرَبِيعَةٌ، وَقَحْطَانُ يَتَفَرَّعُ كَذَلِكَ إِلَى جِذْمَيْنِ كَبِيرَيْنِ هُمَا: كَهْلَانُ وَحِمَيْرٌ»⁽¹⁾.

ولذلك انطلق في ضبطه للنسب من معهود الأصل، إرجاعاً لقريش -وهي القبيلة التي يدخل في تتبع نسبها- إلى أصلها العدناني. ورد في مستهل الكتاب قوله:

«أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى بْنِ جَمِيلِ الْأَنْدَلُسِيِّ بِمِصْرَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ زُهَيْرِ بْنِ حَرْبٍ بْنُ شَدَّادِ النَّسَائِيُّ الْبَغْدَادِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ أَبِي حَيْثَمَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ، وَقَرَأَ عَلَيَّ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شِهَابٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ

(1) العوتبي الصُّحَارِي (أبو المنذر سلمة بن مسلم): الأنساب، تحقيق: محمد إحسان النص، (مطبعة الألوان الحديثة، الطبعة الرابعة 2006)، توطئة إحسان النص «توطئة في علم النسب ومكانته عند العرب»، ص 6.

الزُهْرِيُّ: مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ بْنِ أَدَدِ بْنِ الْمَيْسَعِ بْنِ أَشْجَبِ بْنِ ... نَابِتِ
ابن قَيْدَارِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
- قَالَ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْدُ بْنُ عَدْنَانَ بْنِ أَدَدِ بْنِ أَمِينِ بْنِ شَاجِبِ بْنِ
نَبْتِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَثْرِ بْنِ بَرِيحِ بْنِ مَخْلَمِ بْنِ الْعَوَامِ بْنِ الْمُحْتَمَلِ
بِْنِ دَائِمَةَ بْنِ الْعَقِيَّانِ بْنِ عَلَّةَ بْنِ مَجْدَرِ بْنِ .. بِنِ عَامِرِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
بِْنِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ يَزْنَ بْنِ أَعْوَجَ بْنِ الْمُطْعَمِ بْنِ الطَّمَحِ بْنِ الْقُسُورِ بْنِ
عَثُودِ بْنِ دَعْدَعِ بْنِ مَحْمُودِ بْنِ الرَّائِدِ بْنِ نَدَوَانَ بْنِ أَبَابَةَ بْنِ دَوْسِ
ابن حِصْنِ بْنِ النَّزَالِ بْنِ الْقُمَيْرِ بْنِ الْمُجْشَرِ بْنِ مَعْدَرِ بْنِ صَيْفِي بْنِ
نَبْتِ بْنِ قَيْدَرِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ دَبِيحُ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ. قَالَ أَبُو
عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَيْرِيُّ: وَأَجْمَعَ أَهْلُ النَّسَبِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ، أَنَّ إِبْرَاهِيمَ
ابنِ آزَرَ بْنِ التَّاجِرِ بْنِ الشَّاجِعِ بْنِ الرَّاعِي بْنِ الْقَاسِمِ -الذي قَسَمَ
الأَرْضَ بَيْنَ أَهْلِهَا- بِنِ يَعْبُرِ بْنِ السَّائِحِ بْنِ الرَّافِدِ بْنِ السَّائِمِ، وَهُوَ
سَامٌ، بِنِ نُوحِ بْنِ نُوحِ بْنِ اللَّهِ، بِنِ قَنَانَ بْنِ الطَّاهِرِ بْنِ هَبَةَ اللَّهِ بْنِ شَيْثِ بْنِ
آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ، وَيُقَالُ: ابْنُ شَاثِ بْنِ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارِحِ بْنِ نَاحُورِ
ابنِ أَسْرَعَ بْنِ أَرْغُو بْنِ فَالِغِ بْنِ عَابِرِ بْنِ شَالِخِ بْنِ أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامِ
ابنِ نُوحِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - بِنِ لَامَكِ بْنِ مُتَوْشَالِخِ بْنِ خَنُوحِ،
وَهُوَ إِدْرِيسُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِنِ يَادِرِ بْنِ هَلِيلِ بْنِ قَنَانَ بْنِ أَنْشِ بْنِ
شَاثِ بْنِ آدَمَ -صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ- قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَيْرِيُّ: وَيَقُولُونَ:
نُوحُ بْنُ لَامَكِ؛ وَيَقُولُونَ قَحْطَانُ ... قَحْطَانُ أَبُو مَنْ يَدْعِي إِلَيْهِ مِنَ
الْيَمَنِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ الْأَسْمَاءَ»⁽¹⁾.

(1) نسب قريش، ص 3-4

تُوحِي بِدَايَةِ الْكِتَابِ بَعْدَةَ مَسَائِلَ مُتَكَرِّرَةٍ فِي أَدَبِ الْأَنْسَابِ بِدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى تَخْتَصُّ بِالْإِسْنَادِ الْمُكْتَفِ الَّذِي اعْتَمَدَهُ رَاوِيَةُ الْكِتَابِ، فَلَمَّا أَنْ نُلَاحِظُ أَنَّ كِتَابَ مُصْعَبِ الزُّبَيْرِيِّ لَمْ يَأْتِ عَنْهُ مَبَاشَرَةً، وَإِنَّمَا حُمِلَ عِبْرَ رُوَاةٍ هُمْ الَّذِينَ أَخْرَجُوهُ، وَرَأْسُهُمْ «مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شِهَابٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤْيٍ بْنِ غَالِبٍ، الْإِمَامُ الْعَلَمُ، حَافِظُ زَمَانِهِ أَبُو بَكْرٍ الْقُرَشِيُّ الزُّهْرِيُّ الْمَدَنِيُّ نَزِيلُ الشَّامِ»⁽¹⁾، وَهُوَ الرَّاوِيَةُ الْمَصْدَرُ الَّذِي اتَّكَأَ عَلَيْهِ مُصْعَبُ الزُّبَيْرِيِّ لِاسْتِقَاءِ مَادَّتِهِ النَّسَبِيَّةِ، وَصُورَتُهُ فِي الْمَنْقُولِ الْأَخْبَارِيِّ صُورَةُ الرَّاوِيَةِ الْعَالِمِ، الْحَافِظِ، الثَّقَةِ، التَّابِعِ، الرَّاويِ عَنِ الصَّحَابَةِ، وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ الْجَهَةَ الْمُتَّكَأَ الَّتِي تَخَيَّرَهَا مُصْعَبٌ هِيَ جَهَةٌ عَارِفَةٌ لَهَا فِي الرَّوَايَةِ أَنْثَرُ وَصِيَّتٌ. فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ الزُّهْرِيِّ أَخَذَ مُصْعَبٌ أَوَّلَ النَّسَبِ وَأَوَّلَ الْعَرَبِ الْعَدْنَانِيَّةِ، وَمَرَجَعَ نَسَبَهَا، وَافْتَتَحَ قَوْلَهُ إِسْنَادًا مُوَافِقًا لِدَارِجِ التَّأْلِيفِ النَّثَرِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ.

غَيْرَ أَنَّ اللَّافْتَ لِلانْتِبَاهِ فِي بَنِيَةِ الْإِسْنَادِ أَنَّ مُصْعَبَ الزُّبَيْرِيِّ لَيْسَ هُوَ آخِرُ قَنَاةِ الْإِسْنَادِ، وَإِنَّمَا هُوَ يَتَّخِذُ مِنْهُ مَوْقِعَ الْوَسَطِ، وَعَنْهُ يَنْقَلُ رُوَاةٌ، أَخْرَجُوا كِتَابَهُ وَحَمَلُوهُ، وَتَنَاقَلُوهُ بِطَرِيقَةٍ يَشْفُ فِيهَا الْإِسْنَادُ عَنِ تَارِيخِيَّةِ تَبَادُلِ الْمَعْرِفَةِ وَتَنَاقُلِهَا فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَالاسْمُ الْأَوَّلُ الَّذِي تَلَقَّى كِتَابَ النَّسَبِ مِنْ مُصْعَبِ الزُّبَيْرِيِّ، هُوَ ابْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ، وَهُوَ مِنَ الرَّوَاةِ الثَّقَاتِ الَّذِينَ

(1) الذهبي (شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1985). 326/5.

أخذوا العلم عن كبار العلماء، وكان والده أبو خيثمة من كبار رُواة الحديث، وأورثه الرواية، بعد أن مكَّنه من أدواتها، و«أحمد بن أبي خيثمة، صاحب «التاريخ الكبير»، الكثير الفائدة. سمع أباه، وأبا نعيم (...) وأممًا سواهم، وهو أوسع دائرة من أبيه. قال الخطيب: كان ثقةً عالمًا متقنًا حافظًا بصيرًا بأيام الناس، راويةً للأدب. أخذ علم الحديث عن أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلم النسب عن مُصعب الزُّبيري. وأخذ أيام الناس، عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني، والأدب عن محمد بن سلام الجمحي. وله كتاب «التاريخ» الذي أحسن تصنيفه، وأكثر فائدته. فلما أعرف أغزر فوائد منه. وذكره الدارقطني، فقال: ثقةٌ مأمون»⁽¹⁾، وعنه نقل الكتاب أبو إسحاق الأندلسي الأموي، وقد «حدث عن: محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وعبد الله بن سلم بن قتيبة بكتبه، وكتب ابن أبي الدنيا، وغير ذلك. روى عنه: النسائي، وأبو سعيد بن يونس. سمع يونس وقال: كتب عنه، وكان ثقةً»⁽²⁾.

وأخيرًا يكون دور الرواية المخرج، آخر الأسماء في تلقي الكتاب، وله الدور الأجل في إخراجه وإتمامه، في عمل يشبه في أيماننا عمل التحقيق، وقد تأدى هذا الدور على يد محمد بن معاوية المعروف بابن الأحمر، وهو من آل أمية، انتسابًا، ومن آل الأندلس سكنًا وإقامةً، وله منزلة هامة في الرواية والدراية،

(1) سير أعلام النبلاء 493/11.

(2) المقدسي (أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد): الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، (الهيئة العامة للغة العربية بطباعة ونشر القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومها، الكويت، الطبعة الأولى 2016)، 179/3.

وهو الجهة التي أخرجت كتاب مُصْعَب الزُّبَيْرِي، ومثلت الطَّرَف المتعهد بالقيام عليه، وقد أوردت المصادر في تعريف ابن الأحمر أنَّه «مُحَدَّثُ الْأَنْدَلُسِ، وَمُسْنِدُهَا الثَّقَةُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْخَلِيفَةِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ الْأُمَوِيِّ الْمَرْوَانِي الْقُرْطُبِيِّ، الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْأَحْمَرِ، مِنْ بَيْتِ الْإِمْرَةِ وَالْحِشْمَةِ. سَمِعَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى وَغَيْرِهِ، وَارْتَحَلَ سَنَةَ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ، فَسَمِعَ مِنْ أَبِي خَلِيفَةَ الْجُمَحِيِّ بِالْبَصْرَةِ، وَمِنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ شَرِيكٍ، وَمُحَمَّدَ ابْنِ يَحْيَى الْمَرْوَزِيِّ، وَجَعْفَرَ الْفَرِيَابِيِّ، بِبَغْدَادَ، وَمِنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّسَائِيِّ، وَأَبِي يَعْقُوبَ الْمَنْجَنِيْقِي بِمِصْرَ. وَجَالَ وَوَصَلَ إِلَى الْهِنْدِ تَاجِرًا، وَكَانَ يَقُولُ: رَجَعْتُ مِنَ الْهِنْدِ، وَأَنَا أَقْدَرُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، ثُمَّ عَرَفْتُ وَمَا نَجَوْتُ إِلَّا سَبَاحَةً لَا شَيْءَ مَعِيَ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَجَلَبَ إِلَيْهَا «السُّنَنُ الْكَبِيرُ» لِلنَّسَائِيِّ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَنْهُ، وَكَانَ شَيْخًا نَبِيلًا، ثَقَّةً، مَعْمَرًا»⁽¹⁾.

تلك إذن هي قنوات إنتاج كتاب النَّسَب، ووسائل حملته ونقله، وقد آثرنا الوقوف عليها لبيان جدية الدُّخُولِ فِي هَذَا الْعِلْمِ، وَأَنَّهُ يَكَادُ لَا يَخْتَلِفُ عَنْ رِوَايَةِ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ، فِي اخْتِيَارِ رِوَاةٍ وَاسْمُوا بِالثَّقَةِ وَالْعِلْمِ، وَوَقَرَةِ الرِّوَايَةِ.

المسألة الثانية تختص بالاستهلال بالانتساب إلى معدِّ بن عدنان، وهو الأصل الذي تُرَدُّ إِلَيْهِ الْعَرَبُ الْمُسْتَعَرِبَةُ، الَّتِي تَفْخَرُ بِأَنَّهَا مِنْ سُلَالَةِ النَّبَوَّةِ وَأَنَّ جَدَّهَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِذَلِكَ

(1) سير أعلام النبلاء. ج 16 ص 68.

لاحظنا عودةً مديدةً بالنَّسبِ بلوغاً إلى إسماعيل ثمَّ إبراهيم عليهما السَّلام، ويؤكدُ الرَّأْيُ أَنَّ أَهْلَ النَّسَبِ يُجْمَعُونَ عَلَى هَذَا التَّسْلُسِ الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ. وَالْمُلَاحَظَةُ فِي رَدِّ أَهْلِ قُرَيْشٍ إِلَى إِسْمَاعِيلَ إِثْبَاتٌ لِسُلَالَةِ النَّبُوَّةِ الَّتِي انْقَطَعَتْ عَنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ إِلَى أَنَّ ظَهَرَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْمُلَاحَظَةُ أَيْضًا إِظْهَارُ هَذَا التَّنَازُعِ الضَّارِبِ فِي عُمُقِ التَّأْرِيخِ بَيْنَ الْعَرَبِ الْعَرَابَةِ الَّتِي أُوجِدَتْ أَنْسَابُهَا، وَتَخَصَّصَ نَسَابُونَ فِي تَتَبُّعِ أَصُولِهَا الْيَمَنِيَّةِ الْقَحْطَانِيَّةِ، وَالْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ الَّتِي أُوجِدَتْ هِيَ أَيْضًا رِوَاةً أَنْسَابُهَا الَّذِينَ قَصُّوا حِكَايَاتِ سُلَالَتِهَا الَّتِي أَرْجَعُوهَا إِلَى مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ الْجَدِّ الثَّاسِعِ عَشَرَ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

المَسْأَلَةُ الْآخِرَةُ تَظْهَرُ فِي حِرْصِ مُصَنِّبِ الرُّبَيْرِيِّ عَلَى الْوَصُولِ بِنَسَبِ قُرَيْشٍ إِلَى أَصْلِ الْبَشَرِيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَعَ التَّدْقِيقِ فِي شَجَرَةِ النَّسَبِ، وَبَيَانِ الْإِجْمَاعِ فِيهَا وَالْخِلَافِ، وَالتَّلَقُّاطِ مَعَ الْمَرْجِعِيَّةِ التَّوْرَاتِيَّةِ فِي عِدَدٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَجْدَادِ، وَهُوَ أَمْرٌ جَدِيرٌ بِالدِّرَاسَةِ، حَوْلَ الْأَثَرِ التَّوْرَاتِيِّ فِي ضَبْطِ الْأَنْسَابِ الْعَرَبِيَّةِ، مَعَ مَجْهُودِ عِدَدٍ مِنَ الرُّوَاةِ إِلَى إِعْمَالِ أَسْمَاءِ عَرَبِيَّةٍ يُزَجُّ بِهَا فِي شَجَرَةِ النَّسَبِ، لَمْ تَكُنْ بِالْأَسْمَاءِ الْمَأْلُوفَةِ قَبْلَ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، عَلَى شَاكِلَةِ «الطَّاهِرِ»، «هَبَةُ اللَّهِ»، «الْقَاسِمِ»، «ابْنِ الْعَوَّامِ».

يُنْصَرَفُ إِذَنْ، كِتَابُ «نَسَبُ قُرَيْشٍ» إِلَى الْاِقْتِصَارِ عَلَى شَجَرَةِ نَسَبِ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ، أَبْنَاءَ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ، غَيْرَ أَنَّ الْمُلَاحَظَةَ أَنَّ النِّسَابَةَ لَا يَقْصُرُ النَّسَبُ عَلَى الْأَبَاءِ، بَلْ يَهْتَمُّ أَيْضًا بِتَسْمِيَةِ الْأُمَّهَاتِ وَالزَّوْجَاتِ، فَلِلنِّسَاءِ فِي الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَثَرٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُغَيَّبَ فِي

النَّسَب، وهو أثرٌ فاعلٌ ومحددٌ في أحيانٍ كثيرة، ويمكن أن نُمثِّل على هذه الظاهرة المتكررة التي تُظهِر منزلة المرأة الأم والزوجة والخلف أيضاً، بهذا الشاهد الوارد في كتاب «نسب قريش»، في بيان سُلالة الرَّسول مُحَمَّد القريبي، وضبط مختلف فروعها، يقول مُصعب الزبيري: «قَوْلَدَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، عَبْدَ اللَّهِ، أَبَا رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبَا طَالِبٍ، واسمُهُ عَبْدُ مَنْأَفٍ؛ والزُّبَيْرُ؛ وَأُمُّ حَكِيمِ الْبَيْضَاءِ، وَهِيَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا «الْحَصَان»، وَهِيَ تَوَّامَةُ أَبِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ وَعَاتِكَةُ؛ وَمَرَّةٌ؛ وَأُمَيَّةٌ؛ وَأَرْوَى؛ أُمُّهُمْ: فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرٍو بْنِ عَائِذٍ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْرُومٍ؛ وَأُمُّهَا: تَحْمُرُ بِنْتُ عَبْدِ بْنِ قُصَيٍّ؛ وَأُمُّهَا: سَلَمَى بِنْتُ عَامِرَةَ ابْنِ عُمَيْرَةَ بْنِ وَدِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ؛ وَأُمُّهَا: فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عُذْوَانَ؛ وَهُمْ خُلَفَاءُ فِي هَذَيْلٍ؛ وَحَمْرَةَ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ وَالْمَقُومُ؛ وَحَجَل، واسمُهُ الْمُغِيرَةُ؛ وَصَفِيَّةٌ، وَأُمُّهُمْ: هَالَةُ بِنْتُ أَهْيَبِ بْنِ عَبْدِ مَنْأَفِ بْنِ زُهْرَةَ، وَأُمُّهَا: الْعَبْلَةُ بِنْتُ الْمُطَّلِبِ ابْنِ عَبْدِ مَنْأَفِ بْنِ قُصَيٍّ، وَأُمُّهَا: حَدِيجَةُ بِنْتُ سَعِيدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَهْمٍ، وَأُمُّهَا: أُمُّ الْخَيْرِ بِنْتُ سَعِيدِ بْنِ سَهْمٍ، وَأُمُّهَا: عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وَأُمُّهَا: رَيْطَةُ بِنْتُ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مَرَّةٍ، وَأُمُّهَا: نَائِلَةُ بِنْتُ حُذَافَةَ»⁽¹⁾.

إنَّ حضور المرأة في مصنَّفات النَّسَبِ يُمثِّل ظاهرةً نافيةً لفكرةٍ سائدةٍ في وَسْمِ الحضارة العربيَّةِ بأنَّها حضارةٌ ذكوريَّةٌ لا منزلةً ولا مكانةً للمرأة فيها، ففي كُتب النَّسَبِ تحضُر المرأة قيمةً ثابتةً

(1) «نسب قريش»، ص 17.

فاعلةً في توجيه النسب وتحديد.

إنَّ خطَّةَ الكتابة في النسب لا تقصِّر الأمر على ذكر السُّلالة وبيان الأصول والفروع الممكنة، بل إنَّ النسب يتحوَّل إلى حكايةٍ، إلى قصَّةٍ تروى النسب، استطرادًا أو بيانًا لمختلفٍ فيه، أو احتجاجًا لنسبٍ فيه آراءٌ متباينةٌ.

ولعلَّ أهمَّ آليَّةٍ يعتمدُها الرُّواة مدخلًا إلى ولوج القصص هي الاستطراد، إذ يروى النسابة وقائع أو أحداثًا تُوظَّف في مقام النسب، ويخرُج بها إلى ذكرٍ حدِّثٍ يعلِّق بالشَّخصيَّة التي يضبط نسبها أو يضيءُ منها جوانبَ تبدو غامضةً، أو يمتنُّ فكرةً ثابتةً، من ذلك -مثلاً- أنَّ مُصعب الزُّبيريَّ في إطار ذكره لخلف فاطمة بنت الرُّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، يستطرد بخبرٍ يقول فيه: «وذكر لي عن عبد الله البهِّي مولى آل الزُّبير، قال: تذكَّرنا مَنْ أشبه النَّاس بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، فدخَلَ علينا عَبْدُ اللهِ بن الزُّبير، فقال: أنا أحدثُكم بأشبهِ أهلِهِ به، وأحبُّهم إليه: الحسنُ بن عليٍّ، رأيته يجيءُ وهو ساجدٌ، فيركبُ رقبته -أو قالَ ظهره، فما ينزلُ حتَّى يكونَ هوَ الذي ينزلُ. ولقد رأيته، وهو راکعٌ فيُضرج بين رجلَيْهِ حتَّى يخرُجَ مِنَ الجَانِبِ الآخر. وقالَ فيه رَسولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم-: « إِنَّهُ رِيحَانَتِي مِنَ الدُّنْيَا. وَإِنَّ ابْنِي هَذَا كَسَيْدٍ، وَعَسَى أَنْ يُصْلِحَ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». وقالَ: «اللهم إني أحبه وأحبُّ من يحبه». وسئلَ الحسنُ: «مَآذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم-؟» قالَ: «سمعتُه يقولُ: «دُعْ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ؛ فَإِنَّ الشَّرَّ رِيَّةٌ، وَإِنَّ الْخَيْرَ طُمَأْنِينَةٌ»، وعقلتُ مِنْهُ أَنِّي بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي

مَعَهُ إِلَى جَنْبِ جَرِينِ الصَّدَقَةِ، تَنَاوَلَتْ تَمْرَةً؛ فَأَلْقَيْتُهَا فِي فَمِي؛
فَادْخَلَ إِصْبَعُهُ، فَاسْتَخْرَجَهَا بِلُعَابِهَا؛ فَأَلْقَاهَا، وَقَالَ: «إِنَّا آلُ مُحَمَّدٍ،
لَا تَحُلْ لَنَا الصَّدَقَةُ»، وَعَقَلْتُ مِنْهُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ؛ وَعَلَّمَنِي كَلِمَاتٍ
أَقُولُهُنَّ عِنْدَ انْقِضَائِهِنَّ: «اللَّهُمَّ اهْدِنَا هَدْيَ هَدَيْتَ، وَعَافِنَا فِيْمَنْ
عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنَا فِيْمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لَنَا فِيْمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنَا شَرَّ مَا
قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَدُلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ
رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ». قَالَ: وَرَوَى ابْنُ عَوْنٍ عَنْ عُمَيْرِ بْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: مَا
تَكَلَّمْتُ أَحَدًا عِنْدِي، كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ إِذَا تَكَلَّمْتُ إِلَّا يَسْكُتُ، مِنْ الْحَسَنِ بْنِ
عَلِيٍّ. وَمَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً فُحْشٍ قَطُّ، إِلَّا مَرَّةً؛ فَإِنَّهُ كَانَ بَيْنَ حُسَيْنِ
ابْنِ عَلِيٍّ وَعَمْرٍو بْنِ عَثْمَانَ خُصُومَةً فِي أَرْضٍ؛ فَعَرَضَ حُسَيْنٌ، وَلَمْ
يُزِضْهُ عَمْرٍو؛ فَقَالَ الْحَسَنُ: «لَيْسَ عِنْدَنَا إِلَّا مَا يُرْغَمُ أَنْفُهُ»، فَهَذِهِ
أَشْرُ كَلِمَةٍ فُحْشٍ سَمِعْتُهَا مِنْهُ قَطُّ»⁽¹⁾.

يُبين هذا النموذج الذي تَخَيَّرناه -وغيره كثير- أَنَّ الرَّأْيِيَّةَ
يَسْتَدِلُّ إِلَى تَتَبُّعِ النَّسَبِ بِكُلِّ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَلْحَقَ بِهِ مِنْ حِكَايَاتٍ
عَالِقَةٍ أَوْ رَائِجَةٍ، تَوْكِّدُ النَّسَبَ أَوْ تَدْعُمُهُ أَوْ تُفَصِّلُهُ، وَلِلرَّأْيِيَّةِ حُرِّيَّةُ
«التَّرْشِيحِ وَالِاخْتِيَارِ»، فَلَمَّا ذَا اخْتَارَ خَبَرَ الْحَسَنِ وَصَلَّتْهُ بِالرَّسُولِ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ أَوْغَلَ فِي ذِكْرِ أَخْبَارٍ عَدِيدٍ عَنِ الْحَسَنِ
وآلِهِ، لَمْ يَكُنِ الرَّأْيِيَّةُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا احْتِجَاجًا وَبَيَانًا أَوْ إِقْنَاعًا
وَإثْبَاتًا، وَدَخَلَ فِي ذِكْرِ تَفَاصِيلِ صَلَةِ الْحَسَنِ بِالرَّسُولِ فِي مَنَاسِبَاتٍ
لَا جَامِعَ بَيْنَهَا، سِوَى إِثْبَاتِ مَنْزِلَةِ الْحَسَنِ مِنَ الرَّسُولِ وَقُرْبِهِ مِنْهُ،
وَتَلَقِّيهِ النَّصْحَ وَالْإِرْشَادَ وَالتَّوْجِيهَ مِنْهُ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّ تَبْيِيرَ الرَّأْيِيَّةِ

(1) م. ن. ص - 23 24

لشخصية الحسن رفعه إلى منزلة المنزهين، الذين لا يصدر منهم السوء ولا فحش القول. وكذا يفعل الراوية مصعب الزبيري، وهو صاحب الرؤية والرأي، يُرشح من أراد من شخصيات النسب لتوسيع مجاله الحكائي، فيخرج بذلك من التحديد الموضوعي للأنساب إلى حكاية الصلات، وتبئير الشخصيات، وجعلها مداراً للأخبار، ومحوراً للسرد.

فالتسبب جالب للحديث النبوي وللسيرة النبوية من جهة، وجالب من جهة ثانية لما يُريد الراوية أن يُوجّه المخاطب إليه من ميل وهوى واعتقاد، ولعل التركيز على شخصية الحسن، هو براءة للذمة ودفع لصورة نمطية تحدّد بها والد مصعب الزبيري، وهي صورة المعادي لآل البيت، إذ يقول صاحب الفهرست في ترجمة مصعب الزبيري: «وكان أبوه عبد الله من أشرار الناس، متحاملاً على ولد علي عليه السلام، وخبره مع يحيى بن عبد الله معروف»⁽¹⁾.

لقد كان كتاب مصعب الزبيري كتاباً في النسب الخالص، تركّز فيه اهتمام الراوية على تتبّع نسب قبيلة قريش التي استمدّت هذه المركزية النسبية من وجود الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فيها، فهو المحور الجاذب المُجَوِّز للدخول في هذا المسار، وهو العامل المُسوِّغ لترشيح قبيلة قريش محور نظري، ولذلك، فقد ردّ الراوية هذه القبيلة إلى أصلها العدناني وضبط أصول الفروع

(1) الفهرست، ص 140.

ومنابتها، وتابع ما نتج عن هذه الفروع من سُلالات باقية إلى عصره، فاستهلَّ خطَّته بِذِكر «نَسَب مَعَدَّ بنِ عَدْنَانَ»، الأصل الذي منه تفرَّعت قُريش، وعمل على بيان «وَلَد مَعَدَّ بنِ عَدْنَانَ»، الذي أنجب نزارًا وقُضاعةً، ووَلَدَ نزارُ مُضَرَ وإياد، ويتواصل ضَبْطُ السُّلالة النَّاتجة عن مَعَدَّ بنِ عدنان حدَّ بلوغ الرِّسول محمَّد وما خلفه من أبناء، ثُمَّ يُفرد الرِّواية البطونَ الكبرى من قريش ويخصُّها بإنزالها منزلتها من عموم النَّسب، لاحقًا وسابقًا، فيُفرد أوَّلًا عبد المطلب بن هاشم والعبَّاس بن عبد المطلب الذي خلف عبد الله بن العبَّاس والد رسول الله، ثُمَّ يكون التركيز على عليِّ بن أبي طالب، نظرًا إلى حصول بقيَّة الرِّسول من التزاوج الذي كان بين عليٍّ وفاطمة ابنة الرسول، ثُمَّ تتوالى البطون القرشيَّة من بعد هذا المهاد النسبي الذي اكتسب الصدارة والتدقيق والتفريع نظرًا إلى منزلة الرِّسول محمَّد الدينيَّة، ليأتي بعد ذلك نسب سائر بني هاشم، ووَلَدَ حربٍ أُمَيَّةً، ووَلَدَ الزبير بن العوام، أو وَلَدَ بني كعب ابن سعد، وبقيَّة الفروع المكوَّنة للنسيج القبلي القرشي.

لقد سلف أن ذكَّرنا إنَّ كتاب نسب قريش هو كتابٌ خالصٌ في النَّسب، تركَّز فيه منظور الرِّواية على ردِّ قبيلة قُريش إلى أصولها وتتبع باقي فُروعها، وبالرغم من توقُّر «حكاية النَّسب» في الكتاب، واستطراد الرِّواية في مناسبات عديدة لإيراد قصص يحكي النَّسب أو بعضًا من متعلَّقاته إلَّا أنَّه لم يُكثر من الأخبار والحكايات والقصص، وإنَّما أوجز واختصر واقتصد إلى الحدِّ الأدنى، ولذلك فإنَّ كتابه اتَّسم ببجملَةٍ من السِّمات الأساسيَّة، هي:

■ التركيز على قبيلة قريش تتبُّعاً لِنَسَبِها وردّاً لها إلى أصولها، وتقصّياً لما تفرّع عنها من فُروع، في رؤية عامّة، منشدةً إلى مقصّدٍ بيّنٍ جليٍّ، هو إعلاءُ قريش بعلّة النُبُوّة.

■ الدُّخُولُ في جدلٍ في أكثر من مناسبة بغاية إسقاط بعض المزاغم النَّسَبِيَّةِ للعرب العاربة اليمنيّة، والسَّعي إلى ردّهم إلى العدنانيّة.

■ قلة القصص والأخبار والتركيز على بيان النَّسب، القائمة أساساً على تبين الأصل، ثم تتبّع المتفرّعات، وذكر الأمّهات والزوجات.

■ التركيز على نسب آل البيت، من سلالة عليّ بن أبي طالب رغم أنّه فرعٌ من بني هاشم، ولعلّ العلّة في إفراده بهذا الشّكل الذي بوّأ آل عليّ منزلةً جاذبةً للأخبار، وللتوسّع في بيان مآثرهم وما آل إليه الأمر في حربهم مع الأمويين، أن تكون راجعةً إلى رغبةٍ في الخروج عن صورةٍ نمطيّةٍ تحدّد بها آل الزُّبير من جهةٍ ووالدُ المُصعب الزُّبيري من جهةٍ ثانية.

■ يفقد الخطاب النَّسَبِيّ موضوعيّته ويدخل في الذاتية وتغليب منظور الرّأوية، فهذا المدخل الدينيّ إضافةً إلى المدخل العرقيّ البائن في الانتصار إلى قريش أوّلًا وإلى العرب المستعربة ثانيًا.

لقد شكَّلَ كتاب نَسَب قُرَيْشٍ، مع مجموعةٍ من المصادر المُجَانِبَةِ والمُشَابِهَةِ، أَرْضِيَّةً أُولَى مَهَّدَتِ السَّبِيلَ لِتَوْسِيعِ حِكَايَاتِ النِّسَبِ الَّتِي تَوَسَّعَتْ أَخْبَارُهَا وَقَصَصَهَا فِي المَصْنُفَاتِ اللاحقة، منها على سبيل المثال كتاب الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ جَمَهْرَةُ نَسَبِ قُرَيْشٍ وَأَخْبَارِهَا⁽¹⁾، ولعلَّ القارئ أن ينتبه يُسَّرِّ إلى أَنَّ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ قد أضاف إلى عنوان كتاب عمِّه مُصْعَبُ الزُّبَيْرِيِّ، الْأَخْبَارَ، فَكَأَنَّ عَتَبَةَ الْعُتُونِ تَشْفُ بِمَا فِي الْكِتَابِ مِنْ تَوَجُّهِ عَنْ تَمَامِ النَّاقِصِ فِي كِتَابِ الْعَمِّ وَهُوَ وَقَرَّةُ الْأَخْبَارِ، ذَلِكَ أَنَّ كِتَابَ الْمَصْعَبِ الزُّبَيْرِيِّ قد اقتصر على تعداد الأنساب وضبطها وبيانها وتفريعها، دون دخولٍ في ما يُمكن أن يحفَّ بهذه الأنساب في إثباتها وبيانها، أو في الإقناع بحدوثٍ وقائعها وصلاتها مِنْ أَخْبَارٍ راجت وتُتَوَقَّلت، وهو الأمرُ الذي خاضت فيه كُتُبُ نَسَبٍ لاحقة، مثل كتاب الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ الذي استند استنادًا كبيرًا إلى عمِّه، وأضاف إليه ما برع هو فيه من تصيُّدِ الْأَخْبَارِ وتلقُّفها. وفعلاً فإننا واجدون في كتاب الزُّبَيْرِ تَوْسُّعًا بَيِّنًا في تناول أخبار الأنساب وروايتها، وهو تَوْسُّعٌ تدعَّم وشكَّلَ فيضًا سرديًا، في كتب أنسابٍ لاحقة، اتَّخَذْنَا منها نموذجًا كتاب العُوتَبِيِّ الصُّحَارِيِّ الْأَنْسَابِ.



(1) ابن بَكَّارٍ (الزُّبَيْرِ الْقُرَشِيُّ الزُّبَيْرِيُّ): جَمَهْرَةُ نَسَبِ قُرَيْشٍ وَأَخْبَارُهَا، تحقيق: عَبَّاسُ هَانِي الْجَرَاخِ، (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2010).



العوتبي الصّحاريّ: النسب مقام للقَصص

كَانَ لِرِزَامًا عَلَيْهِ وَهُوَ ضَابِطُ الْأَنْسَابِ، مُحَدِّدَهَا، أَنْ يَقِفَ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ الْمَفْهُومِيَّةِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ لِمَتَفَرِّعَاتِ وَسَمِ الْأَنْسَابِ وَدَلَالَاتِ الْأَلْفَاظِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْحَدِيثِ عَنِ السُّلَالَاتِ وَالْأَصُولِ، لِبَيَانِ مَعَانِيهَا وَمَخْتَلَفِ الْفُرُوقِ الْقَائِمَةِ بَيْنَهَا. لَقَدْ كَانَ الْعُوتَبِيُّ وَاعِيًا بِأَمْرَيْنِ، وَاعِيًا بِالْحَدِّ الْإِصْطِلَاحِيِّ الْمَحْدَدِ لِلْفَوَارِقِ بَيْنِ مُصْطَلَحَاتِ «عِلْمِ النَّسَبِ»، وَوَاعِيًا بِأَنَّ النَّسَبَ هُوَ قِصَّةٌ تُقْصُّ، وَلَيْسَ شَجَرَةً تُتَبَّعُ فُرُوعُهَا وَأَصُولُهَا خُلُوعًا مِنْ بَيَانِ قِصَّتِهَا الَّتِي فَرَعَتْهَا أَوْ جَمَعَتْهَا. وَعَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ عَمِلَ عَلَى تَفْصِيلِ الْمَهَادِ الْمَفْهُومِيَّةِ الَّتِي يُجْرِيهِ، مُنْطَلِقًا عِلْمِيًّا وَاضِحًا، مُبَيِّنًا الْفَوَارِقَ وَالدَّقَائِقَ الْفَاصِلَةَ بَيْنِ التَّسْمِيَّاتِ الَّتِي تَسَمُّ الْمَجْمُوعَاتِ الْعَرَبِيَّةَ، يَقُولُ: «وَبَدَأُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، بِنَسَبِ كُلِّ أَبٍ إِلَى أَبِيهِمْ دُونَ بَنِي أَعْمَامِهِمْ بِحُسْنِ مُعَاشَرَتِهِمْ. وَقَالَ: لَيْسَ بَعْدَ الْعَشِيرَةِ شَيْءٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ. وَالْعَشِيرَةُ مِثْلُ عَبْدٍ مَنَافٍ، وَالرَّهْطُ مَا دُونَ الْعَشِيرَةِ، وَالْعُصْبَةُ مِنَ الْعَشِيرَةِ إِلَى الْأَرْبَعَةِ، وَالْقَبِيلُ الْجَمَاعَةُ يَكُونُونَ مِنَ الْعَشِيرَةِ فَصَاعِدًا مِنْ قَوْمٍ شَتَّى وَجَمْعٍ، وَالْقَبِيلَةُ بَنُو أَبِي. وَالْحَيُّ، وَحَيُّ الْقَوْمِ أَهْلُهُمْ، وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ الْحَيِّ تَكُونُ أَمْرَأَتُهُ وَأُمُّهُ عَلَى طَرِيقِ الْكِنَايَةِ. وَهَذَا بَابٌ يَطُولُ أَمْرُهُ فَتَرْكُهُ»⁽¹⁾، وَيَسِيرُ

(1) الْأَنْسَابِ، 1/ 183.

الأمر على هذه الشَّكلة تعريفًا وتدقيقًا للال والعِترَةِ والأَرْحَامِ⁽¹⁾. وعلى ذلك فإنَّه يُمكن أن نعدَّ كتاب الأنساب للعُتبي كتابًا هامًّا في تدقيق مصطلحات النَّسب وتوضيحها، وبيان الفوارق بينها، ممَّا يشفُّ عن أَرْضِيَّة مصطلحيَّة ووعي مفهوميٍّ ومنهجٍ دقيقٍ للدُّخول في علمٍ غير دقيق.

يختلف العُتبي ويتميِّز من سائر النَّسابة بعودته إلى الأصول الأولى، فصحيحٌ أنَّه يُركِّز في ضَبْط أنسابه على الأصول العُمانيَّة، غير أنَّ ذلك لم يمنعه من تأصيل نسب الإنس والجنِّ، فمن طرائف كتابه أنَّه يعود بالنَّسب إلى أصل الخلق، إلى اللَّبنة الأولى وتكوُّن الأصول المشكَّلة لعالم الإنسان، تكوُّن البيئة التي هيَّأها الله لحياة الإنسان، تكوُّن الشرِّ في شخص الشَّيطان، تكوُّن الخير في كيان الملائكة، وتكوُّن الجمع بين الخير والشرِّ في هيئة الإنسان.

ثمَّ يتدرَّج في بيان سُلالة البشر الصَّادرة عن آدم حدًّا بلوغ الإشكال الرئيس والخلاف العميق في تفرُّق العرب وانقسام سُلالاتهم إلى عاربةٍ ومستعربةٍ أو قحطانيَّة ونزارِيَّة، وتتَّبَع مصدر التَّقاء المتفرِّقين المنفرَّعين، وفي ذلك آراءٌ واجتهادٌ وأقوالٌ يسند بعضها البعض ويدحض بعضها البعض، فهو يقول في هذا الأمر: «وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ النَّسَبِ: لَا يَلْتَقِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَقَحْطَانُ بْنُ هُودٍ إِلَّا فِي سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَعَلَى هَذَا الْمُعْتَمَدُ مِنَ الْقَوْلِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَلْتَقِي الْيَمَنُ وَنَزَارُ إِلَى أَرْفَخْشَدَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَلْتَقِي قَحْطَانُ وَعَدْنَانُ إِلَى عَابِرٍ وَهُوَ هُودُ نَبِيُّ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ، يَجْعَلُ إِسْمَاعِيلَ وَالِدَ

(1) م. ن. ص.



الْيَمَنَ، وَيَحْتَجُّ بِالْخَبَرِ الْوَارِدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا مِنْ خَزَاعَةَ وَقُضَاعَةَ يَرْمُونَ فَيُجِيدُونَ الرَّمْيَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْمُوا يَا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَقَدْ كَانَ أَبُوكُمْ رَامِيًا. وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمُهُورُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْأَنْسَابِ: أَنَّ إِسْمَاعِيلَ لَمْ يَلِدْ الْيَمَنَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ، يَجْعَلُ إِسْمَاعِيلَ وَالِدًا لِعَدْنَانَ دُونَ قَحْطَانَ، وَعَلَى ذَلِكَ إِجْمَاعُ أَصْحَابِ الْمَعْرِفَةِ بِالْأَنْسَابِ لِلْقَحْطَانِيَّةِ، وَإِلَى قَحْطَانَ جَمَاعُ الْيَمَنِ، فَمَنْ نَسَبَهُ إِلَى إِسْمَاعِيلَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: قَحْطَانَ بْنُ الْهَيْسَعِ بْنِ تَيْمٍ بْنِ نَبْتِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ»⁽¹⁾.

وَمِنْ هَذَا الْمَهَادِ التَّوْضِيحِي الْمُبِينِ لِلأَصْلِينَ الْكَبِيرِينَ لِلْعَرَبِ، الْمُتَنَازِعِينَ فِي النَّسَبِ، يَتَدَرَّجُ الْعُوتَبِيُّ فِي تَتَبُعِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ، وَلَا جَدِيدَ يُوْتَى بِهِ فِي هَذَا الشَّأْنِ سِوَى أَنَّ الْكَاتِبَ يُفْتَحُ شَجَرَةَ النَّسَبِ عَلَى الْحِكَايَاتِ، وَيَقْرَنُ الْأَنْسَابَ بِقِصَصِ تَدْعُمُهَا وَتُوضِّحُهَا، وَعَلَى ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ كِتَابُ الْأَنْسَابِ كِتَابًا فِي الْقِصَصِ، يُجَمِّعُ مَا رَاجَ مِنْ أَخْبَارٍ وَحِكَايَاتٍ عَالِقَةٍ بِنَسَبٍ مَا، وَيَضْبِطُ الْأَوَّلَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَتَتَبُعُ الْأَصُولُ مُرْجِعٌ بِالضَّرُورَةِ إِلَى مَنَابِتِ الظُّوَاهِرِ اللُّغَوِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ وَالسُّلُوكِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، فَأَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ هُوَ يَعْرُبُ بْنُ قَحْطَانَ، وَفَهَّمَهَا النَّاسَ وَعَلَّمَهُمْ إِيَّاهَا، وَذَاكَ هُوَ سَبَبُ وَصْفِهِ بِالْيَعْرُبِ وَالْحَالُ أَنَّ اسْمَهُ الْحَقُّ هُوَ الْمُرْعَثُ، وَمِنْهُ تَفَرَّعَتْ قِبَائِلُ الْيَمَنِ⁽²⁾، وَسَبَّأٌ هُوَ أَوَّلُ «مَنْ سَبَى الْأُمَمَ» وَمِنْ هُنَا تَأْتَى اسْمُهُ، غَيْرَ أَنَّ اسْمَهُ الْحَقُّ هُوَ عَامِرُ بْنُ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ⁽³⁾.

(1) م. ن. 1 / 186.

(2) م. ن. 1 / 190.

(3) م. ن. 1 / 191.

ولعلنا نلاحظ من كل ذلك رغبةً بينةً في اختراع أسماء تدلُّ على صفات الأوليّة، أو إرجاع الأسماء إلى معانٍ دالّةٍ عليها، بلغة العرب، حتّى قبل أن تتكوّن وتتوضّع، وبطبيعة الحال، فإنّ هذا العلم هو مدخلٌ للوضع وأرضيّةٌ لخيالٍ متراكم، كلُّ راويةٍ يُضيف ما بلغه، ويتزيّد ما لم يبلغه، ويبحث عن جَبِّ فراغات الرواية النسيبيّة، وهو أمرٌ موصولٌ في جانبٍ كبيرٍ منه بمقامِ رواية النّسب، الذي قد ينبو عن محض التقيّد التامّ بتسميّة الأصول والفروع، والدّخول في التوضيح المعجمي واللّغوي وفي بيان معاني الأسماء وقصصها أيضاً، ولعلنا نجد في قصّة «الرئيس»، وهو أوّل التّبابعة صورة عن تتبّع الأخبار موازاةً مع تتبّع الأنساب، وهي أخبارٌ تُتَقَصَّى لأوليّتها لا لصدقها أو مطابقتها لواقع التّاريخ، وهذا ما لم يُدرکه عدد هامٌّ من الباحثين الذين صدروا في مباحثهم عن دراسة الأرضيّة التّاريخيّة في كتاب العُتبي، والأقرب إلى طبّع الكتاب، هو دراسة القُدرة التّخيليّة التي يجنح فيها العُتبي إلى تجميع قصصٍ لا يُراد منها التّاريخ، وإنّما المُراد منها تخفيف وطأة جفاف الدّخول في النّسب من جهة، وإيجاد أخبار شخصيّات لها في الدّأكرة الشعبيّة والعالمية ظلال وآثار من جهة أخرى، من ذلك مثلاً خبر الرئيس سالف الذّكر الذي توسّع فيه النّسابة فأبان أصله وأهمّ أعماله:

«الرئيسُ وهو الحارثُ بنُ سَدَدٍ، وهو أوّل التّبابعة»⁽¹⁾، سار إلى أرضِ فارسٍ «فَقَتَلَ وَغَنِمَ»⁽²⁾، يغزو الهند إذ يأتيه منها الدّواء والمداوين، وكان «يأتيه الطّبيبُ من قبل الهندِ والسّندِ، ومن خراسانَ، وعجائب الهندِ، فتطلّعت نفسه إلى غزوها، فعبا الجنودُ،

(1) م.ن. 1 / 201.

(2) م.ن. 1 / 202.

وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ الْمَغْرِبَ بَحْرًا، وَأَعَدَّ السُّفْنَ، حَتَّى إِذَا رَأَى الْبَحْرَ
قَدْ أَمَكْنَ قَدَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ يُعْضِرُ بَنَ عَمْرٍو بَنَ شَرَا حِيلَ بَنَ عَمْرٍو بَنَ
ذِي أَنْسٍ فِي خَيْلٍ عَظِيمَةٍ، وَسَارَ فِي أَرْضِهِ حَتَّى دَخَلَ أَرْضَ الْهِنْدِ،
فَقَتَلَ وَسَبَى الذَّرِيَّةَ، وَغَنِمَ الْأَمْوَالَ⁽¹⁾، ثُمَّ هُوَ «أَقَامَ دَهْرًا حَتَّى أَتَتْهُ
هَدِيَّةٌ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ، أَهْدَاهَا لَهُ مَلِكُهَا. قَالَ: وَلِمَ؟ وَقَدْ كَانَ فِي عِزٍّ
وَمَنْعَةٍ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ؟ قَالَ: يُهَادِي الْمُلُوكُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَمُدَارَاةٌ
لَهُ لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ فِي الْهِنْدِ. قَالَ: وَمَا كَانَتْ الْهَدِيَّةُ؟ قَالَ: كَانَتْ
بَزَاتٍ بَيْضًا وَسُرُوجًا كِرَامًا وَدِيْبَا جَا وَآنِيَّةٌ مِنْ مَتَاعِ الْمُلُوكِ، فَلَمَّا رَأَهُ
قَالَ: أَكُلُ مَا أَرَاهُ فِي بِلَادِكُمْ؟ قَالَ: بَعْضُ أَيُّهَا الْمَلِكُ وَبَعْضُ فِي بِلَادِ
الْتُرِكِ، وَهُمْ أُمَّةٌ مِنْ وَرَائِنَا. قَالَ الرَّائِيشُ: لَنَغْزُونَ الْأَرْضَ الَّتِي فِيهَا
مَا أَرَى⁽²⁾، وَفَعَلًا كَانَ لَهُ ذَلِكَ، غَزَوْا وَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَامْتَدَادًا
لِمُلْكِهِ وَمُلْكِ ذَرِيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ.

ولنا أن ننتبه من إيراد هذا المثال إلى أن الرّواية النّسابة
استرسل في القصص وكأنّ كتابه هو كتاب أخبار وإخبار لا محض
إيراد للنّسب، وإنّما هو متنقل من ذكر النّسب بإيجاز إلى ترجمة
الشخصيّة الأساس وتخصيص مجال سرديّ لها، مبيّن عن فعالها
وخلالها، وما كان من حوار بينها وذكر شخصيّات أخرى مجانسة
أو مجانبة أو مُبَايَنة، يكون لها أثر في تحقيق الحدث المُبَارَّ أو
مزيد بيان الشخصيّة المرتكز. فشخصيّة الرّائيش تُصَبِّح محلّ
تبثير الرّواية، يرصدها وينقل للقارئ صورةً محدّدة الملامح، فهو

(1) م. ن. 1/ 202.

(2) م. ن. 1/ 203.

يتمثلها ويُمثِّلها، مُعمَّلاً أدوات الحكاية الدَّارِجَة في زمانه، حكاية قولٍ وحكاية حالٍ وحكاية فعلٍ، ويتبَوَّأ الرَّاوي موقع الرَّاوي العليم، العارف بما يدور من حديثٍ، المدرك للظَّاهر والباطن من الأفعال، الرَّاصد للنَّوَايا وللأفعال في الآن ذاته. النَّسَب في رواية العوتبي هو مقامٌ للقَصَصِ، هو مناسبةٌ للدُّخول في عرضِ حكاياتِ شخصيَّاتٍ في التَّاريخ يُرَشِّحها لِعِلَلٍ وأسبابٍ لِتكون بؤرة السَّرد.

النَّسَبُ في كتاب العوتبي هو بابٌ وسيعٌ للحديث في مجالات عددٍ، مجال الأصول الاشتقاقية للألفاظ والكلمات، ولا غرابة في ذلك وهو صاحب كتاب الإبانة⁽¹⁾، في الدِّراسة المعجمية، وهو الفقيه النَّاطِر في أمور الدِّين ومسائله، صاحب كتاب الضياء⁽²⁾. وكلُّ هذه المعارف الدينيَّة الشرعيَّة، واللغويَّة المعجميَّة، تظهر بشكلٍ بيِّن في كتاب النَّسَب، الذي كان فيه العوتبي طليقاً، إذ وقَّره مقام القَصَص أن يَجُولَ بين المعارف، عارضاً الأصل اللُّغويَّ لألفاظٍ يُجريها، ومؤرِّخاً لحوادثٍ ووقائعٍ، وقائلاً في الدِّين منذ بدَّئه قوله، في مختلف مراحل تَكُون الكَوْن واحتياج النَّاس إلى أنبياء ورُسل وصالحين، يُعيدون الخلق إلى قويم السَّبيل.

(1) العوتبي (سلمة بن مسلم الصحاري) معجم الإبانة، كتاب مخطوط، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، أحال عليه إبراهيم الدسوقي في دراسة بعنوان: معجم الإبانة للعوتبي، المنهج، اللغة، المادة المعجمية، طبيعتها، مصدرها، ورد في كتاب جامع، بعنوان: قراءات في فكر العوتبي الصحاري، إشراف محمد علي الصليبي، (المنتدى الأدبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى 1998).

(2) العوتبي (سلمة بن مسلم الصحاري): الضياء، (وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، الطبعة الأولى، 1991).

وعلى ذلك، فقد كان كتاب النَّسَب كتابًا جامعيًا، يُقدِّم صورة عن المؤلف الموسوعي في شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وقد تركَّز مقام النَّسَب في قسمٍ أوَّلٍ على حكاية نسب الكون، أو هي قصَّة الكون من منظورِ العُوتبي الذي اسْتَصَفَى كِتَابًا في الأنساب وفي الفقه وفي التَّاريخ وفي اللُّغة ليكون قادرًا على إخراج رؤيته على هذه الصُّورة الموسوعيَّة الشَّاملة والدَّقيقة. إنَّ هذه الرُّؤية الشَّاملة جعلت العُوتبي يضبط نسب الكون، ونسب الإنسان عامَّة، ولا يُهمل نسب الإنس والجنِّ والملائكة، يدخُل عوالم من الغيب البعيد، يَرَوِي عنها قِصَصًا هي أقرب إلى اليقين في روايته، هي «حقائق» في منظوره، وسنناقش لاحقًا هذه «الحقائق»، التي دفعت بعددٍ هامٍّ من الدَّارسين إلى التوجُّه إلى دراسة الأبعاد التَّاريخيَّة في كتاب النَّسَب.

يستهلُّ العُوتبي حديثه عن النَّسَب ببيان قِصَصِ بداية الخلق، تركيزًا لصورة ساردٍ، مُعَايِنٍ للأحداث، شاهدٍ على وقوعها، ناقلٍ للحوار الدَّائر بين الشَّخصيَّات، فكان منظوره في سرد بداية الخلق منظورًا شاملاً من جهةٍ، يعمل على أن يأتي بكلِّ حوافِّ قصَّة الخلق، ودقيقًا من جهةٍ ثانية، يتركَّز على حوادث بعينها، يفيض فيها القصص، مثل المادَّة التي منها صنَّع آدم على سبيل المثال.

لقد شكَّلت الأرضيَّة الدينيَّة مُحدِّدًا لمسار القِصَص ولوجهته، فكان خلق آدم بؤرةً أُديرَت عليها المخلوقات الكائنَّة في مداره، المساعدة له في تَأْدِيَةِ دوره في السَّماء والأرض، وعلى ذلك، فقد توجَّه الرَّاوية إلى حكاية كَيْفِيَّةِ صُنْعِ اللَّهِ للأرض وطريقة تكوينها

ومدّة إنشائها⁽¹⁾، وعَرَضَ من بعد ذلك إلى «ذِكْر شَيْءٍ مِنْ أَخْبَارِ الْمَلَائِكَةِ»، ومن طريف ما أتى به في حديثه عن الملائكة أن ردَّ أصل تسميتها إلى «الألوكَة»، والألوكَة هي الرّسالة المحمولة شفويّاً، فكأنّ الملائكة خلقت لحمل الرّسالة وتأديتها، وذاك مغروس في أصل تسميتها، ثمّ هو مبيّن الصُّور التي تظهر عليها ومادّة خلقها المختلف فيها، عارضاً مختلف الروايات التي ينحو بعضها إلى ردّ مادّة الملائكة إلى النُّور، والبعض الآخر الذي يجعل الملائكة مصنوعة من الرّيح. عالم الغيب الذي يدخل العُتوبي في قصصه، عالق بالنّسب، مرتبط به، فهو عودة إلى أصل خلق الجدّ الأوّل الذي تهَيَّأت له عناصرٌ وعوامل وأسباب ليخلف في الأرض، وليُنْجب، وليوفّر نسلاً يخوض فيه النّسّابون.

فآدم له حكايةٌ تسبقه وتُرافقه أيضاً، هي حكاية الأصل والمنبع، وهذا الأصل يحتوي تَكُونُ الموتيف⁽²⁾ القصصيّ الأصليّ في بناء الحكايات الكونيّة، هذا الموتيف هو القائم على ثنائيّة الخير والشرّ، فالأصل الدينيّ للحكاية الكونيّة، يُنبئنا أنّ الشّيطان مُضْمِرٌ للعصيان من قَبْلِ «أَمْرِ السُّجُودِ»، فهو مجبولٌ على الخروج والمكيدة والمخالفة، وهو مكوّن لقصّته عصيانياً وخروجاً منذ بدأت فكرة خلق كائنٍ جديد.

(1) م. ن. 1 / 11.

(2) «الموتيف ظاهرة أدبيّة تُرِينَا مدى قيمة العمل الأدبيّ، وإنّهُ المعنى المُكرَّر في الأثر فهو أحد الموازين لتقييم الأثر بل «يُعَدُّ الموتيف في الدراسات النّقدية الحديثة أحد الأدوات المهمّة في دراسة الأعمال الأدبيّة». انظر آيكون (آمنة)، خضري (علي)، بلاوي (رسول): موتيف النّافذة ودلالاته في شعر عدنان الصّائغ. مجلّة المخبر، أبحاث في اللّغة والأدب الجزائري، المجلد 16، العدد 01، 2020، ص 284-307.



قصة إبليس هي محور يُفرد له العُتبي بابًا خاصًا به، في أخبار يرويها عنه، هي «أخبار إبليس»⁽¹⁾، وهو يختصر تمثيله، وتصويره في رواية خبر عن ابن عباس يقول فيه:

«كَانَ إِبْلِيسُ لَعْنَهُ اللَّهُ. مِنْ أَشْرَافِ الْمَلَائِكَةِ وَأَكْرَمِهِمْ قَبِيلَةً، وَكَانَ حَازِنًا عَلَى الْجَنَانِ، وَكَانَ قَدْ أُعْطِيَ سُلْطَانُ سَمَاءِ الدُّنْيَا، وَسُلْطَانُ الْأَرْضِ، وَكَانَ مِمَّا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ، أَيْ زَيَّنَتْ، بَعْدَ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ رَأَى أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ شَرَفًا وَعِظَمَةً عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ، فَدَخَلَهُ كِبَرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، فَابْتَلَاهُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، فَأَعْلَنَ كِبَرَهُ، فَلَعَنَهُ اللَّهُ وَدَحَرَهُ أَيْ طَرَدَهُ، وَجَعَلَهُ شَيْطَانًا مَرِيدًا»⁽²⁾، ولا يقتصر النسابة على الحدود الكبرى لقصة إبليس، ولا على ملامحها العامة المتأسسة في القرآن الكريم، وإنما هو داخل في بيان أصله، وما نتج عنه من فروع، فاسمه الأول، هو عَزَازِيلُ وإِنَّمَا سُمِّيَ إِبْلِيسَ حِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَكَتَسَبَ مِنْ جَرَاءِ الْغَضَبِ صِفَةً صَارَتْ اسْمًا يُفْرَدُهُ. ويسرد الراوية تاريخه، ويبين أنه من الجن الذين خلقوا من «نار السموم»، وأنه أصل الجن، وهو أول الكافرين، ويوضع على طرف نقيض مع آدم، فآدم هو أول الإنس، وأصلهم، وإبليس هو أب الجن ومصدرهم، وآدم هو أول المؤمنين «وَلَمْ يَكُنْ مُؤْمِنٌ قَبْلَهُ» وإبليس هو أول الكافرين، «وَلَمْ يَكُنْ كَافِرٌ قَبْلَهُ»⁽³⁾.

(1) الأنساب، 1 / 15.

(2) م. ن. 1 / 15.

(3) م. ن. 1 / 16.

ثُمَّ يَتَدَرَّجُ الْكَاتِبُ، بَعْدَ أَنْ ضَبَطَ أَوَّلَ الْخَيْرِ، وَأَوَّلَ الشَّرِّ، وَبَعْدَ أَنْ أَسَّسَ قِصَّةَ تَكُونُ أَصُولَ الْكُونِ إِلَى «ذِكْرِ الْجِنِّ»⁽¹⁾، وَهُمْ أَخْلَاطُ وَأَنْوَاعٌ وَقِبَائِلُ وَأَرْهَاطٌ، شَأْنُهُمْ شَأْنُ بَنِي الْبَشَرِ، وَيَبْدُو الرَّاوِيَةُ النِّسَابَةَ، عَارِفًا بِأَنْسَابِ الْجَانِّ وَمَخْتَلَفِ تَنْوُعِ مَسَارَاتِهَا، وَاخْتِلَافِ عَالَمِهَا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَصْيَانِ، يَقُولُ فِي ذَلِكَ: «الْجِنُّ جَمَاعَةٌ وَلِدَ الْجَانِّ: وَجَمِيعُهُمُ الْجِنَّةُ وَالْجَانُّ، وَإِنَّمَا سُمُّوا جِنًّا لِأَنَّهُمْ اسْتَجَنُّوا مِنْ النَّاسِ وَاسْتَتَرُوا وَلَا يُرَوْنَ، وَالْجَانُّ (هُوَ أَبُو الْجِنِّ، خُلِقَ مِنْ نَارِ السَّمُومِ، ثُمَّ خُلِقَ مِنْهُ نَسْلُهُ)، وَفِي الْجِنِّ حَيٌّ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو الشَّيْصَبَانِ (...) وَفِي الْجِنِّ حَيٌّ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنُّ، وَيُقَالُ إِنَّ الْجِنَّ ضَعْفَةُ الْجِنِّ، كَمَا أَنَّ الْجَنِّيَّ إِذَا كَفَرَ وَظَلَمَ وَتَعَدَّى وَأَفْسَدَ قِيلَ لَهُ شَيْطَانٌ، فَإِنْ قَوِيَ عَلَى الْبُيَانِ وَالْحَمَلِ الثَّقِيلِ وَعَلَى اسْتِرَاقِ السَّمْعِ قِيلَ لَهُ مَارِدٌ، فَإِنْ زَادَ فَهُوَ عَمْرِيَّتٌ، فَإِنْ زَادَ فَهُوَ عَبْقَرِيٌّ. كَمَا أَنَّ الرَّجُلَ إِنْ قَاتَلَ فِي الْحُرُوبِ فَأَقْدَمَ وَلَمْ يُحْجَمِ قِيلَ هُوَ الشُّجَاعُ، فَإِنْ زَادَ فَهُوَ بَطْلٌ، فَإِنْ زَادَ قَالُوا لَيْثٌ. هَذَا قَوْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَبَعْضُ يَزْعُمُ أَنَّ الْجِنَّ وَالْجَانَّ جِنْسَانِ مُخْتَلِفَانِ»⁽²⁾.

على إثر تهيئة المقام القصصي العام لبدء الخلق، من ذكرٍ لخلق مادة الأرض وعناصرها، وعوامل الطبيعة والحيوان والجماد والأنهار والأشجار والبحار والجبال والأَيَّامِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، يَشْرَعُ النِّسَابَةَ فِي تَضْيِيقِ زَاوِيَةِ النَّظَرِ، وَحَصْرِ التَّبْيِيرِ فِي الْبَشَرِ، فِي شَخْصِ آدَمَ، بَادئًا قِصَّتَهُ مِنْ أَوَّلِ صِنَاعَتِهِ، إِلَى مِحْنَتِهِ، ثُمَّ إِلَى نَزْوَلِهِ الْأَرْضَ

(1) م. ن. 1 / 19.

(2) م. ن. 1 / 19.

وتركه خلفاً، هم مركز نظر النسابة. فيذكر الراوية «خلق آدم عليه السلام»، ويذكر شيئاً من قصته⁽¹⁾. يُصبح آدم موضوع قصص، يُبحث في طينته، والجّهات من الأرض التي خلقت منها أعضاؤه وهيئته، ومدة خلقه وإعداده وأيام صناعته⁽²⁾، ووقت خلقه، وهو مُحدّد يومًا وزمنًا، يوم الجمعة بعد العصر⁽³⁾.

ففيهيئ الراوية بذلك الإطار البدئي لقصة آدم، ويضبط وضعها الأصلي، سمةً ونعتًا وحالًا وأحوالًا، وما كان منه من حواء، وهي طرفٌ مكملٌ لتمام التّناسل، وتذكر القصة «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَلْقَى عَلَى وَجْهِ آدَمَ النُّعَاسَ فَخَلَقَ مِنْ ضُلْعِهِ الْأَيْسَرِ حَوَاءً - فَاتَّبَعَهُ آدَمُ

(1) م. ن. 1/ 20.

(2) وروى عن عبد الله بن سلام: سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم كيف خلق؟ قال: خلق الله عز وجل آدم، رأسه وجبهته من التربة التي هي موضع الكعبة. وخلق ثدييه من بيت المقدس، وخلق فخذيه من أرض اليمن، وخلق ساقيه من أرض مصر، وخلق قدميه من أرض الحجاز، وخلق يده اليمنى من أرض المشرق، وخلق يده اليسرى من أرض المغرب، وخلق جسده من أرض الطائف، وخلق قلبه ودُّبْره من السهل والجبل، وخلق كبده وقلبه من أرض الموصل، وخلق طُحاله ورثتيه من أرض الجزيرة.

وعن ابن عباس قال: خلق الله آدم بعد العصر يوم الجمعة، خلقه من أديم الأرض كلها، أسودها، وأحمرها، وطيبها وخبيثها، فلذلك كان في ولده الأسود والأحمر والطيب والخبيث. ويقال: إنما سُمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض. ثم نفخ الله عز وجل في آدم الروح بعد أربعين سنة، ولم تجر النفخة في شيء من بدنه إلا صار لحمًا ودمًا وعروقًا ومفاصل، فلما بلغ الروح سرته جعل يعجل ويريد أن يقوم وينزو، فذلك قوله تعالى (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ (و) وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا). فلما بلغ الروح قدميه استوى جالسًا فقال: الحمد لله رب العالمين، يقول: الشكر لله الذي خلقني وكانت أول كلمة تكلم بها آدم - فردّ عليه ربّه سبحانه: يرحمك ربك، لهذا خلقتك لكي تسبح وتقدس. وسبقت رحمته غضبه، فجعل رحمته على آدم، وغضبه على إبليس» الأنساب، 1/ 21- 22.

(3) م. ن. 1/ 21.

مِنْ رَقْدَتِهِ وَإِذَا حَوَاءٌ جَالِسَةٌ عِنْدَ جَنْبِهِ فَقَالَ آدَمُ: عَظُمَ مِنْ عَظْمِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. قَالَ: فَمَنْ أَجَلِ ذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَتَّبِعُ امْرَأَتَهُ وَيَكُونَانِ كِلَاهُمَا جِسْمًا وَاحِدًا. ثُمَّ زَوَّجَهُمَا بَعْضُهُمَا مِنْ بَعْضٍ، وَأَسْكَنَهُمَا الْجَنَّةَ، وَيَوَّاهُمَا فِيهَا يَأْكُلَانِ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ يَشَاءَانِ مِنْ نَعِيمِهَا، وَحَذَرَهُمَا مِنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَاها عَنْهَا، وَهِيَ الْبُرَّةُ، وَقِيلَ الْكَرْمُ، وَقِيلَ التَّيْنُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فَلَمْ يَزَالَا كَذَلِكَ حَتَّى غَرَّهُمَا الشَّيْطَانُ، فَأَكَلَا الشَّجَرَةَ الَّتِي نَهَاها رَبُّهُمَا عَنْ أَكْلِهَا، فَأَخْرَجَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَهْبَطَهُمَا إِلَى الْأَرْضِ. وَكَانَ مِنْ قِصَّتَيْهِمَا مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ⁽¹⁾.

وعن هذا العسيان، حدثًا سرديًا فاعلاً وباعثًا لأحداثٍ لاحقةٍ ينتج فعل الهبوط إلى الأرض وما يتأسس عليه من مُمكنٍ سرديٍّ يُفْتَحُ تَوَلَّدَ فَوَاعِلَ وَأَفْعَالٍ وَفَضَاءَاتٍ حَادِثَةٍ. فهبوطُ آدم وحواء من الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ⁽²⁾ عنصرٌ جاذِبٌ لِلْحِكَايَاتِ، قِصَّةً لِمَكَانِ الْهَبُوطِ والاختلاف حوله، ولشَبَاتِ التَّفَرُّقِ بَيْنَ آدَمَ وَحَوَاءَ، ولتَحْدِيدِ الْمَكَانِ الَّذِي هَبَطَ فِيهِ آدَمُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ أَوْ فِي شَرْقِيٍّ أَرْضِ الْهِنْدِ وَالْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ نَزَلَتْ حَوَاءٌ وَهُوَ جَدَّةٌ، وَالْمَكَانِ الَّذِي هَبَطَ فِيهِ إِبْلِيسُ عَلَى سَاحِلِ بَحْرِ الْأَبْلَى، أَوْ بِمَيَّسَانَ⁽³⁾. ونزولُ آدم وحواء كما لو أَنَّهُمَا أُلْقِيَا فِي الْأَرْضِ، أَسَّسَ لِحَافِزٍ سَرْدِيٍّ نَاتِجٍ عَنْ إِدْرَاكِ لَطِيبَةِ الْمَرَأَةِ، وَلَطِيبَةِ الرَّجُلِ، وَتَأْسِيسًا لِفَوَارِقَ بَيْنَهُمَا رُذِّتَ فِي الْمَأْثُورِ

(1) م. ن. - 22- 23.

(2) م. ن. ص 26.

(3) م. ن. ص 26.



الروائي القصصي إلى طَبْع متأصل، إذ تبدأ رحلة بحث الشَّطَر
عن شَطَره، أو الجزء عن كَلِّه.

وتتألى الروايات حول بحث حوَّاء عن آدم أو العكس، ويجد
العُوتبي مناسبةً في ذلك لإظهار أصل تسمية بعض الأماكن، فالمكان
الذي تعارفا فيه أصبح يُسمَّى عرفات، والمكان الذي ازدلفت فيه
حوَّاء إلى آدم أصبح يُسمَّى «المُزْدَلِفَة»، والمكان الذي اجتمعاً فيه
أصبح يُسمَّى «جَمْعاً»⁽¹⁾، وتتولَّد من بعد هذا الهبوط واجتماع آدم
وحوَّاء حكايات جَمَّة عن العقاب، عقاب المرأة بالحيز، وعقاب
الحياة بالمشي على بطنها⁽²⁾، وعن التَّاسُل وما نتج عن تزواج
آدم بحوَّاء من سُلالةٍ أقامت الوجود البشري وفَرَّعته إلى مِلٍّ
ونَحْلٍ، وما تأسَّس عليه هذا الوجود من بذرةٍ سرديَّةٍ قصصيةٍ
قائمةٍ على الصِّراع بين الخير والشرِّ، بين الصَّلاح والفساد، بين
الإيمان والعصيان، يتواصل عمقها في كلِّ الصَّلات البشرية، وفي
كلِّ القصص الكوني، ويتجلَّى ذلك في ما انصرف إليه العُوتبي من
اعتمادٍ لتسلسل التَّاريخي للبشرية، ولتولَّد الصِّراع بينها، ولجُنوحها
عن الإيمان إلى العصيان، وتكون البداية الأولى، لتأسيس الصِّراع
البشري بينةً في قصَّة قابيل وهابيل⁽³⁾، وذكر قصَّة الصِّراع بينهما،
وهي من القصص المؤسَّسة لمتعالياتٍ قصصيةٍ كبرى ما زال الكون
يستمدُّ منها الحكايات والأمثال والعبر.

(1) م. ن. ص 26.

(2) م. ن. ص 27.

(3) م. ن. ص 35.

وعلى هذا المنوال يُفَرِّعُ الكاتب كتابَه في الأنساب، سائراً مسار التدرُّج من الأصل إلى التَّوابع والفروع، واقفاً عند الحوادث التاريخية الكبرى، ومُبَيِّراً الشخصيات الفاعلة في أصل سُلالة البشرية، فإدريس هو النبيُّ الأوَّل، وإليه تُسند الرِّسالة الأولى في إعادة البشرية إلى أصلها الإيمانيِّ، ولذلك يخصُّه العُتبي بمساحةٍ يُورد فيها قصَّته⁽¹⁾، ويوجِّه إليه عين الرَّاوية، يصف شكله وسمَّته وما به عُرف في نبوَّته، وإليه تُردُّ أوليَّة الرِّسالة وأفعالُ أولى يأتيتها، ولذلك رشَّحه الرَّاوية ليكون محطَّ وصف وإجمالٍ ما كان له من خلالٍ، فهو حفيد آدم، وجدُّ نوح، وهو حلقةٌ وصلٍ هامَّة، في أنَّه مرتبطٌ بالذكر بالإيمان بالله، وصورة للإنسان المُكلَّف، العارف، العائد إلى ربِّه، الثَّائب، المُدرك لخطيئة الإنسان، إذ يبتعد عن سبيل ربِّه، الدَّاعية إلى العودة إلى جوهر الإنسان، وهو الجوهر الإيمانيُّ.

لقد استند العُتبي في ترشيحه للنبيِّ إدريس عليه السَّلام، على رواية وهب بن منبَّه الذي أورد وصفه وجوهرَ رسالته، يقول: «قَالَ وَهْبٌ: كَانَ إِدْرِيسُ رَجُلًا طَوَالًا، ضَخْمَ الْبَطْنِ عَرِيضَ الصَّدْرِ، قَلِيلَ شَعْرِ الْجَسَدِ كَثِيرَ شَعْرِ الرَّأْسِ. وَكَانَتْ إِحْدَى أُذُنَيْهِ أَعْظَمَ مِنَ الْأُخْرَى، وَكَانَ فِي جَسَدِهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ، وَكَانَ رَقِيقَ الصَّوْتِ دَقِيقَ الْمَنْطِقِ، قَرِيبَ الْخَطَا إِذَا مَشَى. وَأَنَّمَا سُمِّيَ إِدْرِيسُ لِكَثْرَةِ مَا كَانَ يَدْرُسُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ وَسُنَنِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ثَلَاثِينَ صَحِيفَةً، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ خَاطَ الثِّيَابَ وَلَبِسَهَا، وَكَانَ مِنْ

(1) م. ن. ص 44.

قَبْلَهُ يَلْبَسُونَ الْجُلُودَ. وَاسْتَجَابَ لَهُ أَلْفُ إِنْسَانٍ مِمَّنْ كَانَ يَدْعُوهُ، فَلَمَّا رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ اخْتَلَفُوا بَعْدَهُ وَأَحْدَثُوا الْأَحْدَاثَ إِلَى زَمَنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَهُوَ أَبُو جَدِّ نُوحٍ، وَرَفَعَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَخَمْسِ وَسِتِّينَ سَنَةً⁽¹⁾، وعن هذا الجدِّ، وهذا النبيِّ الأوَّل، تتولَّد قصَّةُ هي الأعمق والأثَرى، وهي قصَّة النبيِّ نوح⁽²⁾، فمقام النَّسَب مقامٌ جامعٌ شاملٌ، لا يقف عند محض ذكر الآباء والأجداد والفروع والأصول، وإنَّما هو داخلٌ في سرديَّةٍ يُمكن أن نَنَعِّثَها بسرديَّة النَّسَب، ولذلك رأينا أنَّ النَّسَب عند العُوتبي يبدأ من أوَّل الدُّنيا، ومن أوَّل الخلق، ومن البدايات الأولى التي شكَّلتها، ومنه يكون الاسترسال في القَصَص. قصَّة نوح هي تكوينُ ثانٍ للخلق، وإفناءٌ وإعادةٌ تَسِيلُ للبشريَّة، نوحٌ عليه السَّلام، يُرَشِّحُ بؤرةً للقَصَصِ لأنَّه شخصيَّةٌ فاعلةٌ في مسار تكوين نسل البشريَّة، وهو راجعٌ في أصله إلى مصدرٍ عنه تشكَّل، ومنه كان، وهو آدم عليه السَّلام، ولذلك وجب على الرَّاوية أن يصله إعلاناً بيِّناً بهذا الأصل.

يقول في تقديم قصَّة نوح، ووضعها في إطارها العامِّ، وتحديد مقامها الأوَّلِيِّ: «وَنَكَحَ لَمَكُ بْنُ مَثُوشَلَخَ بْنِ أَخْنُوحَ. وَهُوَ إِدْرِيسُ بْنُ الْيَارِدِ بْنِ مَهْلَائِيلَ بْنِ قَيْتَانَ بْنِ أَنْوَشَ بْنِ شِيثَ بْنِ آدَمَ فَيَنْوُشَ بِنْتَ بَرَائِيلَ بْنِ مَخْوِيلَ بْنِ أَخْنُوحَ بْنِ قَابِيلَ بْنِ آدَمَ، وَهُوَ ابْنُ مِائَةٍ وَسَبْعٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً، فَوَلَدَتْ لَهُ غَلَامًا، فَسَمَّاهُ نُوحًا، فَعَاشَ لَمَكُ بَعْدَ مَا وُلِدَ لَهُ نُوحٌ خَمْسَمِائَةَ سَنَةً وَخَمْسًا وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَوُلِدَ لَهُ بَنُونَ وَبَنَاتٌ، وَكَانَ جَمِيعُ مَا عَاشَ لَمَكُ سَبْعَمِائَةَ سَنَةً وَاثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً، ثُمَّ

(1) م. ن. 45.

(2) م. ن. ص 47.

مَاتَ»⁽¹⁾، وفي سياق تمام هيكله القصّة ووُضِعَ لِبِنْتِهَا الْحَدِيثِيَّةُ الْبَدِئِيَّةُ، رَدُّ الرَّأْيَةِ آدَمَ إِلَى نَسَبِهِ الَّذِي مِنْهُ تَأْتِي، ثُمَّ انْدَرَجَ إِلَى بَيَانِ نَبَوْتِهِ، وَمَنْزِلَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، وَهِيَ الْخُطَّةُ السَّرْدِيَّةُ ذَاتُهَا الَّتِي انْتَهَجَهَا الرَّأْيَةُ مَعَ أَغْلَبِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تَرْجَمُ لَهَا وَقَصَّ قِصَّتَهَا. «قَالَ وَهَبٌ: إِنَّ نُوحًا أَوَّلُ نَبِيِّ نَبَاهُ اللَّهُ بَعْدَ إِدْرِيسَ، وَكَانَ نَجَارًا. وَكَانَ إِلَى الْأُدْمَةِ، دَقِيقَ الْوَجْهِ، فِي رَأْسِهِ طُولٌ، عَظِيمَ الْعَيْنَيْنِ، غَلِيظَ الْفُصُوصِ، وَهِيَ أَطْرَافُ الْعِظَامِ، دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، كَثِيرَ لَحْمِ الْفَخَذَيْنِ، دَقِيقَ السَّاعِدَيْنِ، ضَخْمَ السَّرَّةِ، طَوِيلَ اللَّحْيَةِ، عَرِيضَهَا، طَوِيلًا، جَسِيمًا، وَكَانَ فِي غَضَبِهِ وَانْتِهَارِهِ شِدَّةً، فَبَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسِينَ سَنَةً، فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، ثَلَاثَةَ قُرُونٍ فِي قَوْمِهِ عَايَشَهُمْ وَعَمَّرَ فِيهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ فَلَا يُجِيبُونَهُ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»⁽²⁾.

يَتَدَرَّجُ الرَّأْيَةُ الْقَاصُّ فِي تَتَبُّعِ قِصَّةِ نُوحٍ وَصَنَاعَةِ الْفُلِّ وَتَخْيِيرِ رُكَّابِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ رَحْلَةِ الطُّوفَانِ، وَمِنْ غَرَائِبِ تَقَعِ قَبْلَ الرِّحْلَةِ وَأَثْنَاءِهَا وَبَعْدَهَا، وَبَعْضُ مِنْهَا مَسَائِرُ مَا هُوَ وَارِدٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَبَعْضُ مِنْهَا مَا أُخُوذُ مِنَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَبَعْضُ مِنْهَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ الْمَرْوِيَّاتِ الشَّعْبِيَّةِ الَّتِي تُرْمَمُ مَا نَقَصَ فِي النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ، وَتَمْلَأُ فَرَاغًا حَكَائِيًّا تَجْتَهِدُ الْمَخِيلَةَ السَّرْدِيَّةُ فِي ابْتِكَارِهِ.

وَلِذَلِكَ، كَانَتِ الْقِصَّةُ كَامِلَةً، مِنْ بَدْءِ صَنَاعَةِ الْفُلِّ، وَتَجْهِيْزِ الْمَوَادِّ الْأَسَاسِيَّةِ، وَمِنْ بَدَايَةِ الطُّوفَانِ وَأَلْوَانِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي كَانَتْ

(1) م.ن. ص 47 ..

(2) م.ن. ص 48 ..

مع نوح في السفينة، وإيراداً لتخلُّق حيوانات حادثة لمنع الضَّرر داخل السَّفينة، في رواية مردودة إلى ابن عَبَّاس ، إذ يَبعث عيسى سام بن نوح من موته ويحييه، ليسأله عن سفينة نوح، فيجيبه سارداً له ما كان فيها من حوادث، «قَالَ: حَدَّثَنَا عَنْ سَفِينَةِ نُوحٍ: قَالَ: كَانَ طُولُهَا أَلْفًا وَمِائَتِي ذِرَاعٍ، وَعَرْضُهَا سِتْمِائَةَ ذِرَاعٍ، وَكَانَتْ ثَلَاثَ طَبَقَاتٍ، فَطَبَقَةٌ فِيهَا الدَّوَابُّ وَالْوَحْشُ، وَطَبَقَةٌ فِيهَا الْإِنْسُ، وَطَبَقَةٌ فِيهَا الطَّيْرُ. فَلَمَّا كَثُرَ أَرْوَاثُ الدَّوَابِّ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نُوحٍ أَنْ اغْمِزْ ذَنْبَ الْفِيلِ فَوْقَ مَنْهُ خَنْزِيرٌ وَخَنْزِيرَةٌ، فَأَقْبِلَا عَلَى الرُّوثِ فَلَمَّا وَقَعَ الْفَارُ بِخَرْزِ السَّفِينَةِ يَقْرِضُهُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ أَنْ اضْرِبْ بَيْنَ عَيْنَيِ الْأَسَدِ، فَضْرَبَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَخَرَجَ مِنْ مَنْخَرِهِ سَنُورٌ وَسَنُورَةٌ، فَأَقْبِلَا عَلَى الْفَارِ. فَقَالَ لَهُ عِيسَى: كَيْفَ عَلِمَ نُوحٌ أَنَّ الْبِلَادَ قَدْ غَرِقَتْ؟ قَالَ: بَعَثَ بِالْغُرَابِ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، فَوَجَدَ جِيفَةً، فَدَعَا عَلَيْهِ بِالْخَوْفِ، فَلِذَلِكَ لَا يَأْلُفُ الْبُيُوتَ، قَالَ: ثُمَّ بَعَثَ بِالْحَمَامَةِ فَجَاءَتْ بِوَرَقٍ زَيْتُونٍ بِمَنْقَارِهَا وَطِينٍ بِرِجْلَيْهَا، فَعَلِمَ أَنَّ الْبِلَادَ قَدْ غَرِقَتْ، فَطَوَّقَهَا الْخُضْرَةُ فِي عُنُقِهَا، فَدَعَا لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي أَنْسٍ، فَمِنْ ذَلِكَ تَأَلَّفَ الْبُيُوتُ»⁽¹⁾.

يتوسَّع الراوية في دائرة سرِّد قصَّة نوح لتتبع أبنائه ومن خلفهم من نَسَلٍ حدَّ بلوغِ سَام بن نوح، وهو جهةٌ مركزٌ، لأنَّ الأنساب العربيَّة تُردُّ إليه وتُوصَّلُ به، وعنه تكون سلالة الأنبياء التي يخصُّها النَّسَابَةُ القصَّاص ببيانٍ لأهمِّ الحوادث التي مرَّت بها، وبذكرٍ لما وُسِّمَتْ به وعُرفت في الموروث القصصي الديني، فهو يَعْرِضُ إلى

(1) م. ن. ص - 55 56.

هُود النَّبِيِّ وَقَصَّتْهُ⁽¹⁾ (وهو جهة هَامَّةٌ في منظور النَّسَّابَةِ فَعَنَّهُ تَنْتِجَ قَحْطَان، وهو أَوَّل مَنْ نَزَلَ الْيَمَنَ، فهو أبوها المؤسِّس⁽²⁾)، وإلى الرِّيحِ الَّتِي أَقْنَتْ عَادًا⁽³⁾، وإلى النَّبِيِّ صَالِحٍ وَنَاقَتِهِ⁽⁴⁾، الَّذِي يَخْصُهُ الرَّأْيَةُ بِبَيَانِ نَسَبٍ، وَبِإِيرَادٍ لِحَكَايَتِهِ مَفْصَلَةً فِي عَصِيَانِ قَوْمِهِ، وَفِي تَعَمُّدِهِمْ عَقْرَ النَّاقَةِ الَّتِي أَمَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَدَمِ الْمَسَاسِ بِهَا.

يَقُولُ الرَّأْيَةُ وَاضِعًا قِصَّةَ صَالِحٍ فِي إِطَارِهَا الَّذِي يُخَوِّلُ لَهُ الشَّرُوعَ فِي بِنَاءِ حَوَادِثِهَا وَمَخْتَلَفِ مَوَاقِعِ تَوَثُّرِهَا: «قَالَ وَهَبٌ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ صَالِحًا حِينَ رَاهَقَ الْحُلُمَ وَكَانَ رَجُلًا أَحْمَرَ إِلَى الْبَيَاضِ، سَبَطَ الشَّعْرَ، وَكَانَ يَمْشِي حَافِيًا، وَلَا يَتَّخِذُ حِذَاءً، كَمَا يَمْشِي الْمَسِيحُ، وَلَا يَتَّخِذُ مَسْكِنًا وَلَا بَيْتًا، وَلَا يَزَالُ مَعَ نَاقِهِ رَبَّهُ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ، وَهُوَ صَالِحُ بْنُ عُبَيْدٍ بَنِ أَثَيْفٍ بَنِ مَاشِخٍ بَنِ عُبَيْدِ بْنِ جَائِرِ بْنِ ثَمُودَ بْنِ عَابِرِ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامٍ بْنِ نُوحٍ: فَبَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى قَوْمِهِ وَهُوَ غُلَامٌ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هُودٍ فِتْرَةٌ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَتْ مَنَازِلُ قَوْمِهِ بِالْحِجْرِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَبَيْنَ الْقُرْحِ ثَلَاثَةُ عَشَرَ مِيلًا، وَقُرْحٌ: وَادِي الْقُرَى»⁽⁵⁾.

لَقَدْ أَرَدْنَا مِنْ وَقُوفِنَا التَّفْصِيلِيَّ عَلَى كِتَابٍ حَامِلٍ لِمَشَارِيعَ فِي الْبَحْثِ وَسِيعَةٍ أَنْ نُظْهِرَ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي شَكْلِ النَّسَبِ فِي التُّرَاثِ الْعَرَبِيِّ اتَّخَذَتْ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوَّجَهَا وَصِغَهَا وَأَلْوَانًا

(1) م. ن. ص 82.

(2) م. ن. ص 91.

(3) م. ن. ص 90.

(4) م. ن. ص 94.

(5) م. ن. ص 94.

وأصباغاً، فهي لا تتماثل وإنَّ تجانست، ولا تتشابه وإن اعتمدت الشَّجرة النسبيَّة الواحدة، فمِمَّا لا شكَّ فيه أنَّ مناطق الخلاف في ضبْط الأنساب واضحة المعالم، وأنَّ أغلب أغصانِ شجرة النَّسب العربيَّة واقعٌ موقع الاتِّفاق والإجماع، والإضافةُ في هذا المقام تكون في المعرفة الموسوعيَّة التي تُمكنُ النَّسابة من الدخول في القصصِ ومن تفسير القرآن الكريم ومن استدعاء الحديث النبويِّ، ومن الإثراء المعجميِّ والمصطلحيِّ والنحويِّ واللُّغويِّ عامَّةً، وهو الوجه الذي ظهر عليه العُوتبي مؤلِّف الكتاب.

ينشدُ كتاب الأنساب للعُوتبي إلى أرضيتين على قدر من الأهميَّة، الأرضيَّة الأولى هي التي أبانها العنوان وتركَّز فيها، وهي تتبَّع الأنساب وضبطها، وهو الأمر الذي غلب على القسم الثَّاني من الكتاب، ولا قولٌ لنا في اقتدار الكاتب وإلمامه بمختلف المراجع التي عُدَّت أصولاً في مجال ضبْط الأنساب العربيَّة، وخاصَّة ما تفرَّغ إليه من بيانٍ نادرٍ لضبْط الأنساب العُمانيَّة وذكر أخبارها وأهمِّ حوادثها، والأرضيَّة الثَّانية هي التي كانت مركز بحثنا ومثَّلت إضافةً هامَّةً في كتاب العُوتبي، وهي القدرة التخييليَّة للكاتب على شدِّ الأنساب إلى مجالٍ قصصيٍّ وفيرٍ، ثريٍّ، يُرافق رحلة الأنساب ويُدعمها، وهو قصصٌ داخلٌ في ما يُرى وما لا يُرى، في عالم الطَّبيعة وما بعد الطَّبيعة، في عالم الشَّاهد وعالم الغائب، بعضُ هذا القصص منقولٌ ذو جذور دينيَّة اعتقاديَّة وبعضه شعبيٌّ مبينٌ عن عقلٍ سرديٍّ تخيليٍّ مُبدعٍ.

وهذه الأَرْضِيَّة تدفعنا إلى مناقشةٍ سريعةٍ لأعمالٍ درست كتاب العُوتبي وشدَّته إلى التَّأريخ وهو إلى التَّخيل أقرب في ما ذكره من قَصَص بداياتِ الكون وأوَّل الخلق (المقصود بالتَّخيل في هذا المقام، ليس مخالفة الواقع، ولا التَّجنيح في ما يُخالف منطق الأشياء، وإنَّما التَّخيل، هو الدخول في القَصَص، وتحويل العالم إلى قِصَّة تُروى بالألفاظ والكلمات والتراكيب والصُّور)، ومن ذلك أعمالٌ أكاديميَّة عديدة، وبحوثٌ جَمَّة وجدناها تتوجَّه إلى دراسة التَّأريخ في كتاب الأنساب، من ذلك مثلاً ما ورد في دراسة جاد محمد طه العُوتبي مؤرِّخاً⁽¹⁾، الذي انتهى من دراسته إلى أنَّ العُوتبي «مؤرِّخٌ مطبوعٌ، وله وزنه الكبير وسط المؤرِّخين المسلمين في العُصُور الوُسطى»⁽²⁾، ومن ذلك أيضاً دراسة مُحمَّد قرقش، في مبحثٍ له بعنوان: المنهج التَّأريخي عند العوتبي⁽³⁾، إذ شدَّ كتاب الأنساب إلى التَّأصيل التَّأريخي، ووضَّعه في منزلة المؤرِّخ الواعي بحركة التَّأريخ، الضَّابط له المُدقِّق في أحداثه، والحال أنَّ وُصِّل كتاب الأنساب بالتَّأريخ، وحُصِّره في دائرة المؤرِّخين، والتَّظنُّر فيه من هذه الرَّاوية فحسب، يدفع إلى التقليل من شأنه والخطُّ من منزلته.

كتاب العُوتبي أساسٌ مكيُّ من أُسس النثر في شبه الجزيرة، وهو مُظهِرٌ خصالٍ كاتبٍ موسوعيٍّ، ويُمْكِن أن نخلص من دراسته إلى النتائج التَّالِيَّة:

(1) قراءات في فكر العوتبي الصُّحاري، ص 87.

(2) م. ن. ص 102.

(3) م. ن. ص 146.

المحور الأول: محور النسب

هو مجال مترسّخ في الكتاب، وهو عموده الفقري، وهيكله الأساس الذي انشئت إليه بقيّة المحاور، وبصرّف النظر عن تتبّع أنساب الإنس والجنّ، فإنّ قيمة ثابتة في الكتاب، يُمكن أن تفتح كوّة على التّاريخ، وأن تعضد المؤرّخين، هي ضبط أنساب القبائل العُمانية، والانصراف إلى تدقيقها وتشجيرها، وبيان أصولها وفروعها وحركتها في الزّمان والمكان، وهي أنساب مرتبطة في أغلبها بالنّسب القحطانيّ الذي خصّص له الكاتب اهتمامه وبأره بإفاضةٍ وتوسّع، فكانت عُمان بأنسابها المتّصلة بالقحطانيّة محور اهتمام جاذبٍ للأخبار والوقائع، عرّضاً مفصّلاً لأيّام أُرْدِ عُمان في الجاهليّة والإسلام، وتبنيّاً لأخبار الأزد، ولأخبار مالك بن فهم وما كان له من وقائع التأسيس والتّفريع⁽¹⁾.

ولذلك فقد عُدّ كتاب الأنساب للعُتبي «المصدر الأوّل والمعوّل الأساسيّ والمُعِين الغزير لتتبع أحداث التّاريخ العُمانيّ، منذُ بدايةِ قُدوم الجماعات العربيّة بها وحتى القرن الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ، خاصّة وأنّ هناك جوانب أساسيّة في التّاريخ العُمانيّ قد أُهمِلت، بقصدٍ أو دون قصدٍ، من قبل المؤرّخين المسلمين منذُ بدايةِ عصر التّدوين التّاريخيّ في العصر العبّاسيّ»⁽²⁾، فهو الوحيد الذي خصّ الأنساب العُمانيّة بالتتبع والتّدقيق، وأرّخ لهذه الأنساب ولما كان لها من وقائع (يُمكن أن تُعدّ تاريخيّة) وحوادث، ومن هذه الكوّة، فإنّ كتاب «الأنساب» يتميّز بقوةٍ توثيقيّة في تدوين أصول

(1) م. ن. ص 153.

(2) م. ن. ص 157.

القبائل العُمانية، وما تفرَّعت عنه، وينفرد بقدرة على تقصّي الأخبار العالقة بهذه الأنساب، فهو «الكتاب الوحيد الذي عني بأنساب القبائل العُمانية، فهو وإن لم يكن قد اشتمل على جميع القبائل العُمانية إلا أنه اشتمل على كثير منها، ممّا يُعتبر مرجعاً مهماً ومصدراً أصيلاً للأنساب العُمانية»⁽¹⁾.

المحور الثاني: القصص.

المحور الثاني الجالبُ والجاذبُ والمميّز لكتاب الأنساب، هو التخيل، وهو حاصلٌ أساساً في القسم الأول المطوّل الذي فرغ فيه المؤلّف إلى بدايات الكون وإلى قصص الأنبياء، وإلى أصول القبائل العربيّة وإلى تفرّقاتها، وإلى حلّها وتكونها.

ففي هذا المحور غلب القصص المأخوذ أساساً من مصدرٍ يمنيّ هو وهب بن منبّه الذي ذكرناه سابقاً، وهذا المحور هو ما ركّزنا فيه، وما ندعو الدارسين إلى مزيد التعمّق فيه، باعتبار بيانه لقدرة قصصيّة وليلٍ أصيلٍ إلى اعتماد الحكاية واسطةً وأداةً للبيان والتوضيح والاعتبار أيضاً.

فلاحظنا امتصاصاً بيّناً لمصنّفاتٍ مصادر في التاريخ وفي الأنساب وفي الأخبار وفي اللّغة، وامتصاصاً أيضاً لمرويات شعبيّة سائدة تُبين عن ميلٍ أصليٍّ إلى تأسيس الحكاية، فالكونُ قصّةٌ والنسبُ قصّةٌ والعلاقات بين البشر قصّةٌ، وعندما نتحدّث في هذا المقام عن القصص أو عن التخيل، فهذا لا يعني «الكذب» أو التهويم -كما سلف أن ذكرناه- بل المقصود هو تحويل العالم

(1) م. ن. ص 86.



بأشخاصه وأحداثه إلى عالم محكيٍّ، مروِّيٍّ، تُركَّبُ عناصره وتُرتَّبُ وفق مقتضيات تخاطبيَّة تكون اللُّغة هي الجامعة بينها.

المحور الثالث: الموسوعيَّة.

المحور الثالث هو محورٌ معرفيٌّ أبان قدرة العُوتبي على استعمال معارف شتَّى لتأنيث ثيمة الكتاب الرئيسة وهي الدُّخول في حديث الأنساب، فكان لغويًّا، معجميًّا، مؤرِّخًا، قاصًّا، وكان قارئًا طُلعةً، وظَّف مصادر عديدة لتمام كتابه في موضوع النَّسب، وفي الآن ذاته كان منصِّتًا لوقَّع الواقع، عارفًا بأقاصيص شعبيَّة، ومرويَّات دارجة بين النَّاس، ومشاهدًا، ملاحظًا معانيًا لما يروج وما يحدث في عصره، منطلقًا من بيئته ومن ابستميتِّها المعرفيَّة والتَّاريخيَّة والحضاريَّة.

وعلى ذلك، فإنَّه يجوز لنا أن نختم هذا الفصل من الدراسة بإثارة مباحثٍ يُفتِّحها كتاب الأنساب للعوتبي، وهي مباحث تُفارق المسار التقليديَّ الذي عُوِّمل به هذا المؤلِّف، بيانًا لما كان فيه من قُدرة على تفصيل الأنساب العُمانيَّة، ومن دقَّة في الدُّخول في تاريخ هذه الأنساب والوقوف على وقائع متَّصلة بهذه الأنساب، ومن ذلك ما توقَّر في موضوع النَّسب من انفتاح على الحكاية وعلى الأسطورة وعلى القصص عمومًا، وهو بابٌ لدراسة دور المؤلِّف في حياكة الحكاية، والقُدرة على صناعة شخصيَّات جامعة بين الإحالة التَّاريخيَّة والتَّمثيل الشعبيِّ، ولدراسة منزلة الرَّاوي

وما به يتميّز من تشكُّلٍ ذهنيٍّ اعتقادي يسوس تبئيره للقصص،
وغير ذلك من عوالم القصص الممكنة التي أفاض فيها العُوتبي
واستحقَّ بها اهتمامًا نقديًّا جديرًا بما ضمَّه كتابه من مختلف
الرؤى والتوجُّهات.





خاتمة.

لقد خلصنا من دراستنا للخبر إلى جملةٍ من المواطنِ البحثيةِ في تاريخ التُّراثِ النثريِّ في شبه الجزيرة العربيةِ التي تحتاجُ ذهنًا ناقِدًا إذا ما تعمَّق درُسُها في إطار عمل فريقٍ بحثٍ يمكن أن يؤسِّس في الأدب العربيِّ منظورًا جديدًا يمسُّ تصنيف الأجناس ويمسُّ صلة الأجناس بعضها ببعضٍ ويمسُّ أيضًا المكونات الخطابيَّة الأساسيّة والأصوليّة في الأدب العربيِّ، ويمسُّ أخيرًا الجواب عن سؤال دور الأدب في الواقع الحياتي والذهني للعربيِّ.

لقد أدركنا أنَّ الخبر قد وقَّر الأساس الأوَّل للنشر في شبه الجزيرة العربيةِ، وهو خطابٌ نثريٌّ وجيزٌ قائمٌ على إسنادٍ ومثَنٍ يُلامسُ مجالات مختلفة، فهو مُكوِّنٌ أصليٌّ في تاريخ أدب العرب، وهو عنصرٌ حياتيٌّ، رائجٌ في حياة النَّاس، يُعتمدُ في تناقل الأخبار مهما كانت حمولاتها وتوجُّهاتها، وهو مُكوِّنٌ أساسيٌّ في تناقل المعرفة أيضًا في علاقات النُّخب العالمة، ولعلَّ سمتهُ -وجازةً وانفتاحًا وقابليَّةً للإحالة- هي التي مكَّنته من أن يروج بين النَّاس، وأن يترسَّخ في ميادين معرفيَّة متعدِّدة.

ومن أَجْلِ ذلك، كان أنصرافنا في هذا الباب إلى البحث في توفُّر شكل الخبر في صورته الأدبيَّة في مدوّناتٍ احتوته ومثَّلت الأُسُس الأولى لتكوُّن أجناسٍ في النثر العربيّ تنوّعت وتفرَّعت مسالكها، واتَّخذنا مدوّنتين أَرْضِيَّةً لتتازع الخبر بين التَّاريخيِّ والأدبيِّ، ذلك أنَّ قدر الخبر أن يظلَّ موصولاً بهذين المجالين الغائمين في تاريخ الحضارة العربيَّة، وهما كتاب عُبيد بن شَرِيَّة الجُرهميِّ أَخْبَارُ عُبيد بن شَرِيَّة الجُرهميِّ في أَخْبَارِ الْيَمَنِ وَأَشْعَارِهَا وَأَنْسَابِهَا، وكتاب وَهْب مِنْبَه كِتَابُ التَّيْجَانِ فِي مُلُوكِ حَمِيرٍ، وهما الكتابان الأصليَّان والأساسيَّان، تأسيساً لفنِّ الخبر في الأدب العربيِّ، وعليهما مدارُ إشكاليَّة معرفيَّة جديرة بالتوسُّع والبحث وهي إشكاليَّة التَّاريخيِّ والتخييليِّ، فأدركنا من خلال دراستنا لنصوص الكتّابين أنَّ المقام القصصيّ الخاصَّ والعامَّ، هو مقامٌ باعثٌ لإنشاء عالمٍ من التَّخيل القصصيّ، وأنَّ الوجه التَّاريخيِّ لقصص عُبيد بن شَرِيَّة أو وهب بن مِنْبَه، هو عاملٌ مساعدٌ لتحقيق التَّخيل القصصيّ، فالعوالم التي كان يحكيها الرَّاويَّتان هي عوالمٌ ممكنةٌ في المخيِّلة الجمعيَّة، وهي عوالمٌ تفسيريَّةٌ لما بدا غامضاً أو متنازِعاً فيه، مثل بداية الكون أو توزُّع القبائل العربيَّة أو أبطال العرب وملوكها.

وقد لاحظنا أنَّ القَصص الأَخباريِّ في المدوّنتين واقعٌ تحت أثر تصوّراتٍ قَبْلِيَّةٍ تُعَلِّي من شأن اليمن، أو من شأن عرب الجنوب، وتُخَيِّل وقائعها وأحداثها وتواريخها، وتُسهم في إنشاء مرجعيَّة اعتقاديَّة حول قوَّة هذا الماضي وأصالته وحضارته، وهو أمرٌ داخلٌ أيضاً في سياق التَّنازع التَّاريخي السَّائد بين عرب الجنوب وعرب

الشَّمال، وعلى ذلك فقد لامس الكتابان عوالم الجنِّ، وأصول البدايات، وعوالم الأبطال، وقصص الملوك والأنبياء.

إنَّ تتبُّع أخبار الأوَّلين والسعي إلى توفير قصص الأوَّلية والأسبقية والزعامة والبطولة مقرونٌ بتوجُّه في الخططِ الخبرية قوامه ضبط الأنساب، وهو مكمُنٌ تنازعٍ وأرضيةُ اختلافٍ، والنَّسبُ خبرٌ وإخبارٌ يحتاجُ إلى السَّند لتوثيق وجاهته وصدقته ويحتاج إلى القَصص لتسويغ النَّسب وإثباته، وعلى ذلك فقد رشَّحنا مدوَّنتين للنظر في «علم» تفرَّد به العرب وأفاضوا القول فيه، وأخرجوه من محض ضبط الآباء والأبناء إلى الدُّخول في حكايات التناسل وقصص القرابات، بدءًا من تكوُّن القبيلة أو العشيرة إلى تشقُّقها وتفرُّع أصولها، ورشَّحنا لذلك كتابين، لهما منزلة هامة في تاريخ الحضارة العربية، وهما كتاب نسب قريش للمصعب الزبيري، وكتاب الأنساب للعوتبي، واستخلصنا منهما جملةً من الخطط والطرائق والوسائط التي كان النَّسابون يعتمدونها للتأليف في الأنساب، ولعلَّ أهمَّ النتائج التي انتهينا إليها أنَّ النَّسب موضوعٌ جالبٌ، جاذبٌ للإخبار والقصص ويُمكن أن يرتقي ليكون مقامًا قصصيًا، تدور عليه القصص وتُدعى لإثباته أو لبيانته أو لتأكيد، وأنَّ النَّسب وإنَّ كان متوجِّهًا إلى قبيلة بعينها (كما كان الأمر في نسب قريش مع المصعب الزبيري) أو كان عامًا، منفتحًا على عموم القبائل، فإنَّ العودة إلى الأصل الأوَّل الذي منه تفرَّعت القبيلة أو تفرَّعت القبائل أمرٌ واجبٌ الوجود.

وأخيراً فإنه يُمكن أن نخلص إلى أنَّ خطاب الخبر النَّسَبِيَّ ليس خطاباً حاوياً لأسماء الآباء وما نتج عنهم من أبناء فحسب، وإنَّما هو دوائرٌ في القصص تتوسَّع حسب منزلة النَّسب، وحسب مواطن الخلاف فيه، وحسب إدراك الراوية النَّسَّابة ومنزلته ومواقفه وانتسابه، فالُدُّخول في النَّسب حاملٌ لذاتِيَّة من جهةٍ، وقابلٌ للانفتاح على شتَّى التَّصوُّرات والاعتقادات المفارقة للواقع، ولذلك فإنَّ أغلب أخبار الأنساب أقرب إلى التَّخييل منها إلى المحاكاة والضبط والمطابقة.





الباب الثالث

القصص
المسخر



مقدمة.

لم يكن لنا أن نختم هذا المبحث دون أن نعريض إلى ظاهرة على قدر من الأهمية في تاريخ التراث العربي، وهي ظاهرة التنازع القصصي بين العلوم والمعارف، أو القصص المسخر، الذي يؤتى به ويُدعى في مقامات غير تخيلية وغير أدبية، وإنما هي مقامات أقرب إلى الفضاء العلمي أو الفقهي، إذ تُصبح القصة وسيلة وأداة لتحقيق مقاصد تتعدى التسلية والإفادة، إلى تحقيق البرهان والحجة، أو لمزيد البيان والتأثير، فلا شك أن ما صدر عن عبيد بن شرية الجرهمي من أخبار داخل في مقام سمر أدبي تخيلي (سواء كانت واقعة اللقاء بين معاوية وعبيد أو لم تكن، فالمبدأ الذي تكوّنت به أغلب كتب النثر العربي القديمة هو مبدأ توقّر طالب راغب، ووجود مستجيب، مجيب، هو الراوية)، وهو مقام يستدعي الأخبار والأشعار إمتاعاً وموانسةً، وفيه مراعاة لمقام السائل ولآفاق انتظاره، وفيه حياكة للأخبار والقصص تظهر فيها قدرة المتكلم الراوية على التخيل وعلى مراعاة المقام التخاطبي، فالقصص في هذه النصوص مقصود لذاته، مرغوب، مطلوب، ولذلك فإننا نصنّف هذه المدونات في خانة الأدب ارتباطاً بالتخيل، غير أن مجالاً ثانياً يمكن أن يحتوي الأخبار والقصص والأشعار، أي الأدب، ومقامه ليس أدبيّاً، أي أن التخيل فيه لا يقصد لذاته،

وإنمأ هو مُسَخَّرٌ لغافاء علمفة أو ففقهفة؁ ومِن ذلك ما فدخل فف كُتب اللغوففن؁ المؤصِّلفن لظواهر لغوففة أو بلاغفة أو معجمفة؁ تعلفمأ وففافأ؁ ومِن ذلك ما فدخل فف كُتب العلماء مِن توظفلف للأخبار والقصفف تمثفلاً أو اأأأأأ؁ ومِن ذلك ما فلفأ إلفه الففهاء وعلماء الالفن على اأألاف مجالافهم مِن توسُّل بالقصفف لمقاصد بفائففة أو مثلففة أو ففسفرفة أو تعلفمفة.

إن هذف الأرففة الفف فوفر النثر الأءبف ففها فف مقام فر فر أءبف فف أرففة ثرة ثرففة؁ داعفة إلف القصفف والتبُّع والففان؁ وهف أفضأ مجال بكر للبأف والففر فف العلفة بفن المقام العلمف أو الففقهف والمقام الأءبف؁ وفف وظففة الأدب فف التراث العربف وضبط مقاصفه ووسائله.

لقد رشحنا لهذا المبأف نُصُوصاً مأألفة؁ أأأ إلف وسفع بأف ونظر؁ ولذلك اقأصرنا على إأارة مباحأها والتبفه إلف قفمأها؁ وأجمفع قسم مِن نصوصها؁ وهو الأمر الأشق؁ أاصفة فف أأقفقها وضبط أأكفلها والبأف عن معانف ألفاظها؁ وهف نُصُوصٌ موزعة فف مظان عففدة؁ وأكأسف قفمة سفاقفة أءاولفة هامة؁ ولذلك عملنا على إلأاقها بالمبأف؁ وأوفر عففاف منها فمكن أن أصف سبلاً للباحأفن. وهذف المصادر الفف رشحناها فف؁ أولأً مصدرُ وأرء فف مقام لغوفف معجمف لسانف؁ هو أأافأ ابن أرفاء الوارءة فف كتاب الأمالف للقالف؁ وثانفأ؁ نصوص قصصففة وارءة فف كتاب طبف هو كتاب فاكهة ابن السبفل لأراشء بن عُمفر

بن ثاني بن خلف بن هاشم⁽¹⁾، وفي كتاب «علمي» يلامس من العلم مواطن شتى وفقاً لمقاييس زمانه وفضاءه، وهو كتاب شفاء القلوب من داء الكروب لخميس بن راشد بن سعيد العبري⁽²⁾، وكتاب أخير في علوم الحديث النبوي، وهو كتاب لؤلؤة البحرين، في الإجازات وتراجم رجال الحديث للبحراني⁽³⁾.



(1) ابن عمير بن ثاني بن خلف بن هاشم (راشد): فاكهة ابن السبيل، (وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، الطبعة الثانية، 1984).

(2) العبري (خميس بن راشد بن سعيد): شفاء القلوب من داء الكروب، (مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون الدينية والتاريخية، سلطنة عُمان، الطبعة الثانية 2013).

(3) البحراني (يوسف بن أحمد): لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، (مكتبة فخرآوي، الطبعة الأولى، 2008).



الحديث الأدبي: تأصيل الأصول.

لم يكن لنا ونحن نَعْرِضُ إلى بعض من مظاهر النشر الدَّارِجَة والشائعة في شبه الجزيرة العربيَّة ألاَّ نُثِيرَ مسألة خاض فيها الأدباء والنُّقَّاد، وهي ردُّ جذور فنِّ المقامة إلى أحاديث ابن دُرَيْد، وعدّه صاحب الطريقة الأولى التي عليها استند الهمذاني واتَّكأ لبناء فنِّ له أثرٌ وموقِعٌ في تاريخ النشر العربيِّ. ولذلك أردنا أن نقف أولاً على هذه الأحاديث وأن نُبين خواصّها وأثرها في أدب العرب، ثمّ نتبيّن من بعد ذلك صِلَتها بالمقامة وقُدْرَتها على إنشاء نمطٍ أدبيٍّ حادث، وكان لزاماً علينا أن نَسْتَخْرِجَ قِسْماً من هذه الأحاديث المبتوثة في كتاب الأُمالي للقالبي، وأن نشرح مُغْمِض ألفاظها، وأدرجنا ذلك في مُلْحَقٍ خاصٍّ بنصوص ابن دريد، إذ هي لم تُسْتَخْرِجْ بشكلٍ فارقٍ بيّن، يضع حدّاً للحديث الأدبيِّ ويُميِّزه من بقيّة الأجناس والأنواع، وتُجمَع في كتابٍ تختصُّ به، على أساسٍ جليٍّ واضحٍ، وإنّما الجمْع كان محضَ استخراجٍ لكلِّ أو لأغلب ما روى ابن دريد.

ابن دُرَيْدٍ هو «الْعَلَّامَةُ، شَيْخُ الْأَدَبِ، أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ ابن دُرَيْدِ بْنِ عَتَاهِيَةَ الْأَزْدِيِّ، الْبَصْرِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ، تَنَقَّلَ فِي فَارِسَ وَجَزَائِرِ الْبَحْرِ يَطْلُبُ الْأَدَابَ وَلِسَانَ الْعَرَبِ، فَفَاقَ أَهْلَ

زَمَانِهِ، ثُمَّ سَكَنَ بَغْدَادَ. وَكَانَ أَبُوهُ رَئِيسًا مَتَمَوِّلًا. وَلَأَبِي بَكْرٍ شَعْرٌ جَيِّدٌ. حَدَّثَ عَنْ أَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ، وَأَبِي الْفَضْلِ الرِّيَاشِيِّ، وَابْنِ أَخِي الْأَصْمَعِيِّ، وَتَصَدَّرَ لِلْإِفَادَةِ زَمَانًا. أَخَذَ عَنْهُ أَبُو سَعِيدٍ السَّيرَافِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ شَادَانَ، وَأَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ، وَأَبُو عُبَيْدٍ اللَّهِ الْمَرْزُبَانِيُّ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ مِيكَالَ وَعَيْسَى بْنُ الْوَزِيرِ، وَطَائِفَةٌ. قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ الْأَزْرَقِ: مَا رَأَيْتُ أَحْفَظَ مِنْ ابْنِ دُرَيْدٍ، وَلَا رَأَيْتُهُ قُرِئَ عَلَيْهِ دِيْوَانٌ قَطُّ إِلَّا وَهُوَ يَسَابِقُ إِلَى رِوَايَتِهِ، يَحْفَظُ ذَلِكَ. قُلْتُ: كَانَ آيَةً مِنَ الْآيَاتِ فِي قُوَّةِ الْحِفْظِ. وَقَالَ الدَّارِقُطْنِيُّ: تَكَلَّمُوا فِيهِ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَسَدِيُّ: كَانَ يُقَالُ: ابْنُ دُرَيْدٍ أَعْلَمُ الشُّعْرَاءِ، وَأَشْعَرُ الْعُلَمَاءِ. قُلْتُ: تُوُفِّيَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ، وَلَهُ ثَمَانُ وَتِسْعُونَ سَنَةً، عَفَا اللَّهُ عَنْهُ⁽¹⁾.

وهو يرجع انتساباً إلى أزد عُمان⁽²⁾، وسيرته توضعنا إزاء راوية أديبٍ، له شأنٌ في تاريخ الرواية، وهو حُجَّةٌ في اللغة وفي ضبط الأنساب وفي رواية الأخبار، وقد ترك آثاراً صارت من قبيل المصادر منها: كتاب الاشتقاق⁽³⁾، وهو مرجعٌ موسوعيٌّ، إلا أنَّ تركيزه على ذكر الأنساب جعله مصدراً هاماً لأصول القبائل العربيَّة، وكتاب الفوائد والأخبار⁽⁴⁾، كتابٌ في الأخبار

(1) سير أعلام النبلاء، 96/15

(2) الزركلي (خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي): الأعلام، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشر، 2002)، 80/6.

(3) ابن دريد الأزدي (أبو بكر محمد بن الحسن): الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1991).

(4) ابن دريد الأزدي (أبو بكر محمد بن الحسن): الفوائد والأخبار، تحقيق: إبراهيم صالح، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1986).

عامّة، وتخيّرُ لها على أساس ما يُمكن أن تُحقِّقه من فوائد، وكتاب **جمهرة اللّغة**⁽¹⁾، وهو كتابٌ معجمٌ يحتوي معاني الألفاظ، ويضمُّ أيضًا النوادر من الكلمات والمعاني، وهو موسوعة معجميّة لطيفة، إضافةً إلى عددٍ هامٍّ من الكُتب⁽²⁾ والأخبار والأحاديث الموزّعة في مظانّ متعدّدة، ومنها ما عملنا على تجميعه من مختلف الأحاديث التي أسندها القالي إلى ابن دريد، وهي أحاديثٌ لاقت تقبُّلاً حسناً في القديم والحديث، وخصّها الأدباء والدارسون بالإشادة والبحث والنظر العميق، وهي أحاديثٌ تدور في مداراتٍ مُختلفة، وتُسّعمَل أرضيّةً يُظهِرُ فيها الراويةُ مقدّرتَه اللّغويّة والبلاغيّة، فهي أقرب إلى الدّرس التعليمي في محاسن الكلام وطُرقه وأساليبه وفي دقائق الألفاظ ورقائق معانيها.

الحديثُ هو فنٌّ من فنون الكتابة عند العرب، وقد تداخل مع فنونٍ شبيهةٍ، وهو في رأينا شقٌّ من الخبر وفرعٌ منه، وقد تحدّث محمّد القاضي في كتابه **الخبر في الأدب العربي** عن صعوبة التمايز بين أجناس الأدب النثريّ عند العرب، إلّا أنّه رُغمًا عن ذلك، فإنّ الحدود بينها تظلّ قائمة، ويروى الخطيب البغدادي (ت 463 هـ) في كتابه **تاريخ بغداد** أنّ إسحاق بن إبراهيم الموصلي (ت 235 هـ) قال للراوية المعروف، **الزبير بن بكار** (ت 265 هـ)، صاحب كتابي **الأخبار الموفّقيّات** ونسب قريش وأخبارها: «يا أبا عبد الله عملت كتاباً سمّيته **كتاب النّسب**، وهو **كتاب الأخبار**. فأجابهُ **الزبير بن بكار**

(1) ابن دُرَيْد الأزدِي (أبو بكر محمّد بن الحسن): **جمهرة اللّغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، (دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1987).

(2) «المجتبى - المطر والسحاب - الملاحن».

قائلاً: «يا أبا مُحَمَّد أَيْدَكَ اللَّهُ، عَمَلْتَ كِتَابًا فِي الْأَعَانِي، وَهُوَ كِتَابُ الْمَعَانِي»⁽¹⁾، وهو مثالٌ من تداخلِ أجناسِ النثر عند العرب قديماً، وعدم توضّح الفوارق الدقيقة بينها، غير أننا إن تمعنّا الأمر جيّداً وجدنا بعضاً من الفويرقات التي تُميّز الحديث من المقامة، والحديث من الخبر، والقصص من الحديث، وغير ذلك، ممّا يُمكن أن يُحدّث فارقاً في التعامل مع تسميات متعددة لأجناس النثر العربيّ، تحتاج جهداً في البحث والتقصّي للوقوف على الجامع والمانع في تمايز هذه الأجناس، «وإن كان يجوزُ لنا أن نتحدّث فيه عن تميّزٍ لهذه الصُّرُوب وهذه الألوان بعضها من بعض، فلعلّ الخاصّة كانت تفصلُ بينها، في حين أن العامّة لم تكن تُدرِكُ ما بينها من الفوارق. لذلك يكتب الكاتب، وهو يستحضِرُ أفقَ انتظارٍ مَخْصُوصاً، ويستغلّ التجاوُرَ والتّواشُجَ ليزيد في شأنِ كتابه ويرفَع من قدره»⁽²⁾.

إنّ فنّ الحديث الذي به عُرف وتسمّى ابن دُرَيْد هو فنٌّ موصولٌ مَبْنَى ومَعْنَى بالخبر، مُضَارِعٌ له في حُدوده الشكليّة الكُبْرَى، وفي اختلاف المواضيع التي يُعالِجُها. فهل أنّ فنّ الحديث في الأدب العربيّ هو وجهٌ من أوجه تحقّق الشكل الأَوْفَى، وهو الخبر؟ أو هو فرعٌ من فروع الخبر يشترك معه في خواصّ ويُقيم لنفسه سبيلاً به يتميّز ويتفرد؟

(1) شاهدٌ أورده محمّد القاضي في كتاب الخبر في الأدب العربي ص 61.

(2) محمّد القاضي 62.

إذا ما تتبّعنا المعاني التي استُخدمت للدلالة على فنّ الحديث، وجدنا أنّ استعمال لفظ الحديث يتداخل مع أنواع أدبيّة مُجاورة ومُشابهة، مثل «المثل» و«القصة» و«النبأ» و«الخبر»، وألفينا تحديداً أولياً في القرآن الكريم يضبطُ للحديث جملةً من المعاني الموصولة بالدلالة على الكلام وعلى الوحي وعلى القصّة، ويمكن أن نُدرك صورةً من تعدّد معاني لفظة «الحديث» في التراث العربيّ، من خلال استعمالها في القرآن الكريم على أوجهٍ متعدّدة ومعاني مختلفة تُبينها الأمثلة التالية:

■ «وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى»⁽¹⁾.

■ «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا»⁽²⁾.

■ «اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»⁽³⁾.

■ «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»⁽⁴⁾.

(1) سورة طه، الآية 9.

(2) سورة الكهف، الآية 6.

(3) سورة الزمر، الآية 23.

(4) سورة لقمان، الآية 6.

■ «وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ، نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ»⁽¹⁾.

■ «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ»⁽²⁾.

■ «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ»⁽³⁾.

وقسَّ على ذلك من استعمالِ لَفْظَةِ «الحديث» في القرآن الكريم بمعنى القرآن والذكر والخبر والمقول والغناء (كما ذهب إلى ذلك أغلب المفسرين في شرح قوله «لهو الحديث»)، غير أنَّ الغالب عليها هو معنى المقول أو القول⁽⁴⁾، وهو المعنى الدَّارج للفظَةِ الحديث عند العرب منذ القرن الأوَّل للهجرة، فبالرُّغم من أنَّ عبارة «الحديث» أصبحت مرتبطةً بأقوالِ الرَّسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام، وتأسَّس حولها علمٌ دقيقٌ، هو «علم الحديث»، بكلِّ ما تفرَّع عنه من فروعٍ ميَّزته وجعلته علمًا له شيوخه ومذاهبه ومدارسه، إلَّا أنَّ العرب واصلوا استعمالَ عبارة الحديث للدلالة على نمطٍ في القولِ مُميَّز جامع بين تناقلِ القولِ وحملِ الأنباء والأخبار.

ولقد رصد محمَّد القاضي معنيين لعبارة الحديث، توصَّلَ منهما إلى أنَّ الحديث هو فنُّ الجمع بين المنقول القولي والدخول

(1) سورة التحريم، الآية 3.

(2) سورة البروج، الآية 17.

(3) سورة الغاشية، الآية 1.

(4) القاضي، ص73.



في القصص، ففي قوله تعالى: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا»⁽¹⁾ تدلُّ لفظة «الحديث»، يقينًا، على القول، وقوله تعالى هو القرآن الكريم، أمّا في قوله عز وجل: «هل أتاك حديث موسى»⁽²⁾، أو قوله «هل أتاك حديث الجنود، فزعون وثمود»⁽³⁾، فإنّ المعنى الذي أُجريت عليه لفظة «الحديث»، هو القصّة، «ومن ثمّ جاز لنا أن نذهب في فهم هذه الكلمة أحد مذهبين: فإمّا أنّها تُفيد ما يتناقله الرواة من حديث عن موسى وعن فرعون، وبهذا نبقى في مجال الدلالة الأولى أي القول، وإمّا أنّها تُفيد ما وقع لكل من موسى وفرعون، فقولنا، حديث موسى كقولنا قصّة موسى. فنحن إزاء تطوّر في معنى الكلمة من القول المباشر إلى ما يُروى في موضوع مخصوص إلى القصّة أي الحوادث والوقائع. وهذه الحلقة الوسطى بين معنيي «الخطاب» و«الخبر» اللذين يتصلان بكلمة «الحديث» نجدّها متجسّدة في قوله تعالى: «كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ»⁽⁴⁾، فكلمة أحاديث تبدو لنا في هذا السياق محلاً لتقاطع معنيين، أوّلهما ما يتناقل من كلام عن الأمم التي كذّبت الرُّسل، وثانيهما ما حدّث لهذه الأمم من سوء المصير حتّى غَدَتْ عِبْرَةً لِمَن يَعتَبِرُ»⁽⁵⁾.

(1) سورة النساء، الآية 87.

(2) سورة طه، الآية 9.

(3) سورة البروج، الأيتان 17 و18.

(4) سورة المؤمنون، الآية 44.

(5) القاضي، -73 74.

وهي نفس المعاني التي نجدها تُجَرى في كتاب أخبار عبيد بن شريّة في أخبار اليمن، فيستعمل لفظة الحديث للدلالة على المنقول القولي، أو على الرواية، على شاكلة قوله: «وذكر محمد بن إسحاق في غير حديث عبيد بن شريّة الجُرْهُمِيَّ»⁽¹⁾، وبمعنى القصص في قوله: «حديث جرهم»، و«حديث ثمود»⁽²⁾، ويبقى هذا التّأرجح بين المعنيين، قصّة ورواية، في دلالة لفظة «الحديث» قائمًا عند أغلب الأخباريين والموسوعيين العرب، مثل الجاحظ⁽³⁾، وابن النّديم⁽⁴⁾، وغيرهما.

وعموماً يُمكن أن ننتهي من هذه المقدّمة التي أردنا منها أن نقف على حدٍّ مميّز لهذا الفنّ الذي كُثرت فيه التّأليف في تاريخ الحضارة العربيّة، ولكن فقد ألقه والتوسّع فيه بسبب ارتباطه بأقوال الرسول عليه الصّلاة والسّلام، إلى أنّ الحديث هو منقولٌ قولِيٌّ يُسَنَدُ إلى جهةٍ معلومةٍ - في العادة - ويتحدّد بالمقصد منه، فليست غايته الأولى الأخبار ولا القصص، وإنّما القصد الأوّل منه منزلةُ المُحدّث ومكانته، فالقول يُصَبِّحُ حديثاً إذن، إن ارتبط بجهةٍ معلومةٍ، لها مكانةٌ في الرواية وفي الدّراية.

(1) عبيد بن شريّة، أخبار اليمن، ص 381.

(2) م. ن. ص 367، 370، 396.

(3) القاضي، 75.

(4) فهو في كتاب الفهرست يستعمل اللفظة بالمعنيين المذكورين، وذلك يتجلّى في العناوين التي يُوردها، على شاكلة كتاب حديث الأزارقة، وكتاب حديث روشنقباد وكتاب حديث آدم وولده.



ومن هذا الباب تكتسب أحاديثُ بن دريد التي أوردتها القالي في كتاب الأُمالي منزلتها ومكانتها، فهي مضموناً وشكلاً عامّاً تكاد لا تفترق عن الخبر أو عن القصّة (إن كانت قصصاً)، غير أنّها حديثٌ لأنّها تُردُّ إلى صاحبٍ عمل عليها وتخيرها ووقف على ما يُريده منها، وفي الأُمالي، فإنَّ المُراد من إيراد الأحاديث، هو بيان مغمض الألفاظ وعرض شروحٍ لكلمات داخلية في القولِ البليغ المُبين.

لقد عدنا إلى هذه الأحاديث، وعملنا على استخراج قسمٍ يسيرٍ منها، ضبطنا إعرابها، وأعدنا تنزيدها، وجمّعناها في مُلحقٍ ضمّنناه هذه الدّراسة حتّى يتيسّر للدّارس الاطّلاع عليها وتكوين فكرة عنها، ووددنا لو كان لنا متسعٌ من الزّمن لاستخراج كلّ هذه الأحاديث وتحقيقها وإخراجها في كتابٍ جامعٍ. وللمطلّع أن يُدرك أنّها أحاديثٌ متنوّعة، قد تُلامِسُ أشكالاً من التعبير مختلفة، مثل المجاوبات والخطابة والوفادة والأخبار والسّير إلّا أنّ جامعها، أنّ متحدّثاً قد تحدّث بها وأملاها، وفصل فيها القول، وبالرّغم من وفرة الدّراسات التي عرّضت إلى أحاديث ابن دريد إلّا أنّها لم تقف على حدٍّ «الحديث»، وما به يستقيم نمطاً قولياً يختلف عن جملةٍ من أشكال التعبير المُجانبية له، السائدة في زمانه، مثل الخبر والحكاية والقصّة، فبقيت هذه الدّراسات شكليةً لا تعي الفارق بين هذه الأجناس الخطابية، ولذلك اجتهدنا في الوقوف على معنى الحديث، واستخلصنا من جملة هذه المعاني حدّاً يجعل فنّ الحديث شكلاً في القول جامعاً، يُمكن أن يضمّ في ثناياه المثل والخطبة والخبر والقصّة، وأن يستنّ لنفسه سبيلاً خاصّاً به.

لقد انتبه الحُصْرِي القيرواني في كتابه زهر الآداب إلى الصِّلة الممكنة بين ما اجتَرَحَه ابنُ دريد من أحاديث ومقامات بديع الزَّمان الهمداني، وعدَّ الهمداني مُعارِضًا لابن دريد، على إعلائه من شأنه وبيان الانبهار بمقاماته، يقول: «لَمَّا رَأَى (الهمداني) أَبَا بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ بْنِ دُرَيْدٍ الْأَزْدِيَّ أَغْرَبَ بِأَرْبَعِينَ حَدِيثًا، وَذَكَرَ أَنَّهُ اسْتَنْبَطَهَا مِنْ يَنَابِيعِ صَدْرِهِ، وَاسْتَنْخَبَهَا مِنْ مَعَادِنِ فِكْرِهِ، وَأَبْدَاهَا لِلأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ، وَأَهْدَاهَا لِلْأَفْكَارِ وَالضَّمَائِرِ، فِي مَعَارِضٍ أَعْجَمِيَّةٍ وَالْفَاضِلِ حُوشِيَّةٍ، فَجَاءَ أَكْثَرُ مَا أَظْهَرَ تَنْبُو عَنْ قَبُولِهِ الطَّبَاعُ، وَلَا تَرْفَعُ لَهُ حُجْبَهَا الْأَسْمَاعُ، وَتَوْسَعُ فِيهَا، إِذْ صَرَفَ أَلْفَاضَهَا وَمَعَانِيَهَا، فِي وُجُوهِ مُخْتَلِفَةٍ، وَضُرُوبٍ مُتَصَرِّفَةٍ، عَارِضَهَا بِأَرْبَعِمِائَةِ مَقَامَةٍ فِي الْكُدْيَةِ، تَذُوبُ ظَرْفًا، وَتَقْطُرُ حُسْنًا، لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ الْمَقَامَتَيْنِ لَفْظًا وَلَا مَعْنَى»⁽¹⁾.

وهو مَلَمَحٌ لطيفٌ منه، وإشارةٌ عميقةٌ، تشفُّ عن عميق إدراكٍ للقَصْدِ من النوعين الأدبيين، فالمقامة بالضرورة ليست الحديث، وما ابْتَكَرَه الهمداني يبقى نوعًا خاصًا من الكتابة الأدبية، جمع فيها بين المقصد والطريقة، فالقصد هو تعليم فنون البلاغة وشتى وسائلها وأساليبها، والطريقة هي قصصٌ يُسْتَلَذُّ وحكايةٌ تُسْتَطَابُ وتشدُّ القارئ إليها، فإن كان الحديث أقرب إلى الخبر فإنَّ المقامة إلى القصص أقرب، فما الصِّلةُ بينهما، ولم هذا الإشكال؟

(1) الحُصْرِي القيرواني (أبو إسحاق إبراهيم بن علي): زَهْرُ الآدَابِ وَثَمَرُ الْأَبْيَابِ، تحقيق: علي محمد البجاوي، (دار إحياء الكتب العربية، مصر، الطبعة الأولى 1953)، 1/ 261.

لقد اعتُمدت إشارة الحُصري القيرواني مرجعاً لردِّ مقامات الهمذاني إلى أصلٍ أوَّلٍ وأرضيّةٍ مؤسّسةٍ هي «أحاديث» ابن دُرَيْد، ووَصِّل هذين النوعين المتغايرين له وجاهةً ومنطقٌ، وقد تلقّف زكي مُبارك⁽¹⁾ هذه الإشارة وعمّق الصّلة بين الفرع (المقامة) والأصل (أحاديث ابن دريد)، وفتح الباب لدراساتٍ لاحقة توسّعت في باب المقارنة والمُصادرة، يقول: «الأحاديثُ التي نَقَلها القالي عن ابن دُرَيْد تشتمل على طائفةٍ من القصص المسجوعة تقرب في وُضعها من قصّته عن حجّ أبي نوّاس، وتصلح أيضاً أن تكون أساساً لفنّ المقامات، فلا بأس من الاطمئنان إلى أنّها شطرٌ من الأربعين حديثاً التي عارَضها بديع الزّمان»⁽²⁾.

وفي هذا القول منحيّان، وجَّها أغلب الدّراسات المُعالجة للمقامة ولأحاديث ابن دُرَيْد، المنحى الأوَّل، اعتمادُ زكي مبارك على قصّة «حجّ أبي نوّاس» مقياساً ومعيّاراً لقياس مدى اقتراب أحاديث ابن دريد من الطّرافة واللّطافة وحسّ الفكاهة والأسلوب المسجوع وهي الخواصّ التي بها اختصّت المقامة، وأصبح الدّارسُ يبحث عنها في مظانّ ابن دريد، والمنحى الثاني الإقرار اليقينيّ القطعيّ بأنّ الهمذاني قد «عارَض» (أي اتّبَع خطاه وتقيّل سبيله، ووضع أحاديث ابن دريد منوالاً عليه ينسج مقاماته) أحاديث ابن دريد.

(1) مُبارك (زكي): النشر الفنّي في القرن الرّابع، (مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر)، 2012.

(2) م. ن. ص 224.

والحال أنَّ الأمر لا يعدو أن يكون صلةً عامّةً قد لا تحتاج إلى بذّرٍ مثل هذا التوسّع والإفاضة، فالحديث نمطٌ في القول له أصوله ومظاهره، والشّراكةُ الوحيدةُ بينه والمقامة ماثلةٌ في الإغراب اللَّفْظِيّ والتعلّيم البِلاغِيّ والبيانيّ، وما عدا ذلك فلا مناسبة يجتمع فيها حديث ابن دريد مع مقامة الهمداني.

بقي أمرٌ أخيرٌ هامٌّ، وهو أنَّ جمّع هذه الأحاديث كان مرتبّاً، ولا يخضع لمعيار، ولقد انتابني تساؤل رئيس وأنا أعالج هذا الموضوع، أين هي أحاديث ابن دريد؟ وظفرتُ فعلاً -كما هو متداول- بمرويات عن ابن دريد في كتاب الأُمالي للقالبي، وهو المصدر الرئيس الذي منه استخرج أغلب الدّارسين أحاديث ابن دريد، وهذه المرويات تجمع الأحاديث والأشعار والقصص والأمثال والخُطب، فهل هي كلّها أحاديث ابن دريد، فإن كانت كذلك، فلمَ التركيز على إيجاد الأربعين حديثاً، والحال أنَّ ما رُوِيَ عن ابن دريد من أقوالٍ وأخبارٍ يفوق ذاك الرقم بكثير؟

لقد عمل زكي مبارك على استخلاص قسم من هذه الأحاديث، وهو الذي وجّه من بعد ذلك أحمد درويش⁽¹⁾ في الانطلاق من الموضوعات في تصنيف أحاديث ابن دريد وجمعها، فقد بَوَّب زكي مبارك مواضيع الأحاديث في القيم العربيّة وحوارات النّساء، والحكم العربيّة، يقول: «ثمَّ ننظر فنرى ابن دريد اهتمّ بتصوير

(1) درويش (أحمد): ابن دريد رائد فنّ القصّة العربيّة، (دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر الطبعة الأولى 2004).

الشمائل العربيّة، وكلف بنوع خاصّ بتقديم طائفةٍ من الصُّور المختلفة من أحلام النساء في فهم الرجال، وإعجاب البنات بأعمال الآباء، وما يَقَعُ من الملاحاة بين الأزواج، والتّواصي بين الشّباب والكهول، كلّ ذلك بطريقة قويّة، أخّاذة، تجعل له مكاناً بين العالمين بالغرائز وأهواء النُّفوس»⁽¹⁾.

ومن ذلك عمل زكي مُبارك على الإشارة إلى المواضيع التي دخل فيها ابن دريد، مثل الهواجس الجنسيّة، وشجعان العرب وفرسانهم وأجوادهم⁽²⁾، وهو المبدأ الذي صنّف أحمد درويش أحاديث ابن دريد على أساسه، فاعتمد على موضوعات كبرى أدخل فيها المرويّات المُسنّدة إلى ابن دريد في أمالي القالي، فكانت «أحاديث من عالم الأعراب والبادية»⁽³⁾، و«أحاديث من عالم الطرافة والنّوادر»⁽⁴⁾، و«أحاديث من عالم الكهان»⁽⁵⁾، و«أحاديث من عالم النّساء والصبابة»⁽⁶⁾، و«أحاديث من الجنوب»⁽⁷⁾، و«أحاديث من التاريخ»⁽⁸⁾، و«أحاديث من عالم الحكمة والفصاحة»⁽⁹⁾.

(1) م. ن. ص. 225.

(2) م. ن. ص. 225-226.

(3) م. ن. ص. 145-170.

(4) م. ن. ص. 171-194.

(5) م. ن. ص. 195-203.

(6) م. ن. ص. 205-223.

(7) م. ن. ص. 225-234.

(8) م. ن. ص. 235-256.

(9) م. ن. ص. 257-274.

والحقيقة أنَّ تجميع هذه المدونة النصّية الوسيعة، لم يخضع إلى معيارٍ شكليٍّ ولا ضمنيٍّ، وإنّما هو تجميعٌ لنصوصٍ ضمن محاورٍ كُبرى لا تُحدّد خصيصةً ولا سمةً بها تميّز أحاديث ابن دُرَيْد. وكما سبق أن أشرنا فإنّ خصيصة الحديث ماثلة في أنّه منقولٌ قولِيّ تحدّث به راويةٌ إلى تلميذ عنه تلقّى ومنه أخذ قولاً لا تتحدّد أغراضه أو مضامينه بوجهة معيّنة، وإنّما تتحدّد الغاية والمقصد من الحديث.

«أحاديث ابن دُرَيْد» هي جُمْلَةٌ من الدُّروس التي تصدر عن حكايةٍ أو قصّةٍ أو موقفٍ تُستغلُّ أرضيّةً للشرح المعجميِّ أو البلاغيِّ أو اللّغويِّ، والفارق العميق بينها والمقامة أنّ الهمداني لا يتوغّل في بيان هذه القصديّة التعليميّة لشئى فنون البلاغة، وإنّما هو يعرّض تطبيقاً نصيّاً لها، في حين أنّ ابن دُرَيْد يُجْري نصّ الحديث لأجل الوقوف على مغمّض المعاني وبيان مختلف استعمالات الألفاظ والتراكيب.

أمّا في خصوص بنية هذه الأحاديث التي جمّعنا قِسْماً منها، واستخرجناها وضبطناها، وعملنا على تخيّر ما اكتمل منها فإنّها تحقّق بنيةً قصصيّةً تامّةً الشروط، ونعتناها بالأحاديث القصصيّة، لاحتوائها على أرضيّةٍ قصصيّةٍ هي المُتْكَأ الرئيس لرواجها وتداولها، وأدركنا من جمّع قسمٍ منها والاطّلاع عليها تامّة في كتاب «الأمالى» جملةً من السّمات العامّة والخاصّة، التي نضبطها في الملاحظات التالية:

1. «أحاديث ابن دُرَيْد» ليست خاصيّة بها ينفرد ابن دُرَيْد، وإنما هي داخلّة في نسق علميّ تعليميّ قائم على التداول الشفوي للمعلومات والدروس، وهذا السّيق العامّ لتداول المعرفة والعلم هو الذي اقتضى أن يأخذ القالي عن ابن دُرَيْد أحاديثه، كما أخذ أحاديث غيره، ويُمكّن الإشارة على سبيل التمثيل إلى رواية استند عليه القالي وأورد أحاديثه بطريقة تُضاهي أو قد تفوق استناده إلى ابن دُرَيْد، وهو الرّواية أبو بكر الأنباري الذي روى عنه القالي أحاديث لا تقلُّ أهميّة ولا فنيّة ولا كميّة عن أحاديث ابن دُرَيْد، وأبو بكر الأنباري (271-328 هـ) هو أبو بكر، محمّد ابن القاسم ابن محمّد بن بشّار بن الحسن بن بيان بن سماعة بن قُروّة ابن قُطن بن دعامة الأنباريّ، وهو من علماء زمانه روايةً وحفظاً ودرايةً، وهو صاحب كتاب الزاهر في معاني كلمات النّاس، وكتاب الأضداد في اللّغة، وشارح ديوان المفضليّات، وله أيضاً مجلس من أمالي الأنباري، وتُسَمَّل أحاديثه -كما استُعملت أحاديث ابن دُرَيْد- أرضيّة قصصيّة لإظهار المقدرة اللّغويّة والمُعجميّة.

2. تكتسب هذه الأحاديث وجاهتها ومنزلتها من توظيفها في سياق تعليميّ معجميّ وبيانيّ وتركيبيّ ولفظيّ، فالحديث هو قصّة مرفوقة بشُروح ومرتبطة بمقام، وعلى ذلك، فإنّ بنية الحديث هي بنية قصصيّة في مستوى الحكاية الأصل، وبنية بلاغيّة معجميّة نحويّة في مستوى ما يلحق الحديث من بيانٍ وتوضيحٍ.

3. تدخل البنية القصصية لأحاديث ابن دُرَيْدٍ في نسقِ البُنَى القصصية الرائجة والدارجة في عصره، من اعتمادٍ على البنية الشكليّة الأخباريّة العامّة، القائمة على سَنَدٍ ومَتْنٍ، فكلُّ أحاديث ابن دُرَيْدٍ ذات أسانيد تحوي رواةً علماء، ثابتةٌ قنواثهم - في أغلب الحالات-، فمن الدلائل على الرّواية العلميّة للأحاديث، أنّ قنوات الإسناد التي يتتبّعها الرّواية تكون ثابتة، تشفُّ عن وجودِ أستاذٍ معلّمٍ، وعن وجود طلبهٍ ينقلون روايته للحديث ومن أمثلة ذلك، قوله: «وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دُرَيْدٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمِّي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ»⁽¹⁾، فهذا الإسناد الذي يعود فيه ابن دُرَيْدٍ إلى عمّه، ويكون فيه الراوية الرأس، مصدر الخبر هو ابنُ الكلبِي، هو إسنادٌ متواترٌ، متعاوِدٌ، تُستهلُّ به عديد الأحاديث التي يرويها ابن دُرَيْدٍ، ومثاله، تعاوُدًا، وتكرارًا، الإسناد الذي تصدّر حديث المفاخرة بين طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان، يقول: «وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ دُرَيْدٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمِّي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِيهِ»⁽²⁾، أو ما افتتح به حديث الغلام الذي أنذر قَوْمَهُ، يقول: «وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دُرَيْدٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمِّي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ»⁽³⁾، وهي ظاهرةٌ معروفةٌ، مألوفةٌ في أسانيد الأحاديث الأدبيّة، يلتزم فيها

(1) الأُمالي، ص 35

(2) م. ن. ص 81.

(3) م. ن. ص 54.

الرواية بسلسلة إسنادٍ هي مصدره الذي منه استقى قِسْمًا مما يروي من أحاديثه، غير أنه لا يقصّر روايته للأحاديث على هذا المسار الإسنادي، وإنما هو يعتمد مسالك متعددة، تحوي حلقاتٍ من إنشاء الحديث وتداوله واحدة، وثابتة.

ومثالنا الثاني، يُظهر المسار الثاني الذي اتّخذه ابن دريد مصدرًا لرواية أحاديثه، وهو المتكُون من السَّكن بن سعيد قناةً ناقلةً للحديث، ومصدرًا منوعًا لرؤاياه الأصليين الرؤوس، ومُعلِّمًا عنه نقل ابن دريد كما هأمًا من الأحاديث، ومثال هذا التسلسل الإسنادي، قوله في إيراد حديث مَصَادِ ابْنِ مَذْعُورٍ، وخروجه في طَلَبِ الدَّوْدِ، وَمَا أَخْبَرَهُ بِهِ الْجَوَارِي الْأَرْبَعُ الطَّوَارِقُ بِالْحَصِيِّ: «وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا السَّكَنُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ»، أو قوله في حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام: «وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ، قَالَ: حَدَّثَنَا السَّكَنُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادٍ، عَنْ هِشَامِ ابْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي مَخْنَفٍ، عَنْ أَشْيَاحٍ مِنْ عُلَمَاءِ قُضَاعَةَ»⁽¹⁾، أو قوله في حديث النَّسْوَةِ اللَّاتِي أَشْرَنَ عَلَى بِنْتِ الْمَلِكِ بِالتَّزْوَاجِ وَوَصَفْنَ لَهَا مَحَاسِنَ الزَّوْجِ: «وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا السَّكَنُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادٍ، عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِيهِ»⁽²⁾.

(1) م. ن. ص 129.

(2) م. ن. ص 87.

أَمَّا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْقَالِي، فَهُوَ يَأْخُذُ الْأَخْبَارَ مَبَاشَرَةً مِمَّا يُمْلِيهِ ابْنُ دُرَيْدٍ، أَوْ فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى يَأْخُذُهَا مَبَاشَرَةً مِنْ وَرَّاقِهِ، عَلَى شَاكِلَةِ هَذَا الْإِسْنَادِ الْمُتَكَرِّرِ⁽¹⁾: «وَحَدَّثَنَا أَبُو يَعْقُوبَ -وَرَّاقُ أَبِي بَكْرٍ ابْنُ دُرَيْدٍ- قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَمْرٍو بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، قَالَ»⁽²⁾. فَالْإِسْنَادُ هُوَ وَاجِبَةٌ وَاجِبَةُ الْحُضُورِ فِي أَحَادِيثِ ابْنِ دُرَيْدٍ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى طَرِيقَةِ تَنَاقُلِ الْمَعْرِفَةِ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَالْأَسَانِيدُ لَا تَخْتَصُّ بِنَقْلِ الْأَخْبَارِ وَالْأَحَادِيثِ وَالْقِصَصِ فَحَسَبَ، وَإِنَّمَا هِيَ أَيْضًا بَرَهَانٌ وَحْجَةٌ فِي الْبَيَانِ الْمَعْجَمِيِّ، وَفِي الْوُقُوفِ عَلَى شَتَّى مَعَانِي اللَّفْظَةِ، وَهِيَ أَيْضًا دَلِيلٌ فِي الظُّوْهِرِ اللَّغَوِيِّ وَالْبَلَاغِيِّ وَالْبَيَانِيِّ.

الشُّقُّ الثَّانِي مِنْ بِنَاءِ الْحَدِيثِ هُوَ قِصَّةٌ أَوْ حِكَايَةٌ لَهَا مَقْصَدٌ وَمَغْزَى، فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ لَا تَرْتَبِطُ بِمَوْضُوعٍ بَعِيْنِهِ، فِيهَا الْحِكَايَاتُ الَّتِي تُطْلَبُ لَطَرَاْفَتِهَا، وَفِيهَا مَا يُطْلَبُ لِحِكْمَةِ أَقْوَالِهِ، وَفِيهَا مَا يُطْلَبُ لِبَلَاغَةِ شَخْصِيَّاتِهِ، غَيْرَ أَنَّ الْجَامِعَ بَيْنَهَا هُوَ تَقْصِي حَسَنِ الْقَوْلِ وَبِلَاغَتِهِ، وَجُودَةُ الْعِبَارَةِ وَطَرَاْفَتِهَا، وَغَمُوضُ اللَّفْظِ وَغَرَابَتِهِ. وَلِذَلِكَ، فَإِنَّ بِنَاءَهَا قَائِمٌ عَلَى رَوَايَةِ الْأَقْوَالِ أَكْثَرَ مِنْ تَبْيِيْرِهَا رَوَايَةِ الْأَفْعَالِ، وَالشَّخْصِيَّاتِ فِيهَا قَوَالَةٌ، تَكْتَسِبُ مَنْزِلَتَهَا وَدَوْرَهَا مِنْ قُدْرَتِهَا عَلَى الْإِنْجَازِ الْقَوْلِيِّ فِي مُحْفَلٍ حَوَارِيٍّ، أَوْ فِي مُحْفَلٍ قَوْلِيٍّ مُفْرَدٍ، فَكَيْفِيَّةُ الْأَحَادِيثِ فِي مَا يَصْدُرُ عَنِ الشَّخْصِيَّاتِ مِنْ أَقْوَالٍ، أَمَّا الْأَحْدَاثُ فَهِيَ فِي حُدُودِهَا الْإِنْجَازِيَّةِ الدُّنْيَا.

(1) نفس طريقة الإسناد، استنادا إلى وراق ابن دريد انظر مثلا، م. ن. ص 431.

(2) م. ن. ص 306.

وهذا هو المدخل الرئيس لدراسة سرديّة هذه الأحاديث، فعين الراوي لا تتوجّه إلى «قصّة قصيرة» تُقَصُّ، وإنّما إلى قول يُحمّله الراوية إلى الشخصيّة، ولذلك، فإنّ الشخصيات لا أهميّة لها خارج أدوارها القوليّة. وعلى ذلك، فإنّ ما ذهب إليه أحمد درويش من تنزيل ابن دريد منزلة رائد القصّة القصيرة رأي لا يستقيم أجناسياً ولا بنيوياً ولا تاريخياً، نظراً إلى أنّ الحديث جنسٌ قوليّ له خصائصه وسماته، ونظراً إلى أنّ القصّة القصيرة نوعٌ أدبيّ حادث لا يشترك مع «الحديث» إلّا في وجازة القول.

عموماً، يُمكن أن نخلص من هذا الباب إلى أنّ أحاديث ابن دريد مثّلت ظاهرةً نثريةً باعثةً على الدّراسة والتّقصي والبحث، وتحتاج إلى جمعها وتحقيقها وضبطها بطريقة علميّة دقيقة، وقد قمنا بجمع قسمٍ منها، وتثبتنا منها وشرحنا أغلب مغلّقات ألفاظها ووضعناها في ملحقي خاصّ تيسيراً للباحثين، وحثاً على النظر فيها ودراستها، ولتقديم عيّنة علميّة منها أيضاً. وهذه الأحاديث ليست أرضيّةً أصليّةً للقصّة القصيرة، لكن يُمكن أن تكون مهاداً طبعياً لنشأة مقامات الهمداني، دون إفراطٍ في جعلها أصلاً واقعاً بنيوياً ومعنوياً للمقامة، فالحديث، -كما أبنا في هذه الدّراسة فنّ أصيل، له مقتضياته وأصوله ومظاهره، وله صلاتٌ مع أجناسٍ مُجاورة، أهمّها الخبر، وهذا الفنّ لم يتطوّر ليُصبح مقامةً، وإنّما واصل وجوده وتحقّقه في مظانّ مختلفة، وقصارانا أن نُقدّم نموذجاً عن توقّر نوّى نثريةٍ أساسيّةٍ أولى في شبه الجزيرة العربيّة، مثّلت مهاداً باعثةً لعددٍ من أشكالِ النثر في تاريخ الحضارة العربيّة،

وهذا المثالُ التَّأصيليُّ الأصليُّ هو رَدُّ أَيْضًا على أَغْلِبِ مَصْنُفَاتِ
تَارِيخِ الْأَدَبِ الَّتِي حَصَرَتْ الْأَصُولَ الْأُولَى أَخْبَارًا أَوْ أَحَادِيثَ أَوْ
قَصَصًا أَوْ أَمْثَلَةً فِي بَيْئَةٍ شَامِيَّةٍ أَوْ عِرَاقِيَّةٍ، وَأَفْقَدَتْ شِبْهَ الْجَزِيرَةِ
الْعَرَبِيَّةِ دَوْرَ الْبَاعِثِ الْمَوْسُوسِ وَالْمَصْدَرِ الْمُنْتَجِ.





مُحَقِّق أَحَادِيثِ ابْنِ دُرَيْدٍ



تقديم:

لم تكن الغاية الأساس من هذا الكتاب أن نفرغ إلى مدونةٍ نقلتها بحثًا ودرّسًا، أو إلى مسألةٍ جزئيةٍ نُفكِّكُ عناصرها ونتتبّع أبعادها، بل كان الهاجس الرئيس أن نُثير مسائل في تراثنا النثريّ بدت لنا منقوصة الدراسة أو أنّ الدارسين أخذوها إلى مناحي أبعدتها عن جوهر منزلتها، وأن نُثير في الباحثين رغبةً في تتبّع مسارات بحثٍ واعدة، خاصّة في ظلّ سيادة تصوّرات لتاريخ الأدب عند العرب تهمل أو تقصي مدوّنات وأشكالٍ نثريّةٍ نرى أنّها على غايةٍ من الأهميّة. وفي هذا السياق كان عملنا على استخراج نصوص لابن دُرَيْدٍ من كتاب الأمالي، ووضعها في ملحقٍ خاصٍّ بها لسببين، الأوّل أنّ هذه النصوص التي تصنّفت في المعهود البحثي والموروث النصّي على أنّها «أحاديث»، لم تُبرَز ولم تُظْهَر، ولم يتحدّد للحديث الأدبيّ سبيلٌ يميّزه ويُفرده من الأشكال المُشابهة والمماثلة، ولذلك، استخرجنا بعضًا منها، وحقّقناها، وشرحناها، وعملنا على التثبّت منها تيسيرًا لوضعها بين أيدي الباحثين للتفكير في العمل على تجميع أحاديث ابن دريد ودراستها، والأمر الثاني أنّها نصوصٌ مبثوثةٌ، موزّعةٌ في مظانّ عديدة، جمّعها بعض الباحثين، ولكن دون وقوفٍ على خواصّها، ودون تفرقةٍ بين الخبر

والحديث، ودون تمييز بينها . ومن أجل ذلك، فقد تخيّرنا عيّنة من الأحاديث فحسب، هي عيّنة نضعها بين أيدي الباحثين لاعتمادها ركيزةً منطلقاً للبحث في شكل «الحديث الأدبي».

نص (1):

«وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دَرِيدٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمِّي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ، قَالَ: وَقَدْ غُلِبَ بَنُ مُسْهَرِ الْحَارِثِيِّ، وَالْمُنْتَشِرِ -أَحَدِ فَوَارِسِ الْأَرْبَاعِ الَّذِينَ يَقُولُ لَهُمُ الْأَجْدَعُ الْهَمْدَانِي: (الكامل) وَسَأَلْتَنِي بِرِكَائِبِي وَرَحَالِهَا وَنَسِيتَ قَتْلَ فَوَارِسِ الْأَرْبَاعِ إِلَى ذِي فَائِشِ الْمَلِكِ الْحَمِيرِيِّ، وَكَانَ ذُو فَائِشٍ يُحِبُّ اضْطِنَاعَ سَادَاتِ الْعَرَبِ، وَيُقَرِّبُ مَجَالِسَهُمْ وَيَقْضِي حَوَائِجَهُمْ، وَكَانَ غُلِبَةً شَاعِرًا حَدَّثًا ظَرِيفًا، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا غُلِبَةُ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ أَبِيكَ وَأَعْمَامِكَ وَتَصِفَ لِي أَحْوَالَهُمْ؟ فَقَالَ: بَلَى أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَهُمْ أَرْبَعَةٌ: زِيَادٌ، وَمَالِكٌ، وَعَمْرُو، وَمُسْهَرٌ. فَأَمَّا زِيَادٌ، فَمَا زِيَادٌ، فَمَا اسْتَلَّ سَيْفَهُ مَدًّا مَلَكَتْ يَدُهُ قَائِمَهُ إِلَّا أَعْمَدَهُ فِي جُثْمَانٍ بَطْلٍ، أَوْ شَوَامِتِ جَمَلٍ، وَكَانَ إِذَا حَمَلَقَ النَّجِيدَ، وَصَلَّصَ الْحَدِيدَ، وَبَلَغَتِ النَّفْسُ الْوَرِيدَ، اعْتَصَمَتْ بِحَقْوِيهِ الْأَبْطَالُ، اعْتَصَامَ الْوُعُولِ بِذُرَى الْقِلَالِ، فَذَاذَ عَنْهُمْ الْأَبْطَالُ، زِيَادُ الْقُرُومِ عَنِ الْأَشْوَالِ. وَأَمَّا مَالِكٌ فَكَانَ عِصْمَةَ الْهَوَالِكِ، إِذَا شُبَّهَتْ الْأَعْجَازُ بِالْحَوَارِكِ، يَفْرِي الرَّعِيلَ فَرِي الْأَدِيمِ بِالْإِزْمِيلِ، وَيَخْبِطُ الْبُهِمَ خَبِطَ الذَّنْبِ نِقَادَ الْغَنَمِ، وَأَمَّا عَمْرُو، فَكَانَ إِذَا عَصَبَتِ الْأَفْوَاهُ، وَذَبَلَتِ الشُّفَاهُ، وَتَفَادَتِ الْكُمَاهُ، خَاضَ ظِلَامَ الْعَجَاجِ، وَأَطْفَأَ نَارَ الْهِيَاجِ، وَأَلْوَى بِالْأَعْرَاجِ، وَأَزْدَفَ كُلَّ طِفْلَةٍ مِغْنَجٍ، ذَاتِ بَدَنِ رَجْرَاجٍ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: عَلَيْكُمُ النَّهَابُ، وَالْأَمْوَالُ الرَّغَابُ، عَطَاءٌ لَا ضَنِينَ

شَكِسَ، وَلَا حَقْلَدٍ عَكِسَ. وَأَمَّا مُسْهَرٌ، فَكَانَ الدُّعَافُ الْمُقَرُّ، وَالْيَيْثُ
الْمُخْدِرُ، يُحْيِي الْحَرْبَ وَيُسْعِرُ، وَيُبِيحُ النَّهْبَ فَيَكْثُرُ، وَلَا يَحْتَجُنُ وَلَا
يَسْتَأْثِرُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: اللَّهُ أَبُوكَ! مِثْلَكَ فَلْيَصِفْ أُسْرَتَهُ⁽¹⁾.

نص (2):

«وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- قَالَ: أَخْبَرَنِي
عَمِّي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: اجْتَمَعَ طَرِيفُ بْنُ
الْعَاصِي الدَّوْسِيُّ، وَهُوَ جَدُّ طُفَيْلِ بْنِ النُّورَيْنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ طَرِيفٍ،
وَالْحَارِثُ بْنُ دُبْيَانَ بْنِ لَجَا بْنِ مُنْهَبٍ، وَهُوَ أَحَدُ الْمُعَمَّرِينَ، عِنْدَ
بَعْضِ مَقَاوِلِ⁽²⁾ حَمِيرٍ، فَتَفَاحَرَا، فَقَالَ الْمَلِكُ لِلْحَارِثِ: يَا حَارِثُ، أَلَا
تُخْبِرُنِي بِالسَّبَبِ الَّذِي أَخْرَجَكُمُ عَنْ قَوْمِكُمْ حَتَّى لَحِقْتُمُ بِالنَّمْرِ بْنِ
عُثْمَانَ؟ فَقَالَ: أَخْبِرَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، خَرَجَ هَجِينَانِ مِنَّا يَزْعِيَانِ غَنَمًا
لَهُمَا، فَتَشَاوَلَا⁽³⁾ بِسَيْفِهِمَا فَأَصَابَ صَاحِبُهُمَا عَقَبَ صَاحِبِنَا، فَعَاثَ⁽⁴⁾
فِيهِ السَّيْفُ فَتَنَزَفَ فَمَاتَ، فَسَأَلُونَا أَخَذَ دِيَّةَ صَاحِبِنَا دِيَّةَ الْهَجِينِ⁽⁵⁾،
وَهِيَ نِصْفُ دِيَّةِ الصَّرِيحِ⁽⁶⁾، فَأَبَى قَوْمِي، وَكَانَ لَنَا رِبَاءٌ عَلَيْهِمْ، فَأَبَيْنَا
إِلَّا دِيَّةَ الصَّرِيحِ وَأَبَوْا إِلَّا دِيَّةَ الْهَجِينِ، فَكَانَ اسْمُ هَجِينِنَا دُهِينَ بْنِ
زَيْرَاءَ، وَاسْمُ صَاحِبِهِمْ عُنْقَشُ بْنُ مُهَيَّرَةَ، وَهِيَ سَوْدَاءُ أَيْضًا، فَتَفَاقَمَ

(1) م. ن. ص 35-36.

(2) . المَقَاوِلُ وَالْأَقْيَالُ: هُمَ الَّذِينَ دُونَ الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ.

(3) تَشَاوَلَا: تَضَارَبَا.

(4) وَعَاثَ: أَفْسَدَ، وَالْعِيْثُ: الْفَسَادُ.

(5) وَالْهَجِينُ: الَّذِي أَبُوهُ عَرَبِيٌّ وَأُمُّهُ لَيْسَتْ بَعْرِيَّةً. وَالْمَقْرَفُ: الَّذِي أُمُّهُ عَرَبِيَّةٌ
وَأَبُوهُ لَيْسَ بَعْرِي.

(6) الصَّرِيحُ: الْخَالِصُ.

الأمربين الحيين، فقال رجل منا (الطويل):

حُلُومَكُمْ يَا قَوْمَ لَا تُعْزِبَنَّهَا وَلَا تَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ بِالتَّدَابُرِ
وَأَذُوا إِلَى الْأَقْوَامِ عَقْلَ⁽¹⁾ ابْنِ عَمِّهِمْ وَلَا تُرْهِقُوهُمْ سُبَّةً فِي الْعَشَائِرِ
فَإِنَّ ابْنَ زَبْرَاءَ الَّذِي قَادَ لَمْ يَكُنْ بِدُونِ خُلَيْفٍ أَوْ أَسِيدِ بْنِ جَابِرِ
فَإِنْ لَمْ تُعَاطُوا الْحَقَّ فَالسَّيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ وَالسَّيْفُ أَجُورُ جَائِرِ
فَتَظَافَرُوا عَلَيْنَا حَسَدًا، فَأَجْمَعَ ذُوو الْحِجَا مَنَا أَنْ نُلْحَقَ
بَأَمْنَعِ بَطْنِ مِنَ الْأَزْدِ، فَلَحِقْنَا بِالنُّمَرِ بْنِ عُثْمَانَ، فَوَاللَّهِ مَا فَتَّ⁽²⁾
فِي أَعْضَادِنَا، فَأَبْنَا عَنْهُمْ وَلَقَدْ أَثَارْنَا⁽³⁾ صَاحِبَنَا وَهُمْ رَاغِمُونَ. فَوَثَبَ
طَرِيفُ بْنُ الْعَاصِي مِنْ مَجْلِسِهِ فَجَلَسَ بِإِزَاءِ الْحَارِثِ ثُمَّ قَالَ: تَاللَّهِ
مَا سَمِعْتُ كَالْيَوْمِ قَوْلًا أَبْعَدَ مِنْ صَوَابٍ، وَلَا أَقْرَبَ مِنْ خَطَلٍ⁽⁴⁾، وَلَا
أَجْلَبَ لِقَذَعٍ⁽⁵⁾ مِنْ قَوْلِ هَذَا، وَاللَّهِ أَيُّهَا الْمَلِكُ! مَا قَتَلُوا بِهِجِينَهُمْ
بَدَجًا⁽⁶⁾، وَلَا رَفُؤًا بِهِ دَرَجًا، وَلَا أَنْطُوا⁽⁷⁾ بِهِ عَقْلًا، وَلَا اجْتَفَتْوَا⁽⁸⁾
(هكذا!) بِهِ خَشَلًا⁽⁹⁾، وَلَقَدْ أَخْرَجَهُم الْخَوْفُ عَنْ أَصْلِهِمْ، وَأَجْلَاهُمْ

(1) والعقل: الدية، يُقَال: علقت فلاناً إذا غرمت ديته، وعقلت عن فلان إذا غرمت عنه دية جنائته، والمرأة تعادل الرجل إلى ثلث ديتها، يريد أن موضحتها وموضحته سواء، فإذا بلغ العقل ثلث الدية صارت دية المرأة على النصف من دية الرجل.

(2) فت: أوهن وأضعف

(3) أثارنا: افتعلنا من الثأر.

(4) الخطل: الخطأ.

(5) القذع: الكلام القبيح، يُقَال: أقذع له إذا أسمعته كلاماً قبيحاً.

(6) البدج: الخروف، وهو فارسي معرب، وكذلك البرق فارسي معرب، وهو الحمل.

(7) أنطوا لغة في أعطوا،

(8) صرَعوا

(9) الخشل والخشل محرك ومسكن، واحدها خشلة وخشلة: شجر المقل. وهذه أمثال كلها، يريد أنهم لم ينالوا ثأره



عَنْ مَحَلِّهِمْ، حَتَّى اسْتَلَانُوا خُشُونَةَ الْإِرْعَاجِ، وَلَجُّوا (هكذا!) إِلَى أَضْيَاقِ الْوِلَاجِ، قُلًّا⁽¹⁾ وَذُلًّا⁽²⁾. فَقَالَ الْحَارِثُ: أَتَسْمَعُ يَا طَرِيفُ؟ إِنِّي وَاللَّهِ مَا إِخَالُكَ كَافًا غَرْبَ لِسَانِكَ، وَلَا مُنْهِنَهَا شِرَّةَ نَزْوَانِكَ⁽³⁾، حَتَّى اسْطُو بِكَ سَطْوَةً تَكْفُ طِمَاحَكَ، وَتَرُدُّ جِمَاحَكَ، وَتَكْبِتُ تَتْرُعَكَ⁽⁴⁾، وَتَقْمَعُ تَسْرُعَكَ، فَقَالَ طَرِيفُ: مَهَلًا يَا حَارِثُ، لَا تُعْرِضْ لِبَطْحَمَةٍ⁽⁵⁾ اسْتِنَانِي، وَذَرْبِ⁽⁶⁾ سِنَانِي، وَغَرْبِ شَبَابِي، وَمَيْسَمِ سِبَابِي، فَتَكُونَ كَالْأُظْلِ⁽⁷⁾ الْمُوْطُوءِ، وَالْعَجَبِ⁽⁸⁾ الْمُوْجُوءِ؛ فَقَالَ الْحَارِثُ: إِيَّاي تَخَاطِبُ بِمِثْلِ هَذَا الْقَوْلِ! فَوَاللَّهِ لَوْ وَطِئْتُكَ لَأَسَخْتُكَ، وَلَوْ وَهْطْتُكَ لَأَوْهَطْتُكَ⁽⁹⁾، وَلَوْ نَفَخْتُكَ لَأَفَدْتُكَ، فَقَالَ طَرِيفُ مُتَمَثِّلًا (الطويل):
وإنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ لَكَانَ بِنَبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا
أَمَّا وَالْأَصْنَامُ الْمَحْجُوبَةُ، وَالْأَنْصَابُ الْمُنْصُوبَةُ، لَيْنٌ لَمْ تَرْبَعْ⁽¹⁰⁾
عَلَى ظُلْعِكَ⁽¹¹⁾، وَتَقِفْ عِنْدَ قَدْرِكَ، لَأَدْعَنَّ حَزَنُكَ سَهْلًا، وَغَمْرُكَ

(1) والقل: القلة.

(2) والذل: الذلة.

(3) النزوان: الوثوب.

(4) التترع: التسرع إلى الشر.

(5) وطحمة السيل وطحمته بالضم والفتح: دفعته.

(6) والذرب: الحدة.

(7) والأظل: أسفل خف البعير.

(8) والعجب: أصل الذنب ووهصتك: كسرتك، يُقال: وهسه ووطسه، ووقسه إذا كسره

(9) أوهطتك: صرعتك

(10) تربع: تكف وترفق.

(11) الظلع: الغمز.

ضَحَلًا⁽¹⁾، وَصَفَاكَ⁽²⁾ وَخَلَا، فَقَالَ الْحَارِثُ: أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ رُمْتُ ذَلِكَ
لُرَغَّتْ بِالْحَضِيضِ⁽³⁾، وَأَغْصَصْتُ بِالْجَرِيضِ، وَضَاقَتْ عَلَيْكَ الرَّحَابُ،
وَتَقَطَّعَتْ بِكَ الْأَسْبَابُ، وَلَأُلْفِيَتْ لَقَى⁽⁴⁾ تَهَادَاهُ الرُّوَامِسُ⁽⁵⁾، بِالسَّهْبِ⁽⁶⁾
الطَّامِسِ⁽⁷⁾، فَقَالَ طَرِيفٌ: دُونَ مَا نَاجَتْكَ بِهِ نَفْسُكَ مَقَارِعَةُ أَبْطَالٍ،
وَحَيَاضُ أَهْوَالٍ، وَحَفْزَةٌ⁽⁸⁾ إِعْجَالٍ، يُمْنَعُ مَعَهُ تَطَامُنُ الْإِمْهَالِ، فَقَالَ
الْمَلِكُ: إِيهَّا عَنْكُمَا! فَمَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ مَقَالَ رَجُلَيْنِ لَمْ يَفْصَبَا⁽⁹⁾، وَلَمْ
يَنْتَلِبَا، وَلَمْ يَلْصُوا⁽¹⁰⁾، وَلَمْ يَقْفُوا⁽¹¹⁾»⁽¹²⁾.

نص (3):

«وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ، قَالَ: حَدَّثَنَا السَّكْنُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ
عَبَادٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ، عَنْ أَشْيَاحٍ مِنْ عُلَمَاءِ
قُضَاعَةَ قَالُوا: كَانَ ثَلَاثَةُ أَبْطُنٍ مِنْ قُضَاعَةَ مُجْتَوِرِينَ بَيْنَ الشُّحْرِ
وَحَضْرَمَوْتَ: بَنُو نَاعِبٍ، وَبَنُو دَاهِنٍ، وَبَنُو رِئَامٍ، وَكَانَتْ بَنُو رِئَامٍ أَقْلَهُمْ

(1) الضحل: الماء القليل وكذلك الضحضاح، والفراش أقل منه.

(2) الصفا جمع صفاة: الصخرة، وهى أيضاً الصفواء والصفوان.

(3) الحضيض: القرار إذا اتصل بالجبل.

(4) لقي: ملقى.

(5) الروامس: الرياح التى ترمس، أى تدفن.

(6) السهب: المستوى من الأرض.

(7) الطامس والطاسم جميعاً: الدارس، يُقال: طمس وطسم.

(8) الحفز: الدفع

(9) لم يشتما.

(10) لَصَاءٌ يَلْصِيهِ لَصِيًّا إِذَا قَذَفَهُ.

(11) يُقَالُ قَفَاهُ يَقْفُوهُ: إِذَا قَذَفَهُ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ.

(12) م. ن. ص 81 - 82.



عَدَدًا وَأَشْجَعَهُمْ لِقَاءَ، وَكَانَتْ لِبَنِي رِثَامٍ عَجُوزٌ تَسْمَى خُوَيْلَةَ، وَكَانَتْ لَهَا أُمَةٌ مِنْ مُوَلَّدَاتِ الْعَرَبِ تَسْمَى زَبْرَاءَ، وَكَانَ يَدْخُلُ عَلَى خُوَيْلَةَ أَرْبَعُونَ رَجُلًا كُلُّهُمْ لَهَا مَحْرَمٌ، بَنُو إِخْوَةٍ وَبَنُو أَخَوَاتٍ، وَكَانَتْ خُوَيْلَةَ عَقِيمًا، وَكَانَ بَنُو نَاعِبٍ وَبَنُو دَاهِنٍ مُتَظَاهِرِينَ عَلَى بَنِي رِثَامٍ، فَاجْتَمَعَ بَنُو رِثَامٍ ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَرْسٍ لَهُمْ وَهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا كُلُّهُمْ شُجَاعٌ بَتِيسٌ، فَطَعِمُوا وَأَقْبَلُوا عَلَى شَرَابِهِمْ، وَكَانَتْ زَبْرَاءَ كَاهِنَةً، فَقَالَتْ لِحُوَيْلَةَ: انْطَلِقِي بِنَا إِلَى قَوْمِكَ أَنْذِرْهُمْ، فَأَقْبَلَتْ خُوَيْلَةَ تَتَوَكَّأُ عَلَى زَبْرَاءَ، فَلَمَّا أَبْصَرَهَا الْقَوْمُ قَامُوا إِجْلَالًا لَهَا، فَقَالَتْ: يَا ثَمَرَ الْأَكْبَادِ، وَأَنْدَادَ الْأَوْلَادِ وَشَجَا الْحُسَادِ، هَذِهِ زَبْرَاءُ، تُخْبِرُكُمْ عَنْ أَنْبَاءٍ، قَبْلَ انْحِسَارِ الظُّلُمَاءِ، بِالْمُؤَيَّدِ⁽¹⁾ الشَّنْعَاءِ، فَاسْمَعُوا مَا تَقُولُ. قَالُوا: وَمَا تَقُولِينَ يَا زَبْرَاءُ؟ قَالَتْ: وَاللُّوحِ⁽²⁾ الْخَافِقِ، وَاللَّيْلِ الْغَاسِقِ، وَالصَّبَاحِ الشَّارِقِ، وَالنَّجْمِ الطَّارِقِ، وَالْمُزْنِ الْوَادِقِ، إِنَّ شَجَرَ الْوَادِي لَيَأْدُو حَتْلًا، وَيَحْرُقُ⁽³⁾ أَنْيَابًا عَصَلًا⁽⁴⁾، وَإِنَّ صَخَرَ الطُّودِ لَيُنْذِرُ ثُكْلًا، لَا تَجِدُونَ عَنْهُ مَعْلًا⁽⁵⁾، فَوَافَقَتْ قَوْمًا أَشَارَى سَكَارَى، فَقَالُوا: رِيحٌ خَجُوجُ⁽⁶⁾، بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْفُرُوجِ، أَتَتْ زَبْرَاءَ بِالْأَبْلَقِ⁽⁷⁾ النَّتُوجِ. فَقَالَتْ زَبْرَاءُ: مَهَلًا يَا بَنِي

(1) المؤيد: الداهية والأمر العظيم.

(2) والنفنف واللوح والسكاك والسكاكة والسحاح والكبد والسمهى: الهواء بين السماء والأرض، يُقَالُ: لأفعلن ذلك ولو نزوت في اللوح، ولو نزوت في السكاك، واللوح بفتح اللام: العطش.

(3) وحرقت أنيابه إذا حك بعضها ببعض، والعرب تقول عند الغضب يغضبه الرجل على صاحبه هو يحرق على الأرم، أي الأسنان،

(4) والعصل: المعوجة، واحدها أعصل.

(5) والمعل: المنجا.

(6) الخجوج: السريعة المر.

(7) والأبلاق لا يكون نتوجا، والعرب تضرب هذا مثلا للشيء لا ينال فتقول: طلب الأبلق العقوق فلما ... فاته أراد بيض الأنوق

الْأَعِزَّةَ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَشْمُ دَفَرَ⁽¹⁾ الرِّجَالِ تَحْتَ الْحَدِيدِ، فَقَالَ لَهَا فَتَى مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ هُذَيْلُ بْنُ مُنْقِذٍ: يَا خَذَاقِ⁽²⁾، وَاللَّهُ مَا تَشْمِينَ إِلَّا دَفَرَ إِبْطِيكَ، فَأَنْصَرَفَتْ عَنْهُمْ وَارْتَابَ قَوْمٌ مِنْ ذَوِي أَسْنَانِهِمْ، فَأَنْصَرَفَ مِنْهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا وَبَقِيَ ثَلَاثُونَ فَرَقَدُوا فِي مَشْرِيبِهِمْ، وَطَرَقْتُهُمْ بَنُو دَاهِنٍ وَبَنُو نَاعِبٍ فَقَتَلُوهُمْ أَجْمَعِينَ، وَأَقْبَلَتْ خُوَيْلَةَ مَعَ الصَّبَاحِ فَوَقَفَتْ عَلَى مَصَارِعِهِمْ، ثُمَّ عَمَدَتْ إِلَى خَنَاصِرِهِمْ فَقَطَعَتْهَا، وَأَنْتَضَمَتْ مِنْهَا قِلَادَةٌ وَأَلْقَتْهَا فِي عُنُقِهَا، وَخَرَجَتْ حَتَّى لَحِقَتْ بِمَرْضَاوِي بْنِ سَعْوَةَ الْمَهْرِيِّ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِهَا، فَأَنَاحَتْ بِفَنَائِهِ وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ:

يَا خَيْرَ مُعْتَمِدٍ وَأَمْنَعَ مَلْجَأٍ وَأَعَزَّ مُنْتَقِمٍ وَأَدْرَكَ طَالِبٍ
جَاءَتْكَ وَافِدَةٌ الشَّكَالَى تَغْتَلِي⁽³⁾ بِسَوَادِهَا فَوْقَ الْفَضَاءِ النَّاضِبِ⁽⁴⁾
عَيْرَانَهُ⁽⁵⁾ سُرْحُ⁽⁶⁾ الْيَدَيْنِ شِمْلَهُ⁽⁷⁾ عُبرَ الْهَوَاجِرِ⁽⁸⁾ كَالْهَزْفِ⁽⁹⁾ الْخَاضِبِ⁽¹⁰⁾
هَذِي خَنَاصِرُ أُسْرَتِي مَسْرُودَةٌ⁽¹¹⁾ فِي الْجِيدِ مِنِّي مِثْلُ سِمَطِ الْكَاعِبِ

(1) والذفر يكون في النتن والطيب، وهو حدة الريح، والدفر بفتح الفاء لا يكون إلا في النتن، ومنه قيل للنديا: أم دفر، وللأمة دفار، فأما الدفر بتسكين الفاء: فالدفر، يُقَالُ: دَفَرَ فِي عُنُقِهِ.

(2) خذاق: كناية عما يخرج من الإنسان، يُقَالُ: خَذَقَ وَمَزَقَ.

(3) المغالاة: المباعدة في الرمي.

(4) الناضب: البعيد، ومنه نضب الماء أي بعد أن ينال.

(5) عيرانه: تشبه العير لصلابته.

(6) السرح: السهلة رجع اليدين.

(7) الشملة: السريعة الخفيفة.

(8) يُقَالُ: نَاقَةُ عَبرَ أَسْفَارَ إِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً عَلَى السَّفَرِ، وَعَبرَ الْهَوَاجِرَ إِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً عَلَى الْحَرِّ، وَأَصْلُ هَذَا كَأَنَّهُ يَعْبُرُ بِهَا الْهَوَاجِرُ وَالْأَسْفَارُ.

(9) الهزف والهجف: الظليم الجافى.

(10) الخاضب: الذي قد أكل الربيع فاحمرت ظنوبه وأطراف ريشه.

(11) مسرودة: مشكوكة.



عُشْرُونَ مُقْتَبِلًا⁽¹⁾ وَشَطْرُ عَدِيدِهِمْ
طَرَقَتْهُمْ أُمُّ اللَّهَيْمِ⁽⁴⁾ فَأَصْبَحُوا
جَزْرًا لِعَافِيَةِ الْخَوَامِعِ⁽⁶⁾ بَعْدَمَا
قَسَمَتْ رِجَالُ بَنِي أَبِيهِمْ بَيْنَهُمْ
فَابْرُدْ غَلِيلَ خُوَيْلَةَ التَّكْلَى النَّيِّ
وَتَلَّافَ قَبْلَ الصُّوتِ تَأْرِي إِنَّهُ
فَقَالَ حَجْرٌ⁽¹⁰⁾ عَلَيَّ مَرْضَاوِي الْأَعْدَبَانِ⁽¹¹⁾ وَالْأَحْمَرَانِ⁽¹²⁾، أَوْ يَقْتُلْ
بِعَدَدِ رِئَامٍ مِنْ دَاهِنٍ وَنَاعِبٍ، ثُمَّ قَالَ (الطويل):
أَخَالْتَنَا سِرُّ⁽¹³⁾ النَّسَاءِ مُحَرَّمٌ عَلَيَّ وَتَشْهَادُ النَّدَامَى عَلَى الْخَمْرِ

(1) مقتبل: مستأنف الشباب.

(2) الصيابة: صميم القوم وخالصهم.

(3) أشايب: أخلاط من الناس.

(4) أم اللهيم: الداهية.

(5) الحواصب: الرياح التي تسفي الحصباء.

(6) الخوامع: الضباع.

(7) اللاحب: القاشر، لحبت الشيء قشرته.

(8) المخارص، واحدها مخرص وهو سكين كبير مثل المنجل يقطع به الشجر.
وخريص البحر: خليج منه كأنه مخروص، أي مقطوع من معظمه.

(9) الصاقب: جبل معروف.

(10) حجر: حرام.

(11) الأعذبان: النكاح والأكل.

(12) والأحمران: اللحم والخمر.

(13) والسر: النكاح وقال الأعشى: فلا تتكحن جارةً إن سرها ... عليك حرام
فانكحن أو تأبدا

كَذَلِكَ وَأَقْلَادُ⁽¹⁾ الْفَيْدِ⁽²⁾ وَمَا ارْتَمَتْ
لَيْسَ لَمْ أَصْبَحْ دَاهِنًا وَلَفِيفَهَا
فَوَارِي بَنَانِ الْقَوْمِ فِي غَامِضِ الثَّرَى
فَإِنِّي زَعِيمٌ⁽⁶⁾ أَنْ أُرْوِي هَامَهُمْ⁽⁷⁾
ثُمَّ خَرَجَ فِي مَنْسَرٍ مِنْ قَوْمِهِ،
بِهِ بَيْنَ جَالِيهَا⁽³⁾ الْوَيْيَةِ⁽⁴⁾ مِلْوَذَرٍ
وَنَاعِبَهَا جَهْرًا بِرَاغِيَةِ الْبَكْرِ
وَصُورِي⁽⁵⁾ إِلَيْكَ مِنْ قِنَاعٍ وَمِنْ سِثَرٍ
وَأُظْمِئُ هَامًا مَا أَنْسَرَى اللَّيْلُ بِالْفَجْرِ
فَطَرَقَ نَاعِبًا وَدَاهِنًا فَأَوْجَعَ فِيهِمْ⁽⁸⁾.

نَصُّ (4):

حَدِيثُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي أَشَرْنَ عَلَى بِنْتِ الْمَلِكِ بِالنَّزُوجِ وَوَصَفْنَ
لَهَا مَحَاسِنَ الزَّوْجِ وَشَرَّحَ غَرِيبَ ذَلِكَ.

«وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا السَّكْنُ بْنُ
سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ عَبَّادٍ، عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ قَيْلٌ

(1) الْأَقْلَادُ، وَاحِدُهَا فَلْدٌ، وَيُقَالُ: أَعْطَيْتُهُ حَزَّةً مِنْ لَحْمٍ وَفَلْدَةً مِنْ لَحْمٍ وَحَدْيَةً
مِنْ لَحْمٍ، كُلُّ هَذَا مَا قُطِعَ طَوْلًا، فَإِذَا أَعْطَاهُ مُجْتَمِعًا قَيْلٌ: أَعْطَاهُ بَضْعَةً وَهَبْرَةً
وَوُذْرَةً وَفَدْرَةً.

(2) الْفَيْدُ: الشَّوَاءُ، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، يُقَالُ: فَادَتِ اللَّحْمَ إِذَا شَوَيْتَهُ،
وَالْمَفَادُ: السَّفُودُ. وَالْمَفْتَادُ: الْمَشْتَوَى.

(3) الْجَالَانُ: النَّاحِيَتَانِ مِنْ أَعْلَاهُمَا إِلَى أَسْفَلَهُمَا، يُقَالُ: جَالِ الْبَيْتِ، وَجَوْلِ الْبَيْتِ.
وَيُقَالُ: رَجُلٌ مَالُهُ جَوْلٌ وَلَا مَعْقُولٌ إِذَا كَانَ ضَعِيفَ الرَّأْيِ أَحْمَقَ.

(4) وَالْوَيْيَةُ: الْقَدْرُ الْعَظِيمَةُ.

(5) صُورِي: مِيلَى.

(6) وَزَعِيمٌ: ضَامِنٌ، وَكَذَلِكَ قَبِيلٌ وَحَمِيلٌ وَكَفِيلٌ وَضَمِينٌ وَاحِدٌ.

(7) وَقَوْلُهُ أُرْوِي هَامًا، كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ: إِذَا قَتَلَ الرَّجُلُ فَلَمْ يَدْرِكْ بِثَأْرِهِ خَرَجَ
مِنْ هَامَتِهِ طَائِرٌ يُسَمَّى الْهَامَةُ فَلَا يَزَالُ يَقُولُ: اسْقُونِي اسْقُونِي حَتَّى يَقْتُلَ قَاتِلَهُ
فَيَسْكُنُ، قَالَ ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدَوَانِي: يَا عَمْرُو إِلَّا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصْتِي ... أَضْرِبُكَ
حَيْثُ تَقُولُ الْهَامَةُ اسْقُونِي

(8) الْأُمَالِي، 129-130.

مِنْ أَقْيَالٍ حَمِيرٍ مُنِعَ الْوَلَدَ دَهْرًا، ثُمَّ وُلِدَتْ لَهُ بِنْتُ فَبْنَى لَهَا قَصْرًا
مُنِيفًا بَعِيدًا مِنَ النَّاسِ، وَوَكَّلَ بِهَا نِسَاءً مِنْ بَنَاتِ الْأَقْيَالِ يَخْدُمْنَهَا،
وَيُؤَدِّبْنَهَا حَتَّى بَلَغَتْ مَبْلَغَ النِّسَاءِ، فَتَشَاتَ أَحْسَنَ مَنْشَأً وَأَتَمَّهُ فِي
عَقْلِهَا وَكَمَالِهَا، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهَا مَلَكَهَا أَهْلٌ مَخْلَافُهَا، فَاصْطَنَعَتْ
النِّسْوَةَ اللَّوَاتِي رَبَّيْنَهَا وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهِنَّ، وَكَانَتْ تُشَاوِرُهُنَّ وَلَا تَقْطَعُ
أَمْرًا دُونَهُنَّ، فَقُلْنَ لَهَا يَوْمًا: يَا بِنْتَ الْكُرَامِ، لَوْ تَزَوَّجْتَ لَتَمَّ لَكَ
الْمُلْكُ، فَقَالَتْ: وَمَا الزَّوْجُ؟ فَقَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: الزَّوْجُ عِرٌّ مِنَ الشَّدَائِدِ،
وَفِي الْخُطُوبِ مُسَاعِدٌ، إِنْ غَضِبْتَ عَطْفٌ، وَإِنْ مَرَضْتَ لَطْفٌ، قَالَتْ:
نَعَمْ الشَّيْءَ هَذَا! فَقَالَتْ الثَّانِيَةُ: الزَّوْجُ شَعَارِي حِينَ أَصْرَدُ، وَمُتَكَنِّي
حِينَ أَرْقُدُ، وَأُنْسِي حِينَ أَفْرُدُ، فَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا كَمَالٌ طِيبُ الْعَيْشِ.
فَقَالَتْ الثَّالِثَةُ: الزَّوْجُ لَمَّا عَنَانِي كَافٍ، وَلَمَّا شَفَنِي شَافٍ، يَكْفِينِي فَقَدْ
الْأَلَافُ، رِيقُهُ كَالشَّهْدِ، وَعِنَاقُهُ كَالْخُلْدِ، لَا يَمَلُّ قِرَانُهُ، وَلَا يُخَافُ
حِرَانُهُ، فَقَالَتْ: أَمْهَلْنِي أَنْظُرَ فِيمَا قُلْتُنَّ، فَاحْتَجَبَتْ عَنْهُنَّ سَبْعًا
ثُمَّ دَعَتْهُنَّ فَقَالَتْ: قَدْ نَظَرْتُ فِيمَا قُلْتُنَّ فَوَجَدْتُنِي أَمْلَكُهُ رَقِي، وَأَبْتُهُ
بَاطِلِي وَحَقِّي، فَإِنْ كَانَ مُحَمَّدُ الْخَلَائِقِ، مَأْمُونُ الْبَوَائِقِ، فَقَدْ أَدْرَكْتُ
بُغْيَتِي، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ طَالَتْ شِفَوْتِي، عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي إِلَّا
أَنْ يَكُونَ كُفْمًا كَرِيمًا يَسُودُ عَشِيرَتَهُ، وَيَرْبُ فَصِيلَتَهُ، لَا أَتَقَنُّ بِهِ عَارًا
فِي حَيَاتِي، وَلَا أَرْفَعُ بِهِ شَنَاْرًا لِقَوْمِي بَعْدَ وَفَاتِي فَعَلَيْكَنَّه فَاْبَغِينَهُ
وَتَفَرَّقْنَ فِي الْأَحْيَاءِ، فَأَيَّتُكُنَّ أَتْنِي بِمَا أُحِبُّ فَلَهَا أَجَزَلُ الْحَبَاءِ،
وَعَلَيَّ لَهَا الْوَفَاءُ. فَخَرَجْنَ فِيمَا وَجَّهْتُهُنَّ لَهُ، وَكُنَّ بَنَاتٍ مُقَاوِلِ
ذَوَاتِ عَقْلٍ وَرَأْيٍ، فَجَاءَتْهَا إِحْدَاهُنَّ وَهِيَ عَمْرُطَةٌ بِنْتُ زُرْعَةَ بْنِ ذِي
حَنْظَرٍ فَقَالَتْ: قَدْ أَصَبْتُ الْبُعْيَةَ، فَقَالَتْ: صِفِيهِ وَلَا تُسَمِّيهِ. فَقَالَتْ:
غَيْثٌ فِي الْمَحَلِّ، ثِمَالٌ فِي الْأَزْلِ، مُفِيدٌ مُبِيدٌ، يُصْلِحُ النَّائِرَ، وَيَنْعَشُ
الْعَاشِرَ، وَيَغْمُرُ النَّدِيَّ، وَيَقْتَادُ الْأَبْيَّ، عَرِضُهُ وَافِرٌ، وَحَسْبُهُ بَاهِرٌ، غَضُّ

الشَّبَابِ، طَاهِرُ الْأَثْوَابِ. قَالَتْ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَتْ: سَبْرَةُ بْنُ عَوَّالِ بْنِ شَدَّادِ بْنِ الْهَمَّالِ. ثُمَّ خَلَتْ بِالثَّانِيَةِ، فَقَالَتْ: أَصَبْتُ مِنْ بُغَيْتِكَ شَيْئًا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَتْ: صِفْهِ وَلَا تَسْمِيهِ. قَالَتْ: مُصَامِصُ النَّسَبِ، كَرِيمُ الْحَسَبِ، كَامِلُ الْأَدَبِ، غَزِيرُ الْعَطَايَا، مَأْلُوفُ السَّجَايَا، مُقْتَبَلُ الشَّبَابِ، خَصِيبُ الْجَنَابِ، أَمْرُهُ مَاضٍ، وَعَشِيرُهُ رَاضٍ. قَالَتْ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَتْ: يَعْلَى بْنُ هُزَّالِ بْنِ ذِي جَدْنٍ. ثُمَّ خَلَتْ بِالثَّلَاثَةِ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: وَجَدْتُهُ كَثِيرَ الْفَوَائِدِ، عَظِيمَ الْمَرَافِدِ، يُعْطِي قَبْلَ السُّؤَالِ، وَيُنِيلُ قَبْلَ أَنْ يُسْتَنَالَ، فِي الْعَشِيرَةِ مُعْظَمٌ، وَفِي النَّدِيِّ مُكْرَمٌ، جَمُّ الْفَوَاضِلِ، كَثِيرُ النُّوَافِلِ، بَدَّالُ أَمْوَالٍ، مُحَقِّقُ أَمَالٍ، كَرِيمُ أَعْمَامٍ وَأَحْوَالٍ، قَالَتْ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَتْ: رَوَاحَةُ بْنُ حُمَيْرِ بْنِ مُصْحِيٍّ بْنِ ذِي هُلَاهِلَةٍ، فَاخْتَارَتْ يَعْلَى بْنُ هُزَّالٍ فَتَزَوَّجَتْهُ، فَاحْتَجَبَتْ عَنْ نِسَائِهَا شَهْرًا ثُمَّ بَرَزَتْ لَهُنَّ، فَأَجَزَلَتْ لَهُنَّ الْحِبَاءَ، وَأَعْظَمَتْ لَهُنَّ الْعَطَاءَ⁽¹⁾.

نص (5):

حَدِيثُ مَصَادِ بْنِ مَدْعُورٍ، وَخُرُوجُهُ فِي طَلَبِ الذَّوْدِ، وَمَا أَخْبَرَهُ بِهِ الْجَوَارِي الْأَرْبَعُ الطَّوَارِقُ بِالْحَصِيِّ.
«وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دَرِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا السَّكَنُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ مَصَادُ بْنُ مَدْعُورٍ الْقَيْنِيَّ، رَئِيسًا قَدْ أَخَذَ مَرْبَاعَ⁽²⁾ قَوْمِهِ دَهْرًا، وَكَانَ ذَا مَالٍ فَنَدَّ⁽³⁾ ذَوْدَ⁽⁴⁾ مِنْ أَذْوَادِ لَهُ

(1) الأمالي، 87-88.

(2) المرباع: ربع الغنيمة.

(3) ندَّ: شرد.

(4) الذود: ما بين الثلاثة إلى العشرة، والعرب تقول: الذود إلى الذود إبل يقول: إذا اجتمع القليل إلى القليل صار كثيرًا.



فَخَرَجَ فِي بَغَائِهَا⁽¹⁾، قَالَ: فَإِنِّي لَفِي طَلِبِهَا إِذْ هَبَطْتُ وَادِيَا شَجِيرَا⁽²⁾
كَثِيفَ الظَّلَالِ وَقَدْ تَفَسَّخْتُ أَيْنَا⁽³⁾، فَأَنْخْتُ رَاحِلَتِي فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ،
وَحَطَطْتُ رَحْلِي، وَرَسَعْتُ⁽⁴⁾ بَعِيرِي، وَاضْطَجَعْتُ فِي بُرْدِي، فَإِذَا أَرْبَعُ
جَوَارٍ كَأَنَّهُنَّ اللَّالِي يُرْعَيْنَ بَهُمَا لَهْنًا، فَلَمَّا خَالَطْتُ عَيْنِي السَّنَةُ
أَقْبَلُنَّ حَتَّى جَلَسْنَ قَرِيبًا مِنِّي، وَفِي كَفِّ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ حَصِيَّاتٌ
تُقَلِّبُهُنَّ، فَحَطَّتْ إِحْدَاهُنَّ ثُمَّ طَرَقَتْ فَقَالَتْ: قُلْنَ يَا بَنَاتِ عَرَافٍ، فِي
صَاحِبِ الْجَمَلِ النِّيَافِ⁽⁵⁾، وَالْبُرْدِ الْكُثَافِ⁽⁶⁾، وَالْجَرَمِ⁽⁷⁾ الْخُفَافِ⁽⁸⁾. ثُمَّ
طَرَقَتِ الثَّانِيَةُ فَقَالَتْ: مُضِلُّ أَدْوَادٍ عَلَاكِدٍ⁽⁹⁾، كُومٍ⁽¹⁰⁾ صَلاخِدٍ⁽¹¹⁾، مِنْهُنَّ
ثَلَاثُ مَقَاحِدٍ⁽¹²⁾، وَأَرْبَعُ جَدَائِدٍ⁽¹³⁾، شُسُفٍ⁽¹⁴⁾ صَمَارِدٍ⁽¹⁵⁾. ثُمَّ طَرَقَتْ

(1) بغاؤها: طلبها.

(2) الشجير: كثير الشجر.

(3) الأين: الكلال.

(4) رسعت: شددت رسغه.

(5) النيف: العالي.

(6) الكثاف: الكثيف.

(7) الجرم: الجسد.

(8) الخفاف: الخفيف.

(9) العلاكد: الصلاب.

(10) الكوم: العظام الأسنة. من علاكد علكد.

(11) الصلاخد: العظام الشداد، واحدها صلاحد، وفيه لغات، يُقال: بعير صلاحد وصلخد وصلخد، وناقعة صلخدة.

(12) المقاحد جمع مقحاد، وهي غليظة السنام. والقحدة: السنام، ويقال: أصل السنام.

(13) الحائد جمع حدود، وهو التي انقطع لبنها.

(14) قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: الشَّاسِفُ: أَشَدُّ ضَمْرًا مِنَ الشَّازِبِ.

(15) الصمارد جمع صمرد، والصمرد والبكتة والدهين: القليلة اللبن.

الثَّالِثَةُ فَقَالَتْ: رَعَيْنَ الْفَرْعَ⁽¹⁾، ثُمَّ هَبَطْنَ الْكَرْعَ⁽²⁾، بَيْنَ الْعَقِدَاتِ⁽³⁾ وَالْجَرَعِ. فَقَالَتْ الرَّابِعَةُ: لِيَهْبِطَ الْغَائِطُ⁽⁴⁾ الْأَفْيَحَ، ثُمَّ لِيُظْهَرَ فِي الْمَلَا⁽⁵⁾ الصَّحْصَحَ⁽⁶⁾، بَيْنَ سَدِيرٍ وَأَمْلَحَ⁽⁷⁾، فَهَنَّاكَ الدَّوْدَ رَتَّاعٌ بِمُنْعَرَجِ الْأَجْرَعِ⁽⁸⁾. قَالَ: فَقُمْتُ إِلَى جَمَلِي فَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلِي وَرَكَبْتُ، وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهِنَّ مَنْ هُنَّ وَلَا مِمَّنْ هُنَّ. فَلَمَّا أَدْبَرْتُ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: أَبْرَحَ⁽⁹⁾ فَتَى إِنْ جَدَّ فِي طَلَبٍ، فَمَا لَهُ غَيْرُهُنَّ نَشَبُ، وَسَيَثُوبُ عَنْ كَتَبٍ⁽¹⁰⁾، فَفَرَعَ قَلْبِي وَاللَّهِ قَوْلُهَا، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ هَذَا؟ وَقَدْ خَلَفْتُ بِوَادِي عَرْجًا⁽¹¹⁾ عُكَامِسًا⁽¹²⁾، فَرَكَبْتُ السَّمْتَ الَّذِي وُصِفَ لِي، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْمَوْضِعِ، فَإِذَا دَوْدِي رَوَاتِعُ، فَضَرَبْتُ أَعْجَازَهُنَّ حَتَّى أَشْرَفْتُ عَلَى الْوَادِي الَّذِي فِيهِ إِبْلِي، فَإِذَا الرِّعَاءُ تَدْعُو بِالْوَيْلِ، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: أَغَارَتْ بِهَرَاءَ عَلَى إِبْلِكَ فَأَسْحَفَتْهَا⁽¹³⁾، فَأَمْسَيْتُ وَاللَّهِ مَالِي مَالٌ غَيْرَ الدَّوْدِ، فَرَمَى اللَّهُ نَوَاصِيَهُنَّ بِالرَّغْسِ⁽¹⁴⁾، وَإِنِّي الْيَوْمَ

(1) الفرع جمع فرعة، وهي أعلى الجبل.

(2) الكرع: ماء السماء ينزل فيستتقع، وسمي كرعاً لأن الماشية تكرر فيه.

(3) العقدات جمع عقدة، والعقدة والصفرة: ما تعقد من الرمل.

(4) الغائط: المطمئن من الأرض.

(5) الملا: الفضاء.

(6) الصحصح: الصحراء.

(7) سدير وأملح: موضعان.

(8) الأجرع والجرعاء: دعص لا ينبت شيئاً.

(9) أبرح: أشد.

(10) الكتب: القرب.

(11) العرج: نحو خمسمائة من الإبل.

(12) العكابس والعكامس جميعاً: الكثير.

(13) أسحفتها: استأصلتها.

(14) الرغس: البركة والنماء.



لَا أَكْثَرَ بَنِي الْقَيْنِ مَالًا، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ (الطويل):

هُوَ الدَّهْرُ آسٍ تَارَةً ثُمَّ جَارِحٌ سَوَانِحُهُ مَبْثُوثَةٌ وَالبَوَارِحُ
فَبَيْنَا الْفَتَى فِي ظِلِّ نَعْمَاءٍ غَضَّةٍ تُبَاكِرُهُ أَفْيَاؤُهُ وَثُرَاوِحُ
إِلَى أَنْ رَمَتْهُ الْحَادِثَاتُ بِنَكْبَةٍ تَضِيقُ بِهِ مِنْهَا الرِّحَابُ الْفَسَائِحُ
فَأَصْبَحَ نِصْوًا لَا يَنْوُءُ كَأَنَّمَا بِأَعْظَمِهِ مِمَّا عَرَاهُ الْقَوَادِحُ⁽¹⁾
فَمَا خَلَّتْنِي مِنْ بَعْدِ عَرْجِ عُكَامِسٍ أَقْسَسُ⁽²⁾ أَدْوَادًا وَهْنٌ رَوَانِحُ⁽³⁾
حَدَابِيرُ⁽⁴⁾ مَا يَنْهَضُنْ إِلَّا تَحَامِلًا شَوَاسِفُ عُوْجٍ أَسَارَتْهَا الْجَوَانِحُ
فِيَا وَاثِقًا بِالدَّهْرِ كُنْ غَيْرَ آمِنٍ لِمَا تَنْتَضِيهِ الْبَاهِظَاتُ الْفَوَادِحُ
فَلَسْتُ عَلَى أَيَّامِهِ بِمُحَكَّمٍ إِذَا فَغَرَتْ فَاهَا الْخُطُوبُ الْكَوَالِحُ
مُجِيرَكَ مِنْهُ الصَّبْرُ إِنْ كُنْتَ صَابِرًا وَإِلَّا كَمَا يَهْوَى الْعَدُوُّ الْمُكَاشِحُ⁽⁵⁾.

نص (6):

حَدِيثُ الرَّجُلِ الْحَمِيرِيِّ فِي اخْتِبَارِ وَلَدِيهِ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَأَحَبُّ
وَأَبْغَضُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْخَيْلِ وَالسُّيُوفِ.
«وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْأَشْنَانِدَانِي، عَنْ
التَّوْزِي، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ، قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ
مِنْ مَقَاوِلِ حَمِيرِ ابْنَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: عَمْرُو وَلِلْآخَرِ: رَبِيعَةُ، وَكَانَا
قَدْ بَرَعَا فِي الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ، فَلَمَّا بَلَغَ الشَّيْخُ أَقْصَى عُمُرِهِ وَأَشْفَى عَلَى
الْفَنَاءِ، دَعَاهُمَا لِيَبْلُغَا عُقُولَهُمَا، وَيَعْرِفَا مَبْلَغَ عِلْمِهِمَا، فَلَمَّا حَضَرَ

(1) القوادح، واحدها قاذحة، وهي العيب في العود والسن.

(2) أقسس: أتبع.

(3) الروازح: التي قد سقطت من الهزال.

(4) الحدابير: التي قد تقوست من الهزال واحدها حدبار.

(5) الأمالي: 143-144.

قَالَ لِعَمْرُو، -وَكَانَ الْأَكْبَرُ- أَخْبَرَنِي عَنْ أَحَبِّ الرِّجَالِ إِلَيْكَ، وَأَكْرَمِهِمْ عَلَيْكَ، قَالَ: السَّيِّدُ الْجَوَادُ، الْقَلِيلُ الْأَنْدَادِ، الْمَاجِدُ الْأَجْدَادِ، الرَّاسِي الْأَوْتَادِ، الرَّفِيعُ الْعِمَادِ، الْعَظِيمُ الرَّمَادِ، الْكَثِيرُ الْحُسَادِ، الْبَاسِلُ الدَّوَادِ، الصَّادِرُ الْوَرَادُ. قَالَ: مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةُ؟ قَالَ: مَا أَحْسَنَ مَا وَصَفَا! وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَنْ يَكُونُ بَعْدَ هَذَا؟ قَالَ: السَّيِّدُ الْكَرِيمُ، الْمَانِعُ لِلْحَرِيمِ، الْمُفْضَالُ الْحَلِيمُ، الْقَمَقَامُ⁽¹⁾ الزَّعِيمُ، الَّذِي إِنْ هَمَّ فَعَلَ، وَإِنْ سُئِلَ بَدَّلَ. قَالَ: أَخْبَرَنِي يَا عَمْرُو بِأَبْغَضِ الرِّجَالِ إِلَيْكَ، قَالَ: الْبَرَمُ⁽²⁾ اللَّئِيمُ، الْمُسْتَخْذِي⁽³⁾ لِلْخَصِيمِ، الْمِبْطَانُ النَّهِيمُ، الْعَيِيُّ الْبَكِيمُ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ مَنَعَ، وَإِنْ هُدِدَ خَضَعَ، وَإِنْ طَلَبَ جَشَعَ⁽⁴⁾. قَالَ: مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةُ؟ قَالَ: غَيْرُهُ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: النَّوْومُ الْكَذُوبُ، الْفَاحِشُ الْغَضُوبُ، الرَّغِيبُ عِنْدَ الطَّعَامِ، الْجَبَانُ عِنْدَ الصَّدَامِ. قَالَ: أَخْبَرَنِي يَا عَمْرُو، أَيُّ النِّسَاءِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْهَرْكُولَةُ⁽⁵⁾ اللَّفَاءُ⁽⁶⁾، الْمَمْكُورَةُ⁽⁷⁾ الْجَيْدَاءُ، الَّتِي يَشْفِي السَّقِيمَ كَلَامُهَا، وَيُبْرِئِي الْوَصِيبَ⁽⁸⁾ إِمَامُهَا، الَّتِي إِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهَا شَكَرَتْ، وَإِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهَا صَبَرَتْ، وَإِنْ اسْتَعْتَبْتُهَا أَعْتَبَتْ، الْفَاتِرَةُ

(1) القمقام: السيّد كثير العطاء.

(2) الْبَرَمُ: الذي لا يُيَاسِرُ القوم، أي لا يدخل مع القوم في الميسر، وهي إشارة إلى البخل. ورد في اللسان: « وفي حديث وقد مذحج: كرامٌ غير أبرام: الأبرام: اللئام، واحدٌهم بَرَمٌ، بفتح الراء، وهو في الأصل الذي لا يدخل مع القوم في الميسر ولا يخرج معهم فيه شيئاً؛

(3) الخاضع الذليل.

(4) إن طلب جشع، الجشع: أسوأ الحرص، وقد جشع الرجل فهو جشع.

(5) الهركولة: الحسنة الجسم والخبق والمشية.

(6) اللفاء: الملتفة الجسم.

(7) الممكورة: المطوية الخلق.

(8) المريض، كثير الأوجاع.



الطَّرْفُ، الظَّفَلَةُ الكَفُّ، العَمِيمَةُ الرَّدْفُ. قَالَ: مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةَ؟
قَالَ: نَعَتْ فَأَحْسَن! وَغَيْرَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهَا، قَالَ: وَمَنْ هِيَ؟ قَالَ:
الْفَتَانَةُ الْعَيْنَيْنِ، الْأَسِيلَةُ الْخَدَيْنِ، الْكَاعِبُ التَّدْيَيْنِ، الرَّدَاحُ⁽¹⁾
الْوَرَكَيْنِ، الشَّاكِرَةُ لِلْقَلِيلِ، الْمُسَاعِدَةُ لِلْحَلِيلِ، الرَّخِيمَةُ⁽²⁾ الْكَلَامِ،
الْجَمَاءُ الْعِظَامُ⁽³⁾، الْكَرِيمَةُ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ، الْعَذْبَةُ اللَّثَامُ⁽⁴⁾. قَالَ:
فَأَيُّ النِّسَاءِ إِلَيْكَ أَبْغَضُ يَا عَمْرُو؟ قَالَ: الْفَتَانَةُ⁽⁵⁾ الْكَذُوبُ، الظَّاهِرَةُ
الْعُيُوبِ، الطَّوَافَةُ الْهَبُوبُ⁽⁶⁾، الْعَابِسَةُ الْقُطُوبُ، السَّبَابَةُ الْوُثُوبُ، الَّتِي
إِنْ ائْتَمَنَهَا زَوْجُهَا خَانَتْهُ، وَإِنْ لَانَ لَهَا أَهَانَتْهُ، وَإِنْ أَرْضَاهَا أَغْضَبَتْهُ،
وَإِنْ أَطَاعَهَا عَصَتْهُ. قَالَ: مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةَ؟ قَالَ: بِئْسَ وَاللَّهِ الْمَرْأَةُ
ذَكَرًا وَغَيْرُهَا أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهَا، قَالَ: وَأَيُّتَهُنَّ الَّتِي هِيَ أَبْغَضُ إِلَيْكَ
مِنْ هَذِهِ؟ قَالَ: السَّلَيطَةُ اللِّسَانِ، الْمُؤْذِيَةُ لِلْجِيرَانِ، النَّاطِقَةُ بِالْبُهْتَانِ،
الَّتِي وَجْهَهَا عَابِسٌ، وَزَوْجُهَا مِنْ خَيْرِهَا آيِسٌ، الَّتِي إِنْ عَاتَبَهَا زَوْجُهَا
وَتَرَنَّهُ، وَإِنْ نَاطَقَهَا انْتَهَرَتْهُ. قَالَ رَبِيعَةُ: وَغَيْرُهَا أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهَا
قَالَ: وَمَنْ هِيَ؟ قَالَ: الَّتِي شَقِيَ صَاحِبُهَا، وَخَزِيَ خَاطِبُهَا، وَافْتَضَحَ
أَقَارِبُهَا. قَالَ: وَمَنْ صَاحِبُهَا؟ قَالَ: مِثْلُهَا فِي خِصَالِهَا كُلِّهَا، لَا تَصْلُحُ
إِلَّا لَهُ وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا. قَالَ: فَصِفْهُ لِي؟ قَالَ: الْكَفُورُ غَيْرُ الشُّكُورِ،
اللَّئِيمُ الْفَجُورُ، الْعَبُوسُ الْكَالِحُ، الْحَرُونُ الْجَامِحُ، الرَّاضِي بِالْهَوَانِ،

(1) الرداح: الثقيلة العجيزة الضخمة الوركين.

(2) الرخيمة: اللينة الكلام.

(3) الجماء العظام: لا يوجد لعظامها حجم، بمنزلة الجماء من البقر.

(4) فأمّا قوله: العذبة اللثام، فإنه أراد موضع اللثام، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

(5) الفتانة: النمامة.

(6) الهبوب: الكثيرة الانتباه قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ: هَبَ مِنْ نَوْمِهِ يَهَبُ هَبُوبًا، وَأَهْبَيْتُهُ أَيْ أَنْبَيْتُهُ.

الْمُخْتَالُ الْمَنَّا، الضَّعِيفُ الْجَنَانِ، الْجَعْدُ الْبَنَانِ، الْقَتُولُ غَيْرُ الْعَقُولِ،
 الْمَلُولُ غَيْرُ الْوُصُولِ، الَّذِي لَا يَرِغُ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَلَا يَزْدَعُ عَنِ الْمَظَالِمِ.
 قَالَ: أَخْبِرْنِي يَا عَمْرُو، أَيُّ الْخَيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، إِذَا انْتَقَى
 الْأَقْرَانُ لِلتَّجَالِدِ؟ قَالَ: الْجَوَادُ الْأَنِيقُ، الْحِصَانُ⁽¹⁾ الْعَتِيقُ، الْكَفِيتُ⁽²⁾
 الْعَرِيقُ، الشَّدِيدُ الْوَثِيقُ، الَّذِي يَفُوتُ إِذَا هَرَبَ، وَيَلْحَقُ إِذَا طَلَبَ.
 قَالَ: نِعْمَ الْفَرَسُ وَاللَّهُ نَعْتًا! قَالَ: فَمَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةُ؟ قَالَ: غَيْرُهُ
 أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الْحِصَانُ الْجَوَادُ، السَّلِسُ الْقِيَادِ،
 الشَّهْمُ الْفُؤَادِ، الصَّبُورُ إِذَا سَرَى، السَّابِقُ إِذَا جَرَى. قَالَ: فَأَيُّ خَيْلٍ
 أَبْغَضُ إِلَيْكَ يَا عَمْرُو؟ قَالَ: الْجَمُوحُ الطَّمُوحُ، النُّكُولُ⁽³⁾ الْأَنْوَحُ⁽⁴⁾،
 الصُّئُولُ (هَكَذَا) الضَّعِيفُ، الْمَلُولُ الْعَنِيفُ، الَّذِي إِنْ جَارَيْتَهُ سَبَقْتَهُ،
 وَإِنْ طَلَبْتَهُ أَذْرَكَتَهُ، قَالَ: مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةُ؟ قَالَ: غَيْرُهُ أَبْغَضُ إِلَيَّ
 مِنْهُ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الْبَطِيءُ الثَّقِيلُ، الْحَرُونُ الْكَلِيلُ، الَّذِي إِنْ
 ضَرَبْتَهُ قَمَصَ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنْهُ شَمَسَ، يُدْرِكُهُ الطَّالِبُ، وَيَفُوتُهُ الْهَارِبُ،
 وَيَقْطَعُ بِالصَّاحِبِ. قَالَ رَبِيعَةُ: وَغَيْرُهُ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَا
 هُوَ؟ قَالَ: الْجَمُوحُ الْخَبُوطُ، الرُّكُوضُ الْخُرُوطُ، الشَّمُوسُ الضَّرُوطُ،
 الْقَطُوفُ فِي الصُّعُودِ وَالْهَبُوطِ، الَّذِي لَا يُسَلِّمُ الصَّاحِبَ، وَلَا يَنْجُو
 مِنَ الطَّالِبِ. قَالَ: أَخْبِرْنِي يَا عَمْرُو أَيُّ الْعَيْشِ أَلَذُّ؟ قَالَ: عَيْشٌ فِي
 كَرَامَةٍ، وَنَعِيمٍ وَسَلَامَةٍ، وَاعْتِبَاقٍ مُدَامَةٍ. قَالَ: مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةُ؟
 قَالَ: نِعْمَ الْعَيْشُ وَاللَّهُ وَصَفًا! وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟
 قَالَ: عَيْشٌ فِي أَمْنٍ وَنَعِيمٍ، وَعِزٌّ وَغِنَى عَمِيمٍ، فِي ظِلِّ نَجَاحٍ، وَسَلَامَةٍ
 مَسَاءٍ وَصَبَاحٍ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: غِنَى دَائِمٍ،

(1) الحصان: الذكر من الخيل.

(2) الكفيت: السريع.

(3) النكول: قال الأصمعي: الكفت عن قرنه.

(4) الأنوح: الكثير الزحير.



وَعَيْشُ سَالِمٍ، وَظِلُّ نَاعِمٍ. قَالَ: فَمَا أَحَبُّ السُّيُوفِ إِلَيْكَ يَا عَمْرُو؟
قَالَ: الصَّقِيلُ الْحُسَامُ، الْبَاتِرُ الْمَجْدَامُ⁽¹⁾، الْمَاضِي السُّطَامُ، الْمُرْهَفُ
الصَّمْصَامُ، الَّذِي إِذَا هَزَزْتَهُ لَمْ يَكُبْ، وَإِنْ ضَرَبْتَ بِهِ لَمْ يَنْبُ. قَالَ: مَا
تَقُولُ يَا رَبِيعَةَ؟ قَالَ: نِعَمَ السَّيْفِ نَعْتًا وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ، قَالَ: وَمَا
هُوَ؟ قَالَ: الْحُسَامُ الْقَاطِعُ، ذُو الرُّونْقِ اللَّامِعِ، الظَّمَانُ الْجَائِعُ، الَّذِي
إِذَا هَزَزْتَهُ هَتَكَ، وَإِذَا ضَرَبْتَ بِهِ بَتَكَ. قَالَ: فَمَا أَبْغَضُ السُّيُوفِ إِلَيْكَ
يَا عَمْرُو؟ قَالَ: الْفَطَارُ⁽²⁾ الْكَهَامُ، الَّذِي إِنْ ضُرِبَ بِهِ لَمْ يَقْطَعْ، وَإِنْ
دُبِحَ بِهِ لَمْ يَنْخَعْ⁽³⁾. قَالَ: فَمَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةَ؟ قَالَ: بَتَسَ السَّيْفِ وَاللَّهِ
ذَكَرًا وَغَيْرَهُ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الطَّبْعُ⁽⁴⁾ الدُّدَانُ،
الْمِعْضَدُ⁽⁵⁾ الْمُهَانُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي يَا عَمْرُو، أَيُّ الرِّمَاحِ أَحَبُّ إِلَيْكَ عِنْدَ
الْمِرَاسِ، إِذَا اعْتَكَرَ الْبَاسُ، وَاشْتَجَرَ الدَّعَاسُ⁽⁶⁾؟ قَالَ: أَحَبُّهَا إِلَيَّ الْمَارِنُ
الْمُثَقَّفُ، الْمُقْوَمُ الْمُخْطَفُ، الَّذِي إِذَا هَزَزْتَهُ لَمْ يَنْعَطِفْ، وَإِذَا طَعَنْتَ بِهِ
لَمْ يَنْقُصْ. قَالَ: مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةَ؟ قَالَ: نِعَمَ الرُّمَحِ نَعْتًا وَغَيْرَهُ
أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الدَّابِلُ الْعَسَالُ⁽⁷⁾، الْمُقْوَمُ النَّسَالُ،
الْمَاضِي إِذَا هَزَزْتَهُ، النَّافِذُ إِذَا هَمَزْتَهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي يَا عَمْرُو عَنْ
أَبْغَضِ الرِّمَاحِ إِلَيْكَ، قَالَ: الْأَعْصَلُ⁽⁸⁾ عِنْدَ الطَّعَانِ، الْمُثَلَّمُ السَّنَانُ،

(1) المجذام مفعال من الجذم، وهو القطع حد السيف وغيره، وفي الحديث العرب سطام الناي أي حدهم.

(2) والفطار الذي لا يقطع وهو مع ذلك حديث الطبع.

(3) قوله: لم ينخع: لم يبلغ النخاع.

(4) الطبع: الصدا لا يقطع وهو نحو الكهام.

(5) المعضد: القصير الذي يمتن في قطع الشجر وغيرها.

(6) والدعاس: الطعان، يُقَال: دَعَسَهُ إِذَا طَعَنَهُ، والمداعسة: المطاعنة.

(7) العسال: الشديد الاضطراب إذا هززه، ومنه العسلان، وهو عدو فيه اضطراب، والنسلان قريب منه.

(8) الأعصل: الملتوي المعوج.

الَّذِي إِذَا هَزَزْتُهُ انْعَطَفَ، وَإِذَا طَعَنْتَ بِهِ انْقَصَفَ. قَالَ: مَا تَقُولُ يَا رِبِيعَةَ؟ قَالَ: بِئْسَ الرُّمَحِ ذَكَرًا وَغَيْرُهُ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهُ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: الضَّعِيفُ الْمَهْزُ، الْيَابِسُ الْكَزُّ، الَّذِي إِذَا أَكْرَهْتَهُ انْحَطَمَ، وَإِذَا طَعَنْتَ بِهِ انْقَصَمَ. قَالَ: انْصَرِفَا الْآنَ طَابَ لِي الْمَوْتُ»⁽¹⁾.

نص (7):

الْأَيَّامُ دَوْلٌ وَتَبْدُلُ الْحَالِ.

«حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَمِّهِ، قَالَ: دَفَعْتُ يَوْمًا فِي تَلْمُوسِي بِالْبَادِيَةِ إِلَى وَادٍ خَلَاءٍ لَا أَنْيْسَ بِهِ إِلَّا بَيْتٌ مُعْتَنَزٌ⁽²⁾ بِضَانِهِ أَعْنَزُ وَقَدْ ظَمِئْتُ فَيَمَمْتُهُ فَسَلَّمْتُ، فَإِذَا عَجُوزٌ قَدْ بَرَزَتْ كَأَنَّهَا نِعَامَةٌ رَاخِمٌ⁽³⁾، فَقُلْتُ: هَلْ مِنْ مَاءٍ؟ فَقَالَتْ: أَوْ لَبَنٍ؟ فَقُلْتُ: مَا كَانَتْ بُغَيْتِي إِلَّا الْمَاءَ، فَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ اللَّبَنَ فَإِنِّي فَقِيرٌ، فَقَامَتِ إِلَى قَعْبٍ فَأَفْرَغَتْ فِيهِ مَاءً وَنَظَّفَتْ غَسْلَهُ ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى الْأَعْنَزِ فَتَغَبَّرْتُهُنَّ⁽⁴⁾ حَتَّى احْتَلَبْتُ قُرَابًا⁽⁵⁾ مِلءِ الْقَعْبِ، ثُمَّ أَفْرَغْتُ عَلَيْهِ مَاءً حَتَّى رَغَا⁽⁶⁾ وَطَفَتْ ثِمَالَتُهُ⁽⁷⁾ كَأَنَّهَا عِمَامَةٌ بِيضَاءُ، ثُمَّ نَاوَلْتَنِي إِيَّاهُ فَشَرِبْتُ حَتَّى تَحَبَّبْتُ⁽⁸⁾ رِيًّا، وَاطْمَأْنَنْتُ فَقُلْتُ: إِنِّي أَرَاكَ

(1) الأُمَالِي، -152 153.

(2) معتنز: منفرد.

(3) الراخم: التي تحضن بيضها.

(4) تغبرتهن: احتلبت الغبر، وهي بقية اللبن في الضرع وجمعه.

(5) قراب وقريب واحد، مثل كبار وكبير وجسام وجسيم.

(6) رغا: صارت له رغوة وفي رغوة ثلاث لغات، يُقَالُ: رَغْوَةٌ وَرَغْوَةٌ وَرَغْوَةٌ.

(7) الثمالة: الرغوة.

(8) تحببت: امتلأت، يُقَالُ: تحبب من الماء إذا امتلأ.



مُعْتَنَزَةً فِي هَذَا الْوَادِي الْمُوَحِّشِ وَالْحِلَّةِ⁽¹⁾ مِنْكَ قَرِيبٌ، فَلَوْ انْضَمَمْتُ
إِلَى جَنَابِهِمْ⁽²⁾ فَأَنْسَتَ بِهِمْ؟ فَقَالَتْ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي لَأَنْسُ بِالْوَحْشَةِ،
وَأَسْتَرِيحُ إِلَى الْوَحْدَةِ، وَيَطْمَئِنُّ قَلْبِي إِلَى هَذَا الْوَادِي الْمُوَحِّشِ،
فَأَتَذَكَّرُ مَنْ عَهِدْتُ، فَكَأَنِّي أَخَاطَبُ أَعْيَانَهُمْ، وَأَتَرَاءَى أَشْبَاحَهُمْ⁽³⁾،
وَتَتَخَيَّلُ لِي أُنْدِيَّةً⁽⁴⁾ رِجَالَهُمْ، وَمَلَاعِبُ وَلَدَانِهِمْ، وَمُنْدَى أَمْوَالِهِمْ،
وَاللَّهُ يَا ابْنَ أَخِي، لَقَدْ رَأَيْتُ هَذَا الْوَادِي بَشَعَ⁽⁵⁾ اللَّدِيدَيْنِ⁽⁶⁾، بِأَهْلِ
أَدْوَا⁽⁷⁾ وَقَبَابٍ، وَنَعَمٍ كَالْهَضَابِ⁽⁸⁾، وَخَيْلٍ كَالدُّنَابِ، وَفَتَيَانٍ كَالرَّمَاكِ،
يُبَارُونَ الرِّيَّاحَ، وَيَحْمُونَ الصَّبَاحَ، فَأَحَالَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ قَمًّا⁽⁹⁾ بَغْرَفَةٍ،
فَأَصْبَحَتْ الْأَثَارُ دَارِسَةً، وَالْمَحَالُّ طَامِسَةً، وَكَذَلِكَ سِيرَةُ الدَّهْرِ فِيمَنْ
وَثِقَ بِهِ. ثُمَّ قَالَتْ: أَرَمَ بَعِينِكَ فِي هَذَا الْمَلَا⁽¹⁰⁾ الْمُتَبَاطِنِ⁽¹¹⁾، فَتَنْظَرْتُ،
فَإِذَا قُبُورٌ نَحْوَ أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ، فَقَالَتْ: أَلَا تَرَى تِلْكَ الْأَجْدَاثَ؟

(1) الحلال: جماعات بيوت الناس، الواحدة حلة.

(2) الجَنَابُ بفتح الجيم: فناء الدار، يُقَال: أَخَصَبَ جَنَابُ الْقَوْمِ وَهُوَ مَا حَوْلَهُمْ،
وَالْجَنَابُ بِكسر الجيم: موضع.

وفرسٌ طوع الجَنَابُ إِذَا كَانَ سَهْلَ الْقِيَا

(3) الْأَشْبَاحُ: الْأَشْخَاصُ، يُقَال: شَبَّحَ وَشَبَّحَ، لُغَتَانِ.

(4) الْأُنْدِيَّةُ جَمْعُ نَدِيٍّ، وَالنَدِيُّ النَّادِي: الْمَجْلِسُ، وَمُنْدَى الْقَوْمِ: مَوْضِعُ مُتَحَدِّثِهِمْ.
وَالنَدَى يورِدُ الرَّجُلَ إِبْلَهُ ثُمَّ يَرَعَاهَا ثُمَّ يوردها ثُمَّ يَرَعَاهَا، وَالْمُنْدَى: الْمَكَانُ الَّذِي
يَنْدِي فِيهِ الْمَالُ.

(5) بَشَعَ: مَلَأَ.

(6) اللَّدِيدَانِ: الْجَانِبَانِ.

(7) الدوحة: الشجرة العظيمة.

(8) الهضاب: الجبال الصغار.

(9) قَمْنَا: كَنَسَا، يُقَال: قَمَمْتُ الْبَيْتَ، أَيِ كَنَسْتَهُ، وَالْقَمَامَةُ: الْكَنَاسَةُ، وَالْمَقَمَةُ:
الْمَكْنَسَةُ. وَالْغُرْفَةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْغُرَفِ، وَهِيَ ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ

(10) الْمَلَا: الْفُضَاءُ،

(11) الْمُتَبَاطِنُ: الْمُتَطَامِنُ.

قُلْتُ: نَعَمْ! قَالَتْ: مَا انْطَوَتْ إِلَّا عَلَى أَخٍ أَوْ عَلَى ابْنِ أَخٍ، أَوْ عَمٍّ أَوْ ابْنِ عَمٍّ، فَأَصْبَحُوا قَدْ أَلْمَأَتْ⁽¹⁾ عَلَيْهِم الْأَرْضُ، وَأَنَا أَتَرَقَّبُ مَا غَالَهُمْ⁽²⁾، انْصَرَفُ رَاشِدًا رَحِمَكَ اللَّهُ⁽³⁾.

نص (8):

«وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دَرِيدٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمِّي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ الْكَلْبِيِّ، قَالَ: مَرَّ مَنَسِرٌ⁽⁴⁾ مِنَ الْعَرَبِ بِغِلَامٍ يَزْعَى غَنِيمَةً لَهُ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ شِعْبٌ أَوْ نَقْبٌ، فَتَرَكَ غَنِمَهُ وَأَسْنَدَ فِي الْجَبَلِ فَاتَى قَوْمَهُ فَأَنْذَرَهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: مَا رَأَيْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ سَبْعَةَ كَالرَّمَاكِ، عَلَى سَبْعَةِ كَالْقِدَاحِ، غَائِرَةِ الْعُيُونِ، لَوَاحِقِ الْبُطُونِ، مُلْسِ الْمُتُونِ، جَرِيهَا انْبِتَارٌ⁽⁵⁾، وَتَقْرِيْبُهَا انْكِدَارٌ⁽⁶⁾، وَإِرْخَاؤُهَا اسْتِعَارٌ، وَعَهْدِي بِهِمْ قَدْ لَادُوا بِالضَّلَعِ، وَكَأَنَّكُمْ بِغُبَارِهِمْ قَدْ سَطَعَ، فَلَمْ يَفْرُغْ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى رَأَوْا الْغَبْرَةَ فَاسْتَعَدُّوا، وَصَادَفَهُم الْقَوْمُ حَاذِرِينَ فَأَذْبَرُوا عَنْهُمْ⁽⁷⁾».

(1) أَلْمَأَتْ عَلَيْهِم: احتوت عليهم.

(2) غَالَهُم: أهلكهم.

(3) الْأَمَالِي، ص 275.

(4) المنسر جماعة الخيل.

(5) الْانْبِتَار: الشدة في العدو، لأنه انقطع عن التقريب والإرخاء.

(6) انْكِدَار: انفعال من قولهم: انكدار إذا أسرع بعض الإسراع.

(7) الْأَمَالِي، ص 54.

نص (9):

وصف مكفوفٍ لَحمارٍ يَطْلُبُهُ.

«حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْعُكْلِيُّ، عَنْ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الْهَيْثَمِ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا بِالْكِنَاسَةِ بِالْكُوفَةِ إِذْ أَتَى رَجُلٌ مَكْفُوفٌ نَخَاسًا، فَقَالَ لَهُ: اطْلُبْ لِي حِمَارًا لَيْسَ بِالصَّغِيرِ الْمُحْتَقِرِ، وَلَا بِالْكَبِيرِ الْمُشْتَهَرِ، إِنَّ خَلَا الطَّرِيقُ تَدَفَّقَ، وَإِنْ كَثُرَ الزُّحَامُ تَرَفَّقَ، لَا يُصَادِمُ السَّوَارِي، وَلَا يُدْخِلُنِي تَحْتَ الْبَوَارِي، إِنْ أَقْلَلْتُ عَلَفَهُ صَبَرَ، وَإِنْ أَكْثَرْتُهُ شَكَرَ، وَإِنْ رَكِبْتُهُ هَامَ، وَإِنْ رَكِبَهُ غَيْرِي قَامَ. فَقَالَ لَهُ: اصْبِرْ، فَإِنْ مَسَخَ اللَّهُ الْقَاضِي حِمَارًا قَضَيْتُ حَاجَتَكَ»⁽¹⁾.



(1) الأمالي، ص 394.



العِلْمُ: الدَّرَايَةُ والرَّوَايَةُ

إِنَّ بَابًا مِنَ الْبَحْثِ وَسِيعًا يَحْتَاجُ نَظْرًا وَدَرَايَةً وَدَرَايَةً ثَاوٍ فِي مَصْنُفَاتٍ قَدِيمَةٍ مَنْجَمٌ فِي بَطُونِ كُتُبِ الْعُلَمَاءِ عَلَى تَنْوُّعِ عُلُومِهِمْ فَقَهًّا أَوْ حَدِيثًا أَوْ قِرَاءًا أَوْ بَصَرِيَّاتٍ أَوْ طِبًّا أَوْ عُلُومَ فَلَكٍ، وَهُوَ تَوْظِيفُ الْقِصَصِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، فَهَلْ أَنَّ الْقِصَّةَ أَدَاةٌ لِلتَّسْلِيَةِ يُمكن أَنْ تُخَفَّفَ وَطْأَةُ الْعِلْمِ وَصَرَامَتُهُ؟ أَوْ أَنَّ الْقِصَّةَ هِيَ الْأَقْرَبُ إِلَى التَّمَثِيلِ وَالْبَيَانِ وَالْإِظْهَارِ؟ أَوْ أَنَّ الْقِصَّةَ هِيَ الطَّرِيقُ الْأَيْسَرُ إِلَى الْإِقْنَاعِ وَالْبُرْهَانِ؟ أَوْ أَنَّ الذَّائِقَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَا تَسْتَسِيغُ فَقَهًّا وَلَا حِكْمَةً وَلَا عِلْمًا وَلَا فِلَسَفَةً إِلَّا إِذَا صُبَّتْ فِي قَالِبٍ قِصَصِيٍّ؟

جُمْلَةٌ مِنَ الْمَصَادِرَاتِ الْإِشْكَالِيَّةِ يُمكن أَنْ تُفْتَحَ مَسَالِكُ فِي الْبَحْثِ بِكْرًا، وَأَنْ تَدْرَّ عَلَى الطَّالِبِينَ الرَّاغِبِينَ فِيضًا مِنَ الْمَعَارِفِ الَّتِي ظَلَّتْ كَامِنَةً فِي عُمُقِ تَرَاثِ الْعَرَبِ، فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُنِيرُ عَنَمَتَهَا. وَيَدْخُلُ هَذَا الْفَصْلُ الْأَخِيرُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فِي طَرَحِ جُمْلَةٍ مِنَ الْمَوَاطِنِ الْبَحْثِيَّةِ وَالْإِشْكَالِيَّاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ فِي تَارِيخِيَّةِ الْقِصَصِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ وَفِي مَنَازِلَةِ الْقِصَصِ وَدَوْرِهِ فِي تَصْرِيفِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَلِذَلِكَ فَسَنَكْتَفِي بِبَعْضِ مِنَ الْإِشَارَاتِ الْإِشْكَالِيَّةِ لِمَبْحَثِ الْقِصَصِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ. نَظَرًا إِلَى أَنَّ تَفْصِيلَ الْقَوْلِ يَحْتَاجُ زَمَنًا مَدِيدًا وَمَجْهُودَ فَرِيقٍ بَحْثٍ.

لقد وقفتُ في تاريخ الحضارة العربيَّة عامَّةً على نصوصٍ سرديَّةٍ ممتعةٍ، موجودةٍ في مصنِّفاتٍ علميَّةٍ خالصةٍ أو شبه علميَّةٍ، هي مُصنِّفاتٌ تتوجَّه مَقْصَدًا إلى تناول مواضيعٍ في علومٍ صحيحةٍ أو علومٍ ظنيَّةٍ، وتحتوي في أثنائها قصصًا وأخبارًا تنتزَلُ منزلة الشَّاهد، أو منزلة الحجَّة أو منزلة العلم، ذلك أنَّ الرِّواية في المعارف القديمة هي سبيل الدِّراية، والقصةُ مكوِّنُ رئيسٍ من وسائلِ الإقناع والتأثير وأثرها في «عامَّة» النَّاسِ يفوق كلَّ أثر الخطابات الأخرى، وعلى ذلك، فقد توجَّهتُ في هذا المبحث الأخير إلى استخلاصِ نصوصٍ علميَّةٍ من شبه الجزيرة العربيَّة فيها توظيف للرواية، وللقصص تحديدًا، فعلماء العرب كانوا ميَّالين إلى عرض العلوم سرِّدًا يُخرجُ القارئ من جديَّة العلم، وجفافه، وقد سعينا أن نعرضَ بعضًا من هذه النصوصِ مع إثارة الإشكاليَّات الخطابيَّة التي يُمكن أن تفتح أبوابًا في لاحق البحث. وابتدأنا بكتاب ابن عمير فاكهة ابن السَّبيل، وهو كتابٌ في الطبِّ الخالص، غير أنَّ بناءه كان نثرًا أدبيًّا، ثمَّ عرضنا لكتابِ شفاء القلوب لخميس العبري، وهو كتابٌ موسوعيٌّ، جامعٌ، غير أنَّه وإن كان في «العلم»، فإنَّ التخيل فيه غالبٌ، قصصًا تُروى بإفاضةٍ وتوسُّعٍ، ثمَّ ختمنا بكتابٍ آخر للبحراني، هو لؤلؤة البحرين، وهو كتابٌ قد توسَّط بالقصص وتوظيف الأخبار في أغلب تراجمه، غير أنَّ الأهمَّ بالنسبة إلينا هو الخطابُ السِّيرِيُّ الذي ارتأى صاحبه أن يختم به الكتاب.





«النص الأدبي المهدور»⁽¹⁾

لم يكن ابن عمير وهو الطبيب، المُجَرَّبُ قادراً على أن يُجَبِّرَ كتاباً في الطبِّ الخالص، في العلمِ الصَّرفِ، وهو ابن عَصْرِهِ، وسليلُ بيئةٍ من العلماء الذين لا يفضلون الأدب عن أيِّ مجالٍ معرفيٍّ، فالأدب حاضِرٌ دومًا أسلوبًا أو مضمونًا.

الطبيب ابن عمير هو راشد بن عمير بن ثاني بن خلف العيني الرُّسْتَاقي العُماني، لُقِّبَ بابن هاشم، ينحدرُ من سلالةٍ طبَّيَّةٍ، له أحد عشر كتابًا ومنظومة في الطبِّ، عاش في القرن السادس عشر وفي أوائل القرن السابع عشر، وتوفي عام 1610، وكان طبيبًا مشهورًا، مجرَّبًا، سافرَ إلى عددٍ من البلدان طلبًا للمعرفة والتجربة، وكانت له مراسلات مع أطباء فارس⁽²⁾.

وقد اشتهر بكتابه المعنون بفاكهة ابن السَّيْل، وهو كتابٌ اختباريٌّ، تجريبيٌّ، يتعرَّضُ فيه الكاتبُ إلى العلل والأمراض وطرق مداواتها، وقد غلب عليه في تأليف هذا الكتاب الأسلوبُ الأدبيُّ الذي ميَّزه وأفرده، من كتابةٍ بسيطةٍ، قابلةٍ للفهم والإدراك، ووسائطٍ

(1) استعرتُ العبارة من مخطَّط بحثي مخطوط للدكتورة جوخة الحارثي يحمل نفس العنوان، ويهتمُّ بشعريَّة كتاب ابن عمير «فاكهة ابن السَّيْل».

(2) الموسوعة العُمانيَّة، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عُمان، الطبعة الأولى، 2013، ص 1500.

تمثيل قائمة على الرواية والإخبار والاستعانة بالقصص لغايات حجاجية أو توضيحية، فقد استند ابن عمير على الحكاية أساساً في مواطن عديدة للتمثيل على طريقة العلاج⁽¹⁾ أو للاستشهاد والإقناع⁽²⁾، «ولا عَجَبَ أَنْ نَجِدَ هَذِهِ الصُّبْغَةَ الْأَدْبِيَّةَ الْعَامَّةَ فِي كِتَابِ طَبِّي، فَمِنْ جِهَةٍ كَانَ الطَّبِيبُ فِي تِلْكَ الْأَزْمَنَةِ مَوْسُوعِيًّا، إِذْ يَتَكَوَّنُ تَكْوِينُهُ النُّقَايَةُ فِقْهِيًّا وَأَدْبِيًّا وَفَلَسْفِيًّا، وَيُلَمُّ غَالِبًا بِعُلُومِ الْفَلَكَ، وَعِلْمِ الْحُرُوفِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى تَخْصُّصِهِ الرَّئِيسِ فِي الطَّبِّ، وَلِذَلِكَ نَجِدُ إِشَارَاتٍ كَثِيرَةً فِي كِتَابِ ابْنِ عُمَيْرَةَ تَدُلُّ عَلَى تَفَقُّهِهِ فِي الدِّينِ، وَلُجُوءِهِ إِلَى الْمَأْثُورِ مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فِي الْعِلَاجِ، كَمَا نَجِدُ تَكَرَّرَ وَصِيَّتِهِ لِلْإِنْسَانِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالتَّزَامِ الْحَلَالِ، وَمِنْ النَّاحِيَةِ الْأَدْبِيَّةِ كَتَبَ ابْنُ عُمَيْرَةَ كِتَابَهُ بِأَسْلُوبٍ سَلِسٍ، لُغَتُهُ وَاضِحَةٌ، تَنْزَعُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ نَزْوَعًا سَرْدِيًّا سَنَفُصِّلُ الْحَدِيثَ فِيهِ»⁽³⁾.

لا يخرج ابن عمير في تأليفه عن عامّة التقليد التألفي في الموروث العربي، اتّكأ على السّند واستفادة من سالف المعارف والعلوم، فالسّند في مؤلّفه ركنٌ مكيّن يؤكّد ما نحوناه في الفصل السابق حديثاً عن سيادة الخبر شكلاً تألفياً دارجاً في الثقافة العربيّة لا يختصّ بالأدب بل يعمُّ أغلب العلوم، فابن عمير يقول قوله في العلم الطبيّ التجريبيّ، وينقل تجارب الآخرين من جهة ويهمّن أراءه ومعتقداته بأقوال السلف من مجال العلم أو من مجال

(1) حارثي (جوخة): المنزع السردى في مختصر فاكهة ابن السبيل، مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، مج 30، ع 2، 2018، ص 113.

(2) م. ن. ص 113.

(3) م. ن. ص 108.

الدين. فأرضيَّة اعتقاديَّة علميَّة مفادها أنَّ لكلِّ داءٍ دواءً احتاج فيها إلى سندٍ عقديٍّ شرعيٍّ دينيٍّ، يُثبت هذه الأرضيَّة ويدعمها، يقول -على سبيل المثال- في ذلك: «روى الشيخ بإسناده عن أسامة بن شريك قال: كنتُ عند النبي عليه الصلاة والسلام وجاء الأعرابُ، فقالوا: يا رسولَ الله، قال: نعم، تداووا يا عبادَ الله، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يَضَعْ داءً إلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفاءً، غير داءٍ واحدٍ. قالوا: وما هُوَ يا رسولَ الله، قال: الهرمُ»، رواه البخاري، وروى الشيخ بإسناده عن أسامة بن شريك، قال: كنتُ عند النبي عليه السلام، وجاءت الأعرابُ، فقالوا: يا رسولَ الله أنتداوي؟ قال: نعم، يا عبادَ الله تداووا فإنَّ الله لم يَضَعْ داءً إلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفاءً، علمه من علمه وجهله من جهله. وروى إلاَّ الهرم⁽¹⁾. فهو متوسَّل بالحديث النبويِّ، كما توسَّل في مناسبات متعدِّدة بآياتٍ من القرآن الكريم وبأقوال السلف، وهو أمرٌ منبئٌ بالأرضيَّة العقديَّة الإيمانيَّة التي تصدر عنها مختلف العلوم عند العرب، فلا سبيل لعلمٍ خارجٍ عن الأرضيَّة الشرعيَّة التي تُجيزه وتُحلُّ الدخول فيه والخوض في تفاصيله.

الأدبيُّ هو عُصْرُ ثابتٌ في كتاب ابن عمير، لا يبدو في الأسلوب الذي نهجه صاحبه رقةً في العبارة ودقَّة، ولا في ما توسَّط به من أساليب تصويريَّة أدبيَّة وهو يدخل غمار علم دقيق، بل هو ظاهرٌ في الاستناد إلى الشعر والقصص في مواقع مختلفة من الكتاب، فأما الشعر، فهو -بالنسبة إليه سَنَدٌ وَحْجَةٌ وبيانٌ وواسطة إقناعٍ، وقد لجأ إليه الطبيب الأديب أداة تعبير تفوق -في رأيه- قدرة الكلام العاديِّ على التعبير، فهو الحجَّة الدامغة على أنَّ الله تعالى

(1) م. ن. 47/1.

أمر بالتداوي وحثَّ عليه، وأنَّ لكلِّ داءٍ دواءٌ إلاَّ الهرم المؤدِّي إلى الموت، وذلك ظاهرٌ في الشعر الذي استدعاه ابن عمير نسبةً إلى الثَّمر بن تَوَلِّب:

«وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيَصْمَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ
أَوْ قَوْلَ أَحْمَدَ بْنِ نُورِ الْهَلَانِي:
أَرَى بَصْرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّتِهِ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمًا»⁽¹⁾.

فلكلِّ علَّةٍ أصلٌ ومهادٌ يتخيَّره صاحبُ الكتاب، وهو -كما سلف أن ذكرنا- لا يُهمل دومًا السند المرجعيُّ النقلِيَّ الدينيُّ، إذ يصدر في أغلب الأحيان عن أقوالِ الرُّسول، وهي عنده تلامسُ البعد الوقائيِّ من الأمراض وتفيد ببعض العلاجات، فمن ذلك -على سبيل المثال- ما يتوسَّع فيه في باب «في تدبير حفظ الصِّحَّة من الأكل والشرب والجماع وغير ذلك»⁽²⁾، إذ يُورد جملةً من أحاديث الرسول عليه الصَّلَاة والسلام تبين أصل الدَّاء من الإكثار في الطعام وتحثُّ على الاقتصاد فيه والاقتصار على ما ينفع منه دون الإكثار الدافع إلى الضَّرر، يقول: «وتقليلُ الغذاء على الحملَةِ والحميَّة قبل الوقوع في البليَّة، فقد قالَ نبيُّنا مُحَمَّدٌ صَلَّى وَسَلَّم، وهو سيِّدُ الحُكَمَاء والعُلَمَاء «ما ملأَ آدميُّ بطنه وعَاشَ مِن بطنٍ»، حسبُ ابنِ آدمَ تُقِيمَات يُقِيمُ بِهَا صُلْبَهُ، وَإِنْ كَانَ وَلَا بَدَّ فَتُلُتْ لِلطَّعَامِ وَتُلُتْ لِلشَّرَابِ وَتُلُتْ لِلتَّنَفُّسِ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «الْحِمِيَّةُ أَصْلُ الدَّوَاءِ وَالْبَطْنَةُ أَصْلُ الدَّاءِ». «وَعَوَّدُوا كُلَّ جَسَدٍ مَا اعْتَادَ»⁽³⁾.

(1) م.ن. 47/1.

(2) م.ن. 60/1.

(3) م.ن. 62/1.

وتكون الرواية سندًا ومثكًا لما يدخل فيه المتكلم الطبيب من بيانٍ يُظهر هذه الأرضية الجامعة بين المقام الديني والمقام العلمي، إذ يصل بينهما المؤلف ويُحدث توازنًا بين الشرعي والطبي، من خلال حوارٍ واردٍ في خبرٍ عن الحسن بن علي وطبيب نصراني خاص بالرشيد، يقول: «فقد روي أن الرشيد كان له طبيبٌ حاذقٌ نصراني، فقال لعلّي بن الحسن: أليس في كتابكم من علم الطب شيء؟ والعلم علمان، علم الأديان وعلم الأبدان؟ فقال علي: قد جمع الله الطب في نصف آية من كتابه بنا، قال: وما هي؟ قال: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا»، فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب؟ فقال علي: قد جمع رسولنا عليه السلام الطب في ألفاظٍ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عودته. فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًا»⁽¹⁾.

وفي هذا المقام نفسه يكون تسخير الأخبار المنقولة والأقوال المروية في ما يخدم وجهة الكتاب وتوجه صاحبه من أمور الأمراض ومظاهر الوقاية منها والعلاجات التي يبينها ويفصل القول فيها، «وروي عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول: من أراد البقاء، فليبكر الغداء وليعجل العشاء، وليأكل على النقا، وليشرب على ظمأ، وليقلل من شرب الماء، وليتمدد بعد الغداء ويتمشى بعد العشاء، ولا يبيت حتى يعرض نفسه على الخلاء. وأكل القديد اليابس مقابل الليل لعلم معين على الفناء، ومجامعة العجائز تهدم

(1) م. ن. 63/1.

أَعْمَارَ الْأَحْيَاءِ»⁽¹⁾، فلا يستند الطبيبُ الكاتبُ على العلم التجريبيِّ فحسب، ولا على أقوال الأطباء السابقين، وإنما له في المعتقد الدينيِّ وفي أقوال السلف الصالح وفي الأخبار المنقولة عن تجارب السابقين تراكمٌ معرفيٌّ يبني عليه تصوُّره العلميَّ الطبيَّ ويسنُّ به علوم الأدوية ووسائل الوقاية والمعالجة.

وتكونُ الروايةُ سَنَدَ الدَّرَايَةِ، وعِلْمُ السَّلَفِ عَاضِدًا لِعِلْمِ التَّجْرِبِ والاختبار، وأخبار السابقين المروية حَجَّةً علميَّةً وقانونًا في الطبِّ، ولذلك، فإنَّ الأدب في هذا الكتاب لا يحضُرُ أسلوبًا وطريقةً في الكتابة وتوظيفًا للشعر والقصص فحسب، بل هو ماثِلٌ في العمق الجوهريِّ الذي قام عليه تأليف الكتاب ونهجه، من اعتمادٍ على الرِّوَايَةِ عَضْدًا لِلدَّرَايَةِ، ومن ذلك -على سبيل المثال- عند حديثه عن «صَحَّة الجوارح»، يستدعي أقوال السلف، صادرًا عن الرَّسُولِ عليه الصَّلَاة والسَّلَام، وأخبارَ الماضين ممَّن تنزَّلوا منازل الرِّفْعَةِ في الدِّين أو من الصَّالِحِينَ والعلماء، ويأتي بأخبارهم ويستعين بتجاربهم وأقوالهم في تعرُّضهم للحالات المرضيَّة التي يخوض فيها، يقول داخلاً في حكاية الأخبار وداعياً موقفاً قصصياً أخبارياً من مواقف أنس بن مالك: «وَشَكَا رَجُلٌ إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ عَلَيْكُمْ بِالْكُنْدَرِ (صَمَغُ شَجَرَةٍ شَاكِلَةٍ وَوَرَقُهَا كَالْأَلْسُنِ)، فَأَنْقَعَهُ مِنْ اللَّيْلِ، فَإِذَا أَصْبَحَتْ فَخُذْ مِنْهُ شَرْبَةً عَلَى الرِّيقِ فَإِنَّهُ جَيِّدٌ لِلنَّسِيَانِ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْفَظَ الْحَدِيثَ فَلْيَأْكُلِ الرَّبِيبَ. قَالَ الْحِطَّانِيُّ: كُنْتُ بَلِيدَ الْحِفْظِ فَوَصَفْتُ لِلأَطْبَاءِ بِلَادَةَ حِفْظِي فَقَالُوا

(1) م. ن. 63/1.

لي: كُلُّ الْخُبْزِ بِالْحَلَابِ فَأَكَلْتُهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بِالْغَدَوَاتِ وَالْعَشِيَّاتِ مَا أَكَلْتُ غَيْرَهُ، فَصَارَ ذَهْنِي صَافِيًا، وَصِرْتُ حَافِظًا أَحْفَظُ فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثِمِائَةَ حَدِيثٍ»⁽¹⁾.

إِنَّ مَا يَدْخُلُ فِيهِ الطَّبِيبُ الْكَاتِبُ لَيْسَ عِلْمًا فِي الطَّبِّ خَالِصًا وَإِنَّمَا هُوَ كِتَابٌ مَنَفَتَحٌ عَلَى مَعَارِفَ تُثَقِّلُ بِوَاسِطَةِ الرِّوَايَةِ أَحْبَارًا يَتَلَقَّاهَا الْكَاتِبُ وَيُعِيدُ إِدْرَاجَهَا فِي السِّيَاقِ الْمَعْرِفِيِّ الَّذِي يَخُوضُ فِيهِ، فَالْخَبَرُ مِنْ حَيْثُ هُوَ شَكْلٌ تَعْلِيمِيٌّ مَعْرِفِيٌّ حَاضِرٌ بِشَكْلِ هَامٍّ فِي الْكِتَابِ، يَدْعُو الدَّارِسَ إِلَى الْإِهْتِمَامِ بِهِ وَالْعَمَلِ عَلَيْهِ، فَالْكَاتِبُ الْعَالِمُ الطَّبِيبُ يَسْتَدْعِي أَصْوَاتًا مُخْتَلِفَةً تَجْعَلُ نَصَّهُ مُنَاصًّا لِنُصُوصِ سَابِقَةٍ مُتَدَاخِلًا مَعَ خُطَابَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ الْمَآتِي وَالْمُضَانِّ، فَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ الْخَلِيفَةُ الْأُمَوِيَّةُ تُصَبِّحُ أَخْبَارَهُ وَأَقْوَالَهُ شَوَاهِدَ وَحُجَجًا يُؤْتَى بِهَا لِلْبَيَانِ وَالْإِقْنَاعِ، يَقُولُ:

«وَعَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ لِصَاحِبِ الصَّافِيَةِ بِحَمْلِ الْبَصْلِ وَالْكَعْكِ وَالسُّمَاقِ وَالزَّيْتِ، فَأَمَّا السُّمَاقُ وَالزَّيْتُ فَاسِدَةُ الْبَطْنِ، وَإِنَّمَا نَخَافُ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْبَطْنِ، وَأَمَّا الْبَصْلُ فَلَتُغَيِّرُهُ الْمِيَاهُ فَإِذَا أَكَلَ الْبَصْلَ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ»، وَيُوظَّفُ الْحَارِثُ بْنُ كُلْدَةَ، وَيُؤْتَى بِحِكْمَتِهِ وَتَجَرِبَتِهِ، وَهُوَ مِنْ أَوَائِلِ أَطِبَّاءِ الْعَرَبِ، وَكَانَ يُنْعَتُ بِـ «طَبِيبِ الْعَرَبِ»، وَقَدْ عَرَّفَهُ الزَّرْكَلِيُّ فِي كِتَابِ الْأَعْلَامِ بِقَوْلِهِ: «الْحَارِثُ بْنُ كُلْدَةَ الثَّقَفِيُّ: طَبِيبُ الْعَرَبِ فِي عَصْرِهِ، وَأَحَدُ الْحُكَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ. مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ. رَحَلَ إِلَى بِلَادِ فَارَسَ رَحْلَتَيْنِ فَأَخَذَ الطَّبَّ عَنْ أَهْلِهَا. وَتَعَلَّمَ الضَّرْبَ عَلَى الْعُودِ بِفَارَسَ وَالْيَمَنِ. مَوْلَدُهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَبَقِيَ أَيَّامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ،

(1) م. ن. 1/82-82.

واختلفوا في إسلامه. وكان النبي صَلَّى الله عليه وسلم يأمر من به علة أن يأتيه فيتطبب عنده. له كلام في الحكمة، وكتاب (محاورة في الطب) بينه وبين كسرى أنوشروان⁽¹⁾.

لقد مثل الحارث بن كلدة بما استقرَّ عليه من علم الطب في التراث العربي الإسلامي أرضية مرجعية لابن عمير، الذي استند عليه واستدعى أقواله وخبرته وعلمه⁽²⁾، وهي تجارب في خلاصة إيجاد الطرق المثلى للحياة السليمة الخالية من العلل والأمراض، ومن هذا المنطلق تتأى دعوة الأخبار وتدخُّل شكلاً مُناساً، له حضورٌ فاعلٌ في تشكيل الأرضية العلمية وفي نسج الكتاب، وفي نفس هذا السياق من دعوة الأخبار بياناً وإقناعاً بالمبادئ العامة التي يجب على الإنسان أن ينتهجها ليسلم من العلل، يؤتى بالحجاج بن يوسف في موقفٍ مع طبيبه، يقول: «وَرَوِيَّ عَنْ الْحَجَّاجِ أَنَّهُ قَالَ لَطَبِيبٍ: لَعَلَّكَ لَا تَبْقَى لِي، فَصِفْ لِي صِفَةً أَخَذَهَا عَنْكَ، فَقَالَ: لَا تَنَكَّحْ إِلَّا شَابَةً، وَلَا تَأْكُلِ اللَّحْمَ إِلَّا فَتِيًّا، وَلَا تَشْرَبِ الدَّوَاءَ إِلَّا عَنْ عِلَّةٍ، وَلَا تَأْكُلِ الْفَاكِهَةَ إِلَّا فِي نَضَاجِهَا، وَأَجِدْ مَضْغَ الطَّعَامِ، وَإِذَا أَكَلْتَ نَهَارًا فَلَا بَأْسَ أَنْ تَنَامَ، وَإِذَا أَكَلْتَ لَيْلًا فَلَا تَنَمْ حَتَّى تَمْشِيَ وَلَوْ أَرْبَعِينَ خُطْوَةً»⁽³⁾، وقس على ذلك في أغلب المواضيع التي يطرقها

(1) الزركلي: الأعلام، 157/2.

(2) يقول في 84/1: «وَرَوِيَّ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ كُلْدَةَ كَانَ يَقُولُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ تَهْدِمُ الْبَدَنَ، غَشْيَانُ النِّسَاءِ عَلَى الْبَطْنَةِ، وَدُخُولُ الْحَمَامِ عَلَى امْتِلَاءٍ، وَأَكْلُ الْقَدِيدِ، وَمُجَامَعَةُ الْعَجُوزِ. وَرَوِيَّ أَيْضًا عَنْهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالُوا: مُرْنَا بِأَمْرٍ نَنْتَهِي إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِكَ، فَقَالَ: لَا تَتَزَوَّجُوا إِلَّا شَابَةً، وَلَا تَأْكُلُوا الْفَاكِهَةَ إِلَّا فِي أَوَّلِ نَضَجِهَا، وَعَلَيْكُمْ بِالنُّورَةِ فِي كُلِّ شَهْرٍ فَإِنَّهَا مُذَابَةٌ لِلْبَلْغَمِ، مُهْلِكَةٌ لِلْمُرَّةِ، مُنْبِتَةٌ لِلْحَمِّ، وَإِذَا تَغَدَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَنْتِمْ عَلَى أَثَرِ غَدَائِهِ سَاعَةً، وَإِذَا تَعَشَّى، فَلْيَخُطْ أَرْبَعِينَ خُطْوَةً».

(3) م. ن. 84/1.

ابن عمير ويدخل فيها، من وفرة الأخبار التي يستدعيها ويجعلها
أرضية لتفصيل باب العلم الطبي الذي يُبشّره.

إنّ كتاب فاكهة ابن السبيل - كما سلف أن ذكرنا - ليس كتاباً
في العلم الطبي الخالص، وإنّما هو مدخلٌ يُمكن أن يُثير عدداً
من المباحث في التناصّ بين العلمي والأدبي، وفي توظيف الأشعار
والأخبار في نسيج الخطاب الطبي، وفي أصوات لها مرجعيّات
علميّة ودينيّة وسياسيّة وثقافيّة يأتي بها صاحب الكتاب سنداً
وحجّةً وبياناً.

في وجهٍ ثانٍ من التناصّ، وتداخل النصوص ذات المرجعيّات
المختلفة، تحضّر القصّة، والقصّة بابٌ من أبواب البيان والإظهار
وأداة من أدوات التأثير في المتلقّي وواسطة من وسائط رفع الملل من
وطأة الأمراض والعقاير والأدوية، يؤتّى بها في مقاماتٍ مختلفةٍ
لتأدية هذه الأغراض، وهي الطريقة التي انتهجها الكاتب وأبانت
قدرة مؤلّف موسوعي له في العلم قولٌ وفي الأدب نظرٌ وروايةٌ وفي
الدين أصلٌ وجذرٌ.

فالمنزَعُ السّرديُّ ظاهرٌ أولاً في طرق وصف الأمراض وبيان
علاماتها وآثارها وتكوّنها، وفي وصف الأدوية والعلاجات، وكيفية
تحضيرها واستخدامها، ومثاله المبين، قوله: «ومما سمعته من
رجلٍ وُصف له دواء الاستسقاء من حرارةٍ لا من برودة، وقد جرّبه
الرجل في نفسه فصَحَّ: يُؤخذُ جَرُوقَرع يُقَطَّعُ صَغَاراً ويُغلى بماءٍ في
قِدْرٍ حَرَفٍ، لم تُستعمل، ويُهرقُ الماءُ، ثم ماءً ثانيةً، ويكفي كالأول،

هَكَذَا خَمْسَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يُغْلَى بِمَاءٍ سَائِغٍ، يُغْلَى حَتَّى يَبْقَى مِنَ الْمَاءِ مَقْدَارُ سُدْسِ قَبْضَةٍ وَرَدٍ، وَيُخَيَّمُ عَلَيْهِ بِطِينٍ، وَيُدْفَنُ فِي الْأَرْضِ ثَلَاثَةَ أَسابِيعَ، ثُمَّ يُخْرَجُ وَيُشْرَبُ عَلَى الرَّيْقِ، وَيُغْتَسَلُ بَعْدَ اللَّبَنِ الْحَامِضِ الْمَعْدُّ كَذَلِكَ جُمُعَتَيْنِ، وَيُطْلَى مِنْهُ جَمِيعُ الْجَسَدِ طَلِيًّا، ثُمَّ يُتْرَكُ حَتَّى يَجِفَّ اللَّبَنُ، وَيُغْسَلُ بَعْدَهُ بِالْمَاءِ، وَتُجْمَعُ لَهُ عُطُورَاتُ النِّسَاءِ فِي الْمَاءِ مَرَّةً، وَلَا يَأْكُلُ التَّمَرُ أَيَّامًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ⁽¹⁾.

وظاهرٌ ثانيًا في ما يستدعيه الطَّيِّبُ من رواياتٍ وحكاياتٍ، بعضها وجيزٌ، مُخْتَصَرٌ، وَبَعْضُهَا مَدِيدٌ، تَامٌّ، كَامِلٌ أركانِ الحِكَايَةِ. والحِكَايَةُ -كما سلف أن ذكرنا- لَا يُؤَوِّي بها في هذا المقام «العلمي» لغايات التسلية أو تحقيق التنازع القبلي، أو صناعة أمجادٍ تالدةٍ، وإِنَّمَا هِيَ مُقْتَضَى مَقَامِيٍّ، تُدْعَى لِقَصْدِيَّةِ تَثْبِيَتِ علاجٍ، أو لِقَصْدِيَّةِ بَيَانِ عِلَّةٍ، ومثال ذلك، قِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي هَرَبَ إِلَى مِصْرَ وَتَبَدَّلَ عَلَيْهِ الْمَاءُ وَالْهَوَاءُ، فَتَغَيَّرَ مَزَاجُهُ وَتَعَكَّرَتْ حَالُهُ، يَقُولُ: «وَرَوَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ أَنَّهُ قَالَ: هَرَبْتُ مِنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى مِصْرَ وَعَلَيْهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَامِلًا لِمُعَاوِيَةَ، فَأَقَمْتُ شَهْرًا، فَمَاتَ قَلْبِي وَضَعُفَتْ مَنِيَّتِي، فَلَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْقَبْطِ، وَصَفَ لِي، وَكَانَ مُجَرَّبًا، فَشَكَّوْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَلَسْتَ مِنْ هَذَا الْبَلَدِ؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: أَفَعَسَلْتَ رَأْسَكَ مِنْ طِينِ مِصْرَ، وَشَرِبْتَ مِنْ مَاءِ الْبَنِيْلِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: ابْعَثْ إِلَى بِلَادِكَ فَلِيَّاتَ بَجْرَابِينَ مِنْ تُرَابِ بِلَدِكَ، فَاجْعَلْ أَحَدَهُمَا فِي مِصْلَاكَ، وَالْآخَرَ تَحْتَ فِرَاشِكَ، فَانْظُرْ كَيْفَ مَا

(1) فاكهة ابن السبيل، 46/2.

يَكُونُ. قَالَ: فَبَعَثَ وَاللَّهِ، فَأُوتِيَتْ بِهِمَا، ثُمَّ جَعَلَتْهُمَا حَيْثُ أَمَرَنِي،
فَرَجَعَتْ إِلَيَّ وَاللَّهُ نَفْسِي وَقُوتِي الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ.⁽¹⁾

فعلنا نلاحظ من هذا المثال، تركيز التبئير على الداء وطلب الدواء، فالقصة قائمة على وضع أولي ووضع ارتباك ووضع نهائي، فالوضع الأولي تأسس على الرحلة، وهي الوظيفة الغالبة على بدايات القصص القديم، ثم يأتي الارتباك بتغيير حال المرحل وتبدل مزاجه، فيبدأ رحلة أخرى هي رحلة البحث عن الدواء الذي هو واجده، مع صاحب خبرة وتجربة، ليكون الوضع النهائي وضع استقرار وتعديل المزاج، وهو قصص بسيط، غير أنه موظف في سياق طبي احتواه.

أمّا وجيز القصص فهو الأوفر والأغلب، ويؤتى به في الغالب للاستدلال والبيان، ومنه يمكن أن نعرض مثالين مبينين عن هذه الحكايات التي ينقلها رواية سائدة للدراسة:
م (1): «وذكر جالينوس أنه رأى رجلاً كان به سعالٌ يحصل، فتنفث حجراً، فسكن سعاله»⁽²⁾.

م (2): «وحكى لي بعض الجراحين أنه استخرج من وجه رجل حجراً، كان كالسلعة له، وأنه أخرج من كف رجل حجراً»⁽³⁾.

(1) م، ن. 71/1.

(2) م، ن. 54/2.

(3) م، ن. 54/2.

خُلَاصَةُ الرَّأْيِ أَنَّ كِتَابَ فَائِكَةِ ابْنِ السَّبِيلِ، هُوَ مَدْخُلٌ هَامٌّ لِنَقَاطِعِ الْإِخْتِصَاصَاتِ فِي تَارِيخِ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلِلْوُقُوفِ عَلَى مَنْزِلَةِ السَّرْدِ الْإِنْشَارِ وَشِيوعًا وَاسْتِعْمَالًا لِمَنَازِعِ شَتَّى تَتَعَدَّى التَّوْظِيفَ الْأَدَبِيَّ، وَلَعَلَّهُ مِنَ الْجَدِيرِ أَنْ نَشِيرَ فِي خَتْمِ هَذَا الْمَبْحَثِ إِلَى أَنَّ الطَّبِيبَ النَّاثِرَ الْقَاصَّ الشَّاعِرَ كَانَ يَهْتَمُّ بِعِلَلِ النَّفْسِ وَيَرُدُّ إِلَيْهَا أَغْلَبَ عِلَلِ الْجَسَدِ، وَيُنْصَرِفُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْأَمْزِجَةِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْمَيُولَاتِ، فَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ نَسْتَخْلَصَ مِنَ الْكِتَابِ مَدْوَنَةً فِي عِلْمِ النَّفْسِ الطَّبِيِّ فِي التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ، وَلَعَلَّ هَذَا مَا حَادَا بِهِ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ تَأْثِيرِ مَا يَكْتُبُ، فَلَمْ تَكُنْ رَغْبَتُهُ أَنْ يَظَلَّ الْكِتَابُ حَبِيسَ رَفُوفِ الْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا أَرَادَهُ وَاسِعَ الْإِنْشَارِ عَامَّ الْفَائِدَةِ، وَلِذَلِكَ، قَالَ:

«قَالَ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ الْمُعْتَرِفُ بِالتَّقْصِيرِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ مِنْ قَتِيلٍ، وَلَا نَقِيرٍ، وَلَا مِنْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلَا تَطْمِيرٍ» رَاشِدُ بْنُ عُمَيْرِ بْنِ ثَانَ بْنِ خَلْفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ «إِنِّي رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنْ عُلَمَاءِ الطِّبِّ وَأَفْضَالِهِمْ قَدْ وَصَفُوا كُتُبًا كَثِيرَةً فِي عِلَاجِ الْأَدْوَاءِ الَّتِي تُعْرِضُ فِي أَعْضَاءِ الْبَدَنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ طَوَّلَ بِأَكْثَرِ مَنْ مِقْدَارِ الْحَاجَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَّرَ عَمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ إِلَّا طَرَفًا مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْعِلَاجِ، وَأَجَبْتُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ أَرْوَعَ مَخْتَصَرًا، قَدْ جَمَعْتُهُ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ فِي أَعْضَاءِ الْبَدَنِ مِنْ لَدُنْ رَأْسِ الْإِنْسَانِ إِلَى قَدَمَيْهِ، بِاخْتِصَارٍ وَإِيجَازٍ فِي الْعِلَاجِ بِالْيَدِ بِالْقَطْعِ وَالْجِرَاحِ وَالْكَيِّ، وَفِي جَبْرِ الْكَسْرِ وَالْعِلَاجِ بِالْأَدْوِيَّةِ وَالِاسْتَفْرَاعَاتِ بِالْأَدْوَاءِ وَالْفُضْدِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِلَاجَاتِ، وَجَعَلْتُ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ خُلُقَ آدَمَ وَعَجَائِبَ تَرْكِيبِهِ، وَجَعَلْتُ فِي آخِرِ الْكِتَابِ أَبْوَابًا ذَكَرْتُ فِيهَا مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ مِنَ الْأَدْوِيَّةِ الْمُرَكَّبَةِ وَالْمُفْرَدَاتِ الْمُعَارِضَةِ بِشَيْءٍ مِثْلِ التَّرْبِيَةِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَسَمَّيْتُ

هَذَا الْمُخْتَصَرُ «فَاكِهَةُ ابْنِ السَّبِيلِ»، لِأَنَّهُ قَلِيلُ الْحَجْمِ، كَثِيرُ الْعِلْمِ، يُسْتَعْنَى بِهِ عَنْ جُمْلِ الْكُتُبِ الْكَثِيرَةِ، وَقَصِدَتْ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَعَظِيمُ ثَوَابِهِ الْجَسِيمِ، وَقَدْ رَسَمْتُ فِيهِ عِدَّةً مِنَ الْأَبْوَابِ، وَصَرَّحْتُ لِكُلِّ مَرَضٍ بِأَبَا لِسُرْعَةِ الْمُطَالَعَةِ فِيهِ»⁽¹⁾.

إِنَّ صَاحِبَ الْكِتَابِ لَهُ خُطَّةٌ بَيِّنَةٌ فِي تَيْسِيرِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَهُوَ يُبْدِي أَطْلَاعًا عَلَى مَا سَبَقَ، وَاسْتِفَادَةً مِنَ التَّجَارِبِ السَّالِفَةِ، وَهُوَ نَاهِجٌ نَهْجَ التَّيْسِيرِ وَالتَّبْسِيطِ وَالْإِيجَازِ مَعَ عَمِيقِ النَّفْعِ، وَلَعَلَّ هَذَا دَاخِلٌ فِي الْعِنَانِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي رَشَّحَهُ لِكِتَابِهِ، وَهُوَ «فَاكِهَةُ»، مِنْ مُخْتَلَفِ مَا تَصْبُو النَّفْسُ إِلَى أَكْلِهِ وَالتَّمَتُّعِ بِهِ، يَحْمِلُهَا مَعَهُ «ابْنُ السَّبِيلِ» الْوَاقِعَ مُعْجَمِيًّا وَدَلَالِيًّا فِي خَانَةِ السَّفَرِ وَالْإِرْتِحَالِ، وَتِلْكَ سِمَةُ الْكِتَابِ وَصِفَتُهُ، وَهُوَ آخِذٌ مِنَ الرِّوَايَةِ قِسْطًا وَمِنَ الدَّرَايَةِ قِسْطًا، وَمُسْتَعِينٌ بِعَامَّةِ الْأَدَبِ لُغَةً وَنَهْجًا وَمَادَّةً، وَمَتَوَسِّلٌ بِالْقِصَصِ حِجَّةً بَيَانٍ وَسَبِيلَ إِقْنَاعٍ وَوَاسِطَةَ إِمْتَاعٍ تُخْرِجُ الْخَطَابَ الْعِلْمِيَّ مِنْ جَفَافِهِ إِلَى رَحَابَةِ الْأَدَبِ وَخُصُوبَتِهِ.





الخطابُ المُخاتِلُ

كتابُ مُخاتِلٍ، واقعٌ في العلمِ نصًّا وغرضًا، منغمسٌ في الماورئيات والغيبات والمسالك الشعبية تقويماً وحكماً، منتهجٌ سُبُل الأدب تخيلاً وقصصاً وتمثيلاً، هو كتابُ جامعٍ، أخذٌ من شائع العلم وجهاً ومن إدراك الأدب وميله للأهواء أوجهاً. يُفصّل خميس ابن راشد العبري في كتابه شفاء القلوب من داء الكروب عددًا من المسائل الموصول بعضها بعلمٍ دقيقٍ وهو مداواة البشر، والمنفتح بعضها على علومٍ جمّةٍ، قد تتداخل، وقد تتباعد، علوم الفلك، والبحار، والحيوان، والأرض، وعلوم في الدين، فقهاً وشرعاً وأحكاماً وحديثاً، وعلوم في الإنسانيات، تاريخاً ولغةً وأدباً ورصدًا لحياة البشر، تُجمّع هذه المعارف في الكتاب، ويُصرّفها كاتبٌ يتخذ له من أسلوب الأدب نهجاً ومسلكاً، فهو مستهلٌّ كلّ فصلٍ من فصول كتابه مختلفة المضامين متشابهة الوسائل، بسندٍ يُرجع القول إليه، وقد تكلّى باسمٍ تخيّرهُ توكأةً لفتح مغلق القول، وهو «ذو الغبراء»، وهي صفةٌ استند إليها كثيراً في الدُّخول في المواضيع المختلفة، المتنوعة التي أثارها، على شاكلة قوله: «قال ذو الغبراء: سألتُ صاحبِي عن مَنْ مَشَى في شَبَابِهِ بِعِلْمٍ»⁽¹⁾، أو قوله: «قُلْتُ لذي الغبراء»⁽²⁾. وقد

(1) م. ن. 1 / 466.

(2) م. م. 1 / 252.

ينهج نهج الناثرين العرب في اتِّخَاذِ مُحَاوِرٍ أَوْ مُحَاوِرٍ، يُخْرِجُ الْقَوْلَ مِنْ رَتَابَةِ الْعَرَضِ، وَيُخْرِجُ «العلم» مِنْ ثِقَلِ الْعِلْمِ إِلَى رَحَابَةِ الْحَوَارِ، وَسِلَاسَةِ الْقِصَصِ وَحَسَنِ مَقْبُولِيَّتِهِ.

كِتَابُ شِفَاءِ الْقُلُوبِ مِنْ دَاءِ الْكُرُوبِ نَمُودَجٌ لِنَمَطٍ مِنَ الْكُتُبِ الْمَلْبَسَةِ، الْمُخَاتَلَةِ، فَظَاهِرُهُ عِلْمٌ وَفَلَكٌ وَشَرْعٌ وَطَبٌّ وَبَاطِنُهُ أَدَبٌ وَقِصَصٌ وَتَخْيِيلٌ، وَصَاحِبُهُ خَمِيسُ بْنُ رَاشِدِ بْنِ سَعِيدِ الْعَبْرِيِّ، هُوَ عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ عُمان، وَعَلَامَةٌ عَصْرِهِ، وَوُلِدَ فِي دَاخِلِيَّةِ عُمان مَا بَيْنَ 1180 وَ1190 هـ وَتَوُفِّيَ فِي 1271 هـ، وَلُقِّبَ بِذِي الْغُبَرَاءِ، وَعُدَّ مَرَجَعًا فِي زَمَانِهِ، وَكِتَابُهُ صُورَةٌ مُوسَّعِيَّةٌ عَنْ أَدِيبٍ، عَالِمٍ، لَهُ فِي أَغْلِبِ الْمَعَارِفِ قَوْلٌ وَفَتْوَى وَرَأْيٌ، فَهُوَ طَبِيبٌ⁽¹⁾ يَعْقِدُ فِصْلًا مِنْ كِتَابِهِ فِي تَوْصِيفِ الْعِلَلِ⁽²⁾ وَبَيَانِ مَآتِيهَا وَأَسْبَابِهَا وَطَرِيقِ مَعَالِجَتِهَا وَالتَّخْلُصِ مِنْهَا⁽³⁾، وَفِي صِنَاعَةِ الْأَدْوِيَةِ وَتَحْضِيرِ الْعَقَاقِيرِ وَإِعْدَادِ الْعِلَاجَاتِ⁽⁴⁾، وَهُوَ ضَالِعٌ فِي عُلُومِ الْفَلَكَ، يُفَصِّلُ فِيهَا الْقَوْلَ، وَيُبَيِّنُ شَتَّى اسْتِعْمَالَاتِ هَذَا «العلم» فِي حَضَرِ الْآبَارِ وَالْأَنْهَارِ⁽⁵⁾ وَفِي السَّفَرِ وَفِي تَعْدِيلِ الْمَزَاجِ، وَهُوَ فَقِيهٌ عَالِمٌ بِعِلْمِ الْعِبَادَاتِ وَالتَّشْرِيعِ وَالْفَتْاوَى وَالْأَحْكَامِ، لَهُ فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّفَرُّغِ إِلَى اللَّهِ قَوْلٌ⁽⁶⁾، وَلَهُ فِي الْحَثِّ عَلَى الْحَجِّ وَبَيَانِ بَعْضِ أَحْكَامِهِ تَفْصِيلٌ⁽⁷⁾، وَيَدْخُلُ فِي مَسَائِلَ

(1) م. ن. 1 / 360.

(2) فَهُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ يَعْقِدُ فِصْلًا عَنْ «جَاءَ الْجُذَامُ وَسَبَبُهُ وَدَوَاؤُهُ»، م. ن. 1 / 284.

(3) انْظُرْ مِثْلًا الْفَصْلَ الَّذِي عَقَدَهُ عَنْ «أَسْمَاءِ بَعْضِ الْعِلَلِ وَدَوَاؤِهَا»، 1 / 361.

(4) م. ن. 1 / 161، فِي حَدِيثِهِ تَمْثِيلًا عَنْ «أَدْوِيَةِ الْفَمِ وَاللِّثَّةِ وَالْأَسْنَانِ».

(5) م. ن. 1 / 431.

(6) م. ن. 1 / 421.

(7) م. ن. 1 / 334.

عُدَّتْ من المُشْتَرَك العامِّ في مؤلَّفات أهل الطبِّ وهي علوم النَّفس وأثرها على تَمَكُّن الأمراضِ أو الشِّفاء منها، وهي من المسائل التي تحتاج أبواباً في التَّأليف حول مراعاة أطباء العرب للمُعْطى النفسي بشكل يُوحى بالانتباه إلى علل النَّفس مُسَبِّقاً، ولذلك رأينا صاحب شفاء القلوب يتحدَّث عن آثار «توبيخ النَّفس»⁽¹⁾، وعن «الفرح والحزن والسلوك الحسن»⁽²⁾.

ولا يقصِّر الكاتبُ رؤيته الموسوعيَّة على العلوم العلاجيَّة والفلكيَّة والدينيَّة، بل هو أيضاً يتوسَّل بالأدب نهجاً في الكتابة وموضوعاً للحديث، فأما نهج الكتابة فلنا مآبٌ إليه، وأما المضمون الأدبيُّ، فقد تعرَّض الكاتب إلى إثارة عددٍ من المواضيع التي تهَمُّ الأدب تجميعاً للقصص والأشعار وبياناً لرأيه فيها، فمن ذلك «ما قاله الشُّعراءُ في رثاءِ لأَوْلادِهِ»⁽³⁾، و«مميَّزاتِ بُلْدَةِ المُسْفاة وما قيلَ فيها من شِعْرِ»⁽⁴⁾ و«ما قيلَ شِعْراً في بُلْدَةِ الحمرَاءِ»⁽⁵⁾، إضافةً إلى الكَمِّ الهائل من القصص المبنوثة في كامل الكتاب.

هذه جوانبٌ ممَّا احتواه هذا الكتابُ الموسوعيُّ الذي تناول مضامين متعدِّدة، هي مضامين تخصُّ في نهاية المطاف حياة الإنسان، وما يُمكن أن يُوقَّر له من حياةٍ كريمةٍ هانئةٍ سعيدةٍ جسداً وروحاً، عبادةً وعملاً، دنياً وآخرة، ولذلك فلا غرابة أن وجدنا صاحب

(1) 1 / 291.

(2) م. ن. 1 / 156.

(3) م. ن. 1 / 414.

(4) م. ن. 1 / 412.

(5) م. ن. 1 / 411.

الكتاب يخوض في عَرْضِ بَعْضِ وصفات الطَّبْخِ، ويُفَصِّلُ القولَ في طرائقِ إعدادها، فهي داخلةٌ في مهارات الحياة التي يجب على الإنسان أن يُدْرِكَهَا وَيَتَقَنَّهَا، وهو مُبَيَّنٌ للقارئ هذه الوصفات مع إظهار قيمتها الغذائية، وكيفية التحضير لها لتخرج على أتمِّ هيئَةٍ نَفْعًا وَلَذَّةً، فيعرضُ على سبيل المثال «صفة عمل «مقير السمك»»⁽¹⁾ و«صفات لعمل أطباق أخرى من المأكولات»⁽²⁾، و«طريقة عمل حلوى الجزر»⁽³⁾ و«كيفية طبخ الأرز مع اللحم بالحطب»⁽⁴⁾.

إِنَّ عَرْضَنَا لكلِّ هذه المواضيع مَبِينٌ لطريقةٍ في تأليف الكتب عند عرب شبه الجزيرة العربية تنحو -في الكتابة النثرية- منحى الجمع بين الأسلوب الأدبي الذي هو الواسِطَةُ والطَّرِيقَةُ الْمُتَلَى لاسْتِمَالَةِ أهواء القُرَّاء، وتخيُّر المواضيع النَّافعة عِلْمًا وَأدبًا وَحياةً، مع خصوصية في الانطلاق من التجريب، فالعلوم المروية أو المقصَّصة ليست علومًا نظريَّةً، وإنَّما هي علوم اختباريَّةٌ، تجريبيَّةٌ، فالكاتب طبيبٌ، مُعالِجٌ بما أتقنه من علوم العامَّة وما أدركه من تجريب العقارات، وهو فلكيٌّ يُسَخِّرُ علم الفلك لحفر الآبار ولتحديد مواعيد السَّفر، وهو عالمٌ دينيٌّ، في ما يخصُّ الميراث والزواج والطلاق، والحياة بكلِّ تفاصيلها ودقائقها.

تكون القصَّة في هذا الإطار هي الوسيلة الأساس التي يركز عليها الراوية لبيان مختلف موضوعاته العلميَّة، ولبيان تفاصيلها

(1) م.ن. 1 / 493.

(2) م.ن. 1 / 491.

(3) م.ن. 1 / 491.

(4) م.ن. 1 / 489.

من جهةٍ وللتدليل على اختبارها وتجريبها من جهةٍ ثانيةٍ، وهي على بساطتها ويُسر أدواتها تُسخر لخدمةٍ مضمونٍ ومقصدٍ مُحدّدٍ سلفاً، ففي الطبِّ والعلاجات، قصص عن أطباءٍ ومرضى، وعن عللٍ وأدويةٍ، وعن تجاربٍ لبشرٍ عاشوا أمراضاً ونفعتهم أدويةٌ مخصوصةٌ، القصةُ في هذا المقام وسيلةٌ، ولكنها أداةٌ هامةٌ تُظهر ما يُقرّه النقد السرديّ اليوم من تحديد للوظائف الجوهرية للقصص، وأنها ليست من قبيل الترف، وإنما هي عرضٌ لحيواتٍ، ولتجاربٍ البشر، وصناعةٌ لعوالم ممكنة تتمثّل وتُمثّل حياة الإنسان⁽¹⁾. القصةُ التي يُجرّيها خميس العبري هي قصةٌ حاملةٌ لمعانٍ، مُحقّقةٌ لأهداف، هي قصةٌ للبيان والكشف والتدليل وغرس المُعتقد في نفس المتلقّي.

لقد اعتمد صاحب شفاء القلوب عامّةً أسلوباً في العرض، قائماً على التمثيل، فأعطى لنفسه صفةً دالةً هي «ذو الغبراء»، وأعمل هذه الصّفة طرُقاً مُخاوِراً مُخاوِراً داخل الخطاب، فهو مُتحدّثٌ أحياناً، متحدّثٌ إليه أحياناً أخرى، وهذه الطّريقة الحيويّة في عرض المعلومات، هي التي غلبت على كليّة الكتاب، إضافةً إلى هذه التّكأة الأساس، فإنّ الذات الكاتبة استدعت شخصيّات عديدة، استندت إليها ركائز للانطلاق في سردٍ موضوعٍ ما، مثل شخصيّة «أحمد» التي دُعيت في أكثر من محلٍّ، وطالت حكاياتها، أو مثل الشخصيّة المرجعيّة الإحاليّة التي لها ظلالٌ في الواقع الشخصي للذات الكاتبة، وفي واقع التّاريخ العلمي والديني لعمّان،

(1) Barthes (Roland) : Introduction à l'analyse structurale des récits , Communications8, 1966, seuil, Paris. P1.

وهي شخصية «ناصر بن جاعد»، الذي مثَّلَ سَنَدًا حَقِيقِيًّا لِلذَّاتِ الْكَاتِبَةِ، وَمَرْجَعًا إِلَيْهِ يَعُودُ، فِي فَتْحِ مَوَاضِيْعٍ عَدِيدَةٍ، لِذَلِكَ تَكَرَّرَتْ عِبَارَاتٌ عَلَى شَاكِلَةِ «سَمِعْتُ الشَّيْخَ نَاصِرَ يَقُولُ»⁽¹⁾.

إِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ فِي التَّأْلِيفِ مَوْصُولَةٌ بِاعْتِمَادِ الرِّوَايَةِ قَبْلَ الدَّرَايَةِ طَرِيقَةً لِتَحْصِيلِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ وَالْآدَابِ، وَهِيَ وَسِيلَةٌ سَائِدَةٌ فِي أَدَبِ الْعَرَبِ الْقَدِيمِ وَفِي اكْتِسَابِ الْعِلْمِ وَالْحَصُولِ عَلَى دَرَجَاتِهِ، وَلِذَلِكَ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَنْهَجَ الْكَاتِبُ الشَّكْلَ الْعَرَبِيَّ الْقَدِيمَ اتِّكَاءً إِلَى الْإِسْنَادِ الَّذِي يَشْفُ عَنْ مَوَادِدِ الْكَاتِبِ مِنْ جِهَةِ الْوَجْهِ الْحَقِيقِيِّ لِلْإِسْنَادِ، وَيَشْفُ عَنْ تَتَبُّعِ دَارِجٍ فِي الْكِتَابَةِ النَّثَرِيَّةِ، قَوَامِهِ أَنْ يُصَدَّرَ الْقَوْلُ بِسَنَدٍ وَإِنْ كَانَ مُخْتَلَقًا أَوْ مُحَضَّ تَجْرِيدٍ وَتَمَثِيلٍ.

الْقِصَصُ الْغَالِبُ عَلَى كِتَابِ شِفَاءِ الْقُلُوبِ، هُوَ قِصَصُ مُبَيَّنٍّ عَنْ حَالَاتٍ وَحَوَادِثٍ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي أَدَبِ الرِّوَايَةِ وَأَدَبِ الشَّهَادَةِ وَالْمَعَايِنَةِ، فَأَمَّا أَدَبُ الرِّوَايَةِ، فَهُوَ قَائِمٌ عَلَى تَنَاقُلِ الْقِصَصِ لَاحِقٍ عَنْ سَابِقٍ، وَأَمَّا عَنْ أَدَبِ الشَّهَادَةِ، فَهُوَ مَعَايِنَةُ قِصَصِ كَانَ الْكَاتِبُ فِيهَا طَرَفًا، مُسَهِّمًا، مُشَارِكًا فِي الْأَحْدَاثِ وَالْوُقُوعِ، أَوْ هُوَ مُحَضَّ شَاهِدٍ، عَيَانًا أَوْ سَمَاعًا، وَيُمْكِنُ أَنْ نَعْرِضَ نَمَازِجَ مِنْ قِصَصِ الْقِصَصِ مَعَ بَيَانٍ لِمَنْزِلَتِهَا السَّرْدِيَّةِ، وَطَرَائِقِ صَوْنِهَا وَوُضَائِفِهَا دَاخِلَ السِّيَاقِ الْعَامِّ لِلْكِتَابِ.

م (1): «وَالنِّيَّةُ لِكِرَامَةِ الضَّيْفِ يَجْعَلُهَا لِلَّهِ لَا لِلْجَاهِ، وَحَدَّثَنِي رَجُلٌ عَنْ مَلِكٍ تَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ أَصْحَابِ الْكَرَمِ، وَالْفُقَرَاءُ لَا يَسْتَطِيعُونَ عَلَى الدُّخُولِ إِلَى حَصْنِهِ، لِأَنَّ الْأَبْوَابَ عَلَيْهَا أَقْفَالٌ وَحُرَاسٌ، فَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مَنْ الْمَلِكِ، وَخُصُّوا بِهِذَا الدُّخُولِ أَهْلَ الْأَمْرِ، وَأَمَّا

(1) شِفَاءُ الْقُلُوبِ، 2 / 15.

الْفُقَرَاءَ فِي الْجُوعِ وَالْعَرَاءِ، فَجَاءَ رَجُلٌ غَرِيبٌ، وَسَأَلَ عَنِ الْمَلِكِ، فَلَمْ يُبَلِّغِ الْمَلِكُ عَنِ الْغَرِيبِ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَى الْمَلِكِ مُصِيبَةٌ بِأَهْلِهِ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ، فَجَاءَ عِنْدَهُ الْغَرِيبُ، وَصَافَحَهُ وَعَزَّاهُ، وَقَبَضَ يَدَ الْمَلِكِ، وَقَالَ: الْكَرِيمُ يُعْطِي النَّاسَ دُونَ سُؤَالٍ، وَإِنْ سَأَلُوهُ فَلَا يُؤَخَّرُ بَعْدَ الْمُطَالَبَةِ، فَخَلَعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ سَاعَتِهِ كِسْوَتَهُ وَسِلَاحَهُ، وَدَبَّرَ الْمَلِكُ كِسْوَةً وَسِلَاحًا لَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ دَارِهِ، وَعَنْ أَيِّ مَنْزِلٍ نَازِلٌ فِي الْبَلَدِ، فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، ثُمَّ نَدَبَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي بِمَائَةِ حَرْفٍ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ كَذَلِكَ، فَقَالَ الْغَرِيبُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يَأْتِي لَهُ بِالْحُرُوفِ: قُلْ لِلْمَلِكِ: إِنَّ الْغَرِيبَ سَافِرٌ، وَأَمَّا الْفُقَرَاءُ فَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْكَ، فَأَخْبَرَ الرَّجُلُ الْمَلِكَ بِقَوْلِ الْغَرِيبِ، فَنَصَبَ الْمَلِكُ مَقَامًا فِي الْبَرِيَّةِ لِلْفُقَرَاءِ، وَجَعَلَ لِنَفْسِهِ عَادَةً كُلَّ يَوْمٍ، يَنْزِلُ فِي الْمَقَامِ لِحَاجَةِ الْفُقَرَاءِ، وَزِيَّةُ كَزِيِّ الْفُقَرَاءِ، وَيَبْتَدِئُهُمْ بِالصَّبَاحِ، وَيَقْضِي حَوَائِجَهُمْ، وَيَسْأَلُ مَوْلَاهُ الْقَبُولَ، فَهَذَا طَبْعُ أَهْلِ الْمَكَارِمِ، لَا كَأَهْلِ الْمَظَالِمِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَى الْعَامِيِّ أَنْ يَسْأَلَ الْعَالِمَ، حَتَّى يَكُونَ فِي زَمَانِهِ هُوَ الْكَرِيمُ السَّالِمُ، وَبِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ قَائِمٌ»⁽¹⁾.

م (2): فِي بَيَانِ مَنَازِلِ الْقَمَرِ السَّعِيدَةِ لِلْسَّفَرِ:

«قَالَ ذُو الْغَبَرَاءِ: قَصَدْتُ يَوْمًا إِلَى السَّفَرِ، وَشَاوَرْتُ الْأَهْلَ وَمَنْ حَضَرَ، فَقَالَ لِي صَاحِبِي: انْظُرْ إِلَى مَنَازِلِ الْقَمَرِ الَّتِي هِيَ سَعِيدَةٌ لِسَفَرِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَأَوَّلُهَا الشَّرْطَانُ وَالْهَقْعَةُ وَالنَّثْرَةُ الْعَوَا وَالنَّعَائِمُ وَسَعْدُ السَّعُودِ وَبَطْنُ الْحَوْتِ وَالْفَرْعُ الْمُؤَخَّرُ، فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلَامَهُ عَمَدْتُ إِلَى أَخِي الرَّادِ وَقُلْتُ أَيْنَ الدَّلِيلُ وَالصَّاحِبُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْلِ

(1) م. ن. 1/496.

الرَّشَادِ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا صَاحِبُكَ إِنْ كَانَ سَفَرُكَ لِمِيزَانِ الْعُبَادِ وَالرُّهَادِ، ثُمَّ أَقَامَ إِخْوَانُنَا فِي تَشْيِيعِنَا وَمَنْ حَضَرَ فِي الْبِلَادِ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى الصَّحْرَاءِ فَوَادَعْنَا أَصْحَابَنَا، وَقُلْنَا: اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ⁽¹⁾.

م (3): قِصَّةُ الْمَرْأَةِ الَّتِي حَرَمَتْ عَلَى أَحْمَدَ

«وَهُنَا قِصَّةُ الْمَرْأَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي الذِّكْرِ السَّابِقِ الَّتِي حَرَمَتْ عَلَى أَحْمَدَ، قَالَ: فَهَرَبْتُ مِنْ دَارِهَا، وَتَابَتْ إِلَى رِيَّهَا، وَبَكَتْ دُثُوبَهَا، وَقَطَعَتْ الْفَيَافِي وَالْقَفَارَ مَخَافَةً مِنَ الْكَلَامِ وَالْعَارِ، حَتَّى جَاءَتْ إِلَى بَلَدِ السُّلْطَانِ الْعَادِلِ، وَأَقَامَتْ فِيهَا، وَاسْتَقَرَّتْ، وَبِالنَّاسِ تَعَرَّفَتْ، وَشَاعَ خَبَرُهَا فِي الْبِلَادِ، حَتَّى سَمِعَ بِهَا السُّلْطَانُ مِنْ حُسْنِ أَخْلَاقِهَا، فَطَلَبَهَا السُّلْطَانُ لِيَنْكِحَهَا، وَأَرَادَتْهُ، فَمَلَكَ الْحَاكِمُ بِهَا، وَدَخَلَ عَلَيْهَا، وَأَحَبَّهَا كَثِيرًا، حَتَّى قِيلَ كُلُّ مَنْ غَضِبَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ وَخَافَ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ، تَشَفَّعَ بِهَا عِنْدَهُ، فَوَجَدَ الْعَفْوَ، ثُمَّ وَلَدَتْ لِلْسُّلْطَانِ وَلَدًا ذَكَرًا، وَلَيْسَ مَعَهُ وَلَدٌ مِنْ قَبْلِهِ، فَزَادَ حُبُّ السُّلْطَانِ لَهَا، وَأَقَامَتْ مَعَهُ حَتَّى سَمِعَتْ بِخَبَرِ أَحْمَدَ وَوَلَدِهِ، وَدَخَلُوا الْبَلَدَ، فَاسْتَأْذَنَتِ السُّلْطَانُ بِدُخُولِ وَلَدِ أَحْمَدَ مَعَهَا، فَأَذِنَ لَهَا، وَدَخَلَ، وَتَعَارَفَا، فَأَخْبَرَتِ السُّلْطَانُ بِوَلَدِهَا، فَقَرَّبَهُ السُّلْطَانُ كَمِثْلِ وَلَدِهِ، ثُمَّ مَاتَ السُّلْطَانُ، وَوَرِثَ الْمُلْكُ وَلَدَهُ، فَوَارَزَهُ أَخُوهُ مِنْ أُمِّهِ، ثُمَّ مَاتَ وَلَدُ السُّلْطَانِ، فَأَحْضَرَتْ أُمُّ الْوَلَدِ سُكَّانَ الْبَلَدِ، وَأَشَارَتْ إِلَيْهِمْ بِالْمُلْكِ، أَنْ يَكُونَ لِوَلَدِهَا الَّذِي مِنْ أَحْمَدَ، فَأَعْجَبَهُمْ أَهْلُ الْبَلَدِ رَأْيَهَا، وَعَقَدُوا لَهُ الْإِمَارَةَ، فَتَابَعُوهُ، وَحَسُنَ فِيهِمْ»⁽²⁾.

(1) م. ن. 1/272.

(2) 1/484.

م (4): قصة في الاعتبار.

«وَهَاكَ فِي قِصَّةِ الْاِعْتِبَارِ: رَجُلٌ قَرَّبَهُ السُّلْطَانُ وَأَرَادَ أَنْ يُؤَلِّيَهُ عَلَى بَعْضِ حُصُونِهِ وَخَزَائِنِهِ، فَقَالَ الْوَزِيرُ لِلْسُّلْطَانِ: لَا تَتَعَجَّلْ، النَّاسُ بِالتَّجَارِبِ، فَاعْتَبِرْ هَذَا الرَّجُلَ قَبْلَ أَنْ تُدْخِلَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ، فَأَخَذَ الْأَمِيرُ شَيْئًا مِنَ الْحُرُوفِ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ: اصْرِفْ لَنَا هَذِهِ الْحُرُوفَ، فَأَخَذَهَا الرَّجُلُ وَخَفَى لِنَفْسِهِ عِشْرِينَ حَرْفًا، فَصَرَفَهَا وَجَاءَ بِالدَّرَاهِمِ إِلَى الْمَلِكِ، فَقَبِضَهُ إِيَّاهَا، فَدَبَّرَ الْمَلِكُ لِلصَّرَافِ، وَقَالَ لَهُ: كَمْ صَرَفَ مَعَكَ الرَّجُلُ مِنَ الْحُرُوفِ؟ فَقَالَ لَهُ: كَذَا وَكَذَا إِلَّا عِشْرِينَ حَرْفًا، فَأَخْفَاهَا، وَقَالَ: مَا أَذْرِي، وَلَعَلَّهَا ذَهَبَتْ مِنْ يَدِي، فَبَانَتْ خِيَانَتُهُ بِالتَّجَرِبَةِ»⁽¹⁾.

لقد أوردنا أمثلة قصيرة، على وجود قصص مديدة يعمل فيها الكاتب أسلوب التناوب في الحكاية والاستطراد، والقطع والعودة، وهذا مدخل هام لدراسة أسلوب القصص في كتاب «شفاء القلوب»، ذلك أن الكاتب يضرب الأمثال قصصًا قصيرة، كما هو حال أغلب الأمثلة التي عرضناها، لكن قد يُقيم الفصل تامة على قصة هي المرتكز والأساس، مثل قصة أحمد التي كثيرًا ما أطلال روايتها في عدد من المواطن، وفي هذه الحال، فإن الراوي يقطع مسار الحكاية تعليقًا أو بيانًا أو عرضًا لتفصيل أو لحكم في الشرع، ليستأنف بعد ذلك حكايته الأصل، وتُعيد الملفوظات السردية المنبئة بقطع صوت صاحب الشريعة والأحكام أو الكاتب في المعنى الدقيق لوجود ذات تعيش في التاريخ هي خميس العبري، لها معرفة موسوعية، تستغل

(1) م. ن. 1 / 357.

القَصَص لتقف عند كلِّ إشارةٍ لإبداء الرأي والحكم، وإعلان صوت السَّارد من حيث هو كائنٌ خطابيٌّ يحيا داخل اللُّغة، الخطاب القصصيّ إلى مساره السَّردي، على شاكلة قولِه: «قالَ رجع إلى قصَّة الخبر»⁽¹⁾، أو قولِه: «رجعنا إلى القصَّة»⁽²⁾.

بنيويًا تقوم القصَّة على غايةٍ أو مضربٍ مثلٍ أو إثباتٍ تجربةٍ أو عَرَضٍ حجَّةٍ، ولذلك، فإنَّ الشخصيّات تبدو بلا ملامح، لا يتعمَّق الراوي في إظهارها وبيان خصالها وأفعالها، وإنَّما يتركِّز الأمر على وظيفةٍ واحدةٍ تُنتَقَى لتؤدِّيها الشَّخصيَّة، ويبدو أسلوب الحكاية في حدِّه الأدنى تعقيدًا وانفراجًا، ويظهر فيها الراوي العليم ذو المعرفة الكليَّة، العارفُ معرفةَ الكاتب. ففي المثال الأوَّل، «في قصَّة الملك مَعَ الغريب»، هنالك شخصيتان مركزيَّتان، شخصيَّة الملك بصفات لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، وهي الطيبة والرغبة في المُساعدة، غير أنَّ عائقًا حاصلًا وهو امتناع الملك عن لقاء ذوي الفقر والحاجة، وهنا يأتي «الغريب» عاملاً مساعداً، جابًا هذه الهوَّة بين الملك ورعيَّته، ولكنَّ القارئ يظلُّ جاهلاً بمملكة الملك، وبالمُناسبة التي مكَّنت الغريب من أن تصبح له منزلة ورأي عند الملك. وفي هذا الإطار فإنَّه يُمكن أن نتبَّه إلى بساطة هذه القصص وأن نقرأها في إطارها التربويِّ القيميِّ الذي يُنْقِص كثيرًا من أدائها الفنِّي، ومن ترابط عناصرها، ففي القصَّة رقم (3) تبدو العلاقات بين الشخصيّات غير منطقيَّة، وإنَّما يُسارعُ الراوي لبلوغ الحكمة التي يُريدها دون أن يولي القصَّة حقَّها في الاكتمال، فالمناسبة التي

(1) م.ن. 1 / 355.

(2) م.ن. 1 / 453.



جعلت المرأة الهاربة من أرضها، تتعرّف على ملك المدينة، واهنة، وطلبه للزواج بها لا يقوم على منطق قصصيٍّ بَيِّنٍ، غير أنَّ الراوي بلغ مبتغاه، وإنَّ سرَّعَ أساسيات السَّرد، وأضمرَّ الأسس التي عليها تُبنى النتائج التي يريد أن يصل إليها. وفي القصة رقم (4) هنالك اكتمال تمثيليٍّ لقصة اختبارية، تُظهر دور الحكمة والتجربة في تحقيق الاختيار الأصوب، فهي قصةٌ تتوجّه إلى بلوغ الاعتبار منذ بداياتها، ولذلك تغيب ملامح الشخصيات، وتحتصر الأفعال والأعمال في قصّ الاختبار المؤدّي إلى الاعتبار. وتدخل القصة (2) في نفس هذا المسار الاعتباري، ولكنّها أيضاً نموذجٌ على القصة الحجة أو القصة التي يُؤتّى بها لغاية الاحتجاج، ويكون الاحتجاج في مقام هذه القصة خاصاً بإثبات دور علوم الفلك في تحديد السَّفر والدُّخول فيه أو الامتناع عنه.

في سياقٍ آخر يتوسَّع صاحبُ الكتاب في علومٍ صحيحةٍ لا يأخذها على وجهها الدقيق ولا العلميِّ الأصليِّ وإنما هو روايتها ومفصّلُ القول فيها دون فاصلٍ ضابطٍ بين العلميِّ الدقيق والعلميِّ الشعبيِّ الأسطوريِّ، فالكتاب مليءٌ بأساطيرٍ وخرافاتٍ شعبيةٍ ونقّها صاحبُ الكتاب ومثّلت للدَّارس أرضيةً هامّةً لبيان قدرة الشعوب العربيّة على التخيل وملء الفراغات التي لم يبت العلم فيها القول، ومن ذلك على سبيل المثال قوله في «ابتداء خلق الإنسان، وما له من الأحكام والميراث، وفيه ذكر الأرزاق والبركات في الحيوانات والجماد»⁽¹⁾، وهو بابٌ كثرت فيه أساطير خلق الإنسان وتكوينه

(1) م. ن. 5/2.

وبدايات تشكيكه، إذ يدخل في فصلٍ يُخصّصه للعلامات الدالة على جنس الجنين وكيفية معرفتها، يقول في ذلك «فإذا نهضت الحاملُ وَقَدَمْتُ رِجْلَهَا الِئْمَنَى فِي الْمَشْيِ فَهُوَ ذَكَرٌ، وَإِذَا قَدَمْتُ رِجْلَهَا الِئْسَرَى فَالْحَمْلُ أُنْثَى، وَقِيلَ إِذَا حَلَبَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ثَدْيِهَا فِي الْمَاءِ وَسَكَعَ، أَوْ حَلَبَتِ فَوْقَ نَمْلَةٍ فَمَاتَتْ، أَوْ كَانَتْ عُرُوقُ كَفِّهَا حَمْرَاءَ فَالْحَمْلُ ذَكَرٌ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ عُرُوقُ الْكَفِّ خَضْرَاءَ، أَوْ الْحَلِيبُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَالنَّمْلَةُ لَمْ تَمُتْ فَالْحَمْلُ أُنْثَى، وَالْعَيْنُ الْبَاهِتَةُ فِي الْحَامِلِ تَدُلُّ عَلَى الْأُنْثَى، وَالْعَيْنُ الْغَائِصَةُ فِيهَا الْحَامِلِ تَدُلُّ عَلَى الذَّكَرِ»⁽¹⁾.

والكتاب يجمع بين الخرافة والقصة وعلوم الشرع والدين وبعض المعارف في عامة العلوم، وعمومًا يُمكن الحديث عن نمطٍ من التأليف يُؤالَفُ بين علوم الخاصة وعلوم العامة، أو هو يجمع بين العلم خاصة في مجال الشرع والإيمان بالتراكم الشعبي في معتقدات العامة، وهذا الجانب الثاني هو مدخل الأدب ومجاله الواسع، وأغلب القصص يُؤتى بها من مجال الخرافة والأسطورة، فعلمُ كتابة الحروز عنده ثابتٌ، وفيه معرفةٌ ودرايةٌ وروايةٌ وأصلٌ وتأصيلٌ، وهو يُمثّل على أثره ومراعاة مقامه وشروط إنجازهِ بقصصٍ تؤنّتُ فكرته وتُنبّئها، ففي مقام بيان الشروط الواجب اتّباعها في كتابة الحروز من طهارة واعتمادٍ لأواني خاصة بالكتابة وانتِهاجٍ لسبيل النثر الخالي من الوشوم والرسوم، فهذا الباب لا يُمكن أن يغشاه أيّا كان على بساطته الظاهرة، وإنّما في الكتابة والمحو هنالك طقوسٌ تُعتمدُ يعلمها العارف ويستخفُّ بها الجاهل،

(1) م.ن. 7/2.

فكاتبُ الحروز «يكتبُ الحُرُوفَ نَثْرًا لَا دَمْعَةً فِيهَا، وَلَا زِيَادَةً وَلَا نَاقِصَةً وَلَا مُتَشَابِهَةً، كُلُّ حَرْفٍ بِوِزْنِهِ، وَلَا يَقْرَأُهُ أَحَدٌ بَعْدَ مَا كُتِبَ إِلَّا أَنْ يُعْطَى، وَلَا يَمْحُوهُ بِيَدِهِ، بَلْ إِنَّهُ يَمْحُوهُ بِعُودِ الْقَصَبِ أَوْ بِعَرَقِ الْمَتَكِ، وَلِلْأُنثَى يَمْحُوهُ بِخُوصِهِ الْفُحْلُ الَّذِي لَمْ يَثْمُرْ، وَأَمَّا الَّذِي كَتَبَ الْمَحُو لِلرِّجَالِ فَيَمْحُو بِخُوصَةِ مِزْنَجٍ أَوْ أَزَادِ الَّذِي لَمْ يَثْمُرْ بَعْدَهُمَا، وَإِذَا أَرَادَ شَرْبَهُ، فَلْيُقْرَأْ شَيْءٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ، وَعَلَيْكَ بِحُسْنِ النِّيَّةِ، وَلَا يَدْخُلُ قَلْبُكَ وَهُمْ كَالرَّجُلِ الَّذِي نَزَلَ الْأَكْمَ، وَسَأَلَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَكَتَبَ لَهُ حِرْزًا، وَجَعَلَهُ فِي كَمْتِهِ، فَبَرِئَ مِنْ دَائِهِ، فَكَشَفَ الْحِرْزَ، فَتَنَظَّرَ مَكْتُوبًا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ، أَنَا أَعْرِفُ أَكْتُبُ هَذَا، فَخَازَهُ، ثُمَّ رَاجَعَهُ الْأَلَمُ فِي رَأْسِهِ، وَكَتَبَ لِنَفْسِهِ، فَلَمْ يَنْفَعَهُ، فَقَصَدَ مَعَ صَاحِبِهِ الْأَوَّلَ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْحِرْزَ الَّذِي تَفَضَّلْتَ عَلَيَّ بِهِ ذَهَبَ فَرَجَعَ الْأَلَمُ كَمَا كَانَ، فَكَتَبَ لَهُ وَبَرِئَ، فَكَشَفَهُ، فَإِذَا هُوَ كَالأَوَّلِ، فَدَمَرَهُ، وَعَاوَدَهُ الْوَجَعُ، وَرَجَعَ إِلَى صَاحِبِهِ، وَقَالَ لَهُ: سُرِقَتْ عَلَيَّ الْكَمَّةُ وَرَجَعَ الْأَلَمُ، فَالْسَّاعَةَ لَا أَفِيقُ مِنَ الْأَكْمِ، فَقَالَ الْكَاتِبُ: لَعَلَّكَ كَشَفْتَ الْحِرْزَ لِتَنْظُرَ فِيهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَشَفْتُهُ وَقَرَأْتُهُ، قَالَ: فَأَكْتُبْ لَكَ حِرْزًا، وَلَا تُرَاجِعْنِي بَعْدَ هَذَا أَبَدًا، فَكَتَبَ لَهُ فَأَبْرَأَهُ اللَّهُ وَمَكَثَ زَمَانًا صَحِيحًا، فَكَشَفَهُ فَإِذَا مِثْلُ الْأَوَّلِ وَرَمَى بِهِ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ طَاحَ فِي فِرَاشِهِ وَمَاتَ مِنْ عِلَّتِهِ، فَحُلَّ بِهِ عَذَابُ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ اللَّهُ أَكْبَرُ»⁽¹⁾

إنَّ هذا الشاهد لدالٌّ على السياقات التي يُوظَّفُ فيها صاحبُ الكتابِ القصص التمثيليَّ ويأتي به سنَدًا وعُضْدًا للبيان والإقناع، فالفكرة الرئيسة التي يعمل الكاتب على حمل الاعتقاد

(1) م. ن. 27/2.

إليها أنَّ هناك شروطًا واجبةً اتُّبِعَها ضرورةً في التعامل مع عالم الحروز، وهو عالمٌ شعبيٌّ يشقُّ عن اعتقادٍ عامٍّ وشاملٍ بجدوى هذه الخطوط التي يخطُّها أناسٌ يفقهون هذا الباب ويعرفون طرق الكتابة والمحو، وطقوس الإنشاء والإخفاء، وهو - في معتقد الكاتب - ليس علمًا للعامة، يأتيه من يشاء، وإنَّما هو علمٌ خاصَّةٍ الخاصَّة.

وبذلك نتبيَّن هذا التداخل الجليُّ في الكتاب بين علوم العامة «الملوَّعة بطونهم بالأهواء» والضلال وعلوم الخاصَّة الحقَّة. غير أنَّ الكاتب في وجهٍ آخر لا يَحْتُ على الدخول في هذا العالم الغيبيِّ المعقَّد متى توفَّرت فُرَصُ إيجاد الحلول العمليَّة الواقعيَّة، وكأنَّه يقرُّ هذه «الطرق غير العلميَّة» التي يُمكن أن تُلامس الشعوذة، إذا ما استحالت الحلول الحياتيَّة العمليَّة الواقعيَّة، وعلى ذلك، فهو يقصُّ حكايةً دالَّةً على أنَّ الإنسان يُمكن أن يجد حلًّا لما استعصى عليه في الحياة دون اللُّجوء إلى كتابة الحروز أو الدخول في طرقٍ وممارسات هي عند أهلها ضرورة وإكراه.

يقول في هذا الباب: «كما حُكي لنا عن امرأةٍ سارت مع رجلٍ عارفٍ تُريدُ منه أن يكتبَ لها حتَّى يخضعَ لها بعُلَّها، فقال الرجلُ مُعْجِزَةً للمرأة: آتيني بشعرٍ من ضَبْعٍ تكونُ حيَّةً، لا بها علَّةٌ، فقصدت المرأة إلى تدبير الضبْع، وجعلت تجلبُّها بالروائح في النار، وتجعلُ لها طعامًا، فأقبلت الضبْعُ بالمرأة، ثم أخذت جازًا وقصت به من شعرها، وجاءت مُسرَّعةً للرجل وأعطته الشعر، وقالت له: أريدُ المَطْلُوبَ، فقال الرجلُ: أَيْتَهَا المرأةُ قَدَرْتُ على مُؤَالَفَةِ الضبْع، مَالِكٍ لا تَصْنَعِي المَعْرُوفَ لِرِزْوَاجِكَ، وَأَنْتِ وإيَّاهُ بالليلِ والنَّهارِ في مَقَامٍ وَاحِدٍ،



فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ قَلْبَ الْإِنْسَانِ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ، قَالَ لَهَا: صَحِيحٌ،
لَكِنَّ هَذَا فِي غَيْرِ مَا أَرَدْتَهُ، وَالرِّجَالُ تُغَالِبُ النِّسَاءَ، فَخَذِيهِ بِاللُّطْفِ
وَالْإِحْسَانِ، فَاُمْتَثَلْتُ الْأَمْرَ وَطَاوَعَهَا بَعْلُهَا فِي النَّهْيِ وَالْأَمْرِ⁽¹⁾.

يُؤَنَى بِالْقِصَّةِ -كما سلف أن ذكرنا- بياناً لقدرة الإنسان على
عدم استسهال الدخول في عالم الغيبيات، وهي قِصَّةٌ طريفةٌ، في
جوهر ما قصد الكاتب بيانه وإظهاره، تدخل في السياق العام
للموضوع الذي أثاره الكاتب وفَصَّل القول فيه. قِصَّةُ المرأة التي
يختبرها كاتب الحروز، العالم، العارف، المدركُ عدم تبسيط أمرٍ
-في ذهنه- جلل وهو كتابة الحروز، التي نفهم من موقفه أنها تُخَطُّ
للضرورة القصوى، ولدفع أذى، فلا يجب تحويلها إلى فعلٍ بديلٍ
عن السلوك البشريِّ القابل للتعديل والتقويم، وهو ما أرادته المرأة
بطلب كتابة «طلسم» يُحَسِّنُ صلة زوجها بها، وهو أمرٌ -فعلاً-
معقود على سلوك الإنسان، لا على فعلٍ غيبيٍّ يقوم السلوك، فكان
الاختبارُ، الموصِلُ إلى تحقيق هذا المقصد.

لقد أردنا من الوقوف على كتاب شفاء القلوب أن نقفَ على
نمطٍ في التأليف الجامع الدارج في الثقافة العربية، الذي ينحو فيه
المؤلفُ منحى الأخذ من كلِّ المعارفِ بطرفٍ، والعمل على أن يكون
الكتابُ نافعاً وممتعاً في الآن ذاته، وعلى ذلك، فقد جمع الكتابُ
العلوم الظنيَّة والعلوم الشعبيَّة والعلوم الصحيحة، وقَدَّم التجربة
الذاتيَّة والتجربة الحاصلة بالتناول والتداول في قالبٍ قصصيٍّ
أحياناً، وفي قالبٍ إخباريٍّ أحياناً، أو في عَرَضٍ نشريٍّ عامٍ تغلب

(1) م. ن. 26/2.

عليه الصبغة النظرية أحياناً قليلة. وأردنا أن نُظهِرَ أيضاً نوعاً من القصص الذي سُخِّرَ لتأدية مقاصد قيمية أو أخلاقية أو علمية أو دينية، وقد تبيّننا، أولاً غلبة الطريقة القصصية التي تخيّرنا الكاتب، وتخيّره لهذه الطريقة دليل على منزلة القصة في التراث العربي وقدرتها الحجاجية والإقناعية، وتبيّننا ثانياً تنوع طرائق الحكاية في الكتاب، تناوباً واسترسالاً، امتداداً وإيجازاً، فالكاتب اختار منذ البداية طريق التمثيل عوض العرض المباشر، فجرد من نفسه ذواتاً يخاطبها حيناً، ويتلبّسها أحياناً، فهو طرف في الحكاية، مشارك، في بعض القصص، وهو مقتصر على الشهادة أو الرواية في قصص آخر. أمّا أسلوب الحكاية، فهو بسيط معقود على مقصد وغاية، فهو قصص مقصدي أو غائي، تؤدّي فيه الشخصيات دوراً قيمياً أو تجسّدُ عبرة، أو تُدلل على حكم أو رأي أو حكمة.





السيرة: الآخر والأنا.

لم يكن أدب سيرة الذاتِ دارجاً في الثقافة العربيّة، ولذلك أوجَد العربُ طُرُقاً مُخاتلة لتسريب أخبارِ ذواتهم، وبثُّوا ما يريدون أن يعرفه النَّاسُ عنهم طَيَّ كُتُبهم، مقتتصين مناسبات تُجيز لهم أن يُدرجوا ذواتهم في موضوع القول، ولذلك رأينا التَّوحيدي يبيِّن سيرته في أخبار كتاب الإمتاع الموانسة، وفي الإشارات الإلهيّة، والجاحظ يدرج ذاته في رسائله، غير أنَّ الشَّاع والمعلوم هو تفرَّغ العرب إلى سرد السَّير الغيريّة، وهي سيرٌ مكثَّفةٌ في كتب عديدة، اخترنا منها كتاباً من أرض البحرين، يشي بمنزلة السيرة الذاتيّة المضمَّنة في سيرة غيريّة في شبه الجزيرة العربيّة، وهو كتابٌ لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجُم رجال الحديث ليوسف بن أحمد البحراني.

ومن لطيف ما احتواه الكتابُ أنَّ صاحبه أفرد له في خاتمته، تعريفاً بصاحبه، هو أشبه ما يُكون بالسيرة الذاتيّة، وإن كانت سيرة أقرب إلى ترجمّة الذات، في التَّربيّة، وما حلّ بالبلاد والعباد من حروبٍ ونزاعاتٍ، وما كان في مسيرة الكاتب من عامِّ الأحداث مع إشاراتٍ خفيفةٍ إلى الحياة الشخصية عملاً وصُعوبةً تحصيلٍ

مالٍ، وزواج وإنجابٍ للأبناء، وإشاراتٍ عميقةٍ إلى مسيرة الشخصية العلمية، تلقياً وإلقاءً، روايةً وترويةً، أخذاً عن المشائخ، وتعليماً وإجازةً لطلبة العلم، عالماً من وقائع التاريخ العام للبلاد، يرويه صاحب السيرة الشخصية، وعالمٌ من أثر الذات في العلم والتعلم.

يَضَعُ الرَّأْيَةُ سِيرَتَهُ فِي خَاتِمَةِ الْكِتَابِ، وَالْكِتَابُ حَامِلٌ لِقَصْدِ التعريف بذوات لها في الرواية والدراية أثرٌ وباعٌ، هو كتاب في «الإجازات وتراجم رجال الحديث»، والعنوان قائمٌ على جزأين هائمين، الأول هو «الإجازة» والثاني هو «تراجم رجال الحديث»، فأما «الإجازة» فهي شهادة في العلم، يُسَلِّمُهَا الشَّيْخُ (المُعَلِّمُ) إِلَى طَلَبَتِهِ، مِثْلَمَا تَفْعَلُ الْجَامِعَاتُ الْيَوْمَ مَعَ خَرِيْجِيهَا، وَيُعَرِّفُهَا الْغَامِدي بِقَوْلِهِ:

«الإجازة هي إحدى طرق التحمل والرواية عند المحدثين من أهل العلم، لذا تنوعت في معناها وأدائها باعتباريات لا تخرجها عن معنى تحمل العلم عن الشيوخ في الجملة. فأما الإجازة في اللغة، وعند أهل الحديث: فهي الإذن والإباحة، وتأتي بمعنى الخبر. واصطلاحاً: هي إذن المحدث للطالب أن يروي عنه كتاباً من كتب الحديث أو غيرها، من غير أن يسمع منه أو يقرأ عليه، وهذا أصل معناها عند الإطلاق وهذا أوسعها معنى واستخدماً عند عامة المحدثين من أهل العلم، فهي: إذن في الرواية لفظاً أو كتابةً، تُفيد الإخبار الإجمالي عرفاً»⁽¹⁾.

(1) الغامدي: (أبو صفوان ذياب بن سعد بن علي بن حمدان بن أحمد بن محفوظ آل حمدان الأزدي): الوجازة في الأثبات والإجازة، تقرّبط: زهير الشاويش، (دار قرطبة للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة، الأولى، ١٤٢٨ هـ)، ص 21.



وَيُفَصِّلُ ابْنُ الصَّلَاحِ فِي مَقْدَمَتِهِ⁽¹⁾ أَنْوَاعَهَا وَطُرُقَهَا وَأَشْكَالَهَا،
وِيرُدُّهَا إِلَى شَبَكَةٍ شَائِكَةٍ مِنْ مَظَاهِرِ الاعْتِرَافِ بِتَحْصِيلِ الطَّالِبِ
لِلْمَطْلُوبِ مِنَ الْعِلْمِ⁽²⁾، الَّتِي مِنْهَا «الْوَجَادَةُ»⁽³⁾ وَ«الْمُكَاتِبَةُ»⁽⁴⁾ وَ«الْمَنَاوَلَةُ»⁽⁵⁾،
فَهَذِهِ هِيَ طُرُقُ رَوَايَةِ الْحَدِيثِ، وَمَسَالِكُ تَبَادُلِ الْمَعْرِفَةِ فِي تَارِيخِ

(1) ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمن، أبوعمر، تقي الدين): علوم الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، (دار الفكر - سوريا، دار الفكر المعاصر - بيروت، الطبعة الأولى 1986).

(2) انظر تفصيل أنواع الإجازة، ومختلف مظاهرها ومراحلها في كتاب، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي السيوطي (الحافظ جلال الدين)، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، (مكتبة الكوثر، الرياض، بيروت، الطبعة الثانية 1415 هـ.) ص 413 وما بعدها.

(3) يُعَرِّفُهَا ابْنُ الصَّلَاحِ ص 178 مِنْ كِتَابِهِ سَابِقَ الذِّكْرِ مِمَّا لَهَا بِقَوْلِهِ: «مَثَالُ الْوَجَادَةِ: أَنْ يَقِفَ عَلَى كِتَابِ شَخْصٍ فِيهِ أَحَادِيثُ يَرْوِيهَا بِخَطِّهِ، وَلَمْ يَلْقَهُ، أَوْ لَقِيَ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ ذَلِكَ الَّذِي وَجَدَهُ بِخَطِّهِ، وَلَا لَهُ مِنْهُ إِجَازَةٌ، وَلَا نَحْوَهَا. فَلَهُ أَنْ يَقُولَ (وَجَدْتُ بِخَطِّ فُلَانٍ، أَوْ قَرَأْتُ بِخَطِّ فُلَانٍ، أَوْ فِي كِتَابِ فُلَانٍ بِخَطِّهِ أَخْبَرَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ) وَيَذْكُرُ شَيْخَهُ، وَيُسَوِّقُ سَائِرَ الْإِسْنَادِ، وَالْمَتْنِ. أَوْ يَقُولَ: (وَجَدْتُ، أَوْ قَرَأْتُ بِخَطِّ فُلَانٍ عَنْ فُلَانٍ)، وَيَذْكُرُ الَّذِي حَدَّثَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ».

(4) يُعَرِّفُهَا ابْنُ الصَّلَاحِ ص 173 مِنَ الْكِتَابِ السَّابِقِ بِقَوْلِهِ: «هِيَ أَنْ يَكْتُبَ الشَّيْخُ إِلَى الطَّالِبِ، وَهُوَ غَائِبٌ شَيْئًا مِنْ حَدِيثِهِ بِخَطِّهِ، أَوْ يَكْتُبَ لَهُ ذَلِكَ، وَهُوَ حَاضِرٌ. وَيَلْتَحِقُ بِذَلِكَ مَا إِذَا أَمَرَ غَيْرَهُ بِأَنْ يَكْتُبَ لَهُ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَيْهِ».

(5) «وَهِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْمَنَاوَلَةُ بِالْإِجَازَةِ، وَهِيَ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْإِجَازَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَلَهَا صُورٌ مِنْهَا: أَنْ يَدْفَعَ الشَّيْخُ إِلَى الطَّالِبِ أَصْلَ سَمَاعِهِ، أَوْ فَرَعًا مُقَابِلًا بِهِ، وَيَقُولَ: (هَذَا سَمَاعِي، أَوْ رَوَيْتِي عَنْ فُلَانٍ، فَأَرَوْهُ عَنِّي، أَوْ أَجَزْتُ لَكَ رَوَايَتَهُ عَنِّي)، ثُمَّ يَمْلِكُهُ إِيَّاهُ. أَوْ يَقُولَ: (خُذْهُ، وَأَنْسَخْهُ، وَقَابِلْ بِهِ، ثُمَّ رُدَّهُ إِلَيَّ) أَوْ نَحْوَ هَذَا. وَمِنْهَا: أَنْ يَجِيءَ الطَّالِبُ إِلَى الشَّيْخِ بِكِتَابٍ، أَوْ جُزْءٍ مِنْ حَدِيثِهِ، فَيَعْرِضُهُ عَلَيْهِ، فَيَتَأَمَّلُهُ الشَّيْخُ وَهُوَ عَارِفٌ مُتَقِظٌ، ثُمَّ يَبْعِدُهُ إِلَيْهِ، وَيَقُولُ لَهُ: (وَقَفْتُ عَلَى مَا فِيهِ، وَهُوَ حَدِيثِي عَنْ فُلَانٍ، أَوْ رَوَيْتِي عَنْ شَيْخِي فِيهِ، فَأَرَوْهُ عَنِّي، أَوْ أَجَزْتُ لَكَ رَوَايَتَهُ عَنِّي). وَهَذَا قَدْ سَمَّاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَنْمَةِ الْحَدِيثِ (عَرَضًا)، وَقَدْ سَبَقَتْ حَكَايَتُنَا فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى الشَّيْخِ أَنَّهَا تُسَمَّى عَرَضًا، فَلَتَسَمَّ ذَلِكَ (عَرَضُ الْقِرَاءَةِ)، وَهَذَا (عَرَضُ الْمَنَاوَلَةِ)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ». م. ن. 164-165.

الثقافة العربيَّة، إضافةً إلى الإجازة التي رَشَّحها الكاتبُ عنواناً لبيان مُجيزيه من جهةٍ ومَن أجازهم من جهةٍ ثانية.

الشُّقُّ الثاني من عنوان الكتاب دالٌّ على تراجم لرواة الحديث، وهم رُوَاةٌ يَتَخَيَّرُهُم صاحب الكتاب وَفَقّاً لتسلسلٍ في التَّروية، ووفقاً لرؤيةٍ منها يَنْظُرُ إلى من رَشَّحهم حتَّى يُبَيِّنَهم ويروي حياتهم العلميَّة وقدرتهم على الرواية وأثرهم في تكوينِ أجيالٍ من الرُّواة. وما يَعْنِينَا من هذا أَنَّ هذه السَّيَرُ الغيريَّة في تراجم الرُّجال الثقات مثَّلت مُرْتَكِزاً لعَرْضِ سِيرَتَيْنِ؛ سيرة المترجم له وسيرة الكاتب، الموزَّعة في أثناء الكتاب والمُفْرَدَة بقسَمٍ في نهاية المؤلف، وهذا يَفْتَحُ باباً واسعاً للنَّظر في أدب السَّيرة ومختلف تشقُّقاته في تاريخ الأدب العربيِّ.

لَقَدْ سرد الكاتب في تراجم «الرُّجال»، من وجهةِ نظر الطَّالِب، المأخوذ بشيُوخه، الواقع تحت سَلْطَتِهِم المعرفيَّة والأخلاقيَّة، فكان تبئيره لهم تبئيراً ذاتياً، وكانَ في ذلك مُعَمَّلاً وسائط السَّرد الدَّارجة روايةً وشهادةً، فمَنْ ذلك مثلاً أَنَّهُ في تَرْجَمَتِهِ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْمُقَابِي الْبَحْرَانِي، يقول: «حَكَى لِي وَالِدِي -رَحِمَهُ اللهُ- إِنَّهُ إِذَا كَانَ وَقْتُ الْغَوْصِ، وَأَتَتْ سُفُنُ أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ مِنَ الْغَوْصِ، مَضَى الشَّيْخُ وَاشْتَرَى جَمِيعَ مَا أَتَوْا بِهِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ وَالْأَقْمِشَةِ، وَكَانَ تَجَارُ بِلَادِ الْبَحْرَيْنِ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ اللُّؤْلُؤَ يَقْصِدُونَ بَيْتَ الشَّيْخِ الْمَرْبُورِ، وَحَيْثُ إِنَّ أَهْلَ الْقَرْيَةِ لَا يَبِيعُونَ عَلَى أَحَدٍ غَيْرِ الشَّيْخِ، فَكَانَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللهُ- يَبِيعُ ذَلِكَ عَلَيْهِم بِالْمُرَابَحَةِ، وَيَقْسِمُهُ بَيْنَهُمْ بَحِثٌ لَا

يَرْجِعُ أَحَدُ خَائِبًا⁽¹⁾، وهي صِفَةٌ بَارَها السَّارِدُ وتوسَّع فيها، في وسم الشيخ بإحلال العدل في التجارة، والسَّعي إلى خلق توازن بين الغواصين والبحَّارة الذين يجمعون اللؤلؤ ويتاجرون فيه، وهو يستند في روايته على والده، فهو الرَّاوي الشَّاهد، وبطبيعة الحال، فإنَّ عبارات الأهواء والتأثر غالبية على سرد حكاية الشيخ، والتي تظهر بشكلٍ جليٍّ، في رواية قصَّة تدعم هذا العدل التجاريَّ، وتُمنِّن صورة الشيخ الرَّاغِب في العدل، الرَّاهد في المال، وهي قصَّة عدَّها الرَّاوي من «عجائب الزَّمان»، وخرج بها من نطاق الترجمة والاهتمام بالدراية والرواية إلى تتبُّع أخبار تُنزَّه المترجم له، وتُحلُّه منزلة الساعين إلى العدل، المتعفِّفين عن شؤون الدنيا، فهو قائمٌ على أمر تجارة اللؤلؤ، يأخذ من الغواصين ما جنوه من البحر، ولا يُسلمون بضائعهم لغيره، فيبيعها عنهم، ثمَّ يُوزَّع عليهم الناتج بالعدل والقسطاس، إحلالًا لنمطٍ من الاشتراك في التجارة، حتَّى لا يخيب من لم يدرَّ عليه البحر بخيراته، وهو يُفخِّم من هذه الشخصية المترجم لها، ويتتبَّع -عبر الرواية- عجائبها.

يقول: «ومن عجائب الزَّمان ما حكاه لي والدي أيضًا، أنَّه كان رجلٌ من قرية بني جَمْرَة -وهي قُرْب قرية الدراز- قد باع على الشَّيخ المذكور لؤلؤة كبيرة مجهولة بقيمة قليلة، واتَّفَق أنَّ الشَّيخ أعطاهَا مَنْ أَصْلَحَهَا، فَصارت جيِّدةً، فباعها بما يَقْرُب من خمسين ثومانًا، فلمَّا جاء البائع من الغوص، قال له الشَّيخ: «إنَّ تلك اللؤلؤة التي اشتريناها مِنْكَ قد بيعت بهذه القيمة الرَّائدة، وأنا إنَّما أخذتها مِنْكَ بشيءٍ قليلٍ، فأنا آخذُ رأسَ مالي من هذا

(1) لؤلؤة البحرين، ص 84.

الثَّمَنَ وَالْبَاقِيَ لَكَ»، فَاُمْتَنَعَ الرَّجُلُ، وَقَالَ: «إِنِّي بَعْتُكَ وَالْمَالُ مَالُكَ، وَلَوْ ظَهَرَتْ فَاسِدَةٌ، لَصَارَتْ نَقِيصَتَهُ عَلَيْكَ، وَعَلَى هَذَا فَالزَّائِدُ لَكَ»، فَاُمْتَنَعَ الشَّيْخُ مِنَ الْقَبُولِ حَتَّى حَصَلَ مَن أَصْلَحَ بَيْنَهُمَا، بِأَنْ يُعْطِيَهُ بَعْضًا، وَيَأْخُذَ الشَّيْخُ بَعْضًا⁽¹⁾. وهو خبرٌ داعمٌ لنزاهة الشيخ ولترفعه عن التجارة، فهو يعمل على خدمة الغواصين والتجار دون مقابلٍ ودون تشريعٍ لربح.

وقد يفتح الراوي عدسة السرد، ويخرج من دائرة البحث عن الروايات التي تعرض صورة عن الشخصية المترجم لها، لينطق الشخصية ذاتها، ويجعلها تسرد سيرتها الذاتية، كما كان الأمر في ترجمة الشيخ سليمان ابن الشيخ عبد الله، إذ يقول: «وَوَجَدْتُ بِحَطِّهِ قُدْسَ سِرِّهِ - نَقْلًا عَنْ وَالِدِهِ، قَالَ: «كَانَ مَوْلِدِي فِي لَيْلَةِ النُّصْفِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، مِنَ السَّنَةِ الْخَامِسَةِ وَالسَّبْعِينَ بَعْدَ الْأَلْفِ، بِطَالِعِ عُطَارِدٍ، وَحَفِظْتُ الْكِتَابَ الْكَرِيمَ وَلِي سَبْعَ سَنَوَاتٍ تَقْرِيْبًا وَأَشْهُرَ، وَشَرَعْتُ فِي كَسْبِ الْعُلُومِ وَلِي عَشْرَ سِنِينَ، وَلَمْ أَزَلْ مُشْتَغَلًا بِالتَّحْصِيلِ إِلَى هَذَا الْآنَ، وَهُوَ الْعَامُ الثَّاسِعُ وَالْتِسْعُونَ وَالْأَلْفُ»⁽²⁾. فتعمل عين المترجم، الداخل في تفصيل السيرة الغيرية على تنويع أنماط العرض، وعلى التحدث بصوته أو دعوة أصوات راوية، تكون في الغالب الأعم من ذويه وأقربائه وأهل ملته ومذهبه، أو إنطاق الشخصية مركز التبئير لتحدث عن مسارها ومسيرتها.

(1) م. ن. ص. 84.

(2) م. ن. ص. 10.



ووجبت الإشارة إلى أنَّ المشائخ الذين اختارهم الكاتب ليعرِّض سيرهم هم من أهل المذهب الذي ينتمي إليه، وينشدون أيضًا في جزء هامٍّ منهم إلى القبيلة التي يُرَدُّ إليها صاحبُ الكتاب، وهو أمرٌ جعل الرؤية السائدة ذاتيةً -وتلك سمة السير عامَّة- ودفع المترجم إلى الإعلاء من شأن مشائخه، والوقوف على خصالهم وأفعالهم الحميدة، التي قد تدخل مجال العجيب من جهةٍ وعلى علمهم وسعته وأثره من جهةٍ ثانية. وفي كلِّ مراحل العرض والتعرُّض إلى شيوخ العلم والرواية الذين أخذ عنهم الكاتب أو مثَّلوا مصدرًا معرفيًا، يعرِّض بسببٍ أو بدونٍ سببٍ إلى والده، فهو العنصر الثابت على مدى إنجاز الترجمات، الحاضر روايةً أو ذكرًا أو مقايسةً ومقارنةً، أو بيانًا لخصاله وصفاته وسماته، ويُمكن أن أعرِّض بعض الأمثلة الدالة على هذا الحضور:

- في ترجمته للسيّد محمّد ابن السيّد علي ابن السيّد حيدر، يقول: «وَسَمِعْتُ الْوَالِدَ -أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ- يَصِفُهُ بِالْجَمِيلِ جِدًّا، وَيُثْنِي عَلَيْهِ ثَنَاءً مُطَرِّيًا، لَمَّا اجْتَمَعَ مَعَهُ فِي مَكَّةَ»⁽¹⁾.
- في ترجمته للشيخ أبي الحسن بن محمّد طاهر النباطي العاملي، يقول: «اجتمع بهِ الْوَالِدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- لَمَّا تَشَرَّفَ بِزِيَارَةِ النَّجَفِ الْأَشْرَفِ فِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ بَعْدَ الْمِائَةِ وَالْأَلْفِ، كَانَ بِصُحْبَتِهِ وَالِدُهُ وَوَلَدُهُ وَجَمْعٌ مِنَ الرُّفَقَاءِ»⁽²⁾.

(1) م. ن. ص 102.

(2) م. ن. ص 104.

■ في ترجمته للشيخ علي بن سليمان، يقول: «وقد تُوِيَ في الشيخ عليٍّ هذا في كازران في السَّنة الحَادِيَةِ والثَّلَاثِينَ بَعْدَ المائَةِ والأَلْفِ، وَهِيَ السَّنةُ الَّتِي تُوِيَ فِيهَا الْوَالِدُ»⁽¹⁾.

فهذه الشواهد، وغيرها كَثُرَ، تحيلُ إلى تعلق معرفيٍّ ووجدانيٍّ واضحٍ يصل الكاتب بوالده، الذي شكَّل نموذجًا وواسطةً ربطته بعلماء ملَّته وفرقته، ومثَّل صورةً عن الأب المرجع، الذي عانى المصاعب والمشاقَّ من جهة، والذي زوَّد الكاتب بفضائل المعرفة من جهةٍ ثانية.

الجانبُ الثاني من السَّرْدِ السَّيْرِيّ، هو سَرْدُ الدَّاتِ، وقد وضعه الكاتب في آخر الكتاب، إجلالاً وتقديرًا لمن يُترجمُ لهم من العلماء، فهم في المحلِّ الأوَّل، وقد تميَّز سَرْدُ الدَّاتِ بتعريفٍ بيِّنٍ للذاتِ الكاتبة، مولدًا ونشأةً، وإظهارًا للظُّروفِ العامَّةِ التي فيها نشأ، وخاصَّةً منها الحُرُوبُ التي غلبت على أرضِ البحرين في زمانِ نشأته وِفاعته، يقول: «إِنَّ مَوْلِدِي كَانَ فِي سَنَةِ 1107 هـ، وَكَانَ مَوْلِدُ أَخِي الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ -مُدَّ فِي بَقَائِهِ- سَنَةَ 1112 هـ، فِي قَرْيَةِ الْمَاحُوزِ، حَيْثُ إِنَّ الْوَالِدَ كَانَ سَاكِنًا هُنَاكَ، مُلَازِمَةً الدَّرْسِ عِنْدَ شَيْخِهِ، الشَّيْخِ سُلَيْمَانَ -الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ- وَأَنَا يَوْمَئِذٍ ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ تَقْرِيْبًا، وَفِي هَذِهِ السَّنةِ سَارَتِ الْوَاقِعَةُ بَيْنَ الْهُولَةِ وَالْعُتُوبِ، حَيْثُ إِنَّ الْعُتُوبَ عَاشُوا فِي الْبَحْرَيْنِ بِالْفَسَادِ زَيْدُ الْحَاكِمِ قَاصِرَةٌ عَنْهُمْ، فَكَاتَبَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَاجِدِ الْهُولَةِ لِيَأْتُوا عَلَى الْعُتُوبِ، وَجَاءَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْهُولَةِ وَوَقَعَ الْحَرْبُ، وَانْكَسَرَتِ الْبَلَدُ إِلَى

(1) م.ن. ص 17.

الْقَلْعَةُ أَكْبَرُ وَأَصَاغِرُ حَتَّى كَسَرَ اللَّهُ الْعُتُوبَ، وَلِلْوَالِدِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-
أَبْيَاتٌ فِي ذِكْرِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ وَتَارِيخِهَا، لَمْ يَحْضُرْنِي مِنْهَا إِلَّا الْبَيْتُ
الْأَخِيرُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى التَّارِيخِ، وَهُوَ قَوْلُهُ:
قَضِيَّةُ الْقَبِيلَةِ الْمُعَذِّبَةِ وَعَامُ تِلْكَ شَتَتْوَاهَا فَاحْسِبُهُ
وَرُبِّيْتُ فِي حَجَرِ جَدِّي الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمَ -قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ-
وَكَانَ مَشْغُولًا بِأَمْرِ الْعَوْصِ وَالتَّجَارَةِ فِي اللُّؤْلُؤِ، وَكَانَ كَرِيمًا دِينًا خَيْرًا
رَحِيمًا، يُنْفِقُ جَمِيعَ مَا يَجِيءُ فِي يَدِهِ عَلَى الْأَضْيَافِ وَالْأَرْحَامِ، وَمَنْ
يَقْصِدُهُ مِنَ الْأَنْامِ، لَا يَنْذِرُ شَيْئًا، وَلَا يَحْرِصُ عَلَى شَيْءٍ، وَانْتَحَلَنِي
وَرَبَّانِي، حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي وَلَدٌ قَبْلِي، وَجَعَلَ لِي مُعَلِّمًا فِي الْبَيْتِ
لِلْقُرْآنِ، وَعَلَّمَنِي الْكِتَابَةَ، وَكَانَ خَطُّهُ وَخَطُّ وَالِدِي فِي غَايَةِ الْجَوْدَةِ
وَالْحُسْنِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَازِمْتُ الدَّرْسَ عِنْدَ الْوَالِدِ -قَدَّسَ سِرَّهُ- إِلَّا
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِي يَوْمَئِذٍ رَغْبَةٌ تَامَّةٌ لِعَلْبَةِ جَهَالَةِ الصَّبَا، وَقَرَأْتُ عَلَى
الْوَالِدِ قَطْرَ النَّدَى⁽¹⁾.

ويتوسَّعُ صاحبُ السِّيرة في سرِّد سيرته، ولنا فيها ملاحظاتٌ،
يُمْكِنُ أَنْ نَخْتَصِرَهَا فِي النَّقَاطِ التَّالِيَةِ:

■ تُرَكِّزُ السِّيرة على ثلاثِ بُؤَرٍ أساسيةٍ، أرادتْها الذَّاتُ الْكَاتِبَةُ
مَصَادِرَ تَوَلِيدٍ لِلسَّرْدِ، وَهِيَ: حَالُ الْحَرْبِ وَالتَّنَازُعِ عَلَى أَرْضِ
الْبَحْرَيْنِ، وَأَثَرُ ذَلِكَ عَلَى عَائِلَةِ الذَّاتِ الرَّأْيِيَةِ فِي مَرَحَلَةٍ
أُولَى، ثُمَّ عَلَى حَيَاتِهِ هُوَ بِشَكْلِ فَرْدِيٍّ فِي مَرَحَلَةٍ ثَانِيَةٍ.
الْوِلَادَةُ وَالنِّشْأَةُ وَالتَّعَلُّمُ وَالزَّوْجُ وَإِنْجَابُ الْأَبْنَاءِ. الْكِتَابَةُ
وَتَأْلِيفُ الْكُتُبِ وَالْجُلُوسُ لِلرَّوَايَةِ وَالتَّعْلِيمُ، وَتَفْصِيلُ إِنْشَاءِ
الْكَتُبِ وَإِجَازَةُ رَوَايَتِهَا.

(1) م. ن. ص 425.

■ وبسببٍ من ذلك، فقد غابت عن السيرة، الذات في أهوائها الشخصية، وفي أمزجتها، فلا خلان، ولا مشاهد في السفر، ولا حياة خاصة تُروى.

■ أسلوب السرد، بسيط، تُرَشِّحُ فيه الذات للرواية ولكن يقَعُ الاختصار على العام منها والشائع، الحرب الدائرة، أثرها، الكتب المؤلفة وموضوعاتها.

إنَّ كتابَ لؤلؤة البحرين هو نموذجٌ من كتب السيرة الوفيرة في التراث العربي، التي تحتاج إلى تعقُّلٍ وإدراكٍ وتحليلٍ يُراعي المقام، فالرَّجُلُ واقِعٌ تحت أثر حربٍ تداخلت فيها جهاتٌ عدَّةٌ، نقلته منذ طفولته غصبًا وإكراهًا من أرضه التي يروم البقاء فيها إلى شتات السَّيْلِ، كما نقلت والده من قبل ذلك، فهامَ في الأرض، وراوح بين أماكن يستقرُّ في بعضها ويُفارق بسرعة في البعض الآخر، ولكنَّه استغلَّ هذه الحركة في الأرض لِيُنَوِّعَ من شيوخه، وليُحصِّلَ من كلِّ مكانٍ شيئًا يرتاده، فقد كان بقاءه على سبيل المثال في القطيف -على كراهة الغربة ومفارقة أرزاق الأوطان ويُسرِّ الحال- مُدِرًّا علمًا ومعرفةً، يقول: «وَبَقِيْتُ فِي الْقَطِيفِ بَعْدَ مَوْتِ الْوَالِدِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- مِمَّا يَقْرُبُ مِنْ سَنَتَيْنِ، أَقْرَأُ عَلَى شَيْخِنَا، الشَّيْخِ حُسَيْنِ الْمَاحُوزِيِّ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ جُمْلَةً مِنَ الْقَطِيفِيِّ، وَجُمْلَةً وَافِرَةً مِنْ أَوَّلِ كِتَابِ شَرْحِ الْقَدِيمِ لِلتَّجْرِيدِ، وَأَنَا فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ أَتَرَدَّدُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، لِأَجْلِ مَا لَنَا فِيهَا مِنَ النِّخِيلِ لِإِصْلَاحِهَا وَجَمْعِ حَوَاصِلِهَا، وَأَرْجِعُ إِلَى الْقَطِيفِ وَأَشْتَغِلُ بِالدَّرْسِ»⁽¹⁾.

(1) م. ن. ص 427.

فهي سيرة شخصٍ منها يُمكن أن نرى بعينٍ ذاتيةٍ واقعٍ حالٍ وواقعٍ علمٍ، ويُمكن أيضًا أن نستعمل هذه العين، لقراءة أوضاع بلاد العرب في القرن الثامن عشر، وأن نتبين كوةٍ أخرى لم نهتم بها بالشكل الكافي، وخاصة من أهل البحرين، ويُمكن أن نستدل على وعي المترجم بهذه الثغرة في إهمال بعض من الرواة الذين يعدّهم من الأصول، بقوله في ترجمة الشيخ علي بن سليمان: «الشيخ علي بن سليمان بن درويش بن حاتم البحراني القديمي الملقب بزين الدين، هو أول من نشر علم الحديث في بلاد البحرين، وقد كان قبله لا أثر له ولا عين، وروجه وهذبه، وكتب الحواشي والقيود»⁽¹⁾.

يستغل البحراني ترجمته لرجال الحديث، لانتقاء رواة حديث أهمهم التاريخ، ولم يجدوا العناية الكافية، ليدخل في سرد مآثرهم وآثارهم وطبيعة تحصيلهم للمعرفة وترويتهم لها، وقد يفتح زاوية النظر لرواية البعض من أخبارهم وقصصهم، غير أن الغاية الأساس هي بيان مسيرتهم العلمية والتعليمية. وما نراه أساسيًا ودافعًا للبحث والنظر في هذا الكتاب هو ما ورد في خاتمته، من ترجمة للذات، فيها إسهاب في بيان أثر الحروب الدائرة في البحرين، وموقف الكاتب من مديريها وأثرها فيه، وتنقله من البحرين إلى أماكن عدّة بحثًا عن السلامة مع ضيق الحال، ثم بحثًا عن السلامة والرزق وفي الأثناء يكون تحصيل العلم.



(1) م. ن. ص 15.



خاتمة عامّة

ثلاثة أبواب يُمكن أن ننفذَ منها إلى إثارة مسائل مُخصِبة في النثر في شبه الجزيرة العربيّة، الخطابة والخبر والقصص في المقام العلميّ، وهَي مَدَاخِلُ تَخَيَّرناها ورشَّحناها صُورَةً عن اعتناء العرب في شبه الجزيرة العربيّة بالتأليف في النثر، وما زالت هنالك أبوابٌ أخرى تحتاج إلى عميق إثارة وبيانٍ واشتغالٍ، فلمْ نعرض إلى المقامة التي تواصل التأليف فيها في شبه الجزيرة العربيّة إلى أواخر سبعينيّات القرن العشرين، ولا إلى أدب الترسل على تنوّع مقاماته ومقاصده، في باب الإخوانيّات أو باب الرسائل الديوانيّة، أو الباب الواسع للرسائل الأدبيّة التمثيليّة، ولمْ نعرض إلى الحكاية المثلّيّة ولا الحكاية الفلسفيّة، وكان اقتصارنا على هذه النماذج الثلاثة بسببٍ من وفرتها وكثرة الكتابة فيها، وبسببٍ تنوّعها وتعدّد أشكالها، ومنزلتها أثرًا وتأثيرًا.

فأمّا الخطابة، فقد مثّلت نمطًا قوليًا متأصّلًا في بلاد شبه الجزيرة العربيّة، الأرض التي شكّلت المنبع والمنشأ والتطور، فالخطابة العربيّة تعودُ تَكُونًا وبدايةً وانتسابًا إلى أرض العرب الأولى، فهي وسيلةٌ قوليّةٌ ذاتُ منافع ووظائف متعدّدة، إذ لم تدخل

في البداية مقام الخطاب الأدبي، وإنَّما كانت أداةً وظيفيَّةً تهتمُّ الشَّأنَ اليوميَّ للإنسان، في صلاته وتواصله، ولذلك، فقد وقفنا في البابِ المخصَّص للخطابة على مقاماتٍ استعمل الخطاب من حيث هي نشاطٌ قولِيٌّ، وأدركنا دورها وطُرُقَ تصريفها في البيئة العربيَّة، فكان أن نفذنا إلى المدوَّنة الخطابيَّة من مدوَّنةٍ ممتدَّةٍ من الجاهليَّة إلى حدود الدولة الأمويَّة، وهي في ظلِّنا المرحلة التَّأصيليَّة للخطابة العربيَّة التي عنها تفرَّعت الخُطبُ وتنوَّعت، واعتمدنا على الخطابة الاجتماعيَّة في صورتَيها الممثلتَيْن في خُطب الصلح بين المتنازعين وخُطب الزَّواج، وعلى الخطابة الدينيَّة وعلى الخطابة السياسيَّة، وهي كُبرى المواضيع التي دارت حولها الخطابة في شبه الجزيرة العربيَّة، ونتج عن نظرنا في المدوَّنة الخطابيَّة المتنوِّعة المظاهر والمواضيع والمقامات والمقاصد أن استخلصنا أنَّ للمقام الدورَ الرَّئيس في تحديد ملامح الخُطبة وتكييف بُناها وأساليب قولها، وأنَّ داخل المقام هنالك طرفيْن مسؤوليْن عن عهدة الخُطبة، وعليهما تُقام مختلفُ مقاصد الخُطبة وطرائقُ بنائها، وهما المتكلِّمُ والمُخاطبُ.

فخُطبة الصُّلح تحتاجُ متكلِّمًا له مكانةٌ ومنزلةٌ ومقبوليَّةٌ لدى المتنازعين المتخاصمين، وكذا الأمر في خُطب الزَّواج، التي تدخل في دائرة الخُطب الوسائل، المشدودة إلى مقاصد آنيَّة، وهذه المنزلة هي التي تجعلُ خُطبته قائمةً ونافذةً، فالذَّات المتكلِّمة في الخطابة الاجتماعيَّة وإن لم تظهر نصًّا وإشاراتٍ لغويَّةٍ إلَّا أنَّ دورها في إنفاذ القولِ ضروريٌّ، أمَّا الخطابة الدينيَّة فإنَّ مقامها مختلفٌ والذَّوات التخطابيَّة فيها ترتبط برباطٍ دينيٍّ إيمانيٍّ، فيه تكون

الذات المتكلمة واسطة إرشاد وتوجيه ووعظ، لا ذاتية لها تبدو، وفيها يتنزل المخاطب دومًا في منزلة الضال، الباحث عن الهداية، أمّا الصلة الرابطة بين المتخاطبين فهي صلة إيمانية، يكون فيها المخاطب مؤمنًا قبليًا بقول الخطيب، ذاعنًا له، ولذلك، فإنّ المتكلم في الخطابة الدينية لا يحتاج فرض ذاته داخل الخطاب، فهو ممثّل صوت الإيمان، والهادي إلى الطريق القويم، ولا يحتاج أيضًا حجة قوية ليُميل المخاطب إليه، وأمّا النمط الثالث من الخطابة الذي وقفنا عليه، فهو الخطابة السياسية، وهي المظهر الخطابى الأعقد والأشكّل، إذ يكون المتكلم سلطة أو قوّة أو صاحب رؤية سياسية، وذاتُه هامة الوجود داخل الخطبة، وعلاقته بالمخاطبين غالبًا ما تكون قائمة على التوتر، وتظهر في هذه الخطابة قوّة الذات المتكلمة وشدة أثرها وعنايتها بالحجة على اختلاف درجاتها ومصادرها.

وأما الباب الثاني فقد توجّه إلى العناية بالخبر أصلًا من أصول تشكّل النثر في شبه الجزيرة العربية، وطرحنا معه قضية أصول الخبر، من حيث هو شكل أدبي أجوف، قابل للامتلاء، مولّد لعددٍ من الأجناس في تاريخ الأدب العربي، وقد كانت شبه الجزيرة العربية المهاد الأولى لتخلّق الخبر وتكوّن ملامحه الأصلية، واتخذنا لبيان ذلك نموذجين عمدًا المرجع الذي احتوى أغلب النوى الأخبارية التي راجت وتوسّع فيها في مصنفات الأخباريين اللاحقين، وهما: المدونة التاريخية في كتابين أوليين، هما أخبار عبيد بن شريّة الجُرهمي في أخبار اليمَن وأشعارها

وَأَنْسَابُهَا وَكِتَابُ وَهْبٍ مِنْبَهٍ كِتَابُ التَّيْجَانِ فِي مُلُوكِ حَمِيرٍ، وَمَدَوْنَةُ النَّسَبِ، وَقَدْ تَخَيَّرْنَا لَهَا نُمُودَجِينَ لَهَا مَنْزِلَةً وَمَكَانَةً فِي تَارِيخِ التَّأْلِيفِ الْأَنْسَابِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَهَمَا كِتَابُ نَسَبِ قَرِيْشٍ لِلْمَصْعَبِ الزَّيْبَرِيِّ، وَكِتَابُ الْأَنْسَابِ لِلْعَوْتَبِيِّ، وَقَدْ كَانَ هَاجِسَنَا الْأَسَاسِيُّ فِي تَفْكِيكِ هَذِهِ الْمَدَوْنَةِ وَتَحْلِيلِ عَنَاصِرِهَا، أَنْ نُسَقِّطَ فِكْرَةَ وَهْنِ النُّثْرِ فِي تَارِيخِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، وَأَنْ نُبَيِّنَ ثَرَاءً وَتَنَوُّعًا فِي أَصُولِ النُّثْرِ وَنَوَاهِ الْمَكُونَةِ لِمَسَارِهِ اللَّاحِقِ، فَإِشْكَالِ التَّارِيخِيِّ وَالتَّخْيِيلِيِّ يُمَكِّنُ أَنْ يُكُونُ بَابًا مِنْهُ نَفْذُ إِلَى هَذِهِ النُّصُوصِ الْمَصَادِرِ، الَّتِي اعْتَنَتْ كَبِيرَ عَنَایَةِ بِالتَّارِيخِ تَرْوِيهِ وَتُدَقِّقُ مَرَا حِلَّهُ وَحَوَادِثَهُ.

فَلَمْ تَكُونْ نُّصُوصُ وَهْبِ بْنِ مِنْبَهٍ وَعَبِيدِ بْنِ شَرِيَّةٍ الْجُرْهُمِيِّ السَّرْدِيَّةَ بَدَايَةَ نَوْعٍ فِي التَّأْلِيفِ خَاصٌّ فِيهِ الْخَائِضُونَ وَتَوَسَّعَ فِيهِ الْبَاحِثُونَ وَهُوَ الْخَبَرُ الْأَدَبِيُّ الَّذِي بَلَغَ أَوْجَ تَشَكُّلِهِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ لِلْهَجْرَةِ مَعَ أَبِي الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيِّ وَالْمُحَسَّنِ التَّنُوحِيِّ، فَحَسَبَ، بَلْ فَتَحَتْ سُبُلَ حِكَايَاتٍ أَصْبَحَتْ بِمِثَابَةِ «السَّرْدِيَّاتِ الْكُبْرَى» أَوْ السَّرْدِيَّاتِ الْمُؤَسَّسَةِ لَيْسَ لِلِيْمَنِ الَّتِي تَرَكَّزَتْ عَلَيْهَا أَخْبَارُ الْأَخْبَارِيِّينَ بَلْ لَتَارِيخِ الْعَرَبِ، وَتَوَزَّعَتْ هَذِهِ السُّرُودُ الْأُولَى الَّتِي بَعَثَهَا عَبِيدُ أَوْ وَهْبٌ فِي مَصْنُفَاتِ الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ وَالْفَقْهِ وَالتَّفْسِيرِ، وَهِيَ قِصَصٌ وَأَخْبَارٌ عَلَى صِلَةٍ بِأَصُولٍ أُولَى عَمَلِ الْأَخْبَارِيِّينَ عَلَى وَصْلِهَا بِ«عَلَمٍ» لَهُ صِلَةٌ بِأَخْبَارِ التَّارِيخِ، وَهُوَ الْأَنْسَابُ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ مَثِيرٌ، يَتَبَّعُهُ عَامَّةُ الْعَرَبِ، وَيَدْخُلُ فِي مَسَارِ حَيَاتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ وَالْيَوْمِيَّةَ، إِضَافَةً إِلَى أَبْعَادِهِ التَّارِيخِيَّةِ فِي تَرَاتِبِيَّةِ الْقَبَائِلِ وَدَرَجَاتِ تَقَارِبِهَا، وَلِذَلِكَ فَقَدْ أُتْخِذَ النَّسَبُ مَقَامًا مُوَلَّدًا لِلْأَخْبَارِ وَالْقِصَصِ



والحكايات، فيما نعتناه بقصص الأنساب، وقد استخلصنا من دراستنا هذا الشكل التأليفي عند العرب، جملةً من النتائج، لعلَّ أهمُّها، أنَّ الخوض في النسب يُشكِّل موضوعًا جاذبًا، جالبًا للقصص والأخبار، يُمكن أن يُكوِّن مقامًا قصصيًا أو سرديًا مُحفِّزًا على البحث والدراسة، وأنَّ النسبَ ليس محضَ أسماء تَضْبِطُ الآباء والأجداد والأبناء، وإنَّما هو مقامٌ قائمٌ على حكاية النسب، وبذلك، فإنَّ مقام النسب هو مناسبةٌ لبيان أصولٍ أولى لتكوين مدونةٍ سرديةٍ ناتجةٍ في شبه الجزيرة العربية شكَّلت وعيًا جمعيًا لأصول القبائل ومختلف تفرُّعاتها.

أمَّا الباب الثالث، فهو مدخلٌ هامٌّ لبيان مظاهر تسخير القصص والحكايات في غير مقاماتها الأدبية، وقد بدأنا بدراسة تسخير الحديث الأدبي في مقام الدرس اللغوي والمعجمي والبلاغي، وكانت مناسبةً لدراسة مسألتين، الأولى تخصُّ رائدًا في الكتابة القصصية، كثرت فيه الآراء والدراسات، فعُدَّ أوَّل من ابتكر فنَّ المقامة، وعنه أخذ الهمداني مقاماته، وعُدَّ أوَّل من استنَّ أسلوب القصَّة القصيرة في التراث العربي، وإن كان الرأي الأوَّل يحمل وجهةً، فإنَّ السمة الثَّانية واهنة، ولا منطق يسندها تاريخيًا ومعرفيًا وأجناسيًا، وهو ابن دُرَيْد في ما كتب من أحاديث مُوزَّعة في مظانَّ مختلفة. ويطرُح ابن دُرَيْد في دراسته عددًا من الإشكاليَّات المعرفية الواجبة البحث والتقصي، أوَّلها يخصُّ المقام الذي دخلت فيه هذه الأحاديث وطرق تسخيرها لخدمة الدرس اللغوي والبلاغي والمعجمي، وثانيها، سمة الحديث من حيث هو

شكل أدبي، له ما يجعله مختلفاً عن الخبر والنبأ وغيرها من الأشكال المجانبية له، وقد توصلنا إلى أن ابن دريد كان رائداً فعلاً في سنن الحديث، شكلاً أدبياً حاولنا للقصص والحكايات، فالحديث مقام فيه متكلم، محدث وسامع متحدث إليه، وهو مضمون قولِي لموضوع فيه فائدة وعبرة يُتوسَّع فيه، فهو غير الخبر الذي يقتصر على الإعلام والإخبار بمحتوى مضموني في أصل تكوينه، وغير النبأ الذي هو إخبار بمحتوى مضموني آني، وعلى ذلك، فقد فتح لنا موضوع البحث في ما تركه ابن دريد من أحاديث، مسألة تعقل الأحاديث والعمل على تأصيلها، والوقوف على أسئلتها المعرفية التي يمكن أن تُضيء سُبُلًا للباحثين.

محورُ البحث الثاني في القصص المُسَخَّر قَصْرناه على نثر العلماء، وأدركنا من ترشيحنا لثلاثة نصوص متباينة الطُّرُق والأساليب والمواضيع، أن للقصص منزلة هامة في تاريخ التأليف العربي، فهو يؤدِّي وظائف تخرج عن الإمتاع أو «ملء البطون بالأهواء» أو «الأكاذيب»، لتدخل فضاء العبرة والاعتبار والتمثيل والاحتجاج وإمالة الأهواء ودعوة النفوس والعقول إلى الإيمان بعقيدة ما أو علم ما. وكانت النصوص التي رشحناها للتمثيل مختلفة، منها ما هو داخل في علم دقيق هو الطب، وهو كتاب ابن عمير فاكهة ابن السبيل، ومنها ما هو قائم على التأليف الموسوعي، الآخذ من كل شيء بطرف، القائل في الفقه وفي التفاسير وفي علم الحديث، العارف بالأدوية والأمراض، المدرك لأبعاد النفس الإنسانية في ميلها ونفورها، في مدّها وجزرها، في

عَمَّتْها وضياؤها، ومنها ما هو خالصٌ للخوضِ في علمٍ دقيقٍ، موصولٌ بالشرِعة والدِّين، وهو علم رجال الحديث، إذ يُعْمَلُ القِصَّة سيرةً غيريَّةً أو ذاتيَّةً.

وقد تبيَّنَّا من إثارَتنا لهذه المصادر أنَّ العالمَ، مهمًّا علماً علمه ودقُّ فإنَّه يحتاجُ إلى القصص واسطةً وأداةً تُسَخَّرُ لتبسيط العلم، أو للإقناع بظواهر تجريبيَّة واختباريَّة في الأدوية والمداواة، أو في علوم الحديث النبويِّ ورجال رواياتها، أو في ما يخصُّ حياة النَّاس من علومٍ عمليَّةٍ شعبيَّةٍ كالفلك والطبِّ الشعبيِّ وإعداد موائد الطَّعام. ثلاثة كتب عنها صدرنا في عاجلِ إثارة لموضوع قصص العلماء لفتح بها الباب للبحث في مدوِّنةٍ سرديَّةٍ متراكمةٍ في تاريخ أدب شبه الجزيرة العربيَّة، هي فاكهة ابن السبيل، وشفاء القلوب من داء الكروب، ولؤلؤة البحرين في الإجازة وتراجم رجال الحديث، مثَّلت مداخل أولى يُمكن أن تفتح دروباً وسيعة في تأصيل سرديَّات شبه الجزيرة العربيَّة.

ختاماً، لقد تعرَّض أدب النثر في شبه الجزيرة العربيَّة إلى ظلمٍ تاريخيٍّ، إذ أعرضت عن قيمته ومنزلته وأثره أغلب كتب تاريخ الأدب، ولذلك آثرنا ببحثنا هذا أن نُثبت نصًّا وأثراً، أنَّ منطقة شبه الجزيرة العربيَّة لم تقتصر على بعثِ النَّوى الشعريَّة الأولى فحسب، وإنَّما كانت منبع النثر على وجه العموم، ومنبع القصص على وجه التخصيص، فقد شكَّلت نصوص الأخبار والأحاديث والأنساب مقامات لتولَّد سرديَّة أصليَّة كُبرى، ولَّدت مظاهر من السرديات الصُّغرى التي شاعت في القرن الرَّابع للهجرة وصاغت

أَلْقَ النُّثْر الْعَرَبِيَّ. وَلَعَلَّنَا بِهَذِهِ الْمُدَاخِلِ الْأَوَّلِيَّةِ أَنْ نَدْفَعِ الْبَاحْثِينَ إِلَى مَزِيدِ التَّفَكِيرِ فِي أَنْطُولُوجِيَا السَّرْدِ الْعَرَبِيِّ فِي شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، يُمَكِّنُ أَنْ تَتَّبَعَ تَطَوُّرُ فَنِّ الْمَقَامَةِ الَّذِي ظَلَّ يَافِعًا إِلَى حُدُودِ أَوَاخِرِ سَبْعِينَاتِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، وَكَذَلِكَ الْحِكَايَاتِ الْمُثَلِّيَّةِ، إِضَافَةً إِلَى مَبْحَثٍ لَمْ نَجِدْ لَهُ الْوَقْتَ الْكَافِيَ لِلِإِحَاطَةِ بِهِ وَهُوَ الرِّسَائِلُ عَلَى اخْتِلَافِ صِفَاتِهَا وَوُضَائِفِهَا الْأَدَبِيَّ مِنْهَا وَالْإِخْوَانِيَّ وَالْدِيَوَانِيَّ، وَالْقَصَصِ الدِّينِيِّ الَّذِي مَثَّلَ مَدَوْنَةً شَاسِعَةً مَوْجُودَةً فِي كُتُبِ التَّفَاسِيرِ، وَفِي كُتُبِ الْحَدِيثِ، وَفِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَغَيْرِهَا مِنْ مَظَاهِرِ السَّرْدِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى جَهْدٍ مُجْمُوعَاتٍ بَحْثِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ.





قائمة المصادر والمراجع





قائمة المصادر والمراجع

1- المصادر

■ ابن الأثير (عزُّ الدِّين أبو الحسن عليّ بن محمّد بن محمّد ابن عبد الكريم الجزريّ الشيبانيّ):

- الكامل في التاريخ، تاريخ ابن الأثير، تحقيق: أبو صُهيب الكرميّ، بيت الأفكار الدوليّة، الأردن، السعديّة (د. ت).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2012.

■ البحراني (يُوسف بن أحمد): لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، مكتبة فخرآوي، الطبعة الأولى، 2008.

■ الحمبري (نشوان بن سعيد) (ت 573 هـ): «ملوك حمير وأقيال اليمن»، وشرحها المسمّى خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك والتبابعة، تحقيق: علي بن إسماعيل المؤيد، إسماعيل بن أحمد الجرايفي، دار العودة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية (د. ت).

- الزبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب):
كتاب نسب قريش، تعليق وتصحيح: إ. ليفي برؤفنسال، دار
المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1982.
- صفوت (أحمد زكي): جمهرة خطب العرب في عصور
العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة
الأولى، 1933.
- ابن أبي طاهر (أبو الفضل أحمد): بلاغات النساء (وطرائف
كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن وأشعارهن
في الجاهلية والإسلام)، مطبعة مدرسة والدة عباس الأول،
القاهرة، ط1.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك،
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر،
الطبعة الثانية، 1967.
- ابن عبد ربّه الأندلسي (أحمد بن محمد) العقد الفريد،
تحقيق: مفيد محمد قميحة، عبد المجيد الترحيني دار
الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1983.
- العبري (خمس بن راشد بن سعيد): شفاء القلوب من داء
الكروب، مكتب المستشار الخاص لجلالة السلطان للشؤون
الدينية والتاريخية، سلطنة عُمان، الطبعة الثانية 2013.
- العوتبي الصُّحاري (أبو المنذر سلمة بن مسلم): الأنساب،



تحقيق: محمّد إحسان النصّ، مطبعة الألوان الحديثة،
الطبعة الرابعة 2006.

■ ابن عمير بن ثاني بن خلف بن هاشم (راشد): فاكهة
ابن السبيل، سلطنة عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة،
الطبعة الثانية، 1984.

■ القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي): كتاب
الأمالي مع كتابيّ «ذيل الأمالي» و«التّوادر»، تحقيق: صلاح
ابن فتحي هلال، سيّد بن عبّاس الجليمي، مؤسّسة الكُتب
الثقافيّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2001.

■ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) مروج
الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق: كمال حسن مرعي، المكتبة
العصرية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2005.

■ ابن منبّه (وهب): كتاب التيجان في ملوك حمير، تحقيق
ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنّيّة، الجمهوريّة العربيّة
اليمنيّة، صنعاء، الطبعة الأولى، 1347 هجرية.

2- المراجع

• الكتب.

■ ابن بكار (الزبير القرشيّ الزبيريّ): جمهرة نسب قريش
وأخبارها، تحقيق: عبّاس هاني الجراح، دار الكتب العلميّة،
بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2010.

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السابعة 1998.
- الجرجاني (علي بن محمد بن عليّ الزين الشّريف): كتاب التعريفات، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1983.
- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، الطبعة الأولى، 2007.
- حسن (حسين): أعلام تميم، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980.
- الحُصْرِي الْقِيروانيّ (أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ): زَهْرُ الآداب وثمر الألباب، تحقيق: عليّ محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربيّة، مصر، الطبعة الأولى 1953.
- ابن حنبل (أحمد): المُسْنَد، شرح حمزة أحمد الزين، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى 1995.
- ابن خلدون (وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد): مقدّمة ابن خلدون، تحقيق، عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، الطبعة الأولى 2004.
- ابن خلّكان (أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، لبنان (د. ت).
- خورشيد (فاروق): الرواية العربيّة، عصر التجميع، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة الثالثة 1982.



- الذهبي (شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1985.
- ابن دريد الأزدي (أبو بكر محمد بن الحسن):
 - الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1991.
 - الفوائد والأخبار، تحقيق: إبراهيم صالح، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1986.
 - جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1987.
- درويش (أحمد): ابن دريد رائد فن القصّة العربيّة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر الطبعة الأولى 2004.
- الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة عشرة، 2002.
- أبو زيد (بكر): طبقات النّسّابين، دار الرشيد، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى 1987.
- سزكين (فؤاد): « تاريخ التراث العربيّ، نقله إلى العربيّة محمود فهمي حجازي، (نشر إدارة الثقافة والنشر بجامعة محمد بن سعود الإسلامية، المملكة الرّبيّة السعوديّة، 1983.
- السامي (عبد الله بن حميد، نور الدين): تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان (د. ت).

- السيوطي (الحافظ جلال الدين): تدريب الرّاوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الثانية 1415 هـ.
- الشريف الرضي (محمد بن حسين): نهج البلاغة، تحقيق قيس بهجت العطار، مؤسسة الرافد للمطبوعات، إيران، الطبعة الأولى، 2010.
- ابن الصلاح (عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، تقي الدين): علوم الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر- سوريا، دار الفكر المعاصر - بيروت، الطبعة الأولى 1986.
- علي (جواد): المُفَصِّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، الطبعة الثانية
- العمري (محمد): في بلاغة الخطاب الإقناعي. مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربيّة. الخطابة في القرن الأوّل أنموذجاً. دار أفريقيا للنشر. المغرب. لبنان. ط1. 2002.
- الغامدي: (أبو صفوان ذياب بن سعد بن علي بن حمدان ابن أحمد بن محفوظ آل حمدان الأزدي): الوَجَازَةُ في الأَثْبَاتِ والإِجَازَةِ، تَقْرِيطُ: زُهَيْرِ الشَّاوِيشِ، دار قرطبة للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة، الأولى، ١٤٢٨ هـ.
- الفارابي (أبو نصر): فصول منتزعة، تحقيق: فوزي مري نجار، دار المشرق، بيروت، لبنان، (د. ت)،
- فضل صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النصّ، سلسلة عالم المعرفة، الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، عدد 164/آب.

- القاضي (محمّد): الخبر في الأدب العربي، دراسة في السردية العربية، منشورات كلية الآداب، متّوبة، تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1998.
- القيسي (نوري) وآخرون: تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام، جامعة بغداد، العراق، ط2، 2000.
- ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني): سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى 1952.
- مُبارك (زكي): النشر الفني في القرن الرابع، مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012.
- مجموعة من الباحثين: قراءات في فكر العُتبي الصّحاري، حصاد الندوة التي أقامها المنتدى احتفاءً بذكرى المرحوم العوتبي الصحاري، وزارة التراث القومي والثقافة، المنتدى الأدبيّ، سلطنة عمان، الطبعة الأولى 1998.
- المقدسي (أبو محمّد عبد الغنيّ بن عبد الواحد): الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، الهيئة العامّة للعناية بطباعة ونشر القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومها، الكويت، الطبعة الأولى، 2016.
- مناع (هاشم صالح): النشر في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1993.
- الموسوعة العُمانية، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عُمان، الطبعة الأولى، 2013.

- النجار (محمّد رجب): النثر العربيّ القديم من الشفاهية إلى الكتابة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، بيروت، ط1، 1999.
- ابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1994.
- النصّ إحسان: الخطابة السياسيّة، دار الفكر، دمشق، سوريا، (د. ت).
- النيسابوري (أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني): مجمع الأمثال، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، 1955.
- النيسابوري (الإمام الحافظ أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الحاكم): المُستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2002.
- ابن وهب الكاتب (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان): البرهان في وجوه البيان. تحقيق: حفني محمد شرف. مطبعة الرسالة. ط1. 1969. القاهرة.

■ Barthes (Roland) : Introduction à l'analyse structurale des récits, Communications8, 1966, seuil, Paris.

■ Benveniste (E), problèmes de linguistique générale, Gallimard, Paris, 1974.

■ Eluerd (Roland) : La pragmatique linguistique. Ed. Nathan Université. Paris/ 1985

• الدوريات والمجلات.

■ أيكون (آمنة)، خضري (علي)، بلاوي (رسول): موتيف النافذة ودلالاته في شعر عدنان الصائغ. مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، المجلد 16، العدد 01، 2020، ص ص 284 - 307.

■ زروق (محمد عبد الله): التاريخي والتخييلي في الخبر، مجلة الآداب، مج (31)، عدد (3)، ص ص 23 - 38، جامعة الملك سعود، الرياض، 2019.

■ الشرفين (عبد الله) النعيمات (سلامة): «مرويات وهب ابن منبه في كتاب «تاريخ الرسل والملوك» للطبري وأصولها التوراتية»، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد (13)، العدد (2)، 2019.

■ الفارسي (عبد العزيز): قراءة في كتاب فاكهة ابن السبيل للطبيب راشد بن عميرة بن ثاني العيني الرستاقى العماني، من أعلام الطب في عمان في القرنين التاسع والعاشر الهجريين، مسقط، المنتدى الأدبي، ط2، 2012.

■ قعدان (رسمية يوسف): أثر كتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه (34 - 114 هـ) في كتب التاريخ «ابن إسحاق نموذجاً»، مجلة اللغة العربية وآدابها، المجلد (1)، العدد (4)، 30 سبتمبر 2022، ص 59.

■ الكعبي (ضياء الدين عبد الله خميس): سرديات اليمن الكبرى: «أخبار عُبيد بن شريّة الجُرهُمِيّ» و«التيجان في ملوك حَمَيْر» أنموذجا، مجلّة كليّة العلوم، جامعة القاهرة، كليّة دار العلوم، عدد 111، 2018.

- Daniele Mascitelli; The wedding of al-Hadhād and al-Ḥarūrā. Glimpses of paganism in Arabia. folia Orientalia; 2018; vol. LV; 195-211
<http://journals.pan.pl/Content/108808/PDF/FoliaOrientalia%2055-18%2011Mascitelli.pdf>



المحتوى



5	مقدمة عامّة.
13	الخطابةُ في شبه الجزيرة العربيّة.
15	مقدمة.
23	الخطابةُ الاجتماعيّة.
39	الخطابةُ الدينيّة.
53	الخطابةُ السياسيّة.
55	خطب الوفود.
73	خطب القادة والسّاسة.
101	خاتمة.
105	الخَبْرُ شَكْلًا دَارِجًا في شبه الجزيرة العربيّة.
107	مقدمة.
111	الخبرُ بين التّاريخيّ والأدبيّ.
115	الكتابُ الأوّل.
133	وهب بن مُنبّه: ملءُ الفراغات.

157	سَرْدُ الْأَنْسَابِ.
161	نَسَبُ الْقَبِيلَةِ وَنُدْرَةُ الْقَصَصِ.
175	الْعُوتَبِيُّ الصُّحَارِيُّ: النَّسَبُ مَقَامٌ لِلْقَصَصِ.
199	خَاتِمَةٌ.
203	الْقَصَصُ الْمُسَخَّرُ.
205	مَقْدَمَةٌ.
209	الْحَدِيثُ الْأَدَبِيُّ: تَأْصِيلُ الْأَصُولِ.
255	الْعِلْمُ: الدَّرَائِيَةُ وَالرَّوَايَةُ.
257	النَّصُّ الْأَدَبِيُّ الْمَهْدُورُ.
271	الْخِطَابُ الْمُخَاتَلُ.
287	السِّيَرَةُ: الْأَخَرُ وَالْأَنَا.
299	خَاتِمَةٌ عَامَّةٌ.
307	المصادر والمراجع
319	المحتوى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





مركز الترجمة والتعريب والاهتمام باللغة العربية

GCC Centre for Translation, Arabisation and Promotion of Arabic



☎ (+٩٦٨) ٢٤٩68859 | CTAPA@GCCSG.ORG ✉
📠 (+٩٦٨) ٢٤٦٧٥٥٠ | @CTAPA_GCC ✉

ص.ب: ٥٣٩، الرمز البريدي: ١١٨، مسقط، سلطنة عُمان